



الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة الوادي



كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية
مخبر التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للجزائر
أطروحة دكتوراه

مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في الطور الثالث (LMD)
الشعبة: التاريخ
التخصص: تاريخ بلاد المغرب الوسيط

العمران والمجتمع في واحات المغرب الأوسط
(الزاب نموذجاً) من القرن 12هـ/12م إلى القرن 15هـ/15م

إعداد الطالب: رسيوي عبد الله

إشراف: أ د غانية البشير

نوقشت بتاريخ 13 / 05 / 2026 أمام لجنة المناقشة:

الاسم واللقب	الرتبة	الجامعة	الصفة
أحمد بن خيرة	أستاذ التعليم العالي	جامعة الوادي	رئيساً
البشير غانية	أستاذ التعليم العالي	جامعة الوادي	مشرفاً ومقرراً
عمار غرايسة	أستاذ التعليم العالي	جامعة الوادي	مناقشاً
سليم حاج سعد	أستاذ محاضر أ	جامعة الوادي	مناقشاً
محمد نصير	أستاذ محاضر أ	جامعة قسنطينة 2	مناقشاً
محمد قويسم	أستاذ التعليم العالي	جامعة سكيكدة	مناقشاً

السنة الجامعية: 2025-2026م / 1446-1447هـ



People's Democratic Republic of Algeria
Ministry of Higher Education and Scientific Research
University of El Oued
Faculty of Social Sciences and Humanities
Laboratory of Economic and Social History



A Doctoral Thesis

Submitted in Fulfillment of the Requirements for the Degree of Doctorate (LMD)

Field: History

Specialization: The History of Central Maghreb

Urbanism and Society in the Oases of Central Maghreb (theZab as a Model) From the 6th Century AH (12th AD) to the 9th Century AH (15th AD)

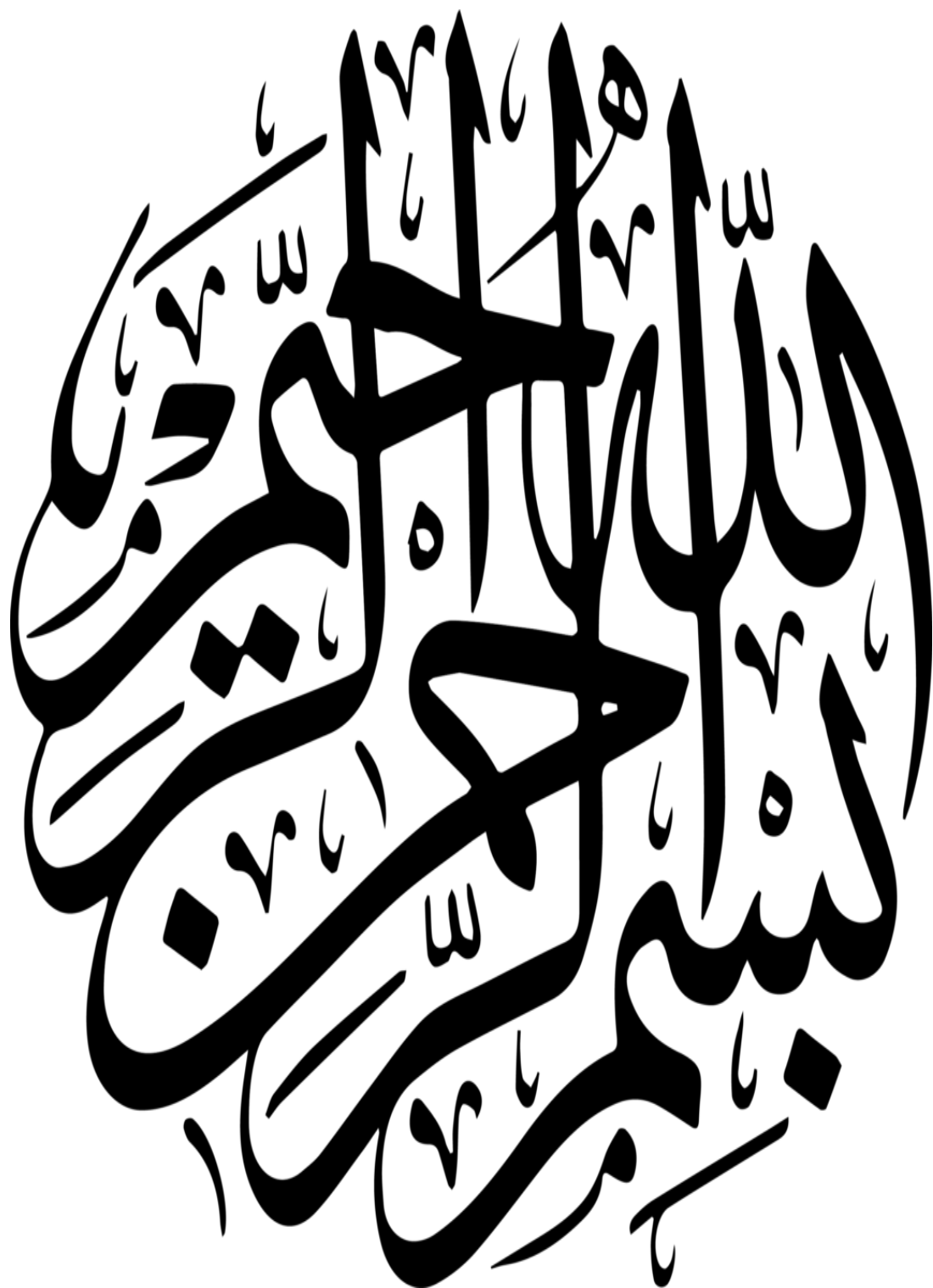
Presented by: RECIOUI Abdallah

Supervisor: Pr. Elbachir Ghania

Defended on / / in the presence of the Examination Committee:

Name	Rank	Affiliation	Role
Ahmed Ben kheira	Professor	University of El Oued	Chair
Elbachir Ghania	Professor	University of El Oued	Supervisor
Ammar Gheraissa	Professor	University of El Oued	Examiner
Salim Hadj saad	MCA	University of El Oued	Examiner
Mohammed Nassir	MCA	University of Constantine 2	Examiner
Mohammed Kouissem	Professor	University of Skikda	Examiner

Academic Year: 2025-2026 / 1447-1448



إهداء

الحمد لله وكفى والصلاة والسلام على الحبيب المصطفى أما بعد:

أهدي ثمرة جهدي إلى من وهب لي الحياة والأمل وعلمني شغف الإطلاع والمعرفة والعمل، إلى روح أُمِّي الغالية رحمها الله التي طالما كانت تحلم أن أصل إلى هذا المستوى، إلى أبي العزيز أطال الله عمره ومدّه بالصحة والعافية، إلى رفيقة الدرب زوجتي التي صبرت على مشاق البحث والمعرفة طيلة أيام الدراسة، إلى من وهبني الله إياهم وسيلة وبلال وبراء حفظهم الله ورعاهم، إلى إخوتي الذين هم دائما سند لي في هذه الحياة، إلى أصدقائي الذين كانوا دائما بجنبي.

وأخيرا إلى كل من ساعدني في إنجاز هذه الدراسة، إلى كل طالب علم، سائلا المولى عز

وجل أن يجزي الجميع خير الجزاء في الدنيا والآخرة

شكر وفاء

الحمد لله السميع العليم ذي العزة والفضل العظيم والصلاة والسلام على المصطفى الهادي الكريم،

وعلى أله وصحبه الكرام أجمعين وبعد مصدقين لقوله تعالى: "ولئن شكرتم لأزيدنكم"

لك الشكر ربي يا من أنرت أنار لي سبل الهدى والعلم والمعرفة وأعنتني على إتمام عملي هذا

كما أتقدم بالشكر والامتنان للاستاذ الدكتور: **البشير غانية** لإشرافه على هذه الدراسة.

الذي لم يدخر أي مساعدة من تقديم النصيحة والتوجيه طيلة هذه الدراسة من خلال

إرشاداته القيمة وتوجيهاته في كل خطوات البحث كما أتقدم بالشكر والامتنان

إلى أخوي: **الفاضلين بشير وعبد الرحمان** اللذين ساهما بتوجيهي أثناء بحثي، كما نتقدم بالشكر

الجزيل إلى الأستاذ: **شحم محمود** على كل ما قدمه لي من دعم لإتمام هذه الرسالة.

كما أشكر العائلة الكبيرة وأسرتي الصغيرة وكل من مد لي يد العون من قريب أو بعيد وساعدني

على إنجاز هذا العمل بتعاونهم وتشجيعهم لي ولو بالكلمة الطيبة والشكر أيضا إلى المناقشين الذين

تفضلوا بقبول مناقشة هذه الدراسة وبذل الوقت والجهد في التدقيق وإثراء هذا البحث شكلا

ومضمونا

قائمة المختصرات

ترجمة	تر
تصحيح	تص
تحقيق	تح
تقديم	تق
تعريب	تع
مجلد	مج
العدد	ع
الجزء	ج
الصفحة	ص
دون سنة نشر	د س ن
دون دار نشر	د د ن
دون تاريخ النشر	د ت ن
دون طبعة	د ط
مراجعة - راجعه	مرا - راج
دراسة	درا
ضبط	ضب

مقدمة

شكلت واحات المغرب الأوسط محور الأحداث التاريخية في العصر الوسيط، لاسيما واحات بلاد الزاب، الذي يختص ببعده الجغرافي الرابط بين التل وأعماق الصحراء، مما جعل له دورا بارزا في الأحداث التاريخية التي شهدتها المنطقة خلال الفترة الوسيطة، إذ كان له دور في الأحداث السياسية والاجتماعية التي أثرت بدورها على النشاط الاقتصادي، كما شهدت العمارة الواحية سواء كانت في الضواحي والأرياف أو في المجال الحضري لمدن وحواضر الزاب وقائع حاسمة ومحطات بارزة ساهمت في تطويرها واتساعها من جهة، وخرابها وتدهورها من جهة أخرى.

يعتبر موضوع الرسالة من المواضيع التي اهتمت بتاريخ العمران والمجتمع ببلاد الزاب، علما أن مصطلح العمران لا نقصد به العمران البشري الذي جاء به ابن خلدون وإنما نقصد به العمران المادي الذي خلفته المجتمعات في العصر الوسيط، وباعتبار أن الإقليم يمثل إحدى حواضر واحات المغرب الأوسط خلال العصر الوسيط، ونظرا لدوره المحوري في شبكة العلاقات التجارية التي ربطت بين مختلف أقاليم المغرب الإسلامي، فقد تميز هذا الإقليم بموقعه الاستراتيجي الذي جعله معبرا هاما للقوافل التجارية بين شمال إفريقيا ووجهات متعددة، مثل الحجاز شرقا، وبلاد السودان جنوبا، ما أهله ليكون نقطة تلاق وتبادل حضاري واقتصادي وثقافي.

إن البحث في تاريخ المجتمع ببلاد الزاب، وفي علاقته الوثيقة بالعمران خلال الفترة الوسيطة، يقتضي منا التعمق في دراسة مختلف المصادر التاريخية والجغرافية ذات الصلة، خاصة تلك التي دونها الجغرافيون والمؤرخون العرب الذين عاينوا المنطقة أو نقلوا أخبارها في إطار اهتمامهم العام بالمغرب الإسلامي، كما لا يمكن أن نغفل على ما قدمه بعض المستشرقين من معطيات وشهادات، رغم ما يحيط بها أحيانا من تحفظات منهجية أو رؤى استشرافية، إلا أن الاطلاع النقدي عليها يمكن أن يسهم في توسيع قاعدة المادة المصدرية،

والى جانب ذلك سيكون لزاما علينا الاستعانة بالوثائق والنصوص التاريخية الوسيطية، لا باعتبارها مجرد مادة سردية بل بوصفها مصادر تتيح لنا إعادة تركيب ملامح الحياة الاجتماعية والعمرانية في واحات الزاب.

وسنعمل في هذا السياق على دمج هذه النصوص التاريخية بالمعطيات الأثرية التي تم الكشف عنها في المنطقة، مما يسمح لنا بمقاربة متعددة الأبعاد، تجمع بين المادة النصية والمادية وبين ما هو تاريخي وما هو مجالي، إن هذا التكامل بين المصادر المكتوبة والآثار المادية يعد شرطا أساسيا لفهم ديناميكية المجتمع الزابي، وطبيعة العمران الذي نشأ وتطور في ظل معطيات قبلية، وسياسية، واقتصادية معقدة.

ورغم أن المصادر الإخبارية والجغرافية قد أسهبت في تناول جزئيات هامة من تاريخ بلاد الزاب، وأشارت في مواضع متعددة، إلا أن هذه النصوص تبقى في مجملها قاصرة عن تقديم وصف دقيق وشامل للنسيج العمراني الذي اختصت به المنطقة، فهي غالبا ما تكتفي بالإشارات العامة، دون أن تدخل في التفاصيل المعمارية أو العمرانية الدقيقة التي تساعد على إعادة تركيب المشهد الحضري بالمنطقة.

وفي ظل التحولات السياسية والتقلبات المناخية التي عرفتھا المنطقة، خاصة بفعل قساوة المناخ الصحراوي، وظهور الوعي العمراني العميق لدى سكان الزاب وواحاته عبر عن حاجتهم إلى فضاءات حضرية تؤمن لهم الاستقرار وتحفظهم من أخطار النزاعات والصراعات القبلية المتكررة، وقد انعكس هذا الوعي في الاهتمام المتزايد ببناء المدن وتحسينها، مما يجعل من العمارة في هذه الواحات تعبيرا عن اهتمام الإنسان بها، ومرايا لظروفه الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، ومن هنا جاء موضوع بحثي موسوما بـ: العمران والمجتمع في واحات المغرب الأوسط (الزاب نموذجا) من القرن 6هـ/12م إلى القرن

9/15م. ومن أجل إنجاز دراسة علمية محكمة وجادة لموضوع بحثنا، صغنا إشكالية رئيسية توجه مسار البحث، وتحدد المحاور الكبرى التي ستكون محور دراستنا.

أولاً - الإشكالية:

تهدف الدراسة إلى توضيح العلاقة بين العمران والمجتمع في بلاد الزاب خلال العصر الوسيط، وذلك انطلاقاً من المعطيات التي قدمتها المصادر الإخبارية والجغرافية الإسلامية، وتتمثل الإشكالية الرئيسية في: ما طبيعة التفاعل بين الواقع الاجتماعي والسياسي والاقتصادي من جهة، والتحولات العمرانية التي شهدتها واحات الزاب من جهة أخرى؟

ويتفرع عنها جملة من التساؤلات الفرعية التي توجه مسار البحث، على النحو الآتي:

- كيف ساهمت التركيبة الاجتماعية والعلاقات السياسية السائدة خاصة مع توافد العنصر الهلالي في بلورة ملامح البنية العمرانية في بلاد الزاب؟
- إلى أي حد يمكن اعتبار العمران في واحات الزاب انعكاساً لبنية المجتمع ومكوناته؟
- ما مدى تأثير الصراعات السياسية القبلية التي عرفت المنطقة، على تطور العمران من حيث استقراره أو تراجعته؟

وللإجابة على هذه الإشكالات المطروحة يتوجب علينا تقسيم بحثنا إلى فصول ومباحث متعددة، وسنتطرق إليها بعد أن نتطرق إلى دوافع الدراسة وعناصر أخرى يقتضيها البناء المنهجي للبحث.

وللإجابة عن الإشكالية المطروحة والتساؤلات المتفرعة عنها، بات من الضروري اعتماد تقسيم منهجي دقيق لهيكل البحث، يراعي طبيعة الموضوع وتداخله بين البعدين

الاجتماعي والعمراني، وسيتوزع هذا البحث على مجموعة من الفصول والمباحث التي تعالج محاور الدراسة، تقضي في مجموعها إلى تحقيق الغاية العلمية المرجوة، غير أن هذا التقسيم سيأتي لاحقا ضمن التصميم التفصيلي للبحث، وذلك بعد الوقوف أولا على دوافع اختيار الموضوع، فضلا عن أهمية الدراسة، وعناصر أخرى يقتضيها البناء المنهجي للبحث، كأهم الدراسات السابقة التي سيتم الاستناد إليها، فكل هذه العناصر تعد ضرورية لتأسيس أرضية علمية صلبة للمعالجة التاريخية المنشودة.

ثانيا - أسباب اختيار الموضوع:

يعود اختيار موضوع "العمران والمجتمع في واحات الزاب (من القرن 6هـ / 12م إلى القرن 9هـ / 15م) "إلى جملة من الدوافع العلمية والمعرفية التي تمثل محفزا حقيقيا لاستكشاف تاريخ هذه المنطقة:

- إعتبار الزاب من الحواضر الصحراوية ذات الإشعاع الحضاري المتميز.
- شكلت واحات الزاب فضاء تاريخيا جمع بين خاصيتين أساسيتين: الثقافة البدوية الرعوية من جهة، والثقافة الحضرية المستقرة من جهة أخرى، مما أفرز نموذجا اجتماعيا ومعماريا فريدا، يستحق الوقوف عنده لدراسته.

ثالثا - أهمية الدراسة:

وتزداد أهمية هذا الموضوع بالنظر إلى كون الزاب قد مثل ملتقى للقبائل المختلفة، التي استقرت داخله أو عبرت مجاله، مما خلق تنوعا ثقافيا واجتماعيا غنيا ترجم في النسيج العمراني وفي التنظيم المجتمعي للمنطقة، كما أن تسليط الضوء على تاريخ هذا الإقليم يساهم في إبراز ما للمغرب الأوسط من مكانة حضارية لا تقل أهمية عن نظيره في المغرب

الأدنى والأقصى، وذلك من حيث المعالم التاريخية، والتفاعلات المجالية والابتكارات المعمارية.

وإلى جانب هذا البعد التاريخي والعمراني، يأتي الدافع الاقتصادي والروحي، حيث لعبت واحات الزاب دورا محوريا في تنشيط الحركة التجارية، من خلال احتكاكها بالقوافل التجارية العابرة بين الشمال والجنوب، كما مثلت محطة من محطات طريق الحجاج القادمين من غرب العالم الإسلامي نحو الحجاز، وبالتالي فإن تناول هذا الموضوع يتيح لنا فرصة لإبراز الأثر الفكري والاجتماعي والاقتصادي للمنطقة، ولمساهمتها في بلورة ثقافة صحراوية ذات طابع خاص.

رابعا - الحدود الزمانية والمكانية للدراسة:

تتناول هذه الدراسة الفترة الزمنية الممتدة من بداية القرن السادس الهجري / (12م) إلى نهاية القرن التاسع الهجري / (15م)، وهي مرحلة تاريخية مفصلية تميزت بجملة من التحولات العميقة التي مست مختلف مناحي الحياة في بلاد الزاب، سواء على المستوى السياسي أو الاجتماعي أو الاقتصادي، وهو ما كان له انعكاس مباشر وملحوس على النمط العمراني والمعماري بالمنطقة.

وتتسم هذه المرحلة التاريخية بكونها فترة استقرار القبائل الهلالية في المغرب الأوسط، بعد أن استكملت موجات الهجرة الأولى آثارها، وهو ما أفرز واقعا جديدا أعاد تشكيل البنية السكانية والاجتماعية في عدد من المناطق، وفي مقدمتها إقليم الزاب، كما شهدت هذه الفترة قيام كيانات سياسية وزوال أخرى، كان لها دور أساسي في رسم معالم السلطة وتوزيع النفوذ داخل المجال المغربي، ويمكن اعتبار الدولة الموحدية أبرز نموذج سياسي في بداية هذه الفترة، إذ بسطت نفوذها على معظم بلاد المغرب الإسلامي خلال القرن السادس الهجري

(12م)، واستمر حكمها لأكثر من قرن، قبل أن يدخل المغرب في مرحلة جديدة من التقسيم السياسي، تجسد في ظهور ثلاث دول إقليمية متعاقبة : الدولة المرينية بالمغرب الأقصى، والدولة الزيانية بالمغرب الأوسط، والدولة الحفصية بالمغرب الأدنى.

أما بلاد الزاب فقد كان منخرطاً في هذه التحولات، ولم يكن بمنأى عن التقلبات السياسية الكبرى، إذ تأثرت سلطته المحلية وتوازناتها الداخلية بهذه التغيرات، مما انعكس بدوره على الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية، ومن ثم على العمران.

لذلك فإن اختيار الفترة الممتدة من القرن السادس إلى التاسع الهجري يتيح لنا دراسة هذه التحولات الكبرى في إطارها التاريخي الشامل، وذلك إلى حدود القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي، الذي نعتبره نهاية للحلقة الزمنية التي يركز عليها هذا البحث، أما من حيث الإطار المكاني، فإن هذه الدراسة تتمحور حول بلاد الزاب، باعتباره نموذجاً مميزاً لولايات المغرب الأوسط خلال العصر الوسيط، وقد شكلت هذه المنطقة تنوعها الطبيعي والبشري، لما احتضنته من تفاعلات اجتماعية وعمرانية.

خامساً - الدراسات السابقة:

حظيت بلاد الزاب باهتمام عدد من الباحثين والمؤرخين، حيث أنتجوا دراسات علمية تناولت جوانب مختلفة من تاريخه السياسي أو الاقتصادي أو الاجتماعية وحتى الثقافي ، حيث ساهمت هذه الدراسات في توفير أرضية معرفية أولية، كان لها الدور المهم في توجيه انطلاقتي البحثية نحو هذا الموضوع، على الرغم من أن المنطقة لم تحظى بدراسة تحليلية معمقة توفق بين المعطيات التاريخية والنصوص الجغرافية من جهة، والبعد الأثري والمعماري من جهة أخرى، باستثناء إشارات متفرقة لا تفي بالغرض العلمي المطلوب، وعليه فإن هذه الدراسة تسعى إلى سد ثغرة معرفية قائمة، من خلال التركيز على التفاعل بين

البنية الاجتماعية والنمط العمراني في بلاد الزاب، وإبراز خصوصياتها كمجال وحي متميز داخل المغرب الأوسط خلال العصر الوسيط.

ومن بين هذه المساهمات التي يمكن الإشارة إليها أعمال الدكتور علاوة عمارة، الذي اهتم بالجوانب الاجتماعية والثقافية للمنطقة، التي كانت بعنوان: "الهجرة الهلالية وأثرها في تغيير البنية الاجتماعية لبلاد الزاب"⁽¹⁾، وهي دراسة سلطت الضوء على التحولات الاجتماعية التي عرفت المنطقة في أعقاب الاستقرار الهلالي، مركزة على تأثيرات الهجرة القبلية في إعادة تشكيل التركيبة السكانية والعلاقات الاجتماعية داخل الزاب، وقد ساهم هذا العمل في إبراز أهمية البعد الاجتماعي ضمن دراسة تاريخ المنطقة، كما شكل مرجعا تمهيديا مهما في مساري البحثي، غير أن ملاحظتنا الجوهرية على هذه الدراسة وغيرها من الدراسات المشابهة أنها لم تتناول العلاقة بين المجتمع والعمران بشكل معمق أو ممنهج، إذ ظل الجانب المعماري إما مغيبا أو مقتصر على إشارات عرضية.

كما قدم لنا الباحث علاوة عمارة عمل علمي آخر يعد من بين أولى الدراسات الأكاديمية الجادة التي تناولت تاريخ الجزائر في العصر الوسيط من منظور جغرافي تاريخي، وذلك من خلال ربط المعطيات التاريخية بالمجال الجغرافي، والتي كانت تحت عنوان: "التحولات المجالية والطوبونيمية لبلاد الزاب من الفتح الإسلامي إلى نهاية القرن الثامن الهجري/(14م)"⁽²⁾، مما شكل هذا البحث مرجعية أساسية في دراستي، نظرا لما تضمنه من تحليل معمق للتحولات المجالية التي عرفت المنطقة الزاب.

من بين الدراسات المهمة التي تناولت الجغرافيا التاريخية لبلاد الزاب، يبرز عمل الباحث الصادق زيان الذي أنجز بحثا شاملا تناول فيه التحولات المجالية التي شهدتها

(1) مجلة الآداب والعلوم الإنسانية، ع 10، 2009م، ص ص 9-26.

(2) مجلة تراث الزيبان، مج 01، ع 01، 2016م، ص ص 11-21.

بلاد الزاب منذ الفتح الإسلامي إلى نهاية القرن التاسع الهجري، الذي كان تحت عنوان: " الجغرافية التاريخية لبلاد الزاب من الفتح الإسلامي إلى نهاية القرن 09 هـ"⁽¹⁾، وقد تميز هذا العمل برؤية تركيبية تجمع بين البعد الجغرافي والتاريخي، بحيث لم يقتصر على تحديد المجال الجغرافي للإقليم، بل توسع في دراسة مكونات مجتمع هذا الإقليم، كما أولى الباحث اهتماما خاصا بمدن الزاب الرئيسية، فتناول نشأتها وتطورها، وعلاقاتها بالمجال المحيط بها، سواء من الناحية السياسية أو الاقتصادية، وقد ساهمت هذه الدراسة في إرساء قاعدة معرفية متينة حول بنية الإقليم خلال الحقبة الوسيطة، ما يجعلها مرجعا مهما لكل باحث مهتم بتاريخ العمران والمجتمع في المنطقة.

كما قدم لنا الباحث مقالا مهما في بحثنا كان تحت عنوان: " جغرافيا العمران ببلاد الزاب من خلال رحلة فيض العباب للنميري (قصر عثمان الرياحي نموذجا)"⁽²⁾، الذي أفادني في بحثي حول دراسة العمارة المدنية ببلاد الزاب وخاصة قصر عثمان الرياحي من حيث ما قدمه النميري.

كما يعتبر المقال التاريخي الذي قدمه صلاح الدين هدوش من الإسهامات الحديثة القيمة في دراسة العمران ببلاد الزاب، حيث حمل عنوان: "المدينة ببلاد الزاب من خلال المصادر العربية من القرن 5هـ/11م إلى القرن 8هـ/14م"⁽³⁾، الذي نشر سنة 2015، وتناول الباحث في هذا المقال مختلف التصورات التي رسمتها المصادر العربية الوسيطة حول المدينة في بلاد الزاب، كما قدم هذا الأخير إسهاما علميا آخر من خلال المقال الذي

(1) أطروحة مقدمة لنيل درجة دكتوراه ل م د في التاريخ، قسم التاريخ، كلية الادب والحضارة الإسلامية، جامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة، 1439-1440هـ/2018-2019م.

(2) مجلة ميلاف للبحوث والدراسات، مج 04، ع 01، جامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة، الجزائر، 2018م.

(3) مجلة علوم الانسان والمجتمع، ع 14، 2015، ص ص 103-135.

كان بعنوان: "قصور الزاب الغربي: بين أخطار الاندثار وإمكانية الاستمرار"،⁽¹⁾ وهو عمل ميداني وتحليلي يسلط الضوء على وضعية القصور العتيقة في بلاد الزاب الغربي، من حيث تدهورها المعماري، وتهديدات الاندثار التي تواجهها، مقابل الجهود الممكنة للحفاظ عليها وضمان استمراريتها.

كما قدمت الباحثة دعاء جاسم جاهل دراسة أكاديمية قيمة تعد من المراجع المهمة في تناول تاريخ مجال الزاب، وجاءت بعنوان: "إقليم الزاب في المغرب الإسلامي دراسة في الأحوال العامة حتى نهاية القرن السابع الهجري"⁽²⁾، وتمثل هذه الدراسة إضافة علمية مهمة، إذ تناولت بالتحليل الأوضاع العامة للإقليم من النواحي السياسية والاجتماعية، مما ساهم في إثراء المعرفة بتاريخ هذه المنطقة، وقد استفدت منها بشكل خاص في تناولها لبعض مدن الزاب، وما قدمته من معلومات وجوانب تدعم فهم البنية العمرانية والاجتماعية لهذا المجال.

أما فيما يخص الدراسات التي أولت اهتماما خاصا بالجانب الأثري للمعالم الإسلامية في بلاد الزاب، فقد قدم الباحث الطيب كريم دراسة مميزة في هذا المجال ضمن إطار بحثه لنيل شهادة الماجستير، بعنوان: "المعالم الأثرية الإسلامية في منطقة الزاب الشرقي دراسة تاريخية وأثرية"⁽³⁾، وتعد هذه الدراسة إضافة علمية نوعية، إذ تناولت أهم المعالم الأثرية الدينية ذات الطابع الإسلامي في المنطقة، مع إبراز قيمتها التاريخية والمعمارية، وقد استفدت منها بشكل خاص في دراسة الجوانب الأثرية ذات الطابع الديني لبلاد الزاب.

(1) مجلة المقدمة للدراسات الإنسانية والاجتماعية، مج 05، ع 02، 2020م، ص ص 23-35.

(2) مجلس كلية التربية للعموم الإنسانية في جامعة كربلاء وهي جزء من متطلبات نيل شهادة الماجستير في التاريخ الإسلامي، كلية التربية للعلوم الإنسانية، جامعة كربلاء، 2023م.

(3) مذكرة مكملة لنيل شهادة الماجستير في علم الآثار الصحراوية، قسم الآثار الصحراوية، كلية الأدب للعلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة محمد خيضر، بسكرة، 1429-1430هـ / 2008-2009م.

ومن بين البحوث التاريخية التي اهتمت بالمجال الزابي تبرز رسالة الماجستير التي أنجزها الباحث التونسي علي الهطاي، والتي جاءت بعنوان: "بلاد الزاب من الفتح الإسلامي إلى منتصف القرن الخامس الهجري/ (11م)"⁽¹⁾، وقد قام الباحث باستخلاص أهم نتائج هذه الرسالة في شكل مقال علمي نشر سنة 2017، تحت عنوان: "الجغرافية التاريخية لبلاد الزاب من الفتح الإسلامي إلى منتصف القرن الخامس الهجري/ (11م)"⁽²⁾، وعلى الرغم من أن الإطار الزمني لهذه الدراسة يسبق الفترة التي يتناولها بحثي، إلا أن هذا العمل كان ذا أهمية بالغة، إذ ساعدني على تحديد المجال الجغرافي لبلاد الزاب بدقة، كما أتاح لي فهما أوليا لتطورات المجال وتكوين مراكزه الحضرية في فترة التأسيس، بما يمهد لدراسة انعكاسات التحولات الاجتماعية والسياسية في الفترات اللاحقة.

كما يعد عمل الباحث عبد القادر بومعزة الموسوم بـ "بسكرة في عيون الغربيين"⁽³⁾ من الدراسات التي أضافت إضاءة نوعية على المجال الزابي، حيث ركز فيه على الانطباعات التي كونها الرحالة والمستشرقون الغربيون حول مدينة بسكرة ومحيطه، كما قدم الباحث عبد العزيز شهيبي إسهاما أثريا مميزا من خلال رسالة أكاديمية بعنوان: "مساجد أثرية في منطقتي الزاب ووادي ريغ"⁽⁴⁾، وهي دراسة تنتمي إلى الحقل الأثري، حيث عمل فيها الباحث على توثيق وتحليل عدد من المساجد التاريخية بالمنطقتين، مستندا إلى مواد أثرية تعود إلى فترات مختلفة، تشمل العصور الوسيطة والحديثة.

(1) رسالة لنيل شهادة الماجستير في تاريخ العالم المتوسطي وحضارته قديم ووسيط، كلية الآداب والفنون والإنسانيات، بنوينة، تونس، 2015/2016م.

(2) مجلة المواقف، ع 12، 2017م، ص ص 09-30.

(3) دار بن زيد للطباعة والنشر، بسكرة، 2016م، ج 01 و ج 02.

(4) دار بن زيد للطباعة والنشر، بسكرة، 2016م، ج 01 و ج 02.

سادسا - مناهج الدراسة:

اعتمدت هذه الدراسة في تناول موضوع العمران والمجتمع في واحات الزاب على مناهج بحثية متعددة، تمكنا من تحليل المادة الخبرية وتحقيق تفاعل منهجي متكامل بين النصوص الإخبارية والجغرافية والرحلات، وقد كان المنهج التاريخي الركيزة الأساسية، بالنظر إلى طبيعة الموضوع المرتبط بتتبع تطورات المجتمع والعمران ببلاد الزاب عبر الفترة الزمنية للدراسة، باعتبار التاريخ هو الخبر لأحداث الماضي، وقد تم تعزيز هذا المنهج بالمنهج الوصفي التحليلي من خلال قراءة نقدية للنصوص الجغرافية ومصادر الرحلة، باعتبارها تزودنا بملاحظات وصفية حول العمران والمجتمع في الزاب، سواء من وجهة نظر الرحالة أو الجغرافيين، كما تم استثمار بعض آليات المنهج المقارن، من أجل مقابلة ما ورد في المصادر الوسيطة بما توصلت إليه الأبحاث المعاصرة والدراسات الأثرية، ما أتاح ربط المعطيات المكتوبة بالأدلة المادية، كما تميز هذا المنهج بنقل البحث من الجزء إلى الكل أو من خصوصية الحدث إلى عمومية التاريخ، ونجد هذه الميزة في بعض المظاهر المنتشرة بواحات المغرب الأوسط أو بلاد الجريد، فمن خلال استقراء هذه الأحداث نخرج بنتيجة مفادها عمومية الحدث في خصوصية الحيز الجغرافي للدراسة، وبذلك سعت هذه المقاربة المنهجية إلى تجاوز الطرح السردى التقليدي، عبر محاولة فهم العلاقة التفاعلية بين العمران والمجتمع.

سابعا - خطة الدراسة:

تضمنت خطة الدراسة من مقدمة وأربع فصول وخاتمة تتضمن أهم النتائج المتوصل

إليها.

1- وجاء الفصل الأول تحت عنوان المصطلح والمجال، حددنا من خلاله المفاهيم العامة للبحث محددين المجال الجغرافي والتاريخي للدراسة، وقسم هذا الفصل إلى أربع مباحث، تناول الأول منها: مفاهيم عامة لمصطلح الزاب لغة واصطلاحاً، تم التطرق فيه إلى الدلالات اللغوية والاصطلاحية لهذا المجال معتمدين على مصادر اللسانيات، أما البحث الثاني: عرفنا من خلاله مصطلح العمران لغة واصطلاحاً بكونه ضمن عنوان الدراسة، حيث فرقنا بين مصطلح العمران البشري الذي جاء به عبد الرحمان ابن خلدون والعمران المادي المتمثل في المعالم الأثرية بمختلف خصائصها ببلاد الزاب، أما المبحث الثالث فعنون ب: **العمار الإسلامية في واحات المغرب الأوسط،** حاولنا من خلالها ربط أنماط وخصائص العمارة الإسلامية في العمارة الصحراوية في واحات المغرب الأوسط، وما تختص به عن باقي العمار الأخرى منتقدا ما جاء به المستشرقون الذين ينفون وجود عمارة خاصة بالمسلمين، بينما المبحث الرابع فكان بعنوان: **المجال الجغرافي والتاريخي لبلاد الزاب،** تناولنا من خلاله المجال الجغرافي لبلاد الزاب واختلاف الجغرافيين في تحديد هذا المجال، كما وضعنا التغيرات المجالية التي طرأت على هذا الإقليم وفق التقلبات السياسية التي مرت بالمنطقة، أما الجانب التاريخي لهذا الإقليم فقد تطرقنا للمراحل التاريخية التي مر بها الإقليم بداية من العصر الروماني حتى الفتح الإسلامي للمنطقة محاولين توضيح التغيرات العمرانية لمدن وقصور الزاب بعد ما تعرضت له من خراب.

وجاء الفصل الثاني تحت عنوان: **التركيبة الاثنية والاجتماعية لبلاد الزاب،** وفيه ثلاثة مباحث، خصص الأول: **مجتمع متنوع ببلاد الزاب،** حيث أبرزت التحول الاجتماعي الذي غير التركيبة القبلية من التعدد الاثني بذكر أهم القبائل البربرية، التي عرفت أنسابهم إلى السيطرة الهلالية في بلاد الزاب، مبرزاً أسباب الهجرة الهلالية والأعداد التي حلت بالمغرب، وقد يتساءل القارئ عن مدى ارتباط الإشارة إلى أعداد الهلاليين الوافدين بموضوع

هذه الدراسة التي تعنى ببلاد الزاب، ولعل الإجابة تكمن في طرح إشكال جوهري مفاده: كيف لعنصر وافد على بلاد المغرب عموماً، وعلى الزاب خصوصاً، أن يحدث تأثيراً عميقاً في البنى السياسية والاجتماعية والاقتصادية للمنطقة؟، انطلاقاً من هذا التساؤل سعت الدراسة إلى احصاء الأعداد التقريبية للقبائل الهلالية المهاجرة، انطلاقاً من قناعة بأن العدد عامل مهم في تفسير حجم التأثير، فكلما زاد عدد الوافدين، تضاعفت قدرتهم على فرض الهيمنة، وإعادة تشكيل خارطة السكانية والاجتماعية للمجال الجديد، وعليه فإن الكثرة العددية للهلاليين لم تكن مجرد معطى ديموغرافي، بل شكلت ركيزة أساسية في تغلغلهم داخل النسيج الاجتماعي والسياسي لبلاد الزاب، وما ترتب عن ذلك من تحولات عميقة طالت نمط العمران بالمنطقة.

أما المبحث الثاني فكان تحت عنوان: **التوازن القبلي وتغير البنية الاجتماعية لبلاد الزاب بعد الهجرات الهلالية**، تطرقت فيه إلى تراجع دور البربر بالمجال الواحي وتحول موازين القوى لصالح المجتمع الهلالي مشيراً إلى استقرار وتوسع الجماعات الهلالية ببلاد الزاب خلال القرن السادس هجري والتعايش القبلي بين القبائل الوافدة والقبائل المحلية في ظل العصبية القبلية بالمنطقة، كما أشرنا فيه إلى انتقال المجتمع الهلالي من الغزو إلى الاندماج الاقتصادي في بلاد الزاب، حيث انتقل المجتمع الهلالي من اقتصاد المغازي إلى اقتصاد دائم ومستقر.

أما المبحث الثالث فخصص للحياة الاجتماعية التي حولت المجتمع من رعوي غير مستقر إلى مجتمع حضري مستقر، مبرزاً من خلاله انتقال المجتمع الهلالي من حياة البادية التي تعتمد على الحل والترحال، إلى مجتمع يسكن القصور ويخطط الدور، معرجاً على التعريفات والخصائص التي يتصف بها المجالان البدوي والحضري.

بينما الفصل الثالث فقد خصص للمنشآت والمرافق العمارة المدنية والدينية ، قسم إلى أربع مباحث، تحدثنا في المبحث الأول عن نشأت وتطور المدن الصحراوية ببلاد الزاب معرجا على ذكر أهم مدن وحواضر بلاد الزاب وعمارتها، أشرنا من خلالها إلى نشأت وتطور المدن الصحراوية ببلاد الزاب، وأهم المدن التي اختصت بها المنطقة من خلال أصل التسمية وآراء الجغرافيين فيها دون التطرق إلى الوصف المعماري الذي خصصت له مباحث أخرى للتفصيل فيه، أما المبحث الثاني تحدثنا فيه عن المنشآت المدنية التي اختصت بها مدن الزاب من قصور بحيث تطرنا إلى ما جاء به النميري من وصف للقصور الراحية، كما تطرقت إلى ما كان خارج المدينة من أرباض الذي يمثل المجال العمراني الخارج عن أسوار المدينة وما له من خصائص، أما المبحث الثالث فتكلمنا فيه عن المرافق الخدمائية من أسواق وحمامات وفنادق، وختمنا الفصل بالمبحث الرابع الذي خصصناه للمرافق العمرانية الدينية، المتمثلة في المساجد وخصصت بالذكر مسجد سيدي عقبة، ومسجد سيدي موسى الأخضر الذين كانا في فترة الدراسة كما خصصنا لهما دراسة معمارية مستفيضة، وتطرقتنا إلى ضريحيهما، منتقلين إلى عمارة دينية أخرى ظهرت بعد دخول التصوف لبلاد المغرب والزاب على وجه الخصوص والمتمثلة في الزوايا، مشيرين إلى دور سعادة الرياحي في نشر التصوف بالمنطقة مما يجعل هذه العمارة قائمة على أصولها.

أما الفصل الرابع فجاء تحت عنوان: المجتمع والسلطة وأثرهما في قيام وخراب عمران الزاب، جاء المبحث الأول تحت عنوان: أثر المجتمع في قيام العمارة ببلاد الزاب، أشرت من خلاله إلى دراسة شروط قيام العمارة ببلاد الزاب مبرزين الخصائص والآثار الطبيعية والبشرية التي اختصت بها مدن الزاب من وفرة الماء وطيب هواء مما ساعدها على التوسع والازدهار، وفق ما اشترطه العلماء من أسس قيام المدن واستقرارها، أما

المبحث الثاني فكان تحت عنوان: أثر الصراعات السياسية في بناء وتطور العمارة الحربية، تطرقت من خلاله إلى اهتمام مجتمع بلاد الزاب بالجانب الأمني لمدينهم مشيراً إلى كل ما هو حربي من حصون وأسوار وخنادق وأبواب وحتى الأبراج من خلال الوصف الجغرافي والخبري لبلاد الزاب، أما المبحث الثالث فخصص لأثر المجتمع الهلالي في قيام العمارة ببلاد الزاب، أما المبحث الرابع تحدثنا فيه عن أثر الصراع السياسي في خراب المدن ببلاد الزاب، مشيراً إلى دور الهجرة الهلالية وما كان لها من أثر في خراب المدن على حسب ما ورد عند ابن خلدون، كما تطرقنا إلى أثر الزحف المريني على بلاد الزاب وما له من أثر في خراب المدن.

وذيلت بحثي بخاتمة جمعت فيها أهم النتائج التي توصلت إليها بعد استعراض مختلف محاور الدراسة وفصولها، حيث سعت إلى تقديم خلاصة علمية لكل ما ورد في المباحث، وذلك انطلاقاً من المادة العلمية التي تناولتها في الدراسة، سواء من المصادر التاريخية والجغرافية، أو من المعطيات الأثرية والدراسات المعاصرة، وقد جاءت هذه الخاتمة لتشكل تنويجا لما تم التوصل إليه من رؤى تسهم في تعميق فهم العلاقة بين العمران والمجتمع في واحات الزاب خلال العصر الوسيط.

ثامنا - صعوبات الدراسة:

لا يخلو أي بحث من صعوبات، إلا أن الباحث وجب عليه مجابتهها حتى تتم إزالتها قصد بلوغ الأهداف المرجوة، وقد اعترضتني بعض الصعوبات يمكن فيما يلي:

- إشكالية الفترة الزمنية المحددة من القرن السادس إلى القرن التاسع هجري 12 إلى القرن 15م أي بعد القDOM الهلالي بقرن من الزمن، مما حتم على العودة لدراسة القDOM

- الهلالى أى منصف القرن الخامس الهجرى محاولا سرد الأحداث وفق المنهج التاريخى؁ ولو أخرجنى عن الفترة الزمنية للدراسة.
- صمت المصادر التاريخية عن ذكر الكثير من الأحداث فى بلاد الزاب؁ فى فترات من الدراسة؁ مما جعلنا نستعين بعمومية التاريخ فى خصوصية الحدث.
 - صمت المصادر الجغرافية والرحلة عن وصف الجانب العمرانى لمدن وقصور الزاب باعتبارها غير متخصصة؁ مما يجعل الباحث يفتقر إلى الكثير من المعارف الأثرية التى اختصت بها المنطقة.
 - عدم الوصول إلى الكثير من الشواهد الأثرية التى تعرضت إلى ويلات الاندثار والخراب؁ سواء جراء الحروب السياسية أو العوامل الطبيعية.
 - صعوبة ترجمة الكثير من المراجع الأجنبية التى تكلمت عن الموضوع؁ لولا الإستعانة بخبراء وأساتذة التخصص.

تاسعا - عرض أهم مصادر الدراسة:

اعتمدت دراستى على جملة من المصادر الإخبارية وكذا الجغرافية والتى بدورها ساهمت فى إثراء هذه الدراسة بكم هائل من المعارف؁ والتى سنعمل على إبرازها مع قيمة الاستفادة منها وهى على النحو التالى:

- المصادر الإخبارية:

اعتمدت فى هذا البحث على "كتاب العبر" لصاحبه عبد الرحمن بن خلدون (ت. 808هـ / 1406م)؁ والذى يعد من أبرز الدواوين التاريخية التى جمعت بين التأريخ والتحليل الاجتماعى؁ وقد استعنت بثلاثة أجزاء منه؁ كان للجزأين السادس والسابع أهمية خاصة فى

الفصل المتعلق بالجماعات، نظرا لما احتواه من معطيات دقيقة حول الأنساب المفصلة للجماعات الزناتية والهلالية على حد سواء، فضلا عن تحديد المواطن الأصلية للقبائل الزناتية، ودور الهجرة الهلالية في إعادة تشكيل المجال الجغرافي والسكاني، سواء عبر حصر الزناتيين في مجالات معينة، أو دفعهم نحو الحراك القصري باتجاه الأرياف والمناطق الجبلية، كما أسهم كتاب العبر في إغناء مبحث المجال الزابي والمدن التي تنطوي تحته، من خلال ذكره لأسماء مواقع ومواطن لم ترد في المؤلفات الأخرى، مثل طولقة، بادس، الدوسن، وأم القرى بسكرة وغيرها، مما وفر معطيات جغرافية وتاريخية نادرة.

كما استقدت بشكل كبير من كتاب المقدمة لابن خلدون، لا سيما في الجانب المتعلق ببناء المفاهيم للعمران، حيث قدم تصنيفا دقيقا ومفصلا لأنماط العمران من خلال تمييزه بين العمران البدوي والعمران الحضري، وذلك في الفصل الرابع من كتابه. وقد ساعدني هذا التصنيف في بناء الإطار النظري للبحث، من خلال فهم طبيعة المجتمعات التي تعاقبت على بلاد الزاب، ومدى انعكاس نمط عيشها واستقرارها أو ترحالها على البنية العمرانية، مما أتاح لي مقارنة موضوعية للعلاقة بين المجتمع والعمران في واحات المغرب الأوسط وبلاد الزاب على وجه الخصوص.

كما اعتمدت على كتاب نهاية الأرب في فنون الأدب للنويري (ت. 733هـ/1333م)، الذي يعد من المصادر الموسوعية التي استقيت جزءا مهما من مضامينها من الرواية القيروانية، وقد تميز هذا الكتاب بتقديمه معطيات فريدة عن الجهة الجنوبية من بلاد الزاب، خاصة المجال الممتد من طبنه إلى المناطق الجنوبية من أوراس عند بادس، وهي معطيات قلما نجد لها حضورا في مؤلفات الأخرى، وقد أفادني كتاب نهاية الأرب في إثراء البحث من خلال ما قدمه من معلومات تاريخية دقيقة تتعلق بوضعية الزاب خلال الفترات التي تعاقبت فيها الكيانات السياسية، كما أمدني الكتاب أيضا بتحديد بعض المسالك التي كانت

تربط مختلف نواحي الزاب، وساهم هذا المؤلف في معرفة الجماعات التي استوطنت هذا المجال الواسع، وما شهدته من تحولات اجتماعية وبنوية، مما يبرز القيمة الوثائقية العالية لهذا المصدر في دراسة العمران والمجتمع ببلاد الزاب.

ومن بين المصادر الأساسية التي استندت منها في دراسة الفترة الموحدية، كتاب المعجب في تلخيص أخبار المغرب لعبد الواحد المراكشي (ت 647هـ/1249م)، إذ قدم هذا العمل مادة غنية ذات أهمية بالغة في الجانب الاجتماعي، لا سيما ما تعلق بالجماعات العربية الهلالية، وأدوارها ضمن النسيج الاجتماعي، وعلاقتها بالحملات الموحدية في الأندلس، كما أسهم المصدر في توضيح تبعية بلاد الزاب السياسية للدولة الموحدية، مما مكّني من ربط التحولات الاجتماعية بالسلطة المركزية في تلك الحقبة، علاوة على ذلك فقد أمدني المعجب بمعلومات ثمينة حول شبكة المسالك الداخلية والخارجية، حيث وردت إشارات دقيقة إلى المسالك الرابطة بين نقاوس وحدود بسكرة، ما ساعدني في تتبع هذه الطرق على الخريطة الأثرية، كما أشار المؤلف إلى بعض المسالك الخارجية المهمة المنطلقة من الزاب، لا سيما تلك التي تمر عبر بسكرة باتجاه الجنوب الشرقي نحو قفصة وتوزر على حدود بلاد الجريد والذي اعتبره مجالا واحدا، وهو ما كان له من دور في فهم الاتصال الاقتصادي للزاب مع بقية المناطق.

- المصادر الجغرافية:

كما استعنت في دراستي على مجموعة من كتب الجغرافيا ومصادر أدب الرحلة، التي وفرت مادة وصفية غنية وأضفت بعدا ميدانيا مهما للدراسة، ويمكن تلخيص أهمها فيما يلي:

من بين المصادر الجغرافية المهمة التي اعتمدت عليها في دراسة وضعية الزاب خلال القرن السادس الهجري (12م)، كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، المعروف أيضاً بكتاب روجر، لمؤلفه الشريف الإدريسي (ت. نحو 560هـ/1160م)، بحيث شكل هذا المصدر أداة بالغة الأهمية في ربط المعطيات الجغرافية من وصف مدن وقرى بلاد الزاب بالمعلومات التاريخية والاجتماعية التي وردت في مؤلفات أخرى، مما ساعد على بناء صورة دقيقة عن بلاد الزاب في هذه المرحلة.

وساهم الكتاب أيضاً في تسليط الضوء على شبكة المسالك التجارية التي ربطت مناطق الزاب بباقي أنحاء المغرب الإسلامي، حيث قدم بيانات عن أطوال الطرق والمسافات، إضافة إلى محطات التوقف والمواقف الرئيسية، كما بين طبيعة التبادلات التجارية التي كانت تجري عبر هذه الطرق، وهو ما أمدني بمعلومات ثمينة استخدمتها في فصول البحث المتعلقة بالبنية الاقتصادية والتنقل داخل الإقليم.

كما استندت كثيراً من كتاب الاستبصار، الذي ينسب إلى مؤلف مراكشي مجهول عاش في القرن السادس الهجري، وقد تميز هذا المصدر بإيراده تفاصيل دقيقة حول الحضور العربي الهلالي في مجالات الزاب، وخصوصاً في النقاط العمرانية والمحطات الحيوية مثل نقاوس، وطبنه، ودار ملول، وحصن بادس، كما ساعدتني بشكل كبير في تحديد المجال الجغرافي للزاب ومدنه الأساسية، لما كانت عليه خلال مطلع القرن السادس الهجري، فضلاً عن تحديد أطوال المسالك الداخلية والخارجية، بحيث لم تقتصر أهمية الكتاب على الجانب الجغرافي فقط، بل شملت أيضاً المعطيات الاقتصادية، حيث عرض إلى أنماط السلع المتداولة في مدن الزاب وطبيعة المبادلات التجارية.

أما البكري (ت 487هـ/1166م) ورغم أن كتابه المعروف بالمغرب سبق الفترة الزمنية لمجال دراستي بما يقارب قرنا من الزمن، إلا أنني عدت إليه لما يمثله من مصدر وصفي أساسي لبلاد الزاب، خاصة وأن العديد من المصادر اللاحقة قد نقلت عنه أو استندت إلى معطياته، ويعود السبب في ذلك إلى أن المجال الجغرافي للزاب لم يعرف تغييرات جوهرية، لاسيما من الناحية العمرانية، مما جعل وصفه يظل محتفظ به لسد الفراغ الوصفي الذي تركته بعض المصادر المتأخرة.

من بين المصادر المهمة التي اعتمدت عليها في سد الفراغ الوثائقي المتعلق ببلاد الزاب خلال القرن التاسع الهجري/(15م)، يبرز مؤلف وصف إفريقية للحسن الوزان، المعروف بليون الإفريقي (ت بعد 957هـ/1550م)، وقد كان لهذا المؤلف دورا أساسيا في إتمام الصورة الجغرافية والاجتماعية والسياسية للزاب في هذه المرحلة المتأخرة من الزمن، حيث قدم لنا معطيات دقيقة حول التقسيمات المجالية للزاب، ولا سيما ما تعلق بانفصال زاب نقاوس والبسيط الغربي أو الحضنة عن المجال الزابي المركزي، كما أسهم المصدر ذاته في ضبط خريطة بلاد الزاب، من خلال تحديد أبرز المدن والمراكز الحضرية التي شكلت نواة هذا المجال في نهاية العصر الوسيط، وبذلك شكل كتاب الحسن الوزان إضافة نوعية في إطار بحثي، لما وفره من معطيات ميدانية وتوصيفات دقيقة لحياة السكان والحوضر في فترة اتسمت بندرة المصادر وتراجع الاهتمام التاريخي ببلاد الزاب مقارنة بالقرون السابقة.

- المراجع:

شكلت أعمال الباحث الجزائري علاوة عمارة مرجعية أساسية في دراستي، نظرا لما تحتويه من معطيات علمية دقيقة وتحليلات معمقة تناولت الجوانب الاجتماعية، والديموغرافية، والجغرافية، والثقافية لبلاد الزاب في العصر الوسيط.

ومن بين الدراسات التي استندت منها بشكل خاص:

- الهجرة الهلالية وإشكالية انحطاط حضارة الغرب الإسلامي - الوسيط: قراءة في نقاش تاريخي"

- الهجرة الهلالية وأثرها في تغيير البنية الاجتماعية لبلاد الزاب"

- التحولات المجالية والطبونيمية لبلاد الزاب من الفتح الإسلامي إلى نهاية القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي"

وقد اعتمدت على هذه الدراسات في مختلف فصول بحثي، لما تضمنته من معطيات دقيقة ومقاربات علمية ساعدتني في توسيع آفاق التحليل، وفهم التحولات التي عرفها المجال الزابي خلال الفترة المدروسة، سواء من حيث البنية السكانية، أو العلاقات القبلية، أو التحولات المجالية.

كما قدمت لنا مقالات صلاح هدوش مساعدة مهمة كانت المعينة لانطلاقتي البحثية من أبرزها: "المدينة ببلاد الزاب من خلال المصادر العربية من القرن 5هـ/11م إلى القرن 8هـ/14م" وهي دراسة تتناول تطور المدينة في بلاد الزاب اعتمادا على المصادر العربية القديمة، وكذلك مقال بعنوان: "قصور الزاب الغربي: بين أخطار الاندثار وإمكانية

الاستمرار"، تحدث فيه عن حالة القصور التاريخية في الزاب الغربي، المخاطر التي تهددها، والإمكانيات المتاحة للحفاظ عليها.

كما أفادني الصادق زياني والذي يعتبر من أبرز الباحثين الذين اهتموا بمجال الجغرافيا التاريخية لبلاد الزاب، حيث قدم العديد من الدراسات القيمة التي تسلط الضوء على التحولات الاجتماعية والعمرانية في المنطقة خلال العصور الوسطى، ومن بينها رسالة الدكتوراه التي قدمها تحت عنوان: **الجغرافية التاريخية لبلاد الزاب من نهاية الفتح الإسلامي إلى نهاية القرن 9هـ.**

أما الباحث الطيب كريم فقد رجعت إلى مذكرته الموسومة بـ "المعالم الأثرية الإسلامية في منطقة الزاب الشرقي: دراسة تاريخية وأثرية"، والتي شكلت إضافة علمية قيمة أغنت هذا البحث، فقد أفادتني هذه الدراسة بشكل كبير في التعرف على العديد من المعالم الأثرية المنتشرة في هذا المجال الواسع، لاسيما ذات الطابع الديني، مما ساعدني على استجلاء الأبعاد الحضارية لهذه المعالم وفهم دورها في الحياة الدينية والاجتماعية لبلاد الزاب.

كما استعنت في بحثي بالدراسة القيمة التي أنجزها الباحث **عمار غرايسة**، والموسومة بـ: **التحولات الاجتماعية والثقافية في المغرب الأوسط (الزاب، أريغ، أسوف، وارجلان) من الفتح الإسلامي إلى القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي**، وتعد هذه الرسالة من أبرز الأعمال التي تناولت التحولات الاجتماعية العميقة التي شهدتها منطقة الزاب ومحيطها خلال فترة طويلة من الزمن، بدءا من الفتح الإسلامي وحتى أواخر العصر الوسيط، ومن بين الفصول البارزة في دراسته، يأتي الفصل الرابع الذي خصصه للحديث عن حركة التمدن الهلالي في المنطقة، والتي شكلت محطة حاسمة في تاريخ بلاد الزاب،

فقد تناول فيه الكيفية التي أثرت بها الهجرات الهلالية في تركيبة المجتمع الزابي، وما صاحبها من تحولات في العمران ونمط العيش، إضافة إلى ما أفرزته هذه التحولات من تراجع للمذهب الإباضي الذي كان يشكل أحد المكونات العقائدية البارزة في الإقليم قبل فترة الدراسة، وقد أظهر الباحث العلاقة الجدلية بين الحراك المجتمعي والتحول الديني، مما أضفى على الدراسة بعدا تحليليا ومعرفيا بالغ الأهمية.

الفصل الأول:

المجال والمصطلح

1- تعريف الزاب لغة واصطلاحاً:

حظي إقليم الزاب باهتمام واسع من قبل العديد من الجغرافيين والمؤرخين وذلك من خلال مشاهدتهم له أثناء رحلاتهم للمنطقة أو بالاقتراب من مصادر أخرى سبقتهم، ولدراسة محصنة ودقيقة حاولنا من خلالها تحديد المعنى اللغوي والاصطلاحي وكذا الامتداد الجغرافي للمنطقة من خلال دراسة المصادر الجغرافية ومعاجم الألفاظ، حتى أننا اعتمدنا على المصادر الجغرافية التي سبقت فترة دراستنا، أي قبل القرن السادس الهجري، وهذا لأجل إعطاء نظرة شاملة للموضوع.

إن تحديد المعنى اللغوي والجغرافي لبلاد الزاب لدى الباحث ليس بالأمر الهين، وهذا وبعد الرجوع إلى المصادر التاريخية والجغرافية العربية، والتي أعطت تعريفات متباينة يرجع بعضها إلى أصل الزاب بالمشرق، وآخرون بالمغرب والبعض الآخر لأسماء أشخاص، أما تحديده في مجاله الجغرافي فكان الاختلاف كذلك بين الجغرافيين حاداً، وهذا راجع إلى عدم استقرار الرقعة الجغرافية للإقليم، من خلال المدن التي تنسب إليه وتغير عواصمه وحدوده عبر الزمن وذلك يرجع إلى المراحل التاريخية التي مر بها، وعلى حسب الظروف السياسية السائدة بالمنطقة، وقوة وضعف الدول المتعاقبة عليه، وهنا حاولنا جاهدين رصد أهم الأقوال وما أفاضت به المصادر للوصول إلى تحديد المعنى اللغوي والاصطلاحي للزاب، وكذا مجاله الجغرافي.

1-1 تعريف الزاب لغة:

في إطار البحث عن الجذور اللغوية لمصطلح الزاب يلاحظ أن معظم الباحثين يرجعون تعريفهم اللغوي إلى لسان العرب لابن منظور في تعريفهم اللغوي للفظ الزاب لما يحتويه من ثراء دلالي وشروح واسعة في اللغة حيث قال: "زاب: زاب القربة يزأبها زأبا

وإزدأبها: حملها وأقبل بها مسرعا⁽¹⁾ وقال: "وزاب يزوب أي انسل هربا وقال ابن الأعرابي زاب إذا جرا"⁽²⁾ وهو ما يوحي بالحركة والاندفاع، وربما يفهم منه دلالة على التحرك السريع في المكان أو السيلان.

أما ابن خرداذبه (ت 272 هـ / 885م) فيربط التسمية بأصول غير عربية، وتحديدًا فارسية، وذلك حين يتحدث عن منطقة غفار العراق وما جاورها، فيذكر أن: "نهر كورة أستان، وهي زوابي ثلاثة طساسيج، طسوج⁽³⁾ الزاب الأعلى وطسوج الزاب الأوسط، وطسوج الزاب الأسفل"⁽⁴⁾، دلل على أن مصطلح الزاب كان مستعملاً في المشرق، ضمن نسق لغوي وإداري غير عربي، قبل أن يستعاد أو يستأنف استخدامه في الغرب الإسلامي ربما بسبب التشابه في الجغرافيا أو كتقليد اسمي مألوف، وهذا ما يجعلنا نتساءل حول ما إذا كان استخدام لفظة الزاب في بلاد المغرب ناتجا عن امتداد دلالي لمصطلحات مشرقية، أم أنه جاء نتيجة تلاق بين تسميات محلية وأخرى دخيلة.

ومن بين التعريفات اللغوية التي وردت بشأن مصطلح الزاب، ما ذكره ابن العربي، بحيث اعتبر أن: "الزاب الماء: جرى، وزاب الشيء إذا جرى، وقال ابن سلمة: الزاب يزوب إذا انسل هربا"، أما الحموي فيرجع أصل التسمية ترجع إلى أحد ملوك الفرس قدماء وهو زاب بن تركان بن منشوهر ابن أريح ابن أفردون، حفر عدة أنهار بالعراق فسميت باسمه"⁽⁵⁾،

(1) أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور (ت 711 هـ / 1311م): لسان العرب، تص: أمين محمد عبد الوهاب و محمد الصادق العبيدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط3، 1419 هـ - 1999م، مج06، ص 05.

(2) المصدر نفسه، مج06، ص 05.

(3) طسوج: جمعها طساسيج هو مصطلح إداري يعود أصله إلى التنظيمات الفارسية، وقد ورد في المؤلفات الجغرافية للدلالة على الناحية أو الوحدة الإدارية ضمن الإقليم الكبير. ابن منظور: المصدر نفسه، مج08، ص 161.

(4) أبي القاسم عبيد الله ابن عبد الله ابن خرداذبه (ت 272 هـ / 885م): المسالك والممالك، نبذة من كتاب الخراج وصناعة الكتابة بأبي الفرج قدامه بن جعفر الكاتب البغدادي، مطبعة بريل، مدينة لندن المحروسة، 1889م، ص 08.

(5) شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي (ت 626 هـ / 1229م): معجم البلدان، دار صادر بيروت، مج 03، ص 123.

كما أورد صاحب دائرة المعارف أن أصل التسمية يرجع إلى أحد ملوك الفرس وهو زاب بن طوقان⁽¹⁾، وهو يلتقي مع ما قاله الحموي بأن أصل التسمية تعود إلى أسماء ملوك الفرس أي أن أصل الكلمة ليس بالعربي، ويتقاطع فيروز أبادي مع ما ورد في لسان العرب بحيث ذكر مصطلح الزاب في قاموس المحيط أنه الزاب بمعنى منع حملها القربة ثم الإقبال بها مسرعا⁽²⁾، كما أشار إسماعيل العربي إلى أن مصطلح الزاب قد استخدم للدلالة على المناطق الغنية ببساتين النخيل، والتي تعتمد في سقيها على الآبار ، في إشارة إلى طابعها الزراعي الواحي.⁽³⁾

من خلال ما سبق نستخلص أن مصطلح الزاب تعددت أصوله وتداخلت دلالاته، وهو ما يؤكد أن البحث في معناه لا يمكن أن يقتصر على أحد الأبعاد اللغوية أو الجغرافية أو حتى التاريخية بل يتطلب قراءة مقارنة شاملة تتعامل مع سياقات النصوص الواردة التي نشأ فيها هذا المصطلح، ولعلنا نحصر المعنى اللغوي لكلمة الزاب في العادة إلى وصف المواقع الطبيعية التي بها أنهار أو مجاري مائية وتتميز بالتدفق القوي والسريع، والتي تكون عادة خصبة ومثمرة، ومن الأمثلة على ذلك أراضي العراق بين نهري دجلة والفرات، حيث تعتبر هذه المناطق منطقة زراعية خصبة، وتلعب هذه المناطق دورا أساسيا في تطوير المدن والمجتمعات وتوسعها في المنطقة.⁽⁴⁾

(1) بطرس البستاني: دائرة المعارف، بمطبعة الأدبية، بيروت، 1887م، مج 09، ص 149.

(2) مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز أبادي (ت 817هـ / 1414م): قاموس المحيط، راج: أنس محمد الشامي وزكريا جابر أحمد، دار الحديث، القاهرة، 1429هـ - 2008م، مج 01، ص 690.

(3) إسماعيل العربي: الصحراء الكبرى وشواطئها، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983م، ص 143.

(4) عبد الحليم صيد: أبحاث في تاريخ زيبان بسكرة ، مطبعة سوف الوادي، 2000م، ط 01، ص 03.

1-1 تعريف الزاب اصطلاحا:

اختلفت وتباينت آراء المؤرخين والجغرافيين في الوصول إلى طبونيميا الزاب، إذ لم يكن هذا الاسم محصورا في إقليم بعينه، بل لاحظنا تعدد استعمالاته في أقاليم مختلفة من العالم الإسلامي شرقا وغربا (1)، فقد أطلق المصطلح على واديين من أودية بلاد الرافدين وبالتحديد زاب الموصل، أحدهما الزاب الأصغر بين الموصل وآربل، والثاني الأكبر بين آربل وكوكوك وكلاهما من روافد الدجلة (2).

أشار بطرس البستاني في دائرة معارفه إلى تقسيم الزاب إلى قسمين رئيسيين، أبرزهما الزاب الأعلى الذي يعرف بالمجنون، وذلك نظرا إلى شدة اندفاع مياهه وسرعة جريانه، كما يعرف في بعض المصادر بأسماء أخرى مثل: ليكوس (LYCUS) ، وزاباتوس (Zapatos)، أو زيس (Zais) ، ويقدر طول مجرى الوادي بحوالي مئتي ميل، كما أنه لا يتميز بسرعة جريانه فحسب، بل أيضا بكونه أعمق من نهر دجلة (3)، كما وصف بأنه شديد الحمرة بسبب طبيعة التربة التي يخترقها (4)، ومع تقدمه في مجراه "يصفو قليلا إلى أن يصل إلى ضيعة زيد بن عمران الموصلية (5)، أما الزاب الأسفل، فقد أشار البستاني إلى أنه يعرف باسم كايروس (Cairos) ، وهو نهر ينبع من المنطقة الواقعة بين شروزور وأذربيجان، ويتجه جنوبا ليصب في نهر دجلة، حيث يقع مجرى الزاب الأسفل جنوب مجرى الزاب الأعلى، مشكلا بذلك أحد الروافد المهمة للنظام النهري في بلاد الرافدين (6).

(1) صلاح الدين هوش: "المدينة بلاد الزاب من خلال المصادر العربية من القرن 11م إلى القرن 14م"،

مجلة علوم الإنسان والمجتمع، جامعة باتنة، الجزائر، ع 14، مارس 2014م، ص 105.

(2) ياقوت الحموي: المصدر السابق، مج 03، ص 123.

(3) بطرس البستاني: المرجع السابق، ص 149.

(4) يصف الحموي النهر بشدة الحمرة، على ما يبدو أن النهر بسرعة جريانه يحمل معه الطين فيصبح محمرا، وعند

الركود يصفى. ياقوت الحموي: المصدر نفسه، مج 03، ص 123.

(5) بطرس البستاني: المرجع نفسه، ص 149.

(6) بطرس البستاني: المرجع السابق، ص 149.

2- تعريف العمران:

لا شك أن للمجتمع الإسلامي علاقة طردية مع نمطه المعماري، إذ يعكس العمران في تجلياته المختلفة التحولات الاجتماعية التي عرفها هذا المجتمع عبر العصور. سواء تعلق الأمر بإنشاء أمصار جديدة أو بإعادة توظيف المدن التي سبقتهم، ويأتي هذا ما يفند إلى ما ذهب إليه بعض المستشرقين من أن العرب المسلمين الفاتحين كانوا بدوا رحلا لا علاقة لهم بالعمران إذ تظهر لنا جليا وأن الدين جاء مدني⁽¹⁾، وأن المسلمين لم يكونوا مجرد محاربين عابرين، بل سرعان ما أسسوا حضارات مدنية متكاملة، عمادها التنظيم المدني بإنشاء المساجد والأسواق والأسوار والدور، وهو ما يدل على وعي عمراني متقدم استجاب لمتطلبات الدين والمجتمع.⁽²⁾

كما يمكن الإشارة إلى أن المجتمع الإسلامي وبعد استقراره في المناطق التي فتحها، شرع في اختطاط الدور والقصور والمدن، وذلك في إطار سعيه إلى ترسيخ وجوده وتثبيت سلطته في المجال الجديد ولم تكن هذه المنشآت مجرد أماكن للسكن فحسب، بل كانت تحمل طابعا تحصينيا، إذ اختصت لتكون حصونا واقية من المخاطر الطبيعية والبشرية المحدقة، بحيث يرتبط العمران في المجتمعات الإسلامية كغيرها من المجتمعات ارتباطا وثيقا بمدى الاستقرار السياسي والازدهار الاقتصادي الذي يرجع إلى السلطة الضابطة لشؤون ساكنة الحاضرة⁽³⁾، فضلا عن درجة تحضر المجتمع، فكلما توفر الأمن وانتظمت السلطة، وازدهرت مواردها المالية، انعكس ذلك على توسع العمران وانتظامه وأشار ابن

⁽¹⁾Marçais, (G): « L'urbanisme musulman », Cinquième Congrès de la Fédération des Sociétés Savantes de l'Afrique du Nord, Tunis, 1939, édité à Alger 1940, pp, 13-34.

⁽²⁾عز الدين بو يحيوي: نشأة المدن الإسلامية من خلال مدن المغرب الأوسط، معهد الآثار، جامعة الجزائر، ص 63.

⁽³⁾حاضرة: تعني العاصمة أو المدينة الكبيرة، أو مدينة مهمة لدى الدولة، وحاضرة الإقليم هي المدينة الأكبر بذلك الإقليم أو مركز تلك المقاطعة الإدارية، وهي خلاف البادية. ينظر: أحمد مختار عمر: معجم اللغة العربية المعاصرة، دار عالم الكتاب، القاهرة، ط1، 01، 2008، مج01، ص 513.

خلدون إلى هذا الترابط في مقدمته بقوله : " ومتى عظم الدخل والخرج اتسعت أحوال الساكن ووسع المصر "(1).

كما حدد ابن خلدون (ت808هـ / 1406م) في مقدمته العلاقة الوثيقة بين العدالة وتوسع العمران بقوله " أن الظلم مؤذن بخراب العمران "(2) مشيراً إلى أن انتشار الظلم يفضي بالضرورة إلى تدهور أحوال البلاد واختلال أوضاع العباد ومن ثم فإن تحقيق التوازن بين السلطة والعمران في الفكر الخلدوني يتأسس على منظومة أخلاقية تؤمن بأن توسع العمران وازدهاره مرهون بعدالة السلطة واعتدال سياستها، فالظلم يؤدي في نهاية المطاف إلى تراجع العمران وخرابه.

وعلى الرغم من ارتباط التطور العمراني في المجتمعات الإسلامية ارتباطاً وثيقاً بالشروط الأنفة الذكر إلا أنه لا يمكن الإغفال على ارتباط الإنسان ببيئته بحيث يتفاعل الفرد مع محيطه الطبيعي، وينتج نمطاً معمارياً يتماشى مع حاجاته المادية والثقافية، ومع الخصائص المناخية والجغرافية للمنطقة التي يعيش فيها، وقد أفضى هذا التفاعل إلى بروز أنماط معمارية تعكس شخصية مجتمع المغرب الإسلامي التي عبرت عمارتها عن تجليات حضارية محلية، حتى وإن كانت ضمن الإطار العام للعمارة الإسلامية، وهكذا فإن العمران ليس مجرد استجابة لشروط الاستقرار السياسي أو الاقتصادي فقط، بل هو نتاج حضارة كاملة تترجم فكرة المجتمع وهويته الثقافية.

اختصت بلاد الزاب كباقي حواضر المغرب الأوسط بإرث حضاري ونمط معماري متمثل في القصور والأرضبة المحيطة بها، وقد ساهم هذا النمط في إنشاء مجتمعات محلية

(1) عبد الرحمن ابن خلدون (ت808هـ / 1406م): مقدمة ابن خلدون وهي الجزء الأول من تاريخ ابن خلدون المسمى ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، ضبط المتن ووضع الحواشي والفهارس: خليل شحادة، مراجعة سهيل زكار، دار الفكر للطباعة والتوزيع، 1401هـ / 1981م، بيروت، لبنان، ج01، ص 452.

(2) المصدر نفسه، المقدمة، 1431هـ / 2001م، ج01، ص 353.

متمازجة من حيث التركيبة القبلية، إذ استوطنت في هذه القصور قبائل وعشائر متعددة خاصة بعد القدوم الهلالي واستقراره ما بعد القرن الخامس، مما أفضى إلى تنوع اجتماعي بين البربر القبائل العربية الوافدة داخل الإقليم.

إن الخوض في موضوع المجتمع والعمران في بلاد الزاب يقتضي، من الناحية المنهجية تحديد المفاهيم الأساسية المرتبطة به، إذ لا يمكن الحديث عن تطور العمران في هذا الإقليم دون الوقوف أولاً على مفهوم العمارة بصفة عامة، ثم العمارة الإسلامية على وجه الخصوص، لما لها من خصوصيات تميزها عن الأنماط المعمارية الغربية، وتأتي أهمية هذا التحديد للمفاهيم في ظل ما ساد في بعض الأدبيات الاستشراقية من أحكام نمطية أو اختزالية حول العمارة الإسلامية، حيث ذهب بعض المستشرقين مثل دومينيك سورديل، وشوفالييه، وجورج مارسى⁽¹⁾، في قولهم أن: "المسلمين في فن العمارة لم يكونوا إلا مقلدين ومستعيرين، وأنهم لم تكن لهم عمارة خاصة بهم تستحق الذكر، وأن الكثير من العمارة انتقلت إليهم من أمم غير إسلامية"⁽²⁾، معتبرين أن العمارة الإسلامية مجرد تعبير عفوي لا يرقى إلى مستوى العمارة المنظمة التي عرفها الغرب، غير أن الواقع المعماري في بلاد الزاب كما في غيرها من حواضر المغرب الأوسط، يكذب ويفند هذه التصورات، ويثبت أن العمارة الإسلامية كانت نتاجاً لعقل مخطط واعي، يجمع بين الوظيفة الجمالية والدينية والدفاعية، ويستجيب في الوقت نفسه للبيئة والمجتمع والتقاليد المحلية.

(1) Raymond A: islamic city arab city Oriemtalists myths amdrecent views britichjournal of middle eastern studies vol 21 / 01 , 1994, pp 3-19

(2) كريشي أورنولد بيجز: تراث الإسلام في الفنون الفرعية والتصوير، تر: زكي محمود حسن، دار الكتاب العربي، دمشق، 1984م، ص 112.

1-2. تعريف العمران لغة:

العمارة بكسر العين إنما أطلقت على ما يعمر به المكان أي ما يؤهل الأرض أو البنیان للسكن⁽¹⁾، والعمر بضم يطلق على المسجد أو الكنيسة لأن الناس يعمرونها بالعبادة⁽²⁾، وقد أورد ابن منظور في لسان العرب عدة معان لكلمة العمارة، منها أنها تعني القبيلة الصغيرة، أو الحي العظيم، كما وردت في عبارة عمارة الصدر، في إشارة إلى الجماعة المتماسكة⁽³⁾، والعمران مشتق من مادة عمر، ويرجع أصلها إلى العلو والبقاء والامتداد الزمني "ومن باب عمارة الأرض يقال عمر الناس عمارة"⁽⁴⁾، أي أسسوا واستقرّوا في أرضٍ فأحيوها واستوطنوها، مما يربط العمارة بمعنى الاستيطان والاستمرارية كما أن لفظة عمر ترتبط كذلك بمدلول الحياة الطويلة، حيث يقال عمر فلان إذا طال عمره⁽⁵⁾، والمعمر هو المنزل الواسع الذي يقع قريباً من جهة الماء والكأ⁽⁶⁾، ويقال عمر الرجل ماله وبيته أي لزمه وأشده⁽⁷⁾، والدار المعمرة تطلق أحياناً على المنازل التي يعتقد أن الجن يسكنونها⁽⁸⁾.

وتطلق هذه اللفظة على المبنى أو المساكن التي يكثر فيها الماء والكأ⁽⁹⁾.

(1) محمد مرتضى الزبيدي (ت 1205هـ / 1790م): تاريخ العروس من جواهر القموس، تح: حسين ناصر وراجعه عبد العليم الطحاوي وعبد الستار أحمد فراج، مطبعة الحكومة، الكويت، 1343هـ / 1974م، ج13، ص 130.

(2) المصدر نفسه، ص 123.

(3) ابن منظور: المصدر السابق، مج09، ص 394.

(4) أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا (ت 395هـ / 1004م): معجم مقياس اللغة، تح: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، دط، دت ط، ص ص 140 - 141.

(5) مجمع اللغة العربية: المعجم الوسيط، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، مصر، ط4، 2004م، ص 626.

(6) المصدر نفسه، مج 09، ص 393.

(7) ابن منظور: المصدر السابق، مج09، ص 393.

(8) المصدر نفسه، مج 09، ص 395.

(9) الفيروز أبادي (ت 817هـ / 1414م): القاموس المحيط، تح: مكتب تحقيق في مؤسسة الرسالة بإشراف محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط08، 2005م، ص 445.

وتعددت معاني العمارة في مصطلحات اللغة العربية لتشمل أبعاداً مادية ومعنوية على حد سواء، فمن حيث دلالتها المادية تعرف العمارة بأنها تشييد المنازل وإصلاحها، وهي بذلك تشكل نقيض الخراب، ومن هذا الاستعمال ظهر لفظ العمارة للإشارة إلى المبنى الكبير المتعدد الطوابق ⁽¹⁾، أما من الناحية المعنوية فقد وردت في بعض الاستعمالات الأدبية بمعنى الطيب والثناء ففي قول الأعشى: "رفعنا العمارة أي رفعنا أصواتنا بالدعاء وقلنا عمرك الله" ⁽²⁾ أي الدعاء بطول العمر.

2-2. تعريف العمران اصطلاحاً:

ورد مصطلح العمران ومشتقاته في القرآن الكريم في سبع وعشرين موضعاً، بحيث حمل دلالات متعددة، منها ما يتصل بالعبادة، ومنها ما يرتبط بالتشييد، والاستيطان البشري. ومن الملاحظ أن جميع التعريفات اللغوية والاصطلاحية التي سترد لاحقاً في كتب اللغة والتراجم تستند بشكل مباشر إلى المفاهيم القرآنية التي أسست لفكرة العمارة باعتبارها وظيفة وجودية للإنسان، ما يهمنها في هذا البحث هو البعد العمراني لمفهوم العمارة، من حيث البناء والتشييد والتنظيم المجالي، كما تمثل في بناء المدن والقرى وقصور بلاد الزاب، والتي تعكس بجلاء وظيفة الإنسان في الأرض كما حددها الوحي.

وذكر في كتاب الله تعالى مشتق مادة عمر مشيراً إلى الاستقرار وتعمير الأرض بالبناء والغرس والزرع ⁽³⁾، في قوله تعالى: ﴿أَوْ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ

⁽¹⁾ أحمد مختار عمر: معجم اللغة العربية المعاصرة، عالم الكتب، القاهرة، مصر، ط01، 1429هـ / 2008م، مج01، ص1552.

⁽²⁾ المرجع نفسه: مج09، ص394.

⁽³⁾ محمد الطاهر بن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، تونس، 1984م، ج21، ص57.

الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ (١)

ويشير ابن كثير في تفسيره للآية أن الأقوام السالفة قد عمروا الأرض أعماراً طويلة، وكان لهم فيها منشآت وآثار تفوق ما بلغه المتأخرون، إذ استغلوها استغلالاً أوسع وأكمل، سواء من حيث الزراعة أو البناء أو الانتفاع بمقدراتها الطبيعية^(٢)، أما ابن سعدي، فقد ذهب إلى تفسير مكمل معتبراً أن تلك الأمم كانت أشد قوة، وأكثر آثاراً في الأرض، فقد بنوا القصور، وشيدوا المصانع، وغرسوا الأشجار، وزرعوا الحقول، وأجروا الأنهار، أي أن العمران "من خلال المصطلح القرآني هو عمران الأرض بالإنسان، وعمران الإنسان بالخير والعمل الصالح، والارتقاء بأسباب الحياة ومقوماتها بإنجازات عمرانية مادية ومعنوية".^(٣)

كما يعكس التوظيف القرآني لمصطلح العمارة أو العمران عمق المفهوم في العقيدة الإسلامية، بحيث وردت في القرآن الكريم أيضاً في سياق قدسي، من خلال وصف الكعبة المشرفة بـ «البيت المعمور»، كما في قوله تعالى: ﴿وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ﴾^(٤)، وقد فسرت الآية هذا البيت بأنه بيت في السماء السابعة يُقابل الكعبة، بحيث وصف الله تعالى البيت

(١) سورة الروم: الآية ٩.

(٢) أبو الفداء إسماعيل بن عمر القريشي الدمشقي ابن كثير (ت ٧٧٤هـ / ١٣٧٢م): تيسير القرآن العظيم، تح: سامي بن محمد السلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط ١، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م، ج ٦، ص ٣٠٦.

(٣) عبد الرحمان بن ناصر بن عبد الله السعدي (ت ١٣٧٦هـ / ١٩٥٧م): تيسير الكريم الرحمان في تفسير كلام المنان، تح: سعد بن فوزان الصميل، دار ابن الجوزي، ط ٢، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م، مج ٣، ص ١٣٢٨. ينظر أيضاً: فتحي ملكاوي: رؤية العالم حضور وممارسات في الفكر والعلم، المعهد العالمي للفكر الاسلامي، هرنند، فرجينيا، الولايات المتحدة الأمريكية، ط ١، ١٤٤٢هـ / ٢٠٢١م، ص ٢٨٣. ينظر كذلك: فتحي ملكاوي: "رؤية العالم والعلوم الاجتماعية"، مجلة إسلامية المعرفة، عمان، مج ١١، ع ٤٢، ٢٠١٣م، ص ٤٣.

(٤) سورة الطور: الآية ٩٤.

المعمور بالكعبة باعتبار أنه، لا يخلو من الطائفين والعباد، فهي دائماً "معمورة" بذكر الله.
(1)

وفي سياق تتبع المفاهيم النظرية المرتبطة بالعمارة، يشير سليم زاوية في مقالته المعنونة بتعريف العمارة إلى أن أول من أعطى تعريفاً منهجياً للعمارة في التاريخ هو المعماري ماركوس فيتروفيوس الروماني، الذي عاش في القرن الأول قبل الميلاد، وقد عرف العمارة بأنها تتحقق من خلال تحقيق ثلاثة عناصر أساسية هي الملائمة والمتانة والجمال⁽²⁾، وقد أورد ماركوس فيتروفيوس، في كتابه أرشيتكتور (Architecture)، أن العمارة علم قائم بذاته، يشتمل على مجموعة متنوعة من المعارف والدراسات، ويعد بمثابة اختزال أو نتيجة لاختبار الفنون الأخرى وتكاملها. ويؤكد فيتروفيوس أن العمارة ليست مجرد نشاط بنائي، بل هي ثمرة مجهودين متكاملين أحدهما نظري، يقوم على الفهم، والتخطيط، والمعرفة الهندسية والآخر تطبيقي، يترجم تلك المفاهيم إلى واقع مادي ملموس، من خلال استخدام المواد المتاحة محلياً في إنشاء التجمعات السكنية، مع مراعاة الظروف البيئية والطبيعية لكل منطقة⁽³⁾.

تعد العمارة نقيض الخراب وأنه حفظ البناء وتعميره وهي بهذا المفهوم ليست فقط فعل تشييد، بل أيضاً صيانة وتوسيعه⁽⁴⁾، بحيث استعمر الله الناس الأرض ليعمروها لكي تعمر الدنيا ثم يخربها فكلف الإنسان بإصلاحها وتوظيفها في خدمة الحياة، لتعمر الدنيا

(1) ابن عاشور: المرجع السابق، ج27، ص ص 38-39.

(2) سليم زاوية: تعريف العمارة، جامعة الامير عبد القادر، قسنطينة، الجزائر، دط، د س ن، ص 02.

(3) عبد الرزاق كمونة حيدر: "مجلة الخط والتسمية"، مجلة علمية متخصصة محكمة يصدرها معهد التخطيط الحضري والإقليمي للدراسات العليا، جامعة بغداد، ع 22، 1431هـ/2010م، ص02.

(4) الراغب ابو القاسم الأصبهاني (ت 502هـ / 1108م): المفردات في غريب القرآن، تح: نزار مصطفى الباز، مكتبة نزار مصطفى د ط، د ت ن، ج01، ص 450.

زمنًا ثم يأتي وقت اندثارها وخرابها (1)، أما الدريد فيرى أن عمارة الشيء إصلاحه، أي ما يعمر البلد ويحسن حاله بالزراعة والصناعة والتجارة وكثرة الأهالي (2).

وها هو ابن خلدون وفي خضم حديثه عن علم العمران الذي اختاره اسماً للعلم الذي أسسه (3) قدم لنا تصوراً معمقاً وشاملاً حول العمران، ليس فقط من الناحية العمرانية والهندسية، بل من حيث العلاقات الاجتماعية والاقتصادية التي تشكل بنية المجتمع، وعند دراسته للعمران قسمه إلى قسمين رئيسيين: العمران البدوي القائم على التنقل والرعي والعمران الحضري القائم على الاستقرار وبناء المدن وتشكل الدول.

فالعمران البدوي يمثل المرحلة الأولى والأساسية في تطور المجتمعات البشرية، حيث يعتمد الناس على البداوة والرعي وخدمة الأراضي وزراعتها، بينما العمران الحضري يمثل تطوراً أكثر تعقيداً بحيث يعتمد على الاستقرار والزراعة، ومن ثم يتجه نحو إنشاء المدن والأمصار. (4)

ويرى ابن خلدون أن العمران في جوهره هو ذلك الاجتماع البشري الذي يتم من خلاله اللقاء والتعاون على شؤون الحياة ومنها البناء والتوسع، حيث قال: "وهو التساكن والتنازل في مصر أو حلة للأنس بالعشيرة، واقتضاء الحاجيات لما في طباعهم من التعاون على المعاش" (5).

(1) أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهدي (ت 170هـ / 786م): العين، تح: عبد الحميد هندوي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط01، 1424هـ/2003م، ج03، ص 228.

(2) أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد (ت 321هـ / 933م): الاشتياق، تح: عبد السلام محمد هارون، دار الجبل، بيروت، د ط، د ت ن، ص 14.

(3) ابن خلدون: مقدمة ابن خلدون، دار القلم، بيروت، لبنان، ط04، 1981م، ص 342.

(4) المصدر نفسه: ص 342-343.

(5) ابن خلدون: المقدمة، المصدر السابق: ص 41.

كما يبرز من خلال تعريفه للعمران إلى النزعة الإنسانية لضرورة العمران والاجتماع لتحقيق المصالح المشتركة، بحيث لا تتحقق الحاجات والغايات الفردية والجماعية إلا به⁽¹⁾، وهو نوعان: العمران البدوي، وهو النمط الذي يسود الأرياف والصحارى والمناطق المقفرة، حيث يعيش الناس في ظل بيئة قاسية، شديدة الحرارة شحيحة الموارد ويتمحور هذا النمط حول الأُنس بالعشيرة، والتعاون الفطري لتأمين الحاجات الأساسية، كالمأكل والسكن والحماية، دون وجود بنايات مدنية معقدة أو تحصينات دفاعية كون المجتمع البدوي غير مستقر بل يعتمد إلى الترحال بحثاً عن الكلاً، والعمران الحضاري الذي يكون في القرى والمدن للاعتصام والتحصن بجدرانها خاصة في الجزء الشمالي من الأرض، ويمتاز هذا النمط بتطور الهياكل الاجتماعية والاقتصادية، وبروز الترف والصناعة والحرف⁽²⁾.

كما حاول عرفان سامي إعطاء مفهوما للعمارة: بحيث يرى: "أنها الفن العلمي لإقامة أبنية تتوفر فيها عناصر المنفعة والمتانة والجمال والاقتصاد، وتفي حاجيات الناس المادية والنفسية والروحية في حدود أوسع لإمكانيات وبأحسن الوسائل المتوفرة في العصر الذي تكون فيه، وهي طريقة في العمل وبتفكير ومنطق سليم، وتعتمد على علم صحيح وفن رفيع ويقوم بها معماريون على صلة بالواقع وبالحياة وعلى وعي وإدراك بأحوال بيئتهم وظروف العمل في عصرهم... فالعمارة هي علم وفن تصميم المباني".⁽³⁾

(1) صالح بن الطاهر مشوش: علم العمران الخلدوني وأثر الرؤية الكونية التوحيدية في صياغته، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، د ط، 2012م، ص 126.

(2) ابن خلدون: المقدمة، المصدر نفسه، ص ص 64-65.

(3) رثيف مهناووس بحر: نظريات العمارة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط1، 1992م، ص ص 108-109. ينظر بالحاج بن بنوح معروف: العمارة الإسلامية مساجد ميزاب ومصلياته الجنائزية، دار قرطبة، 2007م، ص 15-16.

بينما صاحب نظريات العمارة فد أعطى تعريفا شاملا لمفهوم العمارة معتقدا أنها انعكاس لنشاط اجتماعي للإنسان من كل جوانبه الاقتصادية والاجتماعية والبيئية (1). فالعمارة هي أكثر النشاطات صلة بالواقع الحضاري، بحيث تحدد سلوكيات الحياة لارتباطها الوطيد بالبيئة البشرية (2)، فالعمارة تثبت صحة ودقة النسب وكذا تعالج الفكرة بالممارسة (3).

ما نخلص إليه من هذه التعريفات التي تجمع على أن العمارة ليست مجرد فعل مادي متمثل في البناء، بل هي استجابة لحاجات الإنسان المختلفة، فالعمارة بهذا المعنى تمثل إطارا ماديا يترجم ممارسات الإنسان اليومية، كما تجسد تطور المجتمعات من حيث تنظيمها للمكان وتوظيفها للموارد. والتي تجسدت من خلالها كل ما له علاقة بالبناء كالتخطيط العمراني والتصميم، ومن خلال ما سبق حاولنا إعطاء تعريف شامل عن العمران بنوعيه البشري والمتكون من المجتمعات بشتى قبائلها واختلافاتها الاثنية، والعمران المادي الذي تجسد في إقامة المدن والأمصار بشتى أنواعها، ومن هنا قدمنا تعريفا شاملا لمضمون الرسالة التي نتحدث عن العمران المادي والعمران البشري من خلال مصطلح المجتمع في بلاد الزاب.

3- العمارة الإسلامية في واحات المغرب الأوسط:

ظهرت بواذر العمارة بواحات المغرب الإسلامي كبوتقة لمؤثرات وعوامل طبيعية وتجارية وكذا سياسية، فقد شكلت هذه الواحات نقطة التقاء بين تأثيرات البيئة الصحراوية وحاجات الإنسان المتزايدة إلى الاستقرار فيصير العمران حين يتخلص الناس من الجور

(1) رثيف مهنأوس بحر: المرجع السابق، ص 109.

(2) إسماعيل محروق: العمارة الإسلامية في كتب رحالة المغرب الإسلامي من القرن 07 إلى القرن 10هـ/ 13 إلى 16م، أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه، تاريخ، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان، الجزائر، 2017-2018م، ص 15.

(3) محمد حسين جودي: العمارة العربية الإسلامية، دار المسيرة للنشر والتوزيع، عمان، ط01، 2007م، ص 27.

والظلم، فظهرت القصور والرباطات، وهي عبارة عن تجمعات سكانية تتمثل في مباني سكنية ظهرت في صحراء المغرب الإسلامي⁽¹⁾ وهذا راجع للخصوصية التي تتميز بها الصحراء التي تبني شخصية ساكنيها في تشكيل لحياتهم الاجتماعية والذهنية والنفسية، حيث تعارض طبيعتها الاستقرار والتحضر، وتدفع نحو البداوة والترحال، وهو ما أدى إلى تفكك البنية القبلية إلى بطون وفروع متقلة بحثاً عن الماء والكلأ⁽²⁾، غير أن الإنسان، ورغم قسوة الظروف الطبيعية والمناخية التي تميز البيئة الصحراوية، إلا أنه استطاع أن يظهر القدرة على التكيف والتأقلم، وهو ما أفضى إلى ظهور نمط عمراني جديد يتماشى مع طبيعة المنطقة ومتطلباتها، وتجسد هذا في العمارة المستحدثة أو القائمة على أنقاض مدن سبقتها، حيث شيدت القصور كأماكن للإقامة والتحصن، والأربطة كمراكز دينية وحربية، إلى جانب الواحات التي شكلت مصدراً للحياة من خلال ما تضمه من المياه وبساتين النخيل.

تمتاز المدن والقصور الصحراوية رغم اختلاف مواقعها ووظائفها وثقافة أهلها بالتشابه في نمطها المعماري، ويرجع هذا إلى فطرة المجتمعات الصحراوية، ومدى احتياجهم للعناصر الأساسية للمدينة الإسلامية منها الطبيعية كالماء والغذاء، ومنها السياسية بحثاً على الأمن والاستقرار السياسي، ومنها الاقتصادية ببحثهم عن الطرق والمسالك التجارية، كما لا يمكن إغفال البعد الديني، إذ ارتبطت نشأة العديد من هذه المدن بالقرب من أضرحة أولياء صالحين أو صحابة، كما هو الحال بالنسبة لمدينة سيدي عقبة، مما أضفى على المكان شرعية دينية واجتماعية، وأسهم في استقطاب السكان واستقرارهم، ومن خلالها تخطط المساجد والمساجد الجامعة، باعتبارها النواة الأولى لكل عمران، ثم تنشأ المرافق العامة

(1) جمال عناق: "قراءات نقدية للكتابة التاريخية حول حواضر وقصور إقليم صحراء المغرب الإسلامي"، مجلة جامعة

الأزهر، غزة، سلسلة العلوم الإنسانية، 2019م، مج21، ع 01، ص98.

(2) الطاهر طويل: المدينة الإسلامية ودورها الحضاري ببلاد المغرب الأوسط حتى القرن الثالث هجري مدينة تيهرت نموذجاً، جامعة فرحات عباس، سطيف، دط، د س ن، ص01.

من أسواق، وشوارع، ومناطق سكنية، وفق تنظيم يعكس الوظيفة التكاملية للمدينة الإسلامية في بعدها الديني، الاجتماعي، والاقتصادي.

وقد اختصت بلاد الزاب، على غرار باقي واحات المغرب الأوسط، بإرث حضاري ومعماري غني، تمثل أساسا في القصور والأرضية التي كانت تحيط بالمجال، والتي شكلت نواة الاستقرار العمراني والاجتماعي في المنطقة. ومن خلال هذه التشكيلات المعمارية، تجمعت جماعات سكنية من أصول قبلية متنوعة، خاصة في المجال الريفي لبلاد الزاب، فنتج عن هذا التمازج نسيج اجتماعي وثقافي متنوع، أضفى على الزاب طابعا حضاريا متميزا.

كما تعد هذه المعالم المعمارية مصدرا أثريا هاما، يوثق العلاقة العضوية بين المجتمع والبيئة الواحية ببلاد الزاب، كما يظهر كيف استطاع سكان المنطقة التكيف مع المناخ، والتضاريس، والظروف التاريخية، لتنتج عن ذلك عمارة محلية فريدة، هذه العمارة لم تكن مجرد انعكاس للبيئة فقط، بل كانت تؤثر وتتأثر بالمجتمعات القاطنة فيها، مما يجعلها نتاجا للتفاعل بين المجتمع ومجاله الواحي.

كما تميزت العمارة الصحراوية في واحات المغرب الأوسط، ومن ضمنها المجال الزابي، بخصوصية عمرانية واجتماعية تتجلى في تنظيم الملكية داخل الفضاء العمراني، حيث تتوزع الممتلكات إلى عامة تعود بالنفع على مجموع سكان القصر، وأخرى خاصة بكل أسرة أو فرد، ويعكس هذا التقسيم منظورا تشاركيا في استعمال الموارد وتنظيم الفضاء، كما يُجسد تقاليد محلية راسخة في التعاون والتضامن الجماعي، ويمكن تصنيف هذه الممتلكات وفق النمط التالي:

3-1. الملكية العامة:

يعتبر الإسلام الملكية العامة جزءاً من المصلحة العامة للمجتمع وتساهم في تحقيق العدالة الاجتماعية من خلال توفير الخدمات والمرافق الضرورية للجميع بطريقة عادلة ومتساوية، ومن المهم أيضاً أن نذكر بأن الإسلام يحث على توزيع الثروة بين الناس بالعدل، وهذا ينطبق أيضاً على الممتلكات العامة وتوفير فرص متساوية للجميع في الوصول إليها والاستفادة منها، وعبر الإسلام على نظافة وصيانة الساحات والشوارع بشكل عام، وشجع على الحفاظ على الممتلكات العامة، فكانت تكنس الشوارع والأسواق وتنظف من الأوساخ مما يضر الناس⁽¹⁾، كما نهى عن الجلوس في الطرقات حفاظاً على الحرمة، وعلى سبيل المثال لا الحصر أن الرسول صلى الله عليه وسلم نهى عن الجلوس في الطرقات بقوله: "إياكم والجلوس في الطرقات" فقالوا (الصحابه رضي الله عنهم): "ما لنا بد إنما هي مجالسنا نتحدث فيها"، قال: "فإذا أبيتم إلا المجالس فأعطوا الطريق حقها، قالوا: "ما حق الطريق." قال: "غض البصر وكف الأذى ورد السلام وأمر بالمعروف ونهي عن المنكر"⁽²⁾، ومن بين هذه الممتلكات نذكر:

أ- الشوارع والأزقة:

يعتبر تخطيط المدينة والقصور تقليداً توارثه سكان المغرب، فتكون الأزقة والشوارع والدروب وكذا السكة على اختلاف أسمائها، والأدوار التي تؤديها، مهياً تصطف على

(1) الطيب كريم: تطور العمران الإسلامي بولاية بسكرة خنقة سيدي ناجي نموذجاً دراسة تاريخية أثرية عمرانية، أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه علوم في الآثار الإسلامية، جامعة الجزائر 02 أبو القاسم سعد الله، 2017/2018م، ص 73.

(2) أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري مسلم (ت 261 هـ / 875م): صحيح مسلم، باب النهي عن الجلوس في الطرقات وإعطاء الطريق حقه، تح: أبو قتيبة نظر محمد، دار طيبة، الرياض، السعودية، ط1، 2006م، مج1، ص1018.

حافتها الدور والمنازل، لا تتقابل أبوابها ونوافذها، بل تفتح فيها الكوة كمنفذ للهواء وأشعة الشمس (1).

يتم تقسيم الشوارع والأزقة في القصور الصحراوية وتحدد أنواعها ومقاييسها على حسب ملكيتها، والمعاني التي جاءت لأجلها، وفق الشريعة الإسلامية التي ضببت الأنماط العمرانية بما يعرف بفقهِ العمران، بحث لاحظنا غنى المصادر الفقهية بالنوازل، نتيجة الضرر الناجم عن المستحدثات التي قد تنجم عن أحدهم داخل القصر، أو ضرر عن قديم وجب إزالته، فظهرت مؤلفات مالكية التي دان بها أهل المغرب بصفة عامة والمغرب الأوسط بصفة خاصة، كالمدونة والواضحة والعتبية، وكتب نوازلية ظهرت كنتيجة للنزاعات الطارئة في المجال البنائي، وجب الإجابة عليها من طرف الفقهاء (2)، ومن أشهر هذه المؤلفات كتاب المعيار المغرب للونشريسي (3) في جزئيه الثامن والتاسع، الذي تضمن مجموعة من النوازل وحلول الشريعة الإسلامية لتلك المشاكل الناجمة عن العمران، كما ظهر كتاب آخر لا يقل أهمية عن غيره في فقه العمران، وهو كتاب القسمة وأصول الأراضين لأبي العباس أحمد بن عبد الله الفرستائي (4)، الذي وضع فيه فقه العمران ومخططات القصور وفق المذهب الإباضي، والذي اعتمد عليها الإباضية في إنشاء قصورهم.

(1) أسناء عطابي: "صورة الأزقة والأحياء السكنية في مدينة المغرب الأوسط من خلال النصوص الفقهية"، عصور جديدة، ع 16-17، أبريل 2014م، ص 162.

(2) عبد الرحمان كريب: "فقه العمران في الغرب الإسلامي في المذهبين المالكي والإباضي دراسة مقارنة في المصادر والأحكام"، مجلة العبر للدراسات التاريخية والأثرية في شمال إفريقيا، جامعة ابن خلدون، تيارت، مج 04، ع 02، سبتمبر 2021م، ص ص 06-07.

(3) أبو العباس أحمد بن يحيى الونشريسي (ت 915هـ / 1508م): المعيار المغرب، تح: محمد حاجي وآخرون، وزارة الأوقاف، الرباط، المغرب، ج 08-09، 1981م.

(4) أبو العباس أحمد بن عبد الله الفرستائي (ت 504هـ / 1110م): القسمة وأصول الأراضين، تح: بكير بلحاج، محمد ناصر، المطبعة العربية، القرارة، غرداية، ط 02، 1997م.

تميزت الأزقة والشوارع في القصور الصحراوية بالضيق والتعرج، وهذا راجع للعوامل المناخية كحرارة الشمس وحركة الرياح، وكذا الجوانب الأمنية، بحيث تلتقي كل هذه الشوارع بمركز القصر وهو المسجد والسوق.

ب- السوق والساحة:

يعتبر السوق ذلك الفضاء الاقتصادي والاجتماعي لسكان القصر، ولعل الباحثة بامون آمنة جانبت الصواب بتحديد لها موقع السوق في القصور الصحراوية بكونه يقع أسفل القصر ويكون في طرفيه، ومن الواضح أنها اعتمدت في بحثها على سوق قصر غرداية الذي تغير مكانه من وسط القصر إلى أسفله لأسباب خاصة بسكانه⁽¹⁾، علما أن موقع السوق في القصور والمدن الإسلامية غالبا ما يكون بالقرب من المسجد أي في مركز المدينة، بحيث تلتقي كل الأزقة والشوارع بهذا المجال الاقتصادي والحيوي، والذي يعتبر عصب الحياة بالنسبة لسكانه، أما الساحات فتلعب دورا هاما يتمثل في تهوية الطرق، وكذلك مركزا تجاريا هاما، أما من الناحية الاجتماعية فهي استغلال للتجمعات اليومية لسكان القصر الذين يترأسهم شيخ القبيلة أو المدينة لأجل البحث في قضايا الاجتماعية العالقة⁽²⁾.

ج- الأسوار والأبواب:

يعتبر الجانب الأمني من أولويات العمائر في المدن الإسلامية، وتولي السلطة الحاكمة أو سكان القصر اهتماما كبيرا لهذا الجانب بحيث لا تقوم مدينة إلا وبها سور

(1) آمنة بامون: "محتج القصور شاهد حي لهوية الأمة"، مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة قلمة، الجزائر، د ت ن، ص 83.

(2) نعيمة محمود: "حماية القصور الصحراوية في إطار التنمية المستدامة بالجزائر"، مجلة علوم وتكنولوجيا، ع 39، جوان 2014م، ص 06.

يحميها من التهديدات والأخطار المحدقة، وهو ما سنذكره في أثر الصراع السياسي في بناء العمارة الحربية في بلاد الزاب في قادم البحث إن شاء الله.

د- المسجد الجامع:

يتوسط هذا الصرح المعماري المسجد الجامع الذي يمثل القلب النابض للقصر، والذي يعتبر أحد أسس المدينة الإسلامية، لما له من أدوار دينية واجتماعية وحتى سياسية في المدن الإسلامية، فمن خلاله تنطلق الأزقة والدروب المتشعبة والمباني المتراسة في أنحاء القصر. (1)

2-3. الملكية الخاصة:

عزز الإسلام حقوق الأسرة في الحفاظ على خصوصيتها وحرمتها من التدخل الخارجي غير المرغوب فيه، حيث يعكس احتراماً لخصوصية الفرد وحقه في الخصوصية والراحة الشخصية من خلال تعزيز هذه القيم، «ولقد روي عن سهل بن سعد أن رجلاً أطلع في حجر في باب رسول الله صلى الله عليه وسلم ومع رسول الله صلى الله عليه وسلم مدرى يحك بها رأسه فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: (لو أعلم أنك تنتظرني لطعنت به في عينك)، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إنما جعل الأذن من أجل البصر» (2)، مشيراً إلى غض البصر حفاظاً على حرمة وخصوصية البيت، ومن أهم المعايير في تخطيط التجمعات السكنية بالمدينة أو القصر إعطاء أهمية كبيرة لتخطيط المدخل لارتباطه بالإيمان بالله وإكرام الجار، مما جعل المعماري يعطي كل اهتمامه بخصوصية البيت وحرمتها، خاصة أبواب البيوت معتمداً على الدين والعرف.

(1) التجاني العمودي: "العلاقة بين العمران والإنسان في القصور الصحراوية وفق المنظور الإسلامي"، جامعة حمه لخضر، الوادي، الجزائر، 25-08-2019م، ص 07.

(2) أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري مسلم (ت 261هـ / 875م): صحيح مسلم، باب تحريم النظر في بيت غيره، تح: أبو صهيب الكرمي، بيت الأفكار الدولية للنشر والتوزيع، 1419هـ / 1998م، ص 890.

اتصف البيت الإسلامي بسمات خاصة معتمدة على أسس وعوامل طبيعية كالمناخ، واجتماعية كالعرف وهذا راجع إلى ما جرى عليه الناس وارتضوه، مصداقا لقوله تعالى: ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾⁽¹⁾، طالما لا يتعارض مع ديننا الحنيف، كما تميزت واجهات المنازل في معظم المدن والقصور الصحراوية بالمغرب الأوسط بطابع معماري خاص، يتمثل في وجود فتحات صغيرة وقصيرة للأبواب والنوافذ، وغالبا ما تكون هذه الفتحات غير متقابلة بين البيوت، خصوصا في الأزقة الضيقة، ويعزى هذا التنظيم المعماري إلى العرف الاجتماعي الراسخ⁽²⁾، إضافة إلى مراعاة تعاليم الدين الإسلامي حيث ظهرت عدة فتاوى تمنع تقابل الأبواب خاصة في الأزقة الضيقة أمثال ابن سحنون⁽³⁾، وكذلك الإمام محمد ابن مرزوق في رسالته الروض البهيج في مسائل الخليج⁽⁴⁾، خوفا من التشوف على الجار وكشف عورته.

أما ما يخص مستوى علو البنايات في المدن والقصور الصحراوية فيكون موحدا تقريبا ومنسجما تماشيا مع الهضبة التي بني بها وهذا القصر، وهذا ما يضمن استفادة الجميع من نور الشمس، كما أن هذا التنظيم لم يكن عفويا، بل جاء امتثالا لأحكام فقه العمران التي تؤطر العلاقة بين الجيران، وهذا ما أشار إليه صلى الله عليه وسلم بقوله: «كل بناء وأشار بيده هكذا على رأسه أكثر من هذا فهو وبال»⁽⁵⁾، نهيا منه صلى الله عليه

(1) سورة الأعراف: الآية 199.

(2) أتروملي. س: الفرنسيون في الصحراء "يوميات حملة في حدود الصحراء الجزائرية، تر: محمد المعراجي، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954 غرناطة للنشر والتوزيع، الجزائر، د ط، 2013م، ص 420.

(3) شهاب الدين أحمد بن إدريس القرافي (ت 684هـ / 1285م): الذخيرة، تح: محمد حجي وآخرون، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط 01، 1994م، ج 06، ص 178.

(4) أبو زكرياء يحيى بن موسى المغيلي التلمساني المازوني (ت 883هـ / 1478م): الدرر المكنونة في نوازل مازونة، تح: حساني مختار، مخبر المخطوطات علم المكتبات، بوزريعة، الجزائر، د س ن، ج 03، ص 10.

(5) أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني (ت 310هـ / 923م): المعجم الوسيط، تح: أبو معاذ طارق بن عوض الله بن محمد وأبو الفضل عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، دار الحرمين، القاهرة، مصر، 1995م، ج 03، ص 59.

وسلم على التطاول في البنيان خاصة بما يتسبب في الضرر بالآخرين، وسمح بدون ذلك بارتفاع البناء أعلى من الجار دون القصد من إيذاء جار بعينه.

تعكس قيم المساواة والتضامن الاجتماعي في المدينة الإسلامية من خلال حسن الجوار بحيث لا يتم تصنيف الجوار بناء على الأسس المادية أو الطبقية، بل يتم التركيز على العلاقات الاجتماعية والروابط الإنسانية بين الأفراد في المجتمع، وبالنظر أولاً إلى العلاقات العائلية والقبلية كعلاقات ذوي القربى، وهذا يعكس التراث الإسلامي الذي يحث على صلة الرحم والتضامن بين أفراد المجتمع، ثم يمكن توسيع هذه الروابط لتشمل العلاقات الاجتماعية الأخرى التي تستند إلى المصالح المشتركة والتعاون بين الأفراد في الجوار، وهذا النهج يعزز التكافل الاجتماعي ويساهم في بناء مجتمع أكثر تلاحماً وتضامناً⁽¹⁾.

4- العمارة الصحراوية في واحات المغرب الأوسط:

تمتلك الواحات الصحراوية تنوعاً جغرافياً وبيئياً كبيراً، وهذا يؤدي إلى تشكل أنماط مختلفة من المستوطنات العمرانية تتناسب والظروف المحلية واحتياجات السكان، وتتأثر العمارة الصحراوية بالعوامل البيئية والثقافية والاجتماعية للمجتمعات المقيمة بثغورها، يمكن تصنيف أنماط العمارة الصحراوية بناء على العديد من العوامل خاصة بما يتعلق بالشكل والوظيفة، ويمكن تصنيفها إلى مدن وقصور وما تحتويها من وظائف أمنية وخدمية ودينية نذكر منها:

(1) إبراهيم عبد الباقي: تأصيل القيم الحضارية في بناء المدينة الإسلامية المعاصرة، مركز الدراسات التخطيطية والمعمارية، مصر، 1982م، ص 61.

4-1 القصر:

يعرف القصر الصحراوي على عكس القصور الملكية بالقرية المحصنة التي تضم مجموعات سكنية متراسة ومتراصة تقطنها مجموعات بشرية من أجناس وطبقات اجتماعية مختلفة.

إن وجود القصر الصحراوي، ليس بظاهرة مستحدثة، بل هو امتداد طبيعي في بيئة قاحلة تتسم بقيود مناخية صعبة تستلزم ابتكارات اجتماعية للتكيف معها، ولقد تناول العديد من الباحثين مسألة العمارة الصحراوية، بدءاً من الرحلات الاستكشافية للبعثات الفرنسية، وعلى رأسها هنري دوفيري (Henry Duveyrier)⁽¹⁾، مروراً بأعمال نذير معروف (Nadir Marouf)⁽²⁾، وسعيد بالقيدوم⁽³⁾ (Said Belgium)، والتي أظهرت كيفية استدامة تأهيل المساحات الواحية من قبل الجماعات المتعاقبة ضمن ظروف وفترات متباينة.

تتكون القصور الصحراوية من عناصر معمارية مميزة تجعلها تختلف عن نظيراتها في الأقاليم الأخرى، ويعزى هذا التمايز إلى خصوصية البيئة الطبيعية من جهة، والحاجات الاجتماعية للمجتمع من جهة أخرى، فالظروف المناخية القاسية، كالحرارة المفرطة، والرياح الرملية الجافة، وندرة المياه، لعبت دوراً أساسياً في تشكيل هذا النمط المعماري المتكامل والمغلق، أما من الجانب البشري فقد جاءت القصور الصحراوية كاستجابة وظيفية لاحتياجات أفراد المجتمع البدوي المستقرين بالأرياف، والذين كانوا في أمس الحاجة إلى

(1) Henry Duveyrier: voyage dans le pays des Beni Mezab, Paris, 1861.

(2) Lecture de l'espace oasisien: la Bibliothèque arabe de Sind Bad, 1980.

(3) Urbanisation et urbanité au Sahara: in Méditerranée n 3.4, année 2002.

بنية معمارية تحميهم من تقلبات الطبيعة وتوفر لهم الأمن والخصوصية ومصادر العيش، وهو ما جعل هذا النمط يعتمد بشكل واسع في واحات الزاب والمغرب الأوسط عموماً.

5- المجال الجغرافي لإقليم الزاب:

ليس من السهل وضع خريطة دقيقة لبلاد الزاب تتماشى والفترة الزمنية لبحثنا، وذلك للاختلاف الجلي للرحالة والجغرافيين في تحديد المجال الجغرافي لهذا الإقليم والمدن التي تدخل في نطاقه علماً أن إقليمه لم يعرف استقراراً سواء في مجاله وحدوده الجغرافية التي تتسع وتتقلص وفق الظرف والقوى السياسية المشرفة عليه، أو عواصمه التي تغيرت على مر العصور الوسطى على حسب الدول الحاكمة للمنطقة، بدأ من أذنة، ثم طبنه، ثم المسيلة، وبعدها القلعة، فبسكرة وهذا بعد تقلص مساحة الإقليم بسكرة وبعض القرى المجاورة لها⁽¹⁾، وهنا وجب علينا أن نعمل جاهدين على جمع النصوص التي تحدد المجال الجغرافي لهذا الإقليم.

يقع إقليم الزاب في الجنوب الشرقي للجزائر، ويتميز بموقعه الاستراتيجي الذي يعتبر حلقة وصل بين الجنوب الشرقي الصحراوي والشمال الشرقي التلي للقطر الجزائري، كما يعتبر بوابة الصحراء من الجهة الشرقية، يحده جبال الأوراس من الشمال، وهي كحاجز طبيعي يفصله عن التل، أما القسم الجنوبي من الإقليم، فيغطيه الكثبان الرملية المتقطعة، مثل شط ملغيغ، وواحات وادي أسوف ووادي أريغ⁽²⁾.

اعتبر الكثير من الجغرافيين والمؤرخين أن مصطلح الزاب استخدم للتعبير على الإطار الجغرافي الذي يغطي مجال طبونيمي واسع من منطقة الجنوب الشرقي للمغرب

(1) أسامة الطيب جليل: «حواضر إقليم الزاب الكبرى في العصر الوسيط من خلال كتب الجغرافيا البلدانية دراسة تاريخية»، مدارات تاريخية، دورية دولية محكمة ربع سنوية، جامعة الجزائر 02 أبو القاسم سعد الله، مج 01، ع 01، 2019/03/20، ص 338.

(2) إبراهيم مياشي: "احتلال بوابة الصحراء "بسكرة عروس الزيبان"، ع 03، الجزائر، حوليات الجزائر، 1995م، ص 98.

الأوسط، خاصة وأنه شهد أحداثاً تاريخية هامة خاصة بعد الفتح الإسلامي للمنطقة عن طريق الصحابي الجليل عقبة بن نافع، حيث كان يطلق مصطلح الزاب، خلال فترة الدولة الأغلبية (القرن 02هـ/08م)، على بلاد نومديا، وهي منطقة شاسعة تمتد من ساحل بجاية على البحر الأبيض المتوسط شمالاً، إلى أعماق الصحراء جنوباً، وتشمل في نطاقها الجغرافي مدناً رئيسية مثل: المسيلة، طبنه، وغيرها، ومن أشهر مدنها نذكر مدينة بسكرة، وباغاية (باغاي، باغية) التي كان بها طوائف من الجند والعجم والخراسانيين وبعض البربر، ومدينة تيجيس التي تقع جنوب شرق قسنطينة وكانت مدينة كبيرة ومثلها مقرة، تهوذة، مسكيانة وأعظم هذه المدن طبنه الرومانية⁽¹⁾،

يرى الباحث علي الهطاي أن التسمية انتقلت من المشرق إلى بلاد المغرب أثناء الفتح الإسلامي⁽²⁾، ويعتبر هذا الانتقال بمثابة تحول طوبونيمي ناتج عن تعريب الأماكن والمدن، حيث أعاد الفاتحون تسمية بعض المواضع المغاربية بمصطلحات مألوفة لديهم في المشرق، سواء بسبب التشابه البيئي أو من باب الإحياء الرمزي للأسماء⁽³⁾، ويرجح أن يكون اسم الزاب ذو أصول بابلية أو فارسية قديمة، التي استخدمت في بلاد الرافدين، ومع انتقال التسمية إلى المغرب، أصبحت تطلق على مناطق جديدة تشترك في بعض الخصائص الطبيعية⁽⁴⁾، وهناك من يرجع تسمية الزاب إلى مدينة زابي (zabi) الرومانية⁽⁵⁾ التي تقع

(1) أرباح بونار: المغرب العربي تاريخه وثقافته، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط02، 1981م، ص ص32-33.

(2) علي الهطاي: بلاد الزاب من الفتح الإسلامي إلى القرن الخامس هجري، رسالة لنيل شهادة الماجستير في تاريخ العالم المتوسطي وحضارته: قديم ووسيط، جامعة بنوبة، تونس، 2016/2015م، ص 14.

(3) أسامة الطيب جعيل: "حواضر إقليم الزاب"، المرجع السابق، ص 337.

(4) هشام جعيط: تأسيس المغرب الإسلامي (القرن الأول والثاني هـ/ السابع والثامن م)، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط01، 2004م، ص 54.

(5) مدينة زابي: مدينة رومانية قديمة، تقع قرب مدينة المسيلة، أقام حولها الرومان الكثير من الأبراج ومراكز الحراسة في إطار خط الليمس، الدفاعي وتدعى اليوم بشيلقا، تم تخريبها وهدمها على يد الوندال ثم أعاد البيزنطيون بنائها وسميت

في منطقة الحضنة⁽¹⁾، بالقرب من مدينة المسيلة⁽²⁾ والتي عرفت قديما باسم نوميديا⁽³⁾ حيث كانت مركزا للفرقة الرومانية الثالثة، ومن أهم مدنها سطيف (Sitifis)، تيمقاد (Thamugadi)، وباغاي (Bagai)، وبسكرة (Vescera)، حيث تغير اسمها من نوميديا إلى الزاب⁽⁴⁾، أي أن التسمية كانت قبل الفتح الاسلامي للمنطقة، وجاء في كتاب محمد البشير شنييتي أن زابي على حد قول المؤرخ الفرنسي جزيل (GESELL) كان يدعوها بعض السكان المحليين بشلغا (شيلقا): "وبشلغا هي عبارة عن مدينة كبيرة تدعى زابي حسب مضمون النقوش اللاتينية المكتشفة بعين المكان"⁽⁵⁾، وهنا يتضح جليا ذاك التمازج الحضاري والثقافي بين الفرس والروم الذي تحدى الحدود السياسية لهذه الإمبراطوريات.

لم يقدم ابن خرداذبه (ت 272 هـ / 885م) تحديدا واسعا أو مفصلا للمجال الجغرافي لإقليم الزاب في خضم حديثه عن مناطق نفوذ بني الأغلب والطرق التجارية الرابطة بين مدنه وبرقة، بل اكتفى بذكر مقتضب ومحدود، جاء فيه: "ومدينة الزاب وتهودة..."⁽⁶⁾، بحيث لم يوضح أكان يقصد بذلك مدينة بعينها ككيان حضري محدد كباقي المدن في عموم بلاد المغرب، أم أنه استخدم اللفظ للدلالة على الإقليم بأكمله لتشمل عموم بلاد الزاب

بزابي جيستيان. ينظر: محمد البشير شنييتي: الجزائر في ظل الاحتلال الروماني، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1999م، ج01، ص 179.

⁽¹⁾ إسماعيل العربي: الصحراء الكبرى وشواطئها، المؤسسة الوطنية للكتاب، شارع زيروت يوسف، الجزائر، 1983م، ص 142.

⁽²⁾ أسامة الطيب جعيل، نبيلة عبد الشكور: "الزراعة في إقليم الزاب في العصر الوسيط من خلال كتب الرحلة والحغرافيا"، مجلة الحوار المتوسطي، مج11، ع02، سبتمبر 2020م، ص 04.

⁽³⁾ فاطمة الزهراء غضبان: مدن إقليم الزاب من خلال الكتب الجغرافية النشأة والتطور والاندثار، ق 08 هـ / 14م (678هـ - 804هـ / 1279م - 1402م)، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماستر، تخصص تاريخ الغرب الإسلامي، كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، قسم التاريخ، جامعة محمد بوضياف، المسيلة، الجزائر، 2020/2019م، ص 14.

⁽⁴⁾ Cote(M.)، «ZàB»: Encyclopédie de l'islam. Nouvelle édition établie avec les concours de principaux orientalistes. Leiden.Brill2005.T .VI, p395-397.

⁽⁵⁾ شنييتي: المرجع السابق، ص 175.

⁽⁶⁾ ابن خرداذبة: المصدر السابق، ص 87.

بمختلف الأمصار وربما كان يقصد عاصمة الإقليم أو أهم مراكزه الإدارية في عصره، دون أن يوضح هذا صراحة، ويبدو أن ما جاء في فهرسه يعزز هذا الاحتمال⁽¹⁾ إذ ورد فيه ما نصه: "طبنه مدينة الزاب".⁽²⁾

أما اليعقوبي (ت 897/284م) فعدد مدن الزاب، وأعطى وصفا دقيقا لهذه المدن وتركيبتها السكانية، ليعطينا صورة أوضح لهذا المجال الواسع، إلا أن الحدود لهذا المجال لم تحدد إلا من الجهة الغربية مبينا المسافة بين القيروان وبلاد الزاب والتي تقدر بـ عشر مراحل، ما يعكس مدى الترابط بين العاصمة الأغلبية وهذا الإقليم الحيوي كما اعتبر مدينة طبنه، من أهم المدن الكبرى للزاب وعاصمته، حيث ينزل بها الولاة، كما يظهر هذا الوصف أن إقليم الزاب لم يكن وحدة جغرافية محدودة فحسب، بل كان فضاء حضريا، يضم عددا من المدن التي تتدرج تحت نطاقه بدأ بباغية، وطبنه مدينة الزاب العظمى في عصره، وتيجيس، وسطيف، وبلزمة، ونقاوس، ومقرة، وأربة (أذنة) هي آخر مدن الزاب مما يلي المغرب في آخر عمل بني الأغلب.⁽³⁾

بينما ابن حوقل (ت 367هـ/977م) أورد المسالك والطرق الرابطة بين مدن المغرب، والتي لا تبعد عن بعضها البعض غالبا إلا مرحلة، بذكر ثلاثة مسالك تمر على بلاد الزاب: بين المسيلة وبسكرة مرورا بمقرة وطبنه، والثانية بين المسيلة وأشير وبلاد حمزة، والثالثة بين بادس ونفطة⁽⁴⁾، مع إعطاء وصف شامل لتلك المدن على غرار التركيبة البشرية وما تزخر

(1) جعيل: حواضر إقليم الزاب، المرجع السابق، ص 341.

(2) ابن خرداذبة: المصدر نفسه، ص 289.

(3) أحمد أبي يعقوب إسحاق اليعقوبي (ت 897/284م): البلدان، وضع حواشيه: محمد أمين ضناوي، دار الكتاب العلمية، بيروت، لبنان، ط 01، 1422هـ/ 2002م، ص ص 190-191.

(4) صورية مديانة: بلاد الزاب من الفتح الإسلامي إلى انتقال الفاطميين إلى مصر (21هـ - 362هـ/ 642م -

972م)، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ، تخصص التاريخ الإسلامي، كلية الأدب والعلوم الإنسانية، جامعة الحاج لخضر، باتنة، الجزائر، 2009/2010م، ص 06.

به المنطقة من محاصيل زراعية، إلا أنه لم يتطرق إلى إقليم الزاب كمصطلح ولم يحدد مدنه، بل ذكرها كمدن مستقلة عن أي إقليم معين⁽¹⁾.

أما المقدسي (ت 388هـ/998م) فتطرق هو أيضا إلى الثغور والطرق التي أشار إليها ابن حوقل، وبعد أن قسم المغرب إلى سبع كور محددا مدن الزاب مع ذكر عاصمته المسيلة، بعد تراجع دور طبنة التي كانت حاضرة الزاب زمن اليعقوبي، فيذكر: "والزاب مدينتها المسيلة ولها مقرة، طبنة، بسكرة، بادس، تهودة، طولقة، جميلاه (جميلة)، بنطيوس، أدنه، أشير"⁽²⁾، حيث قارن مدينة الزاب المسيلة بطنجة بقوله: "والزاب مدينتها المسيلة، وهي ناحية على وصفنا مذكورة في الإقليم إلا أن طنجة أجل"⁽³⁾، وعدها رأس حد إفريقيا⁽⁴⁾.

أما البكري (ت 487هـ/1166م) فقد قدم وصفا غنيا ومفصلا للمعالم العمرانية والحصون الحربية، مشيرا إلى أهم المرافق الحيوية للمدينة والمتمثلة في المساجد والأسواق والحمامات في العديد من مدن إقليم الزاب في مؤلفه الجغرافي المغرب، كما اعتبر أن المسيلة داخل مجال ومدن الزاب وهذا بعد الإثراء في وصف هذه المدينة.⁽⁵⁾

بينما الإدريسي (ت 548هـ/1153م) والذي يعد من أهم المصادر الجغرافية التي يمكن الاعتماد عليها في دراسة هذا المجال باعتباره يندرج ضمن الإطار الزمني للدراسة، وعلى الرغم من دقته في سرد المعلومة وسعة اطلاعه على أحوال إقليم الزاب، على الرغم

(1) أبو القاسم ابن حوقل (ت 367هـ/977م): صورة الارض، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، 1992م، ص 85 إلى 97.

(2) أبو عبد الله محمد بن أحمد المقدسي (ت 388هـ/998م): أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط 03، 1991م، ص 221.

(3) المصدر نفسه، ص 231.

(4) المصدر نفسه، ص 247.

(5) أبو عبيد البكري (ت 487هـ/1166م): المغرب في ذكر بلاد إفريقيا والمغرب، دار المثنى، بغداد، د س ن، ص 64-59.

أنه لم يزر المنطقة⁽¹⁾، والذي سنعتمد عليه في ذكر الوصف الجغرافي لهذا المجال وكذا التركيبة الاجتماعية التي حلت به، إلا أن المصدر غاب عنه ذكر الوصف الكامل لمجال بلاد الزاب الواسع كحدود جغرافية وهو ما يعد ثغرة في تغطيته لهذا المجال الحيوي، بينما تطرق إلى المسافة بين مدن الزاب والمدن المجاورة حيث يذكر أن: "المسافة بين بجاية والقلعة خمسة أيام، وهي من عمالة بسكرة... وبين بجاية وطبنة سبع مراحل... وبينها وبين المسيلة اثني عشرة ميلاً... والمسيلة في أرض طبنة... ومن المسيلة إلى طبنة مرحلتان، وطبنة مدينة الزاب... وتخرج من المسيلة إلى طبنة مرحلة... ومن طبنة شرقاً إلى دار ملول مرحلة كبيرة... ومن مدينة طبنة إلى مدينة نقاوس مرحلتان..."⁽²⁾

أما صاحب الاستبصار (عاش خلال القرن السادس/ الثاني عشر ميلادي) الذي وصف المجال الواسع لبلاد الزاب مع ذكر موقعه الجغرافي والذي ضمه إلى بلاد الجريد، في قوله: "وهي على طرف الصحراء وسميت بلاد الجريد"⁽³⁾، للتشابه الطبيعي والمناخي بين الزاب وبلاد الجريد، لاسيما في ما يتعلق بالطابع الصحراوي، وحرارة المناخ، وانتشار زراعة النخيل، ووفرة المياه السطحية والعيون، ما يجعل الزاب أقرب إلى مجال زراعي واحاتي ضمن تخوم الصحراء الكبرى⁽⁴⁾، وأشار هذا الأخير إلى تحول عاصمة الزاب من

(1) أعمار غرايسة: التحولات الاجتماعية والثقافية في واحات المغرب الأوسط (الزاب، أريغ، أسوف، ورجلان) من الفتح الإسلامي إلى القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي، أطروحة مقدمة لنيل أطروحة دكتوراه العلوم في التاريخ الوسيط، تخصص حضارة المغرب الأوسط في العصر الإسلامي، جامعة الأمير عبد القادر، الجزائر، 1439-1440هـ/ 2018-2019م، ص 136.

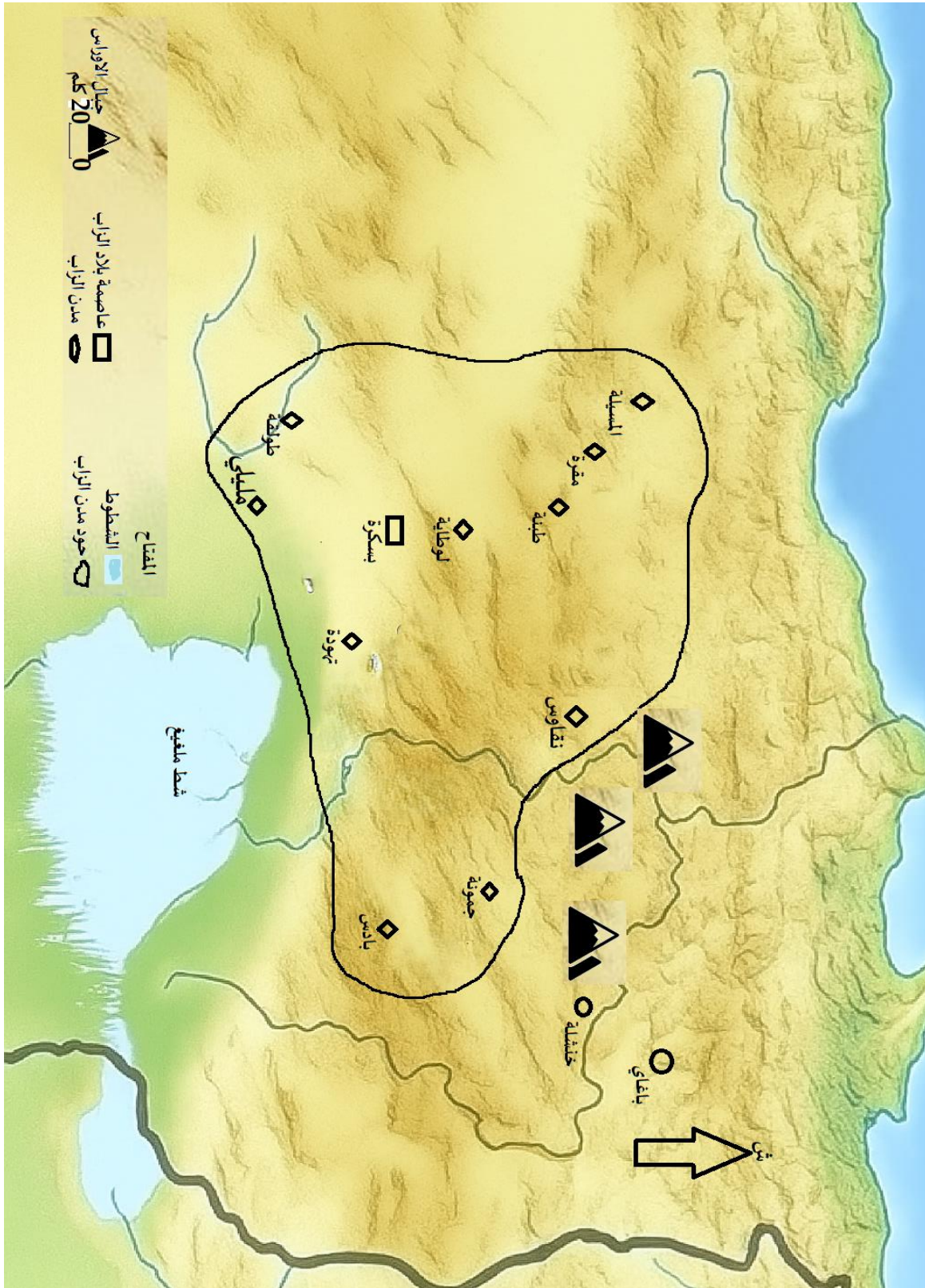
(2) أبي عبد الله بن محمد بن عبد الله الحمودي الحسني المعروف بالشريف الإدريسي (ت 548هـ/ 1153م): نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 1422هـ/ 2002م، مج 01، ص ص 260-265.

(3) بلاد الجريد: يمتد إقليمه من تخوم بسكرة إلى جربة، ويبعد جزء منه كثيراً عن البحر، ينظر: الحسن الوزان: وصف أفريقيا، تر: محمد الأخضر ومحمد حجي، دار الغرب الإسلامية، بيروت، لبنان، ج 02، د س ن، ص 142.

(4) مجهول (ت بعد 587هـ/ 1191م): الاستبصار في عجائب الأمصار، نش وت: سعد زغول عبد الحميد، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، المغرب، 1985م، ص 171.

طبنة إلى بسكرة باعتبارها قاعدته الإدارية، ثم راح يصف أهم مدن هذا الإقليم كمدينة: المسيلة، نقاوس، طبنة، بسكرة، تهودة، بادس.⁽¹⁾

⁽¹⁾ مجهول: الاستبصار، المصدر السابق، ص ص 171-175



خريطة من إنجاز الباحث تيين: مجال وأهم مدن الزاب بداية فترة الدراسة خلال القرن 12م من خلال كتاب العبر لابن خلدون

إلا أن ياقوت الحموي (ت 626هـ/1229م) في مؤلفه معجم البلدان أدرج الامتداد الجغرافي للزاب وبلاد الجريد في مجال واحد، واصفا مصطلح الزاب بالأكبر، حيث أشار إلى أن بعض مدن بلاد الجريد ضمن المجال الواحي لبلاد الزاب في قوله: "الزاب الكبير منه بسكرة، وتوزر، وقسنطينة، وطولقة، وقفصة، ونفطة، وبادس..."، كما ذكر أن هنالك الزاب كورة صغيرة يقال لها ريغ، وهي كلمة بربرية يقال لها السبخة" وأشار أيضا: إلى أن هناك زاب بالمغرب ولعله يقصد أدنة التي تعد حاضرة الزاب في تلك الفترة حين قال " اسم مدينة بالمغرب من أعمال الزاب يقال أن حولها ثلاث مئة وستون قرية"⁽¹⁾، وتجدر هنا الإشارة أن الحموي ذكر زابا آخر كبير بالمغرب الأقصى استنادا على قوله: "والزاب أيضا كورة عظيمة ونهر جرار بأرض المغرب على البر الأعظم عليه بلاد واسعة وقرى متواطنة بين تلمسان وسجلماسة"⁽²⁾، وقيل أن زرعها يحصد في السنة مرتين "⁽³⁾، كما يعتبر بلاد الزاب اسم نهر وصقع في بلاد المغرب من إفريقيا"⁽⁴⁾

أما صاحب كتاب توضيح المشتبه في ضبط أسماء الرواة وأنسابهم وألقابهم وكناهم فسار على نهج ياقوت الحموي في تحديد المجال الجغرافي لبلاد الزاب ببعديه الأكبر والأصغر في قوله: "بالمغرب زابان: فالزاب الكبير عليه عدة بلاد: بسكرة، توزر، طولقة، قفصة، نفزاوة، نفطة، بادس، وهي غير بادس فاس، والزاب الصغير يقال له: ريغ، كلمة بربرية معناها السبخة".⁽⁵⁾

(1) الحموي ياقوت: المصدر السابق، ص 137.

(2) المصدر نفسه، ص 139، ينظر أيضا: بطرس البستاني (ت 1300هـ / 1883م): القاموس المحيط، مادة الزاب، دار الكتب، بيروت، لبنان، 1971م، مج 09، ص 150.

(3) الحموي ياقوت: المصدر السابق، ص 124.

(4) البستاني: المصدر السابق، ص 149.

(5) محمد بن عبد الله بن ناصر الدين (ت 842هـ / 1438م): توضيح المشتبه في ضبط أسماء الرواة وأنسابهم وألقابهم وكناهم، تح: محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط1، 1993م، ج 04، ص 100.

بينما ابن عذاري المراكشي (ت بعد 712هـ / 1312م) جمع بين بلاد الزاب وبلاد الجريد في مجال الزاب الكبير في خضم حديثه عن ولاية إبراهيم بن الأغلب بلاد الزاب ومساندته والي افريقيا ابن العكي والذي اعتبره هو نفسه بلاد الجريد⁽¹⁾، وجاء في معجم السفير: "أن الزاب الكبير منه بسكرة، وتوزر، وقصطيلية، وطولقة، وقفصة، ونفزاوة، ونفطة، وبادس"⁽²⁾، وهو يسير على نهج سابقيه ممن جمع بين الإقليمين.

ونذكر ابن الأثير (ت 637هـ / 1239م) أن بلاد الزاب بلاد واسعة بها عدة مدن وقرى كثيرة⁽³⁾، إلا أنه هو أيضا لم يحدد المجال الجغرافي لهذا الإقليم فهل هو ضمن مجال بلاد الجريد أم إقليم قائم بذاته؟ أما الحسن الوزان فكان أكثر دقة في تحديد هذا المجال، ضمن حدود واضحة المعالم، مع تمييزه عن الأقاليم المجاورة، خلافا لما ذهب إليه بعض المصادر التي تدمجه ضمن بلاد الجريد، بحث أنه يرى أن الزاب يقع بين ثلاث مغازات، بحيث أنه يبدأ غربا من المسيلة يحده شمالا مملكة بجاية، ويمتد شرقا إلى بلاد الجريد، وجنوبا إلى القفار الذي تقطعه الطريق المؤدية إلى تقرت⁽⁴⁾، وورقلة، كما تشمل المنطقة خمسة مدن وقرى كثيرة وهي: بسكرة، البرج، نفطة، تلكة، الدوسن⁽⁵⁾، وقد شدد الوزان على أن الزاب ينفصل كل الانفصال عن بلاد الجريد، على خلاف ما ذهب إليه بعض الجغرافيين قبله.

(1) محمد بن عبد الله المراكشي ابن عذاري (ت بعد 712هـ / 1312م): البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تح ومر: ج. س. كولان، إ. ليفي بروفنسال، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ط03، 1983م، ج01، ص 92.

(2) أبو الطاهر السلفي أحمد الأصبهاني (ت 576هـ / 1180م): معجم السفر، تح: عبد الله عمر البارودي، المكتبة التجارية مكة المكرمة، د س ن، ج01، ص 360.

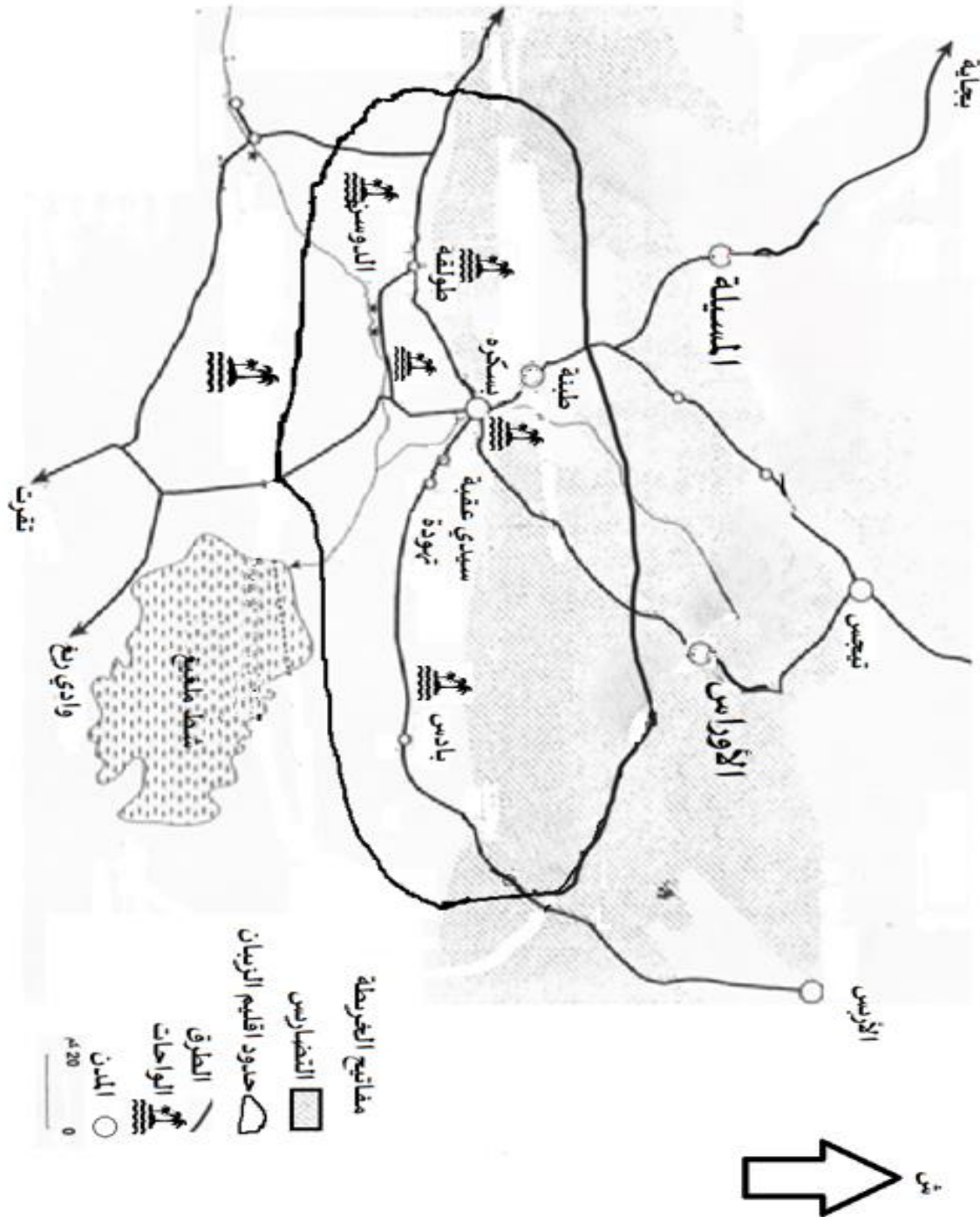
(3) عز الدين أبي الحسن ابن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الجزري ابن الأثير (ت 576هـ / 1180م): الكامل في التاريخ، تح: أبي الفداء عبد الله القاضي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1407هـ / 1987م، مج03، ص 451.

(4) مدينة تقرت: مدينة قديمة بناها النوميديون، يمر في سفحها نهر صغير يقطعها جسر متحرك كما يوجد ذلك في أبواب المدن ينظر: الحسن الوزان: المصدر السابق، ج02، ص 138.

(5) المصدر نفسه، ج02، ص 138.

أما عبد الرحمان ابن خلدون (ت 808هـ/1406م) فذكر وصفا بالغ الأهمية لإقليم الزاب في عصره، وذلك أثناء حديثه عن بني مزني أمراء بسكرة، حيث قدم رؤية دقيقة للبنية العمرانية بتحديد للإقليم مشيرا إلى أهم القرى المحيطة بأم القرى بسكرة في قوله: "وهذا الزاب وطن كبير يشتمل على قرى متعددة متجاورة جمعا جمعا يعرف كل واحد منها بالزاب وأولها زاب الدوسن ثم زاب طولقة ثم زاب ملبان وزاب بسكرة وزاب لميودة وزاب بادس وبسكرة أم هذه القرى كلها".⁽¹⁾

⁽¹⁾ ابن خلدون: العبر، المصدر السابق، ج06، ص 585.



المجال الجغرافي لبلاد الزاب في القرن 8هـ-14م من خلال كتاب العبر لابن خلدون

(المرجع: زياني الصادق: الجغرافية التاريخية، المرجع السابق، ص89.) بتصرف

وفي هذا السياق، لم تغب الدراسات المعاصرة عن محاولة الإحاطة بالمجال الطبونيمي لإقليم الزاب، إذ سعت هي الأخرى إلى إعادة قراءة المصادر، وتقديم تصورات جديدة حول الامتداد الجغرافي والدلالة الاصطلاحية لهذا المجال، بحيث يذكر عبد الرحمان الجيلالي حدوده فيقول أن: "الزاب الجزائر قاعدته مدينة طبنه، وتارة بسكرة والزاب ينقسم إلي قسمين الزاب الأعلى وهو يمتد من جنوب قسنطينة إلي ساحل البحر وهو تابع إداريا لولاية إفريقيا أي تونس الحالية، والزاب الأسفل يمتد من جنوب قسنطينة إلي سفوح جبال الأوراس وهو يعد من مدن المغرب الأوسط".⁽¹⁾

أما ابن العربي فيرى أن تسمية الزاب تنسب تاريخيا إلى منطقة واسعة تشمل بسكرة وما جاورها من القرى والمداشر والمدن، إضافة إلى مدينتي طبنه والمسيلة، حيث تمتد هذه المنطقة لتغطي سهول الحضنة ومدنها الواقعة على السفوح الجنوبية للأطلس مثل مقرة وطبنه، إلا أن المفهوم الجغرافي المعاصر لتسمية الزاب أصبح يطلق على امتداد جغرافي أكثر محدودية، يتركز عند السفوح الشمالية للجبال التي تفصل بين سهول الحضنة والصحراء، وتعد مدينة بسكرة مركزه الأساسي.⁽²⁾

أمام هذا الاختلاف والتباين لذا العديد من المؤرخين والجغرافيين في تحديد التقسيم الجغرافي لمنطقة الزاب، يبرز في تصورات قسم بلاد الزاب إلى زاب أعلى يضم الحضنة وزاب أدنى يضم بسكرة والمدن المجاورة لها⁽³⁾، أما عصر ابن خلدون فقسمت إلى ثلاث أقسام ومناطق متصلة فيما بينها وهي:

(1) عبد الرحمان الجيلالي: تاريخ الجزائر العام، مكتبة الشركة الجزائرية، الجزائر، 1965م، ج2، ص195.

(2) إسماعيل العربي: المرجع السابق، ص142.

(3) علي الهطاي: المرجع السابق، ص19.

- أ- الزاب الظهراوي: يضم كل من طولقة، ليشانة⁽¹⁾، فرفارة⁽²⁾، بوشقرون، فوغالة⁽³⁾، يسمى هذا القسم أيضا بالزاب الشمالي كونه يقع بين تلال الزاب وواد الجدي⁽⁴⁾.
- ب- الزاب الغربي: من أهم قراه: ليوة، الصحيرة، المخادمة، بنطيوس، أوماش⁽⁵⁾، الدوسن⁽⁶⁾، مليلي، أورلال، بادس⁽⁷⁾، وله تسمية أخرى فيعرف باسم الزاب القبلي أو الجنوبي⁽⁸⁾.
- ج- الزاب الشرقي: ويشمل: سيدي عقبة، الدروع، سيدي خليل⁽⁹⁾، تهودة، قرطه، سريانه، زريبة الواد، خنقة سيدي ناجي⁽¹⁰⁾.

ويقسم صالح هدوش إقليم الزاب إلى قسمين رئيسيين هما:

- أ- الزاب الشرقي: ومن مدنه بسكرة، شتمة، سيدي عقبة، زريبة الواد، وخنقة سيدي ناجي الواقعة على التكوينات الفيضية والمنحصرة بين قدم الجناح الجنوبي لجبال الأوراس شمالا وشط ملغيغ جنوبا، ويتميز الزاب الشرقي بشساعته وانبساطه.

(1) ليشانة: توجد بها آثار لتحصينات عسكرية رومانية منها برج للحراسة وآبار تستعمل للشرب والسقاية.

(2) فرفارة: هي واحة بمنطقة الزيبان تقع بالقرب من واحة طولقة وواحة ليشانة، ينظر: الطاهر الطويل: المرجع السابق، ص 140.

(3) إسماعيل العربي: المرجع السابق، ص 143.

(4) عبد الحليم صيد: أبحاث في تاريخ زيبان بسكرة، مطبعة سوف، الوادي، ط 01، 2000م، ص 08.

(5) إسماعيل العربي: المرجع نفسه، ص 143.

(6) الدوسن: من أهم المدن الرومانية بالمنطقة غنية بالآثار التي تعود لتلك الفترة تتخام فيها مملكة بجاية، صحراء نوميديا وقد خربت من قبل الرومان لما دخل جنود المسلمين، ينظر: الحسن الوزان: المصدر السابق، ص 140.

(7) الطاهر الطويل: المرجع السابق، ص 107.

(8) إبراهيم مياسي: المرجع السابق، ص 55.

(9) فاطمة الزهراء غضبان: مدن إقليم الزاب من خلال الكتب الجغرافية النشأة والتطور والاندثار ق 8هـ - 14م (678-804هـ / 1279-1402م)، مذكرة مقدمة لنيل شهادة ماستر أكاديمي في التاريخ، تخصص تاريخ المغرب الإسلامي، 1439-1440هـ / 2019-2020م، ص 12.

(10) كريم الطيب: المعالم الأثرية في منطقة الزاب الشرقي، رسالة ماجستير في علم الآثار الصحراوية، جامعة محمد خيضر بسكرة، 2009م، ص 23.

ب- الزاب الغربي: ومن أهم مدنه ليشانة، بوشقرون، فرفار، طولقة، لغروس، وبرج بن عزوز، وتقع كلها على الطريق الرابط بين بسكرة وبوسعادة عند سفوح جبل بوغزال. (1)
ليصبح إقليم المنطقة الممتدة عبر شريط عرضه حوالي مئة كلم من واحة القنطرة شمالا، إلى واحة الشقة جنوبا، وعبر شريط آخر بحوالي مائتي كم مربع، من واحة خنقة سيدي ناجي في الشرق، إلى واحة سيدي خالد في الغرب. (2)

6- الخصائص الطبيعية للمنطقة:

تقع الزيبان في منطقة تتقاطع فيها طبيعة المناخ بين مناخين مختلفين: المناخ شبه الجاف المتوسطي والمناخ الجاف شبه الصحراوي، هذا الاحتكاك يؤدي إلى خصوصية المناخ في المنطقة، حيث يمكن وصفها بأنها تمتلك مناخا معتدلا في الشتاء لا تقل عن 11 درجة مئوية وحارا جدا في الصيف، حيث تتجاوز في الأيام الحارة العادية 37 درجة مئوية وهذا بسبب تأثير المناخ الجاف شبه الصحراوي، بالإضافة إلى ذلك تكون المنطقة جافة عموما والخالية من الرطوبة خاصة في فصل الصيف. (3)

أما بالنسبة لمعدل التساقط السنوي فيبلغ 155 ملم سنويا، ويحدث بشكل رئيسي في فصل الخريف خاصة في شهر سبتمبر، حيث تكون الأمطار الموسمية وقد تترافق مع الرعود، بينما التساقط النافع للأراضي الذي يزيد عن 5ملم، فيحدث تقريبا تسع مرات في السنة، في بعض الأحيان، قد تحدث أمطار قوية تؤدي إلى جريان الأودية(4)، ويعود هذا إلى عدة عوامل منها الحرارة والرياح الجافة وموقعه خلف الأطلس الصحراوي الذي يرتفع

(1) صلاح الدين هدوش: "قصور الزاب الغربي بين أخطار الاندثار وإمكانية الاستثمار"، مجلة المقدمة للدراسات الإنسانية والاجتماعية، مج 05، ع 02، 2020م، ص 25.

(2) عبد الحميد زردوم: بطاقة تعريف بسكرة، مطبعة المنار، الجزائر، 2004م، ص 05.

(3) إبراهيم مياشي: المرجع السابق، ص 27. ينظر أيضا: غانم محمد الصغير: "منطقة بسكرة بين الموقع الاستراتيجي

والنصوص التاريخية"، المجلة الخلدونية للأبحاث والدراسات التاريخية، ع 03، ص 07.

(4) إبراهيم مياشي: المرجع نفسه، ص 88.

على سطح البحر بـ 128م والذي يعتبر حاجزا طبيعيا يحول بينه وبين السحب المشبعة بالأمطار⁽¹⁾، ورغم قلة الأمطار والتي تعتبر غير كافية لسقي الحبوب إلا أن كثرة السدود والآبار جعل الماء متوفر مما ساعد في قيام واحات غنية يقدر مجموعها بـ ثلاثة وعشرون مليون وتسع مئة وخمسة وأربعون ألف وست مئة (23945600) نخلة متجمعة إضافة إلى المنتجات الزراعية الأخرى كالخضر والفواكه والحبوب⁽²⁾.

تهب على المنطقة نوعان من الرياح أولها شمالية غربية: وتعتبر هذه الرياح عادة رياحا باردة نسبيا نظرا لأنها تأتي من الاتجاه الشمالي، وغالبا ما تتقل بعض الرطوبة والأمطار إلى المنطقة، ورياح جنوبية شرقية تعرف بالسيروكو وهو نوع من الرياح الحارة والجافة تهب في الصحراء الكبرى لشمال إفريقيا، وتتقل هذه الرياح الأتربة والرمال معها، وغالبا ما تكون غير مفيدة للمزارعين والمحاصيل الزراعية في المنطقة، حيث تعمل على جفاف التربة وزيادة نسبة الغبار والأتربة في الجو، مما يؤثر سلبا على نمو النباتات وقد يسبب ضررا للمحاصيل الزراعية⁽³⁾.

(1) عبد القادر بومعزة: بسكرة في عيون الرحالة الغربيين، دار علي بن زيد للطباعة والنشر، بسكرة، الجزائر، ط1، 2016م، ج1، ص 20-21.

(2) عبد القادر بومعزة: المرجع نفسه، ص 21.

(3) عبد الحميد زردوم: بسكرة عروس الزيبان، مطبعة المنار، بسكرة، 2005م، ص 02.

7- التطور التاريخي لإقليم الزاب:

1-7 إقليم الزاب قبل الفتح الإسلامي:

تشير العديد من الدراسات أن الزاب قبل الفتح الإسلامي عرف بنوميديا⁽¹⁾، وهي المنطقة الواقعة في الجنوب الشرقي للجزائر⁽²⁾، والتي دخلت تحت الحكم الروماني سنة 46 ق.م، في فترة "بيوليوس قيصر" وهي جزء من خريطة نوميديا الكبرى التي خلفت نوميديا القديمة⁽³⁾، والتي برزت بشكل ملحوظ بعد شق الطرق وربط المدن ببعضها البعض كطريق القنطرة الرابط بين بسكرة وبطننة والمسمى بغم الصحراء أو كما سماه الكاتب الفرنسي فرومنتناك (FROMENTIN) باب الذهب⁽⁴⁾، و التي تقسيم إلى عدة مقاطعات وأول إمارة ظهرت للرومان تعرف بالاتحاد السيرتي (CirtienneConfédération)⁽⁵⁾ التي قامت من خلال إنشاء عدة مستوطنات

(1) عثمان الكعاك: موجز التاريخ العام للجزائر من العصر الحجري إلى الاحتلال الفرنسي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2003م، ص 100. ينظر: هشام جعيط: المرجع السابق، ص 54. النوميديون نسبة إلى "نوميديا" (NUMIDAE) مصطلح أطلقه الإغريق ثم الرومان على سكان شمال إفريقيا وبالتحديد المناطق الواقعة حاليا شرق الجزائر يحدها شرق نهر الألبساج (Amsaga Ampsaga) أو التوسكة (Tusca) وغرابا رأس التريتون في شبه جزيرة القل. وأعطاهم "هيرودوت" في القرن 05 ق م، صفة المزارعين والرحالة. ينظر: حكيم بوسدر فاطيمة بوراس: الحياة الاقتصادية في مقاطعة نوميديا خلال العهد الروماني (من القرن الأول قبل الميلاد إلى القرن الثالث بعد الميلاد)، مذكرة تدرج ضمن متطلبات نيل شهادة الماستر تخصص تاريخ الحضارات القديمة، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية قسم التاريخ، جامعة ابن خلدون، تيارت، 1443-1444هـ / 2022-2023م، ص ص 08-09.

(2) طه عبد الواحد دنون: دراسات في تاريخ وحضارة الإسلام، دار المدار الإسلامي، بيروت، 2004م، ص 19.

(3) محمد البشير شنياتي: أضواء على تاريخ الجزائر القديم وبحوث ودراسات، دار الحكمة، الجزائر، 2003م، ص 76.

(4) أحمد صفر: مدينة المغرب العربي في التاريخ (عشرون قرنا من تاريخ إفريقية من عصور ما قبل التاريخ إلى آخر العهد البيزنطي)، دار النشر بوسلامة، تونس، 1959م، ج 01، ص 333.

(5) الاتحاد السيرتي يتألف من المنطقة الشمالية الشرقية لنوميديا ويضم "روسيكادا" (Rusicade) و"شولو" (Chullu) و"ميلاف" (Milev) و"قرتن" (سيرتا). لمزيد من المعلومات ينظر: محمد الصغير غانم: "علاقة الرومان في مرحلة الضعف"، مجلة التراث، جمعية التاريخ والتراث لولاية باتنة، دار الشهاب، الجزائر، ع 03، 1988م، ص 27.

-أفريقيا الجديدة (Nouva AFRICA)، أنشأها قيصر في صائفة 46 ق.م. كولاية رومانية ثانية في بلاد المغرب القديم واحتلت مكانة نوميديا الشرقية، وعين على رأسها أحد المتحيزين له وهو المؤرخ "سالوستيوس" (SALLUSTIUS) برتبة نائب قنصل، وأعطاه كل الصلاحيات. لمزيد من المعلومات أنظر: أحمد عثمان: الأدب اللاتيني ودوره الحضاري، حتى

زراعية نموذجية في المنطقة التي استقروا بها، وظهرت ولاية ثانية تعرف باسم أفريقيا الجديدة (AFRICA Nouva)، لتحل محل مملكة نوميديا القديمة وإغائها من الخريطة السياسية لبلاد المغرب القديم⁽¹⁾، لتتطلق بعد ذلك حملة احتلال استيطاني، أخذ يمتد نحو موريطانيا (MAURETANIE)، وفي سنة 42 ق.م أنشأ الرومان ولايتين موريطانيتين تمثلتا في "موريطانيا القيصرية" (Césarienne Mauretanie)⁽²⁾ الممتدة من الوادي الكبير أو نهر الألبساغا (Ampsaga) شرقا إلى واد ملوية غربا⁽³⁾، و"موريطانيا الطنجية" (Mauretanie Tingitan)⁽⁴⁾، الممتدة من طبرقة إلى وادي الرمال، ليظهر اسم "نوميديا" من جيد إثر التقسيمات الإدارية المذكورة والمعتمدة بالمقاطعة.⁽⁵⁾

رغم التقسيمات التي خصت بها نوميديا إلا أن المناطق الجبلية والجنوبية لم تدخل تحت نطاق الحكم الروماني طيلة القرن الأول للميلاد إلا أن الأخطار الناجمة عن الثورات المحلية للسكان عمد الرومان للتوسع في المناطق الجبلية للسيطرة وبسط نفوذها وتطويق المنطقة⁽⁶⁾ بفتح طريق القنطرة في الصحراء التي تخترق جبال الأوراس وصولا إلى مدينة توبني بلمبار⁽⁷⁾، قام الرومان بإنشاء مدن كقواعد عسكرية لحماية الجبهة الجنوبية للمملكة،

نهاية العصر الذهبي، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، 1989م، ص 190؛ ينظر أيضا: محمد الصغير غانم: المرجع السابق، ص 164.

(1) عبد الحميد عمراني: "نوميديا أثناء الاحتلال الروماني"، عصور الجديدة، ع 10، جويلية 1434هـ/2013م، ص 12. دنون طه عبد الواحد: المرجع السابق، ص 19.

(2) علي الهطاي: المرجع السابق، ص 35.

(3) عبد الحميد وبونقاب عماد بعبطيش: "مدن مقاطعة موريطانيا القيصرية من خلال المصادر الأدبية والمادية"، وراق المجلة الدولية للدراسات الأدبية والإنسانية، مخبر الموسوعة الجزائرية الميسرة، جامعة باتنة، الجزائر، مج 02، ع 01، مارس 2020م، ص 170.

(4) عبد الحميد عمراني: المرجع نفسه، ص 12.

(5) علي الهطاي: المرجع نفسه ص 35.

(6) عبد الحميد عمراني: المرجع نفسه، ص 13.

(7) Gascou(j): La politique municipale de l'empire romain en Afrique proconsulaire de Trajan à septime sévère, Ecole français de Rome 1972,p 204.

كمدينة طبنة (Tubunae)، التي تم تأسيسها في عهد الإمبراطور الروماني ترايانوس 98-117م⁽¹⁾، كما قاموا بتأسيس المدينة الحربية بسكرة⁽²⁾ (vescera).⁽³⁾ (ينظر الملاحق رقم: 01-02-03-04).

وبعد دخل الوندال أرض الشمال الإفريقي سنة 429م مستغلين سواحلها للإستقرار دون التوغل في داخل البلاد نظرا للضعف الذي عانى منه الوندال والذي أستغله البيزنطيون لبسط نفوذهم واسترجاع المستعمرات الرومانية المسلوبة⁽⁴⁾، بحيث جاءت حملة (بيلزاريوس) سنة 533م، بأمر من الإمبراطور البيزنطي (جستنيان) قصد استعادة مناطق النفوذ الروماني بالمنطقة، ونجح القائد في الاستلاء على قرطاجة (تونس) عام 534م⁽⁵⁾، ونوميديا سنة 553م، ليتوسع إلى مدن أخرى كقسنطينة، الأوراس، الحضنة، تبسة، خنشلة، تيمقاد، وصولا إلى جنوب هذه المدن: لمبيز، طبنة⁽⁶⁾، وصولا إلى مدينة نقرين التي تم فيها اكتشاف ألواح ألبرتيني حيث جاء فيها ذكر مدينة نقرين⁽⁷⁾، كما ذكرت مدن أخرى جنوب الأوراس في كتاب المنجزات لمؤلفه البيزنطي بروكوبيوس بعد نشره من طرف لوسانج مثل مدينة بادس، باغاي، مديلة⁽⁸⁾، ويتفق معه في الرأي (Trousset) باعتباره أن مدينة بادس (Badias)،

⁽¹⁾ Mesange(j): *Romanisation de l'Afrique*, Gabriel Beauchesme éditeur, Paris 1913, p127.

⁽²⁾ عبد الغني غانم: مدينة بسكرة نموها وتهنئة محالها الحضري، حوليات وحدة البحث بإفريقيا العالم العربي، مجلة محكمة، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، 1999م، مج03، ص 24.

⁽³⁾ vescera: كلمة ذات أصل فينيقي تعني مستودع الأسلحة، وهذا ما يجعلها مركزا حريا تتوسع من خلاله الإمبراطورية الرومانية في منطقة الزاب. ينظر: أسماء وشرف عبد الحق خلوط: "المدن الصحراوية في كتابات الجغرافيين بسكرة أنموذجا"، مجلة العبر للدراسات التاريخية والأثرية، مج03، ع 01، جانفي 2020م، ص 216.

⁽⁴⁾ علي الهطاي: المرجع السابق، ص 35-36.

⁽⁵⁾ يحي بوعزيز: الموجز في تاريخ الجزائر (القديمة والوسيطه)، ديوان المطبوعات الجامعية، ط02، 2007م، ج01، ص 65.

⁽⁶⁾ المرجع نفسه، ص 66.

⁽⁷⁾ أيوسف عبّيش: الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية لبلاد المغرب، أثناء الاحتلال البيزنطي، أطروحة دكتوراه دولة في آثار وتاريخ المغرب القديم، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة منتوري، قسنطينة، الجزائر، 2006/2007م، ص 48.

⁽⁸⁾ المرجع نفسه، ص 48.

وتهودة(Thouda)، وباغية(Baghai)، كانت في صف جيستينيان(Justinien) في مواجهة القبائل الماورية⁽¹⁾، وهذا دليل واضح لوصول البزنطيين بنفودهم إلى الجنوب الجزائري، وبعد الإستقرار البيزنطي بالمنطقة عمل القائد صولون (سليمان الخصي) على إقامة تحصينات قوية بإعادة بناء وترميم مدينة زابي جيستينيان ومدينة طبنة⁽²⁾، سنة 540م⁽³⁾، إلا أن بعض المؤرخين أمثال غيستيل(Gstell) و ديهل (Diehl)، نفوا الوجود البيزنطي في أراضي الزاب جنوب جبال الأوراس معللين ذلك بعدم قدرة البزنطيين على التحكم وضبط حركة القبائل الصحراوية.⁽⁴⁾

عمد البيزنطيون في حكمهم إلى النظام العسكري وهذا بجعل حاكم عسكري على كل منطقة ومنها بلاد الزاب التابع لإقليم نوميديا، قصد حماية مناطقهم من الأخطار المحدقة⁽⁵⁾، وإقامة نظام اقتصادي يقوم على الجباية وفرض الضرائب على الأهالي وإجبارهم على اعتناق الدين المسيحي بمذهبه الكاثوليكي الذي أعتمد سنة 535م مذهباً سميّاً للإمبراطورية⁽⁶⁾، مما جعل البربر يقومون بثورات ضارية ضدهم مثل بيداس الذي كان على جبال الأوراس وقطزياس الذي كان شرقي جبال الأوراس الذين هزمهم في معركة

(1)Trousset(P.): « Badias » , E.b.,T. IX , 1991, p. 1299-1302.

(2)شنتي محمد البشير: المرجع السابق، ج02، ص 459. وينظر: موسى لقبال: "طبنة مدينة الزاب والأوراس في العصور الوسطى"، مجلة الأصالة، مطبعة البعث، قسنطينة، ع: 60-61، 1978م، ص87.

(3)Diehl : d'afrique byzantine , histoire de la domination byzantine en afrique , paris 1966 ,p p 200-201.

(4)أيوسف عبّيش: المرجع السابق، ص48.

(5)شارل أندري جوليان: تاريخ إفريقيا الشمالية، تر: محمد البشير سلامة، الدار التونسية للنشر، تونس، 1969م، ص 363.

(6)نسين يوسف جوزيف: تاريخ الدولة البيزنطية (284هـ-1453م)، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1999م، ص 77.

تبسة سنة 44م، واسترجعوا الكثير من الأراضي التي احتلها الرومان ووجدوا قبائلهم واستقلوا بأراضيهم عن الوافد الجديد. (1)

وما نخلص إليه أن الوجود البيزنطي بمنطقة الزاب كان يتمثل في إقامة قواعد عسكرية متقدمة للحماية فحسب باعتبارها حدودا بيزنطية الجنوبية لخط الأوراس مما يستوجب عسكريا تحصينها لصد ما قد تتعرض له من أخطار أو غارات، ونظرا لتلك التهديدات الجنوبية المتتالية للقبائل البربرية عمد البيزنطيون لبناء جملة من المدن قصد الحماية كبسكرة أو فيسكرة، باغية وبلزمة وطبنة وكذلك مدينة أذنة (2)، أو أذنة (3)، أو أربة (4)، والتي كانت تسمى بالزابي التي تعتبر من أهم المدن في خط الدفاع المعروف بخط الليماس (Limes). (5)

(1) مبارك بن محمد الملي: تاريخ الجزائر في القديم والحديث، المؤسسة الوطنية للكتاب، د س ن، ج 01، ص 369.
(2) بعد دخول عقبة ابن نافع بلاد الزاب سأل عن أعظم مدنها قيلة أذنة (بالذال)، وبها ثلاث مئة وستون قرية. ينظر: عبد الله بن محمد المالكي (ت بعد 453هـ/1061م): رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقيا وزهادهم ونساکهم وسیر من أخبارهم وأوصافهم، تح: البشير البكوش، راج: محمد العروسي المطوي، دار الغرب الإسلامي، ط 02، بيروت لبنان، 1994م، ج 01، ص 36.

(3) ووردة لفظة أذنة عند المقدسي وهو يعدد مدن الزاب: ينظر: المقدسي: المصدر السابق، ص 221.
(4) أربة: اسم مدينة بالمغرب، وهي أكبر مدينة بالزاب يقال: إن حولها ثلاثمائة وستين قرية. ينظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان، المصدر السابق، ج 01، ص 169.
(5) أندري جوليان: المرجع السابق، ص 22.

2-7 إقليم الزاب بعد الفتح الإسلامي:

بعد الفتح الإسلامي لمصر على يد عمرو بن العاص⁽¹⁾ سنة (20 هـ / 640 م)⁽²⁾، ولتأمين الحدود الغربية قرر الجيش الإسلامي بقيادة عمرو بن العاص مواصلة الفتوحات اتجاه المغرب وقد اختلف المؤرخون في تاريخ فتح برقة، بحيث أرجعها البعض إلى سنة (21هـ/642م)⁽³⁾، والبعض الآخر إلى سنة (22 هـ / 643 م)⁽⁴⁾، وبعد أن تمكنوا من افتتاح مدينة برقة التي كانت آنذاك مركزا هاما للإمبراطورية البيزنطية، إذ كانت تمثل الحاجز الدفاعي الرئيسي في وجه التقدم الإسلامي نحو الغرب، وقاعدة استراتيجية حالت، دون توغل الجيوش الإسلامية في عمق إفريقية والمغرب، انطلقت جحافل المسلمين نحو فتح بلاد المغرب في حدود سنة (27 هـ / 647م) إلا أن الفتح لم يكن بالأمر اليسير نظرا لعدة عوامل منها طبيعة المغرب الصعبة، والمقاومات العنيفة التي تلقاها المسلمون من طرف السكان المحليين ظنا منهم أن المسلمين قدموا للمغرب كالرومان والبيزنطيين قصد

(1) هو عمرو بن العاص بن وائل بن هاشم بن سعيد بن سهم بن عمرو بن هصيص ابن كعب بن لؤي بن غالب، أبو عبد الله، وقيل: أبو محمد القرشي السهمي الصحابي؛ أسلم يوم الهدنة وهاجر. ينظر: جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي الأتابكي (ت 874هـ / 1470م): **النجوم الزهراء في ملوك مصر والقاهرة**، تق وتغ: محمد حسن، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط01، 1413هـ/1992م، ج01، ص 61.

(2) أحمد عادل كمال: **الفتح الإسلامي لمصر**، الشركة الدولية للطباعة، ط01، 1423هـ / 2003م، ص 381.

(3) أبو عبد الله محمد بن عمر بن الوقاد الواقدي (207هـ / 823م): **فتوح الشام**، ضب وتغ: عبد اللطيف عبد الرحمان، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط01، 1417هـ/1997م، ج02، ص 72. وينظر أيضا: أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح المعروف باليعقوبي: **تاريخ اليعقوبي**، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط06، 1415هـ/1995م، مج 02، ص156. ينظر أيضا: الأتابكي: المصدر نفسه، ج01، ص 75.

(4) ابن الأثير: **الكامل في التاريخ**، المصدر السابق، ج02، ص 428. كما يرجع ابن خياط فتح طرابلس إلى سنة 22هـ ينظر: ابن خياط أبو عمرو خليفة ابن أبي هبيرة الليثي العصفري الملقب بشباب (ت 240هـ / 854م): **تاريخ خليفة بن خياط**، تح: مصطفى نجيب فواز، حكمة كشلي فواز، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط01، 1415هـ/1995م، ص86. وينظر أيضا: أبو العباس أحمد بن خالد الناصري: **الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**، تح: جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، المغرب، 1418هـ/1997م، ج01، ص85.

الاحتلال والنهب، لهذا لم يتمكن المسلمون من فتح بلاد الغرب إلا بعد عدة حملات قادها فاتحون أجلاء.

من الممكن أن نتخذ من تاريخ خروج الصحابي عقبة بن نافع إلى أرض المغرب وتأسيس مدينة القيروان نقطة تحول وبداية تاريخ الإسلام ببلاد المغرب وأول مرحلة من مراحلها، أما دخول المسلمين قبل ذلك في عهد عمرو بن العاص وفي عهد عبد الله بن سعد (27هـ / 647م)⁽¹⁾ ثم معاوية بن حديج (45هـ / 666م)⁽²⁾ فكان دخولا خاطفا كل اعتماده على السرايا بذلا من الجيوش المنظمة، غير أن عقبة بن نافع في ولايته الأولى ورغم بناء مدينة القيروان سنة 50هـ / 670م⁽³⁾، إلا أنه لم يستطع إخضاع القبائل البربرية بإفريقيا (تونس) والمغرب ولم يتم الأمر إلا على يد أبي المهاجر دينار (55 - 62هـ / 671-674م).⁽⁴⁾

والجدير بالذكر أن الفاتحين وجدوا جبهة المغرب الأوسط من أصعب الجبهات لشدة مقاومة أهلها والتي دامت سبع سنوات خمس منها حروب، ظنا منهم أن الفتح الإسلامي جاء كغيره من الاحتلالات السابقة كالرومان والوندال والبيزنطيين الذين دامت مدة حكمهم

(1) إيمان شعبان: الفتح الإسلامي لبلاد المغرب، مجلة مفاهيم للدراسات الفلسفية والإنسانية المعمقة، ع 09، أبريل 2021م، ص 173 - 174. ينظر: محمد بن عميرة: الفتح الإسلامي لبلاد المغرب، ديوان المطبوعات الجامعية، ط02، 2017م، ص 38. خليف حليم الكاني: الفتح الإسلامي للمغرب والأندلس، سلسلة تاريخ الأندلس، ط01، 2017م، ص 27.

(2) إيمان شعبان: المرجع نفسه، 174. ينظر: بن عميرة: المرجع نفسه، ص 55. الكاني: المرجع نفسه، ص 33.
(3) عبد الله الزكرة: عقبة بن نافع، راج: سعيد عبد السلام ومحمد سويي، دار قتيبة، 1981م، ص 85. ينظر أيضا: محمد محمود القاضي: عقبة بن نافع الفهري فاتح إفريقيا، دار التوزيع والنشر الإسلامية، 1419هـ / 1999م، ص 34. أما ابن عذاري المراكشي فيرى أن بناء مدينة القيروان بدأ سنة 51هـ. ينظر: ابن عذاري: المصدر السابق، ج01، ص 44.

(4) كارل بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية، تر: نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط05، 1977م، ص 127.

في المغرب لفترة تزيد عن 1500 سنة⁽¹⁾، من الاستعباد والاستبداد مما جعل أهل المنطقة لا تسكن ثوراتهم حتى أصبح أهل المغرب أهل حرب ونجدة، وهذا من خصال البدو الذين لا يرضون الخضوع ويفضلون الترحال والحرب على الاستكانة لسلطان جائر.⁽²⁾ ما يجدر الإشارة إليه هو التحول الجذري الذي عرفه المجتمع المغربي في تفاعله مع الفتح الإسلامي، إذ على الرغم من المقاومة الشديدة التي أبدتها القبائل المحلية في بادئ الأمر، والتي دامت لسبع سنوات فقط، إلا أنها ما لبثت أن تبنت الإسلام دينا والعربية لغة، إلا أن الرومان والوندال والبيزنطيين لم يتمكنوا من الانصهار في المجتمع المغربي ولم يتمكنوا من فرض دينهم وإقناع القبائل البربرية به رغم ول المدة التي زادت عن ستة عشر قرن.

وعلى ما يبدو أن القبائل البربرية لم تتقبل الفتح وقاوموه أشد مقاومة حتى هزم المسلمون من طرفهم مرتين الأولى على يد كسيلة بن بلزم في معركة تهودة (سيدي عقبة حاليا) سنة (64 هـ/683م)⁽³⁾، والثانية على يد أميرة الأوراس وقبيلة جراوة والملقبة بالكاهنة سنة (74 هـ/693م).⁽⁴⁾

إلا أن المسلمين استطاعوا كسب ثقة القبائل باللين والتقرب من كبار القبائل وإطلاعهم على الأهداف النبيلة للإسلام التي تحث على المساواة وعدم التفرقة بين العرب والعجم والبيض والسود إلا بالتقوى، كما أشركوهم في الحكم وقيادة الجيوش كهلal بن تروان اللواتي وطريف بن مالك وكذلك طارق بن زياد الذي قاد جيش فتح الأندلس.⁽⁵⁾

(1) عبد العزيز فيلالي: بحوث في تاريخ المغرب الأوسط في العصر الوسيط، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، عين مليلة الجزائر، 2014م، ص 15.

(2) فيلالي: دراسات في تاريخ الجزائر والمغرب الإسلامي، المرجع السابق، ص 37.

(3) ابن عذاري: المصدر السابق، ص 57.

(4) المصدر نفسه، ص 63. ينظر أيضا: الرقيق القيرواني (ت 420 هـ/1029م): تاريخ إفريقيا والمغرب، تق وتحت وت:

محمد زينهم ومحمد عزب، دار الفرجاني للنشر والتوزيع، ط01، 1414 هـ/1994م، ص 19.

(5) فيلالي: بحوث في تاريخ المغرب الأوسط في العصر الوسيط، المرجع السابق، ص 17.

يعتبر عقبة بن نافع في ولايته ثانية على إفريقيا سنة (62 هـ / 683م) من قبل يزيد بن معاوية، أول من دخل بلاد الزاب بعد أن أجمع على التوغل بجيوشه في المغرب محاصرا قلعة مجانة، وقاتل أهل باغية خارج حصونهم حتى هزمهم ثم انتقل إلى المسن وهزم أهلها خارج الحصن⁽¹⁾، وبعد دخوله بلاد الزاب سأل عن أعظم مدائنها قيل أدنة، فلما سمعوا بقدومه هربوا منه حتى التقى الجمعان عن الوادي على بعد ثلاثة أميال من أدنة مساء فكره قتالهم بالليل فسهروا عليه حتى سمي بوادي سهر ولما حل الصبح قاتلهم وانتصر عليهم وذهب عز الروم من بلاد الزاب.⁽²⁾

على الرغم من الانتصارات التي حققها عقبة بن نافع ببلاد المغرب إلا أن بعض المؤرخين أجمعوا على أن انتصاراته لم تكن حاسمة إذ يقاتل البيزنطيين إلى أبواب حصونهم لكنه يكره أن يحاصر مدنها فيرحل.⁽³⁾

وصولا إلى طنجة بعد أن أخضع للإسلام برانسة المغرب الأوسط وزناتة ومصمودة الساحل، وكان عقبة بهذا أول قائد عربي مسلم يصل إلى هذه الأراضي النائية بالمغرب الأقصى، بل أنه وصل بجيوشه إلى إقليم السوس الأدنى والسوس الأقصى ووصل إلى جبال درنة ديار الملتمين وانتصر عليهم فكان بهذا أول من أخضع أهل اللثام من المصامدة للإسلام، وصولا إلى المحيط ثم رفع يديه إلى السماء وقال: "يا رب ولولا أن البحر منعني لمضيت في البلاد إلى مسلك ذي القرنين مدافعا عن دينك مقاتلا من كفر بك".⁽⁴⁾

(1) القيرواني الرقيق: المصدر السابق، ص 42.

(2) أبو زيد عبد الرحمان بن محمد الأنصاري الدباغ (ت 699هـ / 1299م): معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، تع: أبو الفضل بن قاسم بن عيسى بن ناجي التنوخي، تصحيح وتعليق: إبراهيم شيوخ، مكتبة الخانجي، مصر، ط2، 1968م، ج1، ص 49. ينظر أيضا: ابن عذاري: المصدر السابق، ج1، ص 49. القيرواني: المصدر نفسه، ص 42.

(3) القيرواني: المصدر نفسه، ص 43. ينظر أيضا المالكي: المصدر السابق، ج1، ص 36-37.

(4) ابن عذاري: المصدر السابق، ج1، ص52.

بعدها ولى عقبة أدراجه قاصدا إفريقيا فلما دنا منها أدن لجنوده أن يفترقوا ويتقدم فوج فلما انتهى إلى ثغر طنبنة⁽¹⁾، أمر جنوده بالانصراف إلى إفريقيا⁽²⁾، واندفع في الطريق إلى جبال الأوراس على رأس فرقة صغيرة، وفي سنة 683م أوقع به البربر عند تهودا على طرف الصحراء الكبرى⁽³⁾، وسار إلى تهودة فلما انتهى إليها هو ومن معه غلق الروم أبواب حصونهم وجعلوا يشتمونه ويرمونهم بالحجارة⁽⁴⁾، وبعثوا إلى كسيلة بن لمزم الأوربي فغشيهم بالقرب من تهودة وقتل كسيلة عقبة بن نافع وأبي مهاجر بن دينار ومن معهم⁽⁵⁾، وأسر من الصحابة يومئذ، محمد بن أوس الأنصاري ويزيد بن خلف القيسي ونفرا معهم ففداهم بن مصاد صاحب قفصه⁽⁶⁾، وسميت المنطقة بسيدي عقبة والتي سنتكلم عنها كمعلم أثري وتاريخي رسخ الوجود الإسلامي بالمنطقة في قادم ورقات البحث.

(1) المالكي: المصدر السابق، ج01، ص39. ابن عذاري: المصدر نفسه، ج01، ص54.

(2) الدباغ: المصدر السابق، ج01، ص48.

(3) بروكلمان: المرجع السابق، ص127. ينظر أيضا: شارل أندري جوليان: تاريخ أفريقية من الفتح الإسلامي حتى 1830م، تح: محمد مزالي والبشير بن سلامة، الدار التونسية، تونس، 1978م، ج02، ص22.

(4) ابن عذاري: المصدر نفسه، ج01، ص54.

(5) ابن خلدون: المصدر السابق، ج06، ص142.

(6) محمد بن عبد الله ابن الأبار (ت 658هـ / 1260م): الحلة السيرة، دار المعارف، القاهرة، ط02، 1985م، ص328.

الفصل الثانى:

التركيبه الاثنيه والاجتماعيه لبلاد الزاب

1- مجتمع متنوع:

شهد المغرب الإسلامي عبر تاريخه الوسيط وبلاد الزاب على وجه الخصوص وجود عدة شرائح مكونة لبنية مجتمعه، وكان في طليعتها البربر، الذين انتشروا في مختلف أنحاء المغرب، سواء في المدن أو البوادي، كما استقر فيه أيضًا العرب.

1-1. البربر:

خص ابن خلدون البربر⁽¹⁾ بوصف دقيق يبرز فيه ملامح حياتهم الاجتماعية ببلاد المغرب مبرزاً وجود هذا العنصر في واحات المغرب ومنها مجال بلاد الزاب، بحيث أشار إلى نمط عيشهم الذي يغلب عليه الطابع البدوي والرعوي، في الجبال والسهول، والأرياف والضواحي، حيث تعتبر مهنة الرعي من أبرز مصادر عيشهم، إلى جانب تربية الماشية وخاصة الشاء (الغنم)، والبقر، والخيول.⁽²⁾

كما أشار ابن خلدون إلى النمط العمراني المستغل على حسب الحاجة فمنهم من اختار الاستقرار وسكن البيوت المبنية من الحجارة والطين، ومنهم من مارس مهنة الرعي وأجبر على

(1) كلمة بربر: اختلفت التعاريف في تحديد مفهوم هذا المصطلح فهناك من قال أن المصطلح أطلقه الرومان على كل من يتحدث لغتهم، ويقال مصدرها الأول هي الكلمة اليونانية "قارفاروس" وتعني اللغظ والرطانة والضوضاء أو الهمجية والقسوة والقصد منها التحقير والاستخفاف وهذا ما توصل إليه العديد من الباحثين بأن التسمية الحقيقية لسكان المغرب هي "أمازيغ" ومازيغ هو الأب الأول للبربر كما تعني الرجل الخشن والنبيل والحر، وقد ارتبطت تسميتها بمواقف كثيرة ونجدها عند هيرودوت وهيكتاتايوس (Mazyes) ووجدت (Imusagh) غرب فزان و (Imazighen) في الأوراس. للمزيد من المعلومات ينظر: الدراجي بوزيان: القبائل الأمازيغية، دار الكتاب العربي، الجزائر، 2017م، ج01، ص 15. أما الرأي الآخر فنسبوا البربر إلى جدهم بر، وهنالك من قال أن اللفظة أطلقها أفريقش على سكان يكثرون الكلام فقال لهم ما أكثر بربرتكم فسمو ببربر. ينظر أيضاً: محمد الهادي حارش: التاريخ المغربي القديم السياسي والحضاري منذ فجر التاريخ إلى الفتح الإسلامي، دار هومة، الجزائر، 2014م، ص 25. والبربر من ولد حام بن نوح بن بربر بن تملان بن مازيغ بن كنعان بن حام، وقيل هم من ولد بربر بن كسلاجيم. ينظر: ابن خلدون: المصدر السابق، ج06، ص 123. ينظر أيضاً: رمضان مراد ظريف: دراسة في التراث الجغرافي العربي ابن حوقل ومنهجه الجغرافي وتحقيق ودراسة لجغرافية مصر من كتاب (صورة الأرض)، تق: محمد محمود إبراهيم الديب، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 2004م، ص 232.

(2) ابن خلدون: المصدر السابق، ج06، ص 116.

الحل والترحال فأجبر على الاعتماد في مسكنه على بيوت يسهل حملها فاعتمد في صناعة بيته على الخوص والشجر أو الشعر والوبر. (1)

كما أنه لم يغفل على الإشارة إلى وجود الطبقة الاجتماعية داخل القبائل البربرية، بحيث ذكر أشرافهم والذي سماهم بأهل العز والغلبة، الذين كانوا يمارسون الترحال الموسمي لانتجاع المراعي، دون أن تتوغل عميقا في الصحاري، أما على المستوى اللغوي فقد كانت لهم لغة خاصة يطلق عليها اسم الرطانة. (2) ويقال أن أصلهم يعود إلى جدهم الأعلى مازيغ بن كنعان بن حام. (3)

أضحى استعمال لفظة البربر أكثر تداولاً خاصة في مصادر الفتوح والأنساب العربية، إلا أن الاختلاف في معانيها وأبعادها بات واضحاً لذا الباحثين، بحيث أرجع بعض المؤرخين أصل التسمية إلى الرومان الذين أطلقوا هذا اللفظ على الشعوب التي لا تنتمي إلى حضارتهم (4)، في حين يرجع البعض الآخر أصلها إلى جدهم بر (5)، وفي المقابل فسرت روايات أخرى التسمية بكونها نابعة من اختلاط أصوات لغتهم أو صعوبة فهمها بالنسبة للعرب. (6)

(1) ابن خلدون: المصدر السابق، ج06، ص 116.

(2) المصدر نفسه، ج06، ص 116.

(3) موسى لقبال: المغرب الاسلامي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط02، 1981م، ص 17.

(4) شارل أندري جوليان: تاريخ إفريقيا الشمالية (تونس - الجزائر - المغرب) من البدء إلى الفتح الإسلامي 647م، تر: محمد مزالي والبشير بن سلامة، الدار التونسية، تونس، الجزائر، ط03، 1978م، ج01، ص 19. ينظر كذلك: محمد الصغير غانم: مقالات وآراء في تاريخ الجزائر القديم، دار الهدى، الجزائر، 2005م، ص 12.

(5) أحمد بن علي بن عبد القادر أبو العباس المقرئ (ت 845هـ / 1442م): البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب، تر: فرناند وأسطون فيلد، مطبعة جوتنجن، ألمانيا، 1897م، ص 31. روجي إدريس الهادي: الدولة الصنهاجية (تاريخ إفريقيا في عهد بني زيري من القرن 10 إلى القرن 12م)، تر: حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط01، 1992م، ج01، ص 32.

(6) البربر: لغة هي الصوت والكلام من غضب وبربر مثل ثرثرة وهي التخليط في الكلام. ابن منظور: المصدر السابق، ج09، ص 56.

وهم مجموعة عرقية تتألف من قبائل وبطون وعشائر تنتشر في منطقة المغرب، وتمتد أراضيهم من نهاية مصر شرقا إلى المحيط الأطلسي غربا، وهم مرتبطون من ناحية الجنوب بالصحراء الكبرى بأراضي السودان⁽¹⁾، تختلف الروايات بين المؤرخين القدماء عن أصول البربر بحيث:

ذكر هيرودوت قبائل الماكسي (Maxyes) واصفا إياهم بأنهم برابرة مستقرون يحترفون الزراعة، وذكر أن أصلهم طروادي⁽²⁾، كما أشار إلى أن السكان الأصليين في المنطقة هم الليبيون والأثيوبيون، وأن الفينيقيين والإغريق كانوا من الوافدين عليهم.⁽³⁾

وذكر سالوست (salluste) في كتابه حرب يوغرطة، أن السكان الأصليين لأفريقيا كانوا من الجيتوليون والليبيون، وبعد موت هرقل في إسبانيا، تفرق جيشه الذي كان يتكون من أخلاط وأجناس مختلفة، من بينهم الميديون والفرس والأرمن، وتوجه هؤلاء إلى أفريقيا واختلطوا بالجيتوليين، وسموا بالنوماد (Nomades)، في حين أن الميديين والأرمن اختلطوا مع الليبيين وأصبحوا يعرفون بالموريين.⁽⁴⁾

أما المؤرخ البيزنطي بروكوبيوس (burkubys) أشار إلى أن البربر من أصول كنعانية، كما استخدم مصطلح المور (Maures) للإشارة إلى جميع الأفارقة الذين حافظوا على هويتهم وتقاليدهم خارج السيطرة الرومانية، ويعتبر هذا المصطلح جامعا لأفراد من مختلف القبائل الأفريقية التي لم تتأثر كثيرا بالهيمنة الرومانية في تلك الفترة.⁽⁵⁾

(1) محمد مبارك الملي: تاريخ الجزائر في القديم والحديث، دار الأرب الاسلامي، بيروت، د س ن، ج 01، ص 97.

(2) محمد العربي عقون: الاقتصاد والمجتمع في الشمال الإفريقي القديم، سلسلة الكتب الأساسية في العلوم الانسانية

والاجتماعية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2008م، ص 189.

(3) هيرودوت: تاريخ هيرودوت، تر: عبد الله الملاح، اصدرات المجلد الثقافي، أبو ظبي، 1422هـ/2001م، ص 369.

(4) سالوست: حرب يوغرطة، تر: ياسمينه بريهوم، فيصل الأحمر، دار الألفية للنشر والتوزيع، الجزائر، 2010م، ص ص

43-41.

(5) محمد العربي عقون: المرجع السابق، ص 190.

وهو ما أشار إليه المسعودي بحيث يرجح هو الآخر أن البربر من أصول كنعانية، وقال أن جالوت سار بهم من فلسطين، وهذا الرأي يتوافق مع بعض النظريات التي تشير إلى أن البربر قد يكونون من أصول مشرقية قديمة. (1)

كما ذكر أبو العباس الدرجيني في كتابه طبقات المشائخ في نص يتحدث فيه عن وفد من البربر ينسبون إلى قبيلة لواتة، وقد قدموا إلى الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه على يد عمرو بن العاص، وهم محلوقا الرؤوس واللحي (2)، سأل عمر بن الخطاب جلساءه إذا كانوا يعرفون شيئاً عن هذه القبيلة في أي من قبائل العرب أو العجم، أجابه العباس بن مرداس السلمي بأنه يعرف عنهم القليل، وقال إنهم من نسل بني قيس، وكان لقيس عدة أبناء، أحدهم يسمى بربر بن قيس، وكان في خلقه بعض الغرابة، وخرج هذا الابن إلى البراري حيث تكاثر نسله وأولاده، ولذلك كانت العرب تقول تبربروا أي تكاثروا، إشارة إلى انتشار نسل بربر بن قيس. (3)

ويذكر ابن خردادذه أن البربر كانوا ملوكاً في منطقة فلسطين قبل أن ينتقلوا إلى المغرب بعد مقتل جالوت على يد النبي داوود عليه السلام (4)، بينما ينفي ابن حزم (465هـ / 1064م)

(1) أبي الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي (ت346هـ/957م): مروج الذهب ومعادن الجوهر، اعتنى به: كمال حسن مرعي، المكتبة العصرية، بيروت، ط1، 1425هـ/2005م، ج1، ص44.

(2) أبو العباس أحمد بن سعيد بن سليمان بن علي بن خلف التجاري الدرجيني (ت626هـ / 1229م): طبقات المشائخ بالمغرب، تح: إبراهيم طلاي، الجزائر، 1394هـ/1974م، ج1، ص17.

(3) المصدر نفسه، ص17.

(4) ابن خردادذه: المصدر السابق، ص91. ينظر أيضاً: صالح بن عبد الحليم المصمودي: المقتبس من تاريخ البربر في المغرب والأندلس، تح: بوباية عبد القادر، مكتبة الرشاد للطباعة والنشر، 1430هـ / 2013م، ص340.

أصولهم التي تعود إلى حام ابن نوح عليه السلام، أو إلى بر⁽¹⁾ بن قيس بن عيلان وردهم إلى أب واحد. (2)

من خلال ما ورد يمكنني أن أميل إلى أن البربر يعودون في أصولهم إلى العرب، وتحديدًا من بني قيس وهي قبيلة كبيرة العدد وكثيرة البطون والعشائر، وكانوا يسكنون في البراري، حتى أصبح يطلق عليهم البربر، بحيث اكتسب مصطلح البربر دلالات تاريخية في المصادر العربية، حيث كان يستخدم لوصف شعوب لم تكن متحضرة أو لم تكن تتحدث اللغة العربية، ومع ذلك يجب ذكر أن استخدام هذا المصطلح قد تغير مع مرور الزمن واختلاف السياقات الثقافية والتاريخية. (3)

يذكر علماء النسب أن البربر ينتسبون إلى مجموعتين رئيسيتين: برنس ومادغيس. ويطلق على مادغيس لقب الأبتري، لذا يشار إلى أحفاده باسم البتري، أما أحفاد برنس فيعرفون باسم البرانس. (4)

البرانس: هم مجموعة من القبائل التي تسكن في منطقة المغرب بمختلف أقطاره، وهم القبائل البربرية المدنية التي تركز إلى الاستقرار⁽⁵⁾، يعود نسبهم إلى: «بنو بربر بن سحو بن أبزج بن

(1) ولد بر ولدين سماهما مادغس وبرنس، وولد برنس كتامة وصنهاجة وعجيسة، ومصمودة وأوربة وأزداجة وأوربغ، ولكل هؤلاء بطون عظيمة جدا، وولد مادغس رجبك وولد رجبك ضرى ولوى الكبير، ونفوس، وأداس، وتزوج أم أداس هذا أريغ بن برنس والد هوار فدخل نسبه في هواره، للاطلاع أكثر ينظر: أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد الأندلسي بن حزم (ت 456هـ / 1064م): **جمهرة انساب العرب**، تح: ليفي بروفنسال، دار المعارف، مصر، 1328هـ، ص 461.

(2) المصدر نفسه، ص 461. ينظر أيضا: مجهول (ت بعد 06هـ / 12م): **تاريخ البربر**، تح: محمد زينهم، دار جهاد للنشر والتوزيع، 1998م، ص 76.

(3) الدرجيني: المصدر السابق، ج 01، ص 17. زينب وبوحفص مسعودة بن بركات: **مدينة طنبنة من الفتح الإسلامي إلى اجتياح القبائل الهلالية - دراسة تاريخية أثرية**، مذكرة ماستر، قسم التاريخ، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة محمد خيضر بسكرة، 2021/2020م، ص 53.

(4) ابن خلدون: المصدر السابق، ج 06، ص 124. ينظر أيضا: المقرئ: المصدر السابق، ج 01، ص 31.

(5) الدراجي: **القبائل الأمازيغية**، المرجع السابق، ج 01، ص 136.

جمواح بن ويل بن شراط بن ناح بن دويم بن داح بن ماريغ بن كنعان بن حام⁽¹⁾ الكنعاني⁽²⁾، يشغل معظمهم بالزراعة⁽³⁾، وتتوزع قبائلهم بين كتامة⁽⁴⁾، صنهاجة⁽⁵⁾، عجيسة، مصمودة⁽⁶⁾، غمارة، أوربة، أوريغة، أزداجة، لمطة، هواره، جزولة، مطاسة، وهسكورة⁽⁷⁾. هذه القبائل تمثل جزءا كبيرا من التاريخ الثقافي والاجتماعي في المنطقة.

(1) ابن خلدون: المصدر السابق، ج06، ص 124. مؤلف مجهول (ت 712هـ / 1312م): مفاخر البربر، تح: عبد القادر بوباية، دار أبي رقرق للطباعة والنشر، ط01، 2005م، ص 195.

(2) مختار حساني: تاريخ الجزائر الوسيط، دار الهدى، الجزائر، 2013م، ج02، ص21.

(3) عثمان الكعاك: المرجع السابق، ج02، ص13.

(4) كتامة: هي من قبائل البربر بالمغرب أشدهم بأسا وقوة وأطولهم باعا في الملك عند نسابه البربر من ولد كتام بن برنس مستوطنون بأرياف قسنطينة إلى تخوم بجاية غربا إلى جبل أوراس من ناحية القبلة. ينظر: ابن منصور: قبائل المغرب، المصدر السابق، ص318. وأيضا: ابن خلدون: المصدر السابق، ج 06، ص 195. مجهول: مفاخر البربر، المصدر نفسه، ص 56.

(5) صنهاجة: أو صناك هي قبيلة بربرية يعود نسبها إلى برنس ابن بر بن صوكان ابن منصور ابن الفند ابن أفريقش ابن قيس، كما تعد صنهاجة من القبائل البربرية الأكثر انتشارا في بلاد المغرب، بحيث لا يكاد قطر من الأقطار يخلو من بطن من بطونهم في الجبال والبيسط. ينظر: ابن خلدون: المصدر نفسه، ج 06، ص 201.

(6) مصمودة: هي إحدى قبائل البربر التي تنتمي إلى شعوب البرانس، تنسب القبيلة إلى جدها الأعلى مصمود بن برنس أبي شعيب البرناس (يونس بربر)، ويعتبر أفراد هذه القبيلة من بربر البرانس وصفهم المؤرخ ابن منصور بأنهم من البربر الأصليين الذين لم يختلطوا بغيرهم إلا نادرا، يعد سكان المغرب الأقصى من الأوائل الذين استوطنوا جباله منذ العصور القديمة، ولم يغادروا موطنهم إلا بعد مجيء الإسلام، إما لنشره بين الأمم والشعوب المجاورة، أو لتعزيز نفوذ الإمارات والممالك المغربية في مناطق أخرى، كانت مواطنهم الأصلية تبدأ من شمال المغرب الأقصى من حدود بلاد الريف من جهة الشرق إلى المحيط الأطلسي من جهة الغرب، ثم تمتد بمحاذاة الساحل إلى الجنوب، وتشمل مناطق أزغار، الغرب، تامسنا، دكالة، والحوز، حتى تصل إلى جبال الأطلس الكبير وتحديدا إلى سفوحها الخلفية المطلّة على إقليم سوس الأدنى، ومن هناك تمتد شرقيا من رؤوسها الداخلة في المحيط الأطلسي إلى ملتقاها بجبال الأطلس المتوسط بين تازة وتادلة، عند ثنية المعدن المعروفة بين قبائل فازاز، وصولاً إلى أكرسلوين في ناحية سجلماسة، حيث تبدأ مواطن قبائل الزناكة (صنهاجة الجنوب)، وبذلك يعتبر المصامدة من أهل الجبال، في حين أن غيرهم هم أهل السهول باستثناء القليل منهم. ينظر: عبد الوهاب ابن منصور: قبائل المغرب، المطبعة الملكية، الرباط، 1388هـ/1968م، ج01، صص 321-322. وأيضا: ابن خرداذبة: المصدر السابق، ص 91.

(7) بن حزم الأندلسي: المصدر السابق، ص 461. ينظر أيضا: مجهول (ت بعد 06هـ): تاريخ البربر، تح: محمد زينهم، دار جهاد للنشر والتوزيع، د ط، 1998م، ص 67.

البتر: هم مجموعة من القبائل البربرية التي تعيش في البادية وتقوم على الرعي والتنقل مجتمعين في أربعة أجدام وهي أداسة، نفوسة، ضريسة، وبنو لو وهم أبناء زحيك بن مادغس⁽¹⁾، وكلهم ينتسبون إلى بر بن قيس بن عيلان⁽²⁾؛ ويذكر ابن خرداذبة أن هذا الصنف من البربر كانوا يفضلون العيش في الجبال والصحاري بدلا من المدن بسبب وجود الروم والأفارقة، ويشير إلى أن المدن كانت تعود للروم حتى جاء المسلمون وافتتحوها.⁽³⁾

امتازت هذه القبائل بالتنقل الدائم طلبا للرعي، مع استقرارهم بالأطراف والأرياف، وكان أغلبهم متمردين عن السلطة⁽⁴⁾، وكانت أكثر القبائل انتشارا بالمغرب الأوسط قبيلة زناتة⁽⁵⁾، وهو ما أكدته ابن خلدون متحدثا عن النمط المعيشي لهذه القبائل بقوله: "اتخذوا من شعائر العرب في سكنى الخيام واتخاذ الإبل وركوب الخيل والتغلب في الأرض وإيلاف الرحلتين"⁽⁶⁾، وهذا تماشيا والظروف الطبيعية باحثين عن المطر والكلأ لماشيتهم كفعل العرب.

(1) مختار حساني: المرجع السابق، ج02، ص21.

(2) أبو زكرياء يحيى ابن خلدون (ت 780هـ / 1378م): بغية الروادي ذكر الملوك من بني عبد الواد، ببيرونطانا الشرقية في الجزائر، 1903م، مج01، ص 95. ينظر أيضا: عبد الرحمان ابن خلدون: المصدر السابق، ج06، ص 117.

(3) ابن خرداذبة: المصدر نفسه، ص ص91-92.

(4) محمد نجيب بوطالب: سوسيولوجيا القبيلة في المغرب العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، سلسلة أطروحات الدكتوراه، بيروت، لبنان، ط01، 2002م، ص ص110-111. ينظر أيضا: عمار غرايسة: المدينة الدولة في المغرب الأوسط ورجلان نموذجا (ق4هـ/5هـ)، رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في حضارة المغرب الأوسط في العصر الاسلامي، جامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة، الجزائر، 2008/2007م، ص 142.

(5) عبد الرحمان ابن خلدون: المصدر نفسه، ج06، ص 05.

(6) عبد الرحمان ابن خلدون: المصدر السابق، ج07، ص 03.

ومن بين هذه القبائل: زواوة، زناتة⁽¹⁾، نفزة، لواتة⁽²⁾، ومزاتة، حسب ما هو معروف ينسب البتر إلى الجد الأبتري وماداس بن بركان⁽³⁾، ويعتقد أن أصلهم يعود إلى ماريغ من نسل كنعان بن حام بن نوح.⁽⁴⁾

ولعل ما يهمنا الآن القبائل التي قطنت المغرب الأوسط والمجال الزابي بصفة خاصة، وهنا يشير الجغرافي عبيد الله البكري⁽⁵⁾ إلى سكان المغرب الأوسط هم قبائل من: لواتة⁽⁶⁾،

⁽¹⁾ زناتة: تتميز هذه القبيلة بعدة صفات من بينها اعتمادها على نمط الحياة البدوية، مثل السكن في الخيام واستخدام الإبل والخيول كوسيلة للتنقل، كما تتميز زناتة بلغتها الخاصة التي تختلف عن باقي اللغات البربرية، وهذا ما يجعلها متميزة بين القبائل الأخرى.

تنتشر زناتة في مناطق واسعة تشمل شمال إفريقيا، بدءاً من جنوب تونس (منطقة الجريد) وصولاً إلى المغرب الأوسط والمغرب الأقصى. وفي بعض المناطق مثل جبال طرابلس وجبل الأوراس، سكنوا مع العرب وأصبحوا جزءاً من القبائل العربية هناك. ينظر: عبد الرحمان ابن خلدون: المصدر نفسه، ج07، ص 03. ينظر أيضاً: محمد بن عميرة: دور زناتة في الحركة المذهبية بالمغرب الإسلامي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984م، ص 18.

⁽²⁾ لواتة: هي واحدة من أكبر قبائل البربر وأكثرها شهرة وانتشاراً، يقال إنها تنحدر من "لواته الأكبر بن رحك بن مادغش الأبتري ابن بربر". هناك قول بأنهم من نسل بربر بن قيدار بن إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، من امرأة من العماليق في فلسطين، وأخوة لقبائل هواة ومزاتة وزنارة وغيرهم. بينما يذكر ابن حزم نقلاً عن بعض النسابين أن لواتة من القبط، لكنه اعتبر هذا الرأي غير صحيح. ينظر: أبي العباس أحمد بن علي بن أحمد الفزاري القلقشندي (ت 821هـ / 1418م): قلاند الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان، تح: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب المصري، القاهرة، ط02، 1982م، ص 172.

⁽³⁾ مجهول: مفاخر البربر، المصدر السابق، ص76.

⁽⁴⁾ عبد الرحمان ابن خلدون: المصدر نفسه، ج06، ص 124.

⁽⁵⁾ البكري: المصدر السابق، ص158.

⁽⁶⁾ لواتة: أبناء لوا الأصغر بن لو الأكبر بن زحيك تتواجد أعداد كبيرة منهم بأرض الزاب وبضواحي تيهرت. ينظر: الدراجي بوزياني: المرجع السابق، ج01، ص ص 419-439.

وزناتة (1)، ونفوسة(2)، ونفزاوة(3)، ويضيف ابن خلدون بأن جل سكان هذه الديار زناتة(4)، ومغراوة(5)، وبني يفرن(6) وكان معهم مديونة(7)، ومغيلة (8)،

(1) زناتة : أبناء زانا أوجانا أو(شانا) بن يحيى بن ضري بن ماداغيس الأبتري ويعرفون باسم زناتة من أكبر القبائل البربرية مواطنهم المغرب الأوسط يعيشون على الفياقي والسهوب، فهم كالعرب يتخذون الخيام مساكن لهم، ويتلهفون على اكتساب الإبل والخيول. للمزيد ينظر: الدراجي بوزياني: القبائل الأمازيغية أدوارها - مواطنها - أعيانها، دار الكتاب العربي للنشر والتوزيع والترجمة، الجزائر، 2007م، ج01، ص 240.

(2) نفوسة : هم من البربر البتر ينتسبون إلى نفوس بن زحيك، كانوا من أوسع قبائل البربر فيهم شعوب كثيرة مثل بني زمور، وبني مكسور، وماطوسة، ومنهم أوزان متفرون في أقطار المغرب. للمزيد ينظر: عبد الرحمان ابن خلدون: المصدر السابق، ج06، ص 149.

(3) نفزاوة: يم أبناء يطوفت بن نفزاو بن لوا الأكبر ابن زحي ولنزاوة بطون عديدة من بينها ولهاسة تفرعت منها قبيلة ورفجومة. ينظر: الدراجي بوزياني: المرجع نفسه، ص379. وأيضا: البكري: المصدر السابق، ص158.

(4) مغراوة: هم أبناء مغراو بن يصلتين وجدهم الأكبر هو زانا ابن يحيى وهم إخوة بني يفرن وبني يرنيان وبني واسين من أمرائهم كان صولات بن وزمار وفلفول بن سعيد بن خرزون ت400هـ ولد زيري بن عطية بن عبد الله بن خرز بن حفص الماروي كان هذا الأخير أميرا على طبنة. ينظر: الدراجي بوزياني، المرجع نفسه، ص270.

(5) مغراوة: هم أبناء يفرن بن يصلتين وجدهم الأكبر هو زانا ابن يحيى وإخوانهم هم: مغراوة، بنو يرنيان، بنو واسين استطاعت بني يفرن أن تقيم دولا عديدة في المغرب الأوسط والأقصى والأندلس. للمزيد ينظر: عبد الرحمان ابن خلدون: المصدر السابق، ج06، ص 134. ينظر أيضا: الدراجي بوزياني: المرجع نفسه، ص 92-274.

(6) بني يفرن: إحدى فروع زناتة وهم أبناء يصلتين وجدهم الأكبر الأكبر زنا بن يحيى، تتواجد أعداد كبيرة منهم بأرض الزاب وبضواحي تيهرت. ينظر: الدراجي بوزياني، المرجع نفسه، ج01، ص 263.

(7) مديونة: هم أحد بطون القبائل البترية جدهم هو مديون بني فاتن بن تمزيت بن ضريس؛ وهم من إخوة مغيلة ومطماطة، تفرقت جموعهم عبر بلاد المغرب كلها مواطنهم الأولى المغرب الأقصى كما سكنوا المغرب الأوسط والأدنى للمزيد أنظر: مؤلف مجهول: مفاخر البربر، المصدر السابق، ص 64. عبد الرحمان ابن خلدون: المصدر نفسه، ج06، ص 165. مختار حساني: المرجع السابق، ج02، ص 42.

(8) مغيلة: إخوة مطماطة ولماية منهم أبوقرة المغيلي الدائن بدين الصفريه من الخوارج ملك أربعين سنة نزل طين وقيل إنه من بني مطماطة للمزيد أنظر: عبد الرحمان ابن خلدون: المصدر نفسه، ج06، ص 164. ينظر أيضا: مختار حساني: نفسه، ج02، ص 38. وأيضا: ولد سالم حماه الله، تاريخ الأمازيغ والهجرة الهلالية مقتطف من كتاب العبر لابن خلدون - مع دراسة قبائل البافور الغامضة، تل: حماه الله ولد السالم، دار الكتب العلمية، بيروت، 2012م، مج01، ص ص 79-80.

وكومية⁽¹⁾، ومطارة⁽²⁾، ومطماطة⁽³⁾، وفي عام 151هـ نزلت قبائل ورفجومة⁽⁴⁾، بطبنة بعد تعيين أبا جعفر عمر بن حفص المهلبى واليا على إفريقية من قبل المنصور⁽⁵⁾ وقيل يسكن حولها بنو زقراح⁽⁶⁾، من البربر البرانس كانت ضمن القبائل الرئيسية المتحكمة في هذا المجال الواحي، كما تشير بعض المصادر عن بلاد صنهاجة⁽⁷⁾ بأنها كانت قلب المغرب الأوسط. ومن خلال ما ذكرنا يتضح أن القبائل البربرية التي كانت تقطن بسكرة وضواحيها هي قبائل من البربر البتر وعلى رأسها سدراتة، ومزاتة، ومغراوة⁽⁸⁾.

(1) كومية: هم أيضا من أبناء بني فاتن كانت تعرف في القديم باسم صطفورة. ينظر: الدراجي بوزياني: المرجع السابق، ص 140.

(2) مطغرة: ينتسبون إلى بني فاتن وتعتبر مطاره من بين القبائل المدرية التي اختارت حياة استقرار في الأرياف وفي بعض الواحات والقصور الجنوبية، ولعبت هذه القبيلة أدوارا خطيرة في تاريخ المغرب الاسلامي اعتنقت المذهب الصفري زعيمها ميسرة المطاري. للمزيد ينظر: الدراجي بوزياني: المرجع نفسه، ص ص 187-192. مختار حساني: المرجع السابق، ج2، ص 30.

(3) مطماطة: نسبة لأبيهم مطماط بن فاتن كذلك ومطماطة لقب لأبيهم أما اسمه فهو مصكاب كان لهم دور هام في عهد الدولة الزييرية، وتنتشر مواطن مطماطة في ربون المغرب الاسلامي كله. ينظر: مؤلف مجهول: مفاخر البربر، المصدر السابق، ص73. ينظر أيضا: عبد الرحمان ابن خلدون: المصدر السابق، ج06، ص 120. مختار حساني: المرجع نفسه، ص 37.

(4) ورفجومة: من القبائل البترية أحد بطون قبيلة نفزاوة تفرعت عن قبيلة ولهاصة كانت صفرية المذهب عرفت بالشدة والتعصب والظلم، وهي قبيلة بربرية موطنها القيروان. للمزيد أنظر: بوزياني الدراجي: المرجع نفسه، ص 380. ينظر أيضا: ابن خلدون عبد الرحمان: المصدر السابق، ج06، ص150.

(5) أبو جعفر عمر بن حفص: من ولد قبصة ابن أبي صفرة أخي المهلب، وإنما نسب لبنت المهلب لشهرته عين واليا على القيروان في صفر سنة 151هـ. ينظر: ابن الأثير: الكامل في التاريخ، المصدر السابق، ج05، ص 168.

(6) ابني زنداج: قبيلة بربرية كانوا يقيمون في ضواحي مدينة المسيلة. للمزيد أنظر: الهادي روجي ادريس: الدولة الصنهاجية تاريخ افريقية في عهد بني زيري من القرن 11 إلى القرن 12م، تر: حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1992م، ج01، ص 90. وأكد ابن حوقل بأن بني زنداج قبيلة من منطقة المسيلة. للمزيد ينظر: ابن حوقل: المصدر السابق، ص 86.

(7) صنهاجة: قبيلة بربرية برنسية تنحدر من ولد صنهاج بن عامر بن زعزاع بن قيما بن سدور بن صون بن مصلين بن يوبن بن مصرا بن حام بن نوح عليه السلام. للمزيد ينظر: ابن خلدون عبد الرحمان: المصدر السابق، ج06، ص201. بن النية رضا: صنهاجة المغرب الأوسط من الفتح الإسلامي حتى عودة الفاطميين إلى مصر - دراسة اجتماعية، دار توكل للنشر والتوزيع، الجزائر، د س ن، ص 31.

(8) البكري: المصدر السابق، ص 52.

قدم لنا الجغرافي الإدريسي (ت بعد 560هـ / 1165م) معلومات دقيقة وشاملة عن المناطق والشعوب التي تناولها في كتاباته في وصفه لبلاد الزاب، أكد أن العنصر البربري كان الغالب في تلك المنطقة، وفي خضم حديثه عن المسيلة وهي منطقة تقع في الحدود الغربية لبلاد الزاب، ذكر وجود جماعات بربرية مستوطنة في تلك المنطقة، ومن بين هذه الجماعات، أشار إلى كل من بني برزال، ومن أسمائهم دنداح (الذي ذكره بدلا من زنداج)، وهوارة، ومزاته⁽¹⁾، ويشير في هذا الصدد إلى أثر مجاورة هذه الجماعات العربية للقبائل البربرية من المصامدة حتى تبربروا بطول المدة الزمنية نظرا لمخالطتهم بعد أن كانوا عربا أقحاحا⁽²⁾.

أما البكري فقدم لنا وصفا جغرافيا مفصلا لمدن المغرب في كتابه المغرب، وعلى الرغم من أنه سبق فترة الدراسة بقرن من الزمن إلا أنه وجب علينا الرجوع إليه لمعرفة التطورات الاثنية التي اختصت بها بلاد الزاب وصولا إلى الحكم العربي الهلالي للمنطقة، وفي خضم حديثه عن كورة بسكرة أشار إلى أنها كانت مأهولة بالسكان العرب والمولودين، إلا أنهم كانوا محاطين بجماعات محلية من قبائل سدراتة وبنو مغراوة، من أهل بيت بني خرز، وبنو يزمري⁽³⁾، ويفهم من ما جاء به البكري أن العرب الهلاليين استحوذوا تدريجيا على المراكز الحضرية الكبرى لبلاد الزاب، في حين تراجعت القبائل البربرية نحو الأطراف والحدود الجغرافية للإقليم، على الرغم من أن النفوذ السياسي في بلاد الزاب ظل إلى حد بعيد في يد بعض القبائل البربرية الرئيسية، المكونة من "أوربة" وجراوة وهوارة على حد قول هشام جعيط⁽⁴⁾، ومع عدم تقبل كل طرف للآخر إلا أنها حدثت بدايات لاندماج عرقي بين القبائل البربرية والوافد

(1) الإدريسي: المصدر السابق، ج01، ص 254. ينظر أيضا: عمار غرايسة: التحولات الاجتماعية، المرجع السابق، ص138.

(2) الإدريسي: المصدر السابق، ص 257. ينظر أيضا: عمار غرايسة: المرجع نفسه، ص138.

(3) البكري، المسالك والممالك، المصدر السابق، ص 230.

(4) هشام جعيط: تأسيس المغرب الإسلامي القرن الأول والثاني هجري/ السابع والثامن ميلادي، دار الطليعة، بيروت، لبنان، ط02، 2008م، ص 156.

الجديد، على الرغم من أن العملية لم تخل من التوتر في مراحلها الأولى، لكنها سرعان ما أفرزت نسيجاً مجتمعياً متداخلاً، ساهم في تشكل البنية الاجتماعية للمغرب الأوسط وبلاد الزاب في العصر الوسيط.

كما توزعت القبائل البربرية في كافة مناطق المغرب الإسلامي بما في ذلك منطقة الزاب، التي شكلت مجالا لاستقرار العديد من هذه القبائل، خاصة القبائل الزناتية، ومن بين هذه القبائل نجد قبيلتي جراوة⁽¹⁾ ومطغرة من بطون زناتة⁽²⁾، أما في مدينة بسكرة وضواحيها، فقد استقرت قبيلة مغراوة⁽³⁾، كما تمركزت قبائل أخرى بالمنطقة مثل سدراتة وهي أيضا أحد بطون زناتة، إلى جانب بني خرز وبني يزمري⁽⁴⁾، وفي مدينة باغاية، برز وجود قبائل مزاتة ودريسة، واللتين انضويتا تحت المذهب الإباضي⁽⁵⁾، إلى جانب بني زنداج وقوم من هواره⁽⁶⁾.

كما ضمت مدن الزاب قبائل بربرية أخرى برزت قبائل أخرى قد تكون أقل عددا لكنها لا تقل أهمية من حيث حضورها الاجتماعي، ومن أبرزها بنو يرنيان من زناتة، الذين يُنسبون إلى زناتة، وتحديدًا إلى جدهم الأكبر زانا بن يحيى⁽⁷⁾، بالإضافة إلى قبائل زواوة⁽⁸⁾ وبنو دمر المتواجدين في منطقة أذنة⁽⁹⁾.

(1) جراوة: من ولد كراو بن الديرت بن جانا، وتعد من أقوى القبائل وهي فرع من فروع قبلة زناتة تنسب الكاهنة إليها حيث استوطنوا جبال الأوراس، ينظر: عبد الرحمان ابن خلدون: المصدر السابق، ج07، ص 12.

(2) مجهول: الاستبصار، المصدر السابق، 200.

(3) مغراوة: من أوسع بطون زناتة نسبون إلى مغرا وبني صلتين بن مسر بن زاكاي بن ورسيك أخوة بن يفرن، ينظر: عبد الرحمان ابن خلدون: المصدر نفسه، ج07، ص 15. الدراجي بوزياني: المرجع السابق، ص 279.

(4) البكري: المصدر السابق، ص ص 52-72.

(5) المصدر نفسه، ص 144.

(6) اليعقوبي: المصدر السابق، ص 190.

(7) الدراجي بوزياني: المرجع السابق، ص 281.

(8) زواوة: من بطون البربر البتر من ولد سميكان بن يحيى بن ضري بن زحك ابن مادغيس الأبتري وهم من أكبر بطون البربر ومواطنهم متصلة بمواطن كتامة. عبد الرحمان بن خلدون: المصدر السابق، ج06، ص ص 168-200.

(9) اليعقوبي: المصدر السابق، ص 191.

2-1. العرب:

1-2-1 الهجرات العربية لبلاد المغرب وإقليم الزاب:

امتاز العرب بفطرة حب السفر منذ الأزمنة الغابرة، وهذا ما أشارت إليه المصادر التاريخية خاصة في بحثها عن مصادر رزقهم وتجارتهم، فجالوا مختلف بقاع الأرض حتى وصلوا أقصى بلاد الشام والعراق ومصر، حيث إنهم لم يعرفوا الهدوء والاستقرار بل تكبدوا المشاق السفر بحثا عن الرزق. (1)

مر التواجد العربي ببلاد الغرب بعدة مراحل بداية من الحملة التي دعا إليها الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه وبقيادة عبد الله بن سعد بن أبي سرح سنة 27هـ/647م والتي شاركت فيها مجموعة من القبائل العربية (2)، التي ضمت نحو ثمانين ألفا من الأعراق العربية (3)، وتلتها موجات أخرى متتالية للتواجد العربي بالمغرب قصد الفتح الإسلامي ونشر اللغة العربية (4)، الأمر الذي جعل المغرب يدخل في مرحلة جديدة بدخول ثقافة جديدة جعله عرضة للتمازج والاختلاط الاجتماعي والثقافي واللغوي (5) بين السكان المحليين والوافد الجديد من الفاتحين الذين جاؤوا بلغة وديانة جديدتين لهما خصوصيتهما في تلك البلاد، خاصة بعد التصاهر والتساكن داخل المدن وفي أرباضها. (6)

(1) عبد الرحمن حميدة: أعلام الجغرافيين العرب، دار الفكر، دمشق، ط01، 1984م، ص 34.

(2) أبو العباس البلاذري (ت 279هـ / 892م): فتوح البلدان، تح: عبد الله أنيس الطباع، مؤسسة المعارف للطباعة والنشر، 1407هـ / 1987م، ص 317. ينظر كذلك: بن عذاري: المصدر السابق، ج01، ص31.

(3) عمار غرايسة: التحولات الاجتماعية والثقافية، المرجع السابق، ص 177.

(4) رحمة تيوراس: تعريب الدولة والمجتمع بالمغرب الأقصى خلال العصر الموحي، مؤسسة الإدريسي، الدار البيضاء، 2015م، ص 47.

(5) بير دل فيوجو: الموسوعة العربية العالمية، مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع، فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء نشر الموسوعة العربية العالمية، الرياض، ط02، 1419هـ/1999م، ص 05.

(6) مبارك الملي: المرجع السابق، ج02، ص 43.

لا شك أن هذا التداخل الاجتماعي بين العرب والسكان المحليين ينتج عنه فكرة التأثير والتأثر وفقا لمنطق إتباع المغلوب لثقافة الغالب والتشبه به، فيكون بذلك ثقافة ناتجة من الفاتحين الذين بدورهم حاولوا نشر دين وثقافة جديدة مع الحفاظ على خصوصيات المجتمعات المحلية، مع القضاء على الثقافات المنافسة للدين الإسلامي، وعلى الرغم من بداياته العسكرية إلا أنها لم تهمل الجانب الدعوي الذي جعل من البربر ينتمون في هذا الدين الجديد. (1)

من القبائل العربية التي دخلت المغرب قبيلة مهرة التي وفد منها ست مئة رجل، ومن قبيلة غنث سبع مئة رجل، ومن ميدعان من الأزد سبع مئة رجل (2)، ومن قبيلة جهينة التي شارك منها في الفتح ست مئة رجل، ومن أسلم ثلاث مئة رجل، ومزينة ثمان مئة رجل، وبنو سليم أربع مئة وخمسون رجل، ومن بني الديل ودمره وعفار خمس مئة رجل، ومن كعب بن عمرو أربع مئة رجل، وكانوا آخر من قدموا على عثمان (3) أي ما يفوق خمسة آلاف وخمسين رجلا.

وبعد مقتل الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه وظهور الفتنة والصراع على الحكم بين الصحابييين علي بن أبي طالب ومعاوية رضي الله عنهما في معركة صفين سنة 37هـ/657م (4)، ظهرت ما يسمى بالخوارج، الذين لجأ البعض منهم إلى جبال المغرب بعد الاضطهاد الذي حل بهم من قبل الخلافة الأموية خاصة على عهد عبد الملك بن مروان الذي

(1) صباح الشخيلي: "انتشار الثقافة العربية الإسلامية في افريقية جنوب الصحراء"، مجلة آفاق الثقافة التراث، الإمارات العربية المتحدة، ع 38، 2002م، ص 20.

(2) ابن عبد الحكم: المصدر السابق، ص 184.

(3) محمد بن أحمد بن تميم أبو العرب (ت 333هـ / 945م): طبقات علماء إفريقيا، دار الكتاب اللبناني، بيروت، د س ن، ج 01، ص 14. وكذلك: المالكي: المصدر السابق، ص 12. وأيضا: شهاب الدين بن أحمد بن عبد الوهاب النويري (ت 732هـ / 1332م): نهاية الأرب في فنون الأدب، تح: عبد المجيد ترحيني، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، دت ط، ج 24، ص ص 04 - 05.

(4) عبد الغني حروز: "الخوارج نشأتهم وانتقالهم إلى بلاد المغرب الإسلامي"، المجلة التاريخية الجزائرية، ع 06-07، جانفي - ماي 2018، ص 36.

سلط عليهم سيف الحجاج الذي أمر بقتلهم فردانا وزمرا⁽¹⁾، وعلى الرغم من الاختلاف المذهبي للخوارج إلا أنهم شاركوا في حملة التعريب ببلاد المغرب بعد الوفود التي حلت به. بعد وفاة عمرو بن العاص عين معاوية بن سفيان على إفريقيا معاوية بن حديج ومده بعشرة آلاف من العرب⁽²⁾، وبعده تولى عقبة بن نافع الفهري⁽³⁾ فتح إفريقيا سنة (50هـ/670م)، الذي قام بدوره بتثبيت أقدام العرب بالمغرب بعد تأسيس مدينة القيروان سنة 51هـ، متخذا إياها قاعدة لهم بدلا من مصر البعيدة عن الفتوحات، ومنها تكون المدينة مركزا لنشر العربية والإسلام⁽⁴⁾، بعد الدعم البشري والمادي الذي لقيه من معاوية بمده جيوش من القبائل العربية⁽⁵⁾، ومنهم عددا من صحابة رسول الله صل الله عليه وسلم⁽⁶⁾، وثلة كبيرة من التابعين⁽⁷⁾، وهذا ما شجع الفاتحين على الإقدام على تأسيس مساجد وتخطيط مدن جديدة ساهمت في نشر المعرفة

(1) عبد الرزاق محمود اسماعيل: الخوارج في بلاد المغرب حتى منتصف القرن الرابع هجري، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، 1985م، ص 29. حروز عبد الغني: المرجع نفسه، ص 46.

(2) ابن عذاري: المصدر السابق، ج 01، ص 44. ينظر كذلك: النويري: المصدر السابق، ج 24، ص 11. وأيضا: طاهر أحمد الزواوي: المرجع السابق، ص 80.

(3) عقبة بن نافع ابن عبد القيس ابن لقيط بن عامر ابن أمية ابن فهر القرشي الفهري، ولد زمن رسول الله صل الله عليه وسلم، وهو ابن خالة عمر ابن العاص، ويعتبر عقبة من أشهر فاتحي بلاد المغرب في زمن بني أمية، اختط القيروان سنة 50هـ، وأسلم على يديه العديد من البربر، استشهد بأرض الزاب في منطقة تهودة سنة 63هـ، وسنفصل في نسبه أكثر عند الحديث عن المسجد المسمى باسمه. ينظر: عماد الدين ابن كثير (ت 774هـ / 1373م): البداية والنهاية، تح: عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع، ط 01، 1998م، ج 10، ص 126. ابن الأثير: أسد الغابة في معرفة الصحابة، مكتبة لسان العرب، 1377م، ج 03، ص 420.

(4) ابن عذاري: المصدر نفسه، ج 01، ص 44. ينظر كذلك: النويري: المصدر نفسه، ج 24، ص 12.

(5) ابن الأثير: أسد الغابة، المصدر السابق، ج 03، ص 420.

(6) أبو العرب: المصدر السابق، ص ص 16 - 17.

(7) ابن عذاري: المصدر السابق، ج 01، ص ص 29 - 30. ينظر كذلك: النويري: المصدر السابق، ج 24، ص 10.

الجديدة⁽¹⁾، مما ساعد على قيام كيانات سياسية جديدة متخذة أمصارا جديدة عواصم لهم، وبناء ثقافة جديدة بكل أركانها وجوانبها. ⁽²⁾

وبعد الاستقرار العربي تحولت بعض القبائل البربرية إلى الإسلام مشكلة مجتمعا إسلاميا مختلف الاثنية، منصهرا في بوتقة مكونة من مجتمع متلاحم العناصر متداخل الأجزاء، تحت راية الخلافة الإسلامية ⁽³⁾، مشكلة لوحة جديدة في المجتمع المغربي إلى ما بعد الهجرة الهلالية.

وبعد أن ولي أبو المهاجر دينار على إفريقيا دخلها غازيا ودخلها سنة 57هـ/677م، بعد خروجه بجيوش بلاد الشام ومصر ⁽⁴⁾، الذين استقروا بلاد المغرب بعد الغزو على مقربة من بلاد القيروان كارها نزول المدينة التي اختطها عقبة بن نافع. ⁽⁵⁾

وبعدها عاد عقبة بن نافع إلى سدة الحكم للمرة الثانية، وولي على إفريقيا سنة (61هـ/681-682م)، وبعودته أراد عقبة إبراز قدراته على ضم مناطق أخرى للخلافة الإسلامية، مبرهنا على حجم الثقة التي منحت له من جديد بعد العزل الأول، حيث قاد عشرة آلاف فارس من القبائل العربية القادمة من الشام ⁽⁶⁾، تاركا جندا من المسلمين على رأسهم قيس بن زهير البلوي للدفاع عن عرب القيروان حتى انتهى إلى المغرب الأقصى. ⁽⁷⁾

(1) أعمار غرايسة: التحولات الاجتماعية والثقافية، المرجع السابق، ص 90.

(2) أبشير رمضان التليسي: الاتجاهات الثقافية في بلاد الغرب الإسلامي خلال القرن الرابع الهجري الرابع ميلادي، دار المدار الإسلامي، ليبيا، ط01، 2003م، ص69.

(3) أبو القاسم محمد كرو: عصر القيروان، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق، ط02، 1989م، ص16.

(4) المالكي: المصدر السابق، ج01، ص33. ينظر أيضا: ابن عذاري: المصدر نفسه، ج01، ص46.

(5) ابن عبد الحكم: المصدر السابق، ص266.

(6) المالكي: المصدر السابق، ج01، ص34.

(7) القيرواني: المصدر السابق، ص41.

وبعد مقتل الحسين بكربلاء سنة (61هـ/680م)⁽¹⁾، ثار الأنصار والمهاجرون بالمدينة لمقتله سنة (63هـ/682م)، وبعد القسوة التي تلقوها من يزيد بن معاوية لإخماد هذا الغضب اضطر الكثير منهم إلى اللجوء إلى بلاد المغرب منخرطين في جيش إفريقيا والبعض استقر فيها.⁽²⁾

ولى الخليفة عبد الملك بن مروان زهير بن قيس البلوي على إفريقيا سنة (67هـ/688م) وأمدّه بالأموال والرجال من بلاد الشام منهم زعماء العرب قصد فتح القيروان وإفريقيا إلا أن هذا الأخير خرج من إفريقيا قاصدا المشرق خوفا من ارتباطه بالدنيا ونسيان الآخرة بعد ما رآه من ملك عظيم بتلك البلاد، إلا أن الروم بلغهم خروج زهير فخرجوا إليه بموكب كبير، واشتد بينهم القتال حتى أستشهد زهير رحمه الله⁽³⁾، وبعد استشهاده عين الحسان بن النعمان الغساني⁽⁴⁾ واليا على إفريقيا سنة (74هـ/698م)⁽⁵⁾ وأمدّه الخليفة عبد الملك بأربعين ألف رجل⁽⁶⁾ أكثرهم من اليمنيين الذين استمال إليهم عبد الملك كون الحسان بن النعمان يمنيا مما جعل الصراع القبلي يطفو إلى الأفق ويصل أوجه بعد تولي الحسان بن النعمان إفريقيا وانظم إليه بطرابلس من كان هناك من العرب.⁽⁷⁾

(1) ابن الأثر: الكامل في التاريخ، المصدر السابق، ج3، ص 407.

(2) المصدر نفسه، ج3، ص 455-463. ينظر كذلك: المسعودي: المصدر السابق، ج3، ص 63.

(3) القيرواني: المصدر نفسه، ص 45-46.

(4) حسان بن النعمان: هو حسان بن العمان بن عدي بن غيث بن عمرو (مزيقياء) بن عامر، من أشهر فاتحي بلاد المغرب في زمن بني أمية، حيث أعاد فتح إفريقية سنة 74هـ، وفتح قرطاجنة سنة 78هـ، واستشهد سنة 86هـ أثناء غزوه آسيا الصغرى، للمزيد من المعلومات، يراجع: محمد علي قطب: أبطال الفتح الإسلامي، دار الدعوة للنشر والتوزيع، الإسكندرية، ط1، 2006م، ص 29.

(5) المرجع نفسه، ص 31. يرى ابن عبد الحكم أن حسان بن النعمان ولي على إفريقيا من طرف عبد الملك بن مروان سنة 73هـ على خلاف ما قاله ابن عذاري. ينظر: ابن عبد الحكم: المصدر السابق، ج2، ص 269.

(6) ابن عذاري: المصدر السابق، ج1، ص 60.

(7) ابن عبد الحكم: المصدر السابق، ج2، ص 269.

وبعد الحسان بن النعمان ولي المغرب موسى بن نصير سنة (86هـ/706م)، وتمكن من إعداد سبع عشرة ألف من العرب واثنى عشر ألف من البربر لفتح السوس الأقصى⁽¹⁾ وتمكن العرب من الانتشار في كامل ربوع المغرب حتى نهر درعة وانتشر الإسلام في القبائل البربرية مثل بربر طنجة وغمارة وبرغواطة.

وبعد تقبل البربر للدين الإسلامي كان من الطبيعي تعلم تعاليمه من القرآن الكريم والسنة النبوية، وهذا لا يكون إلا بتعلم لغة القرآن ألا وهي اللغة العربية، كما لا ننكر الدور الفعال الذي قدمه الفاتحون لتثقيف السكان المحليين خاصة وقد كان في حملات الفتح صحابة رسول الله صل الله عليه وسلم، فقد ذكرت لنا كتب التراجم أسماء الصحابة والتابعين الذين قدموا في حملة عقبة بن نافع الفهري، وأبي المهاجر دينار، وموسى بن نصير، حسان بن نعمان الغساني وما لهم من أثر في الحركة الثقافية على العموم والديانة الإسلامية على وجه الخصوص.

لا يمكننا أيضا أن نهمل الدور الذي قام به الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز (99هـ/101هـ) بإرسال بعثة من العلماء والتي كانت تضم عشرة من التابعين قصد تعليم البربر تعاليم الدين الإسلامي بكامل أركانه.⁽²⁾

1-2-2 الهجرات الهلالية لبلاد المغرب:

شهد المغرب الإسلامي منتصف القرن الخامس الهجري (11م)، تحولا كبيرا في تركيبته الاجتماعية، متمثلة في الهجرة العربية الهلالية إلى المغرب، والتي شكلت واحدة من أبرز المحطات التاريخية التي أعادت رسم معالم المجتمع الإسلامي في بلاد المغرب الأوسط، بما في ذلك واحات إقليم الزاب، بحيث شكلت بنية اجتماعية جديدة مست كل الجوانب سواء

(1) القيرواني: المصدر السابق، ص 52. ينظر كذلك: عبد الرحمان ابن خلدون: المصدر السابق، ج6، ص 144.

(2) إبراهيم التهامي: جهود علماء المغرب في الدفاع عن عقيدة أهل السنة والجماعة، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، 1426هـ/2005م، ص 32. ينظر أيضا: محمد مرغيت: "البعثة العمرية وأثرها في توطين الإسلام والعربية ببلاد الغرب الإسلامي"، مجلة الحوار الفكري، قسم العلوم الإنسانية، جامعة أدرار، جوان 2016م، ص 109.

الاقتصادية والدينية واللغوية وحتى الاثنية⁽¹⁾، حيث انطلقت الجموع الهلالية من مصر في عهد المستنصر بالله الذي تولى حكمها في سنة (437هـ / 1045م)⁽²⁾، وعلى الرغم من أن هذه الهجرة سبقت الإطار الزمني لدراستنا بأكثر من خمسين سنة، إلا أن الإشارة إليها تظل حتمية ضرورية لفهم الخلفية العرقية والتحولات المجتمعية التي عرفها إقليم الزاب من القرن 6هـ إلى القرن 9هـ، وذلك بالنظر إلى تأثيراتها العميقة على البنية الاجتماعية والعمرانية بالمنطقة، إذ شكلت القبائل الهلالية وعلى رأسها بنو رياح، بني مزني، والأثبج، وزغبة، إمارات محلية غالبا ما اتسمت بالاستقلال النسبي عن السلطة المركزية، مستفيدة من الفراغ السياسي بالمنطقة، كما كان لهذه القبائل دور محوري في الصراعات السياسية الإقليمية، رافعة لتغيير جذري في نمط الاستيطان، حيث انتقل كثير من هذه القبائل من حياة البداوة والترحال إلى نمط الاستقرار، فقاموا بإنشاء القصور والرباطات.

وبذلك فإن فهم الواقع الاجتماعي في بلاد الزاب في القرون اللاحقة للهجرة الهلالية لا يكتمل دون التعمق في أثر هذه الهجرة، التي شكلت نقطة تحول مفصلية في تاريخ المغرب الأوسط عموما، وبلاد الزاب على وجه الخصوص، وهذا من خلال تغير البنية الاجتماعية، والنمط العمراني بالمنطقة، وأثر الصراعات السياسية السلطوية في انشاء العمارة الحربية من جهة، وخراب مدن وقصور الزاب من جهة أخرى.

(1) مبارك الملي: تاريخ الجزائر في القديم والحديث، المرجع السابق، ج2، ص 187.

(2) زامباور: معجم الأنساب والأسر الحاكمة في التاريخ الاسلامي، تر: سيدة اسماعيل كاشف وآخرون، إخراج: زكي محمد حسن بك وحسن أحمد محمود، دار الرائد العربي، بيروت، 1400هـ / 1980م، ج01، ص 145.

نسبهم:

هي قبيلة عربية هوازنية قيسية مضرية عدنانية، تنتسب إلى هلال بن عامر الهوازني، نسبة إلى قيس بن عيلان الهلالي بكسر الهاء نسبة إلى بني هلال⁽¹⁾، وهي قبيلة عربية تنتمي إلى بطون، هلال بن عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس عيلان بن مضر. (2)

أشار الزركلي في كتابه الأعلام إلى هجرة بطون القبائل الهلالية إلى بلاد المغرب، مشيراً إلى أن جدهم هلال أنجب خمسة أبناء. هؤلاء الأبناء صاروا جدوداً لبطون مختلفة من القبائل، والأبناء الخمسة هم: شعب، وناشرة، ونهيك، وعبد مناف، وعبد الله، كل واحد من هؤلاء الأبناء أصبح جداً لأحد بطون القبائل التي هاجرت واستقرت في بلاد المغرب، هذه القبائل لعبت دوراً مهماً في تاريخ المنطقة من حيث التغيرات الاجتماعية والسياسية التي جلبتها هذه الهجرة. (3)

يرجع الأصل الهلالي إلى القبيلتين العربيتين الحجازيتين قبيلة هلال وقبيلة سليم، وكيف أن هاتين القبيلتين كانتا تتشاركان في العديد من الصفات والعلاقات والمصاهرة مما جعلهما

(1) أبو سعد عبد الكريم بن محمد بن منصور التميمي السمعاني (ت 562هـ / 1166م): الأنساب، تح: عبد الله عمر البارودي، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، ط1، 1998م، ج5، ص657. هشام أبو المنذر بن محمد ابن الكلبي (ت 204هـ / 819م): جمهرة النسب، تح: محمود فردوس العظيم، تص: محمود فاخوري، دار اليقظة العربية، دمشق، سوريا، د س ن، ج2، ص ص 47-48.

(2) اتقي الدين أبو العباس أحمد بن علي المقرئ (ت 845هـ / 1442م): البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب، تح: عبد المجيد عابدين، عالم الكتب، القاهرة، ط1، 1961م، ص85. ينظر أيضاً: أبو العباس أحمد بن علي القلقشندي (ت 821هـ / 1418م): نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، تح: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب، بيروت، لبنان، ط2، 1400هـ / 1980م، ص443. ينظر أيضاً: عماد الدين إسماعيل ابن علي أبي الفداء (ت 732هـ / 1331م): المختصر في أخبار البشر، تح: محمد زينهم محمد عزب، تقديم: حسين مؤنس، دار المعارف، القاهرة، ط1، 1998م، ج1، ص134-135. عبد الحميد خالدي: الوجود الهلالي السليمي في الجزائر، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، 2003م، ص13.

(3) خير الدين الزركلي: الأعلام، قاموس تراجم لأكثر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، دار الفكر، القاهرة، د س ن، ج8، ص91.

تتماسك معا في الحل والترحال، حتى غدت كل واحدة منهما سندا للأخرى في السلم والحرب، الأمر الذي دفع العديد من المؤرخين إلى نسب القبيلتين إلى أصل واحد⁽¹⁾، وشاركت في هذا الحراك قبائل عربية مضرية أخرى تنتمي في فروعها إلى هلال بن عامر، وعرفت بالهلالية بناء على شهرة القبيلة وكثرة أعدادها، والتي انطوت تحت لوائها القبائل الأخرى ومن بينهم سليم بن منصور.⁽²⁾

قبل فترة الهجرة الكبرى إلى بلاد المغرب، استقرت القبائل الهلالية في الجهات الشرقية من نهر النيل في مصر، ومع مرور الزمن أصبحت هذه المناطق موطناً رئيسياً لهم⁽³⁾، ومن أبرز الفروع المشاركة في الهجرة إلى المغرب الأوسط، وخصوصاً إلى بلاد الزاب، قبائل عربية مضرية أخرى تنتسب جميعها إلى هلال بن عامر أشهرها: جشم، وزغبة، ورياح، وعدي، وربيعه، والأثبج⁽⁴⁾، ومنهم الضحاك ومقدم والعاصم ولطيف ودريد وكرفة، كان موطنهم جبال الأوراس وبلاد الزاب.⁽⁵⁾

أسباب الهجرة الهلالية إلى المغرب:

ذكر الكثير من المؤرخين أسباباً للهجرة الهلالية لبلاد المغرب، فأرجعها البعض منهم إلى انفصال المعز بن باديس الصنهاجي عن الخلافة الفاطمية، بحيث اختلف الكثير من المؤرخين في تحديد تاريخ الانفصال الزيري الفاطمي، وتحويل الدعوة من الفاطمية إلى الخلافة

(1) حسين وشاكر مصطفى ممدوح: الحروب الصليبية في شمال أفريقية وأثرها الحضاري، دار عمار، عمان، ط01، 1419هـ/1998م، ص 118.

(2) عمار غرايسة: التحولات الاجتماعية، المرجع السابق، ص 176.

(3) عبد الرحمان ابن خلدون: المصدر السابق، ج06، ص18. عبد الوهاب الكيالي: الموسوعة السياسية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، 1979م، ص 55.

(4) عبد الرحمان ابن خلدون: المصدر نفسه، ج06، ص 19.

(5) عبد الحميد خالدي: المرجع السابق، ص 170.

العباسية، وهو الحدث الذي يعد من أبرز المنعطفات السياسية ذات الصبغة المذهبية في تاريخ المغرب الإسلامي خلال القرن الخامس الهجري، بحيث أرجع النويري وابن الأثير تاريخ إظهار المعز والولاء والدعوة للعباسيين بعد القطيعة السياسية والمذهبية مع الخلافة الفاطمية الشيعية في مصر إلى سنة (435هـ/1043م)⁽¹⁾، في المقابل يرى ابن عذاري المراكشي أن القطيعة تعود إلى سنة (433هـ/1041م)⁽²⁾.

بينما حدد كل من ابن أبي دينار وابن خلدون تاريخ قطع الخطبة لصاحب مصر ولعن الفاطميين، وإحراق البنود إلى شعبان (440هـ/1048م)⁽³⁾ وهو ما رجحه ابن عذاري في كتابه في البيان المغرب، حيث أورد لنا قوله: " اللهم ألعن الفسقة الكبار، المارقين الفجار، أعداء الدين وأنصار الشيطان، المخالفين لأمرك"⁽⁴⁾، وبما أن السكة ضربت سنة (441هـ/1049م)⁽⁵⁾، فإن المقرئ جعل القطيعة سنة (443هـ/1051م)⁽⁶⁾، هذا الاختلاف في تحديد تاريخ القطيعة عند المؤرخين لعله راجع إلى تطور الخلاف الزيري الفاطمي، إذ لم يكن الانفكاك عن الفاطميين فعلا آنيا أو لحظة سياسية حاسمة، بل كان ثمرة خلاف مستمر

(1) أشهاب الدين بن أحمد بن عبد الوهاب النويري (ت 732هـ/1332م): نهاية الأرب في فنون الأدب، تح: عبد المجيد ترحيني، ج24، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، د س ن، ص 116. ينظر كذلك: ابن الأثير: المصدر السابق، ج08، ص 46.

(2) ابن عذاري: المصدر السابق، ج01، ص 301. ينظر أيضا: بشير مبارك: "العنصر العربي بالمسيلة وقلعة بني حماد خلال العصر الوسيط قراءة في الأدوار والتأثيرات"، مجلة البحوث والدراسات الإنسانية، ع 13، 2016م، ص 16.

(3) ابن أبي دينار محمد أبي القاسم القيرواني (ت أواخر القرن 11هـ/17م): المؤنس في أخبار إفريقيا وتونس، دار الميسرة، بروت، لبنان، ط03، 1993م، ص 105. عبد الرحمان ابن خلدون: المصدر السابق، ج04، ص 79.

(4) ابن عذاري: المصدر نفسه، ج01، ص 303. ينظر أيضا: بشير مبارك: المرجع نفسه، ص 16.

(5) ابن عذاري: المصدر السابق، ج01، ص 303. ينظر أيضا: صالح بن قربة: المسكوكات المغربية من الفتح الإسلامي إلى سقوط دولة بني حماد، بحث لنيل درجة دكتوراه الدور الثالث في الآثار الإسلامية، دائرة الدراسات التاريخية والآثار، جامعة الجزائر، 1983م، ص 398.

(6) المقرئ: اتعاض الحنفاء، المصدر السابق، ج02، ص 214.

بين الطرفين، وظهور تدرج في للقطيعة، أي أن القطيعة لم تتم مرة واحدة بل كانت على مراحل.

أرجع المؤرخون هذه الهجرة أو كما سميت بالغزو، أو الزحف، أو التغريبة، إلى جملة من العوامل السياسية، والاقتصادية، وكذا المذهبية، بحيث حدد ابن خلدون سبب الهجرة إلى العامل المذهبي بعد تخلي المعز بن باديس عن المذهب الشيعي خاصة بعد ذكره الصحابين الجليلين أبي بكر الصديق وعمر ابن الخطاب رضي الله عنهما عند سقوطه من جواده، وهي خطوة صريحة لبداية العصيان السياسي والقطيعة المذهبية للأمير الزيري للعقيدة الإسماعيلية الشيعية التي كانت تقوم عليها الدولة الفاطمية، ولما بلغ هذا الأمر الخليفة الفاطمي بمصر نبذ هذا العمل، ولما قويت شوكة المعز بن باديس أعلن الانفصال عن الخلافة الفاطمية ونبذ طاعتهم، وتجلى هذا من خلال رفضه لدفع الخراج للمستنصر بالله الذي تولى الحكم بمصر سنة (437هـ / 1045م)، وإعلانه تأييده للمذهب السني، مما جعل المستنصر تغمره روح الانتقام قرر إرسال الهلاليين للمغرب بعد استشارة وزيره اليازوري⁽¹⁾ أو الجرجاني⁽²⁾.

(1) عبد الرحمان ابن خلدون: المصدر السابق، ج06، ص 18. ينظر أيضا: ابن عذاري: المصدر نفسه، ج01، ص 299. وكذلك: صالح بن قربة: المرجع السابق، ص 420. وأيضا: مختار حساني: تاريخ الدول الإسلامية بالمغرب، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، عين مليلة، الجزائر، 2015م، ص 286. شيماء محمد طارق السيد أبو المعاطي وأمال محمد حسن وصفي علي محمد: "بني زيري في إفريقيا بعد خروج الفاطميين بين الخضوع والتمرد (443-543هـ / 1052-1148م)"، مجلة بحوث العلوم الإنسانية والاجتماعية، مج 02، ع 05، ماي 2022م، ص 96، وأيضا: عوض السيد حنفي وصديق المهدي: قرية بني هلال بين بين المسار التاريخي والواقع الاجتماعي، دار المعرف، مصر، ط01، د ت ط، ص 41.

(2) نسب ابن خلدون فكرة تسليط القبائل الهلالية على بلاد المغرب لوزير المستنصر علي بن أبي الحسين الجرجاني، بينما تشير مصادر أخرى إلى أن التدبير تم على يد اليازوري لذي تولى الوزارة بعده، ومن المحتمل أن تكون الفكرة للجرجاني والتنفيذ لليازوري. ينظر: عبد الرحمان ابن خلدون: المصدر السابق، ج06، ص 19.

وهناك من أرجع سبب الهجرة إلى هجرة سياسية، حيث ظهرت الهجرة الهلالية لبلاد المغرب على عهد الدولة الصنهاجية الزيرية والحمادية، حيث كانت هذه الحملة ذات صبغة سياسية عسكرية أراد منها المستنصر بالله القضاء على الدولة الزيرية الصنهاجية المتمردة من جهة⁽¹⁾، والتخلص من عيث القبائل العربية والتي كانت هذه الأخيرة تتخبط في مشاكل الحركة الانفصالية ببلاد الشام من جهة أخرى⁽²⁾، فأرادت الدولة الفاطمية التخلص من التهديد الهلال الذي كان يهدد ويغار على الحدود الشرقية والغربية لمصر.⁽³⁾

والبعض رجح العامل الاقتصادي لهذه الحركة، خاصة الاستفادة الفاطمية من الأموال والخراج الذي كان يأتي من المغرب إلى مصر، مما أنهك خزينة الدولة الزيرية وكانت عبئا ثقيلا عليها، كما أرهقت كاهل العامة أيضا من خلال جمع الضرائب والزكاة والخراج، والعشور والمكوس، مما عجل من القطيعة بينهما.⁽⁴⁾

أما الرأي الآخر فأرجع سبب الهجرة إلى طبيعة البدو الرحل، الذين يبحثون عن الكلاء خاصة بعد القحط الشديد والظروف المناخية التي سادها الجفاف الذي حل بالمشرق في القرن الخامس الهجري الحادي عشر ميلادي، حيث غاضت الآبار ويبست الأعشاب وذوت

(1) عزى بوخالفة: تغريبه بني هلال بين التاريخ والروايات الشفهية الهلالية الجزائرية، مذكرة معدة لنيل شهادة دكتوراه دولة، كلية الآداب واللغات، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة الجزائر، الجزائر، 2002-2003م، ص 74. مختار حساني: المرجع السابق، ج02، ص 210.

(2) ابن حجر العسقلاني (ت 852هـ / 1449م): رفع الأصر عن قضاة مصر، تح: محمد علي عمر، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، ط1، 1998م، ص 132.

(3) عبد العزيز السيد سالم: تاريخ المغرب في العصر الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر والتوزيع، الإسكندرية، 1999م، ج02، ص 580. ينظر أيضا: قاسمي بختاوي: "الهجرة الهلالية إلى الصحراء الإفريقية (الأسباب والانعكاسات)"، الساور للدراسات الإنسانية والاجتماعية، ع 01، ديسمبر 2015م، ص 57. وأيضا: أحمد مختار العبادي: في التاريخ العباسي والفاطمي، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، د س ن، ص 299.

(4) MARCAIS GEORGE: LA BERBRIE. P45.

الأشجار، وقلت الحبوب، مما جعل من مشائخ القبائل الهلالية تفكر في الهجرة إلى بلاد يكثر فيها الكلاً بعد أن قصدوا أميرهم حسن أبي سرحان⁽¹⁾، وبالتالي هيأت الظروف الملائمة للبدو الرحيل إلى بلاد المغرب لتحسين ظروفهم المعيشية بوجود مناطق خصبة لماشيتهم ومساكن لائقة لذويهم.⁽²⁾

بينما يروى بعض المستشرقين كألفريد بيل وجورج مارساي أن سبب الهجرة راجع إلى العوامل القبلية العرقية برغبة الفاطميين القضاء على قبيلة صنهاجة البربرية بإنشاء دولة عربية تابعة إلى مذهبهم⁽³⁾، إلا أن هذا الرأي مخالف للصواب بكون القبائل الهلالية قبائل سنية لا يمكنها المشاركة في تأسيس إمارة شيعية جديدة تابعة لمذهبهم وخاضعة لسلطتهم، ودليل ذلك أن المصادر لم تتحدث على الصراع القبلي بين الهلاليين والقبائل الأخرى بحلة مذهبية بل كان على الأراضي الخصبة والسهول وكان صراعا لإثبات الوجود حتى وصل الصراع الهلالي في كثير من الأحيان إلى التخريب واقتطاع الأراضي الرعوية ببلاد الزاب.

ولعلي أرجع سبب القطيعة بين الطرفين إلى الأوضاع السياسية داخل الدولة الزييرية، والتي تتخللها حلة مذهبية، لأن المذهب المالكي قويت شوكته بعد رحيل الفاطميين إلى مصر ودان به أغلبية العامة، إلا أن مذهب السلطة كان شيعيا، فكان من الواجب على المعز بن باديس الحفاظ على سلطة دولته من الزوال، فمن الطبيعي لا يمكن قبول مذهب غير المذهب السني، وهذا ما يهدد كيان الدولة الزييرية، مما جعل الحاكم يعرض عن مذهبه الأول ويتبنى المذهب المالكي الذي من خلاله يحافظ على سلطته.

(1) عمر أبو النصر: تغريبة بني هلال ورحيلهم إلى بلاد المغرب وحربهم مع البزنطيين خليفة، دار أبو النصر وشركاءه

للطباعة والنشر والتوزيع والصحافة، بيروت، لبنان، ط01، 1971م، ص 13.

(2) محمد الهادي الشريف: ما يجب أن تعرفه عن تاريخ تونس من عصر ما قبل التاريخ إلى الاستقلال، تع: محمد الشاوش ومحمد عجينة، دار سراس للنشر، ط03، 1993م، ص 49. قاسمي بختاوي: المرجع السابق، ص 59.

(3) ألفريد بيل: الفرق الإسلامية في الشمال الأفريقي، من الفتح العربي حتى اليوم، تر: عبد الرحمن بدوي، دار الغرب الإسلامي، ط03، 1987م، ص 212. ينظر أيضا: جورج مارساي: بلاد المغرب وعلاقتها بالشرق الإسلامي في العصور الوسطى، تر: هيكل محمود عبد الصمد، راج: مصطفى أحمد أبو ضيف، منشأة المعارف بالإسكندرية، 1991م، ص 223.

أعداد المهاجرين الهالبيين إلى بلاد المغرب:

لم يتفق المؤرخون حول عدد محدد للعرب الهلالية المرتحلة إلى بلاد المغرب، فيذكر أبو الحسن التلمساني أن القبائل المرتحلة إلى المغرب بلغ عددها ألفا ومئتين وأربع وعشرين حلة⁽¹⁾، منها قبيلة زغبة التي ارتحلت منها خمسمائة حلة، ورياح أرعمائة حلة، ومرداس ثلاثمائة حلة، وسويد عشرين حلة، وفزارة أربع حلة.⁽²⁾

فإذا قمنا بعملية حسابية بضرب عدد الحل بعدد البيوت فستكون النتيجة 122400 بيت، فكما فرض حسين مؤنس أن في البيت أربعة أفراد فيكون مجموع الأفراد هو 489600 نفر.⁽³⁾

ذكر في التغريبة عدد الفرسان والقبائل التي شاركت في هذه الهجرة، فارتحل من قبيلة زغبة بقيادة دياب بن غانم تسعون ألف فارس، وبني دريد بقيادة حسين بن سرحان تسعون ألف فارس، وبني زحلان بقيادة أبي زيد تسعون ألف فارس، والجهال بقيادة الأمير زيدان ستون ألف فارس، والقاضي بدير تسعون ألف مقاتل ومجموع هذا أربعمائة وعشرين ألف فارس.⁽⁴⁾ فإذا قمنا بمقارنة بين المؤرخين كقبيلة زغبة على سبيل المثال لا الحصر التي ارتحل منها على حسب الحسن التلمساني خمس مئة حلة وبعملية حسابية بسيطة وجدنا عدد البيوت

(1) الحلة: هي جماعة بيوت الناس وتظم مئة بيت. ينظر: أحمد رضا: معجم متن اللغة، دار مكتبة الحياة، بيروت، 1378هـ/1959م، ج2، ص 152.

(2) طيب نعيمة بوجمعة: "الهجرة الهلالية من خلال مخطوط كتاب نسب زغبة ومنتهى أصولهم لأبي الحسن بن علي بن محمد بن الخطيب القرشي"، المجلة المغاربية للمخطوطات، ع06، جانفي 2018م، ص 121. ينظر أيضا: نعيمة بوجمعة طيب: "تحرّتي في دراسة مخطوط كتاب نسب زغبة ومنتهى أصولهم لأبي الحسن بن علي بن محمد بن الخطيب القرشي التلمساني (عاش خلال القرن 11هـ/17م)"، مجلة آفاق الفكرية، مج09، ع01، جوان 2021م، ص 68.

(3) حسين مؤنس: تاريخ المغرب وحضارته، العصر الحديث للنشر والتوزيع، لبنان، ط01، 1416هـ/1992م، مج01، ص 112. ينظر أيضا: نعيمة بوجمعة طيب: "تحرّتي في دراسة مخطوط كتاب نسب زغبة"، المرجع نفسه، ص 68. نعيمة طيب بوجمعة: الهجرة الهلالية، المرجع السابق، ص 121.

(4) Bel Alfred: la djazya Seq oct 1902. Mars.Avril1903.p4.

التي ارتحلت خمسون ألف بيت، وإذا اعتمدنا على رأي حسن مؤنس بوجود أربعة أفراد في كل بيت وصل عدد المرتحلين إلى مئتي ألف فرد، أما في التغريبة فحدد عدد الفرسان بتسعين ألف فارس، وهنا لم يذكر النساء والأطفال بل أشار إلى الفرسان فقط، فإذا زدنا هذين العنصرين قاربنا العدد المذكور أو تجاوزناه بقليل.

على الرغم من أن حسين مؤنس قدر عدد المهاجرين من القبائل الهلالية إلى بلاد المغرب بما يقارب نصف مليون، إلا أنه يعود لاحقا ليرجح في نهاية المطاف أن العدد الحقيقي في نظره الذي لم يتجاوز ربع مليون. (1)

أما مبارك المليقي فقدم تقديرا مرتفعا حيث ذهب إلى أن أعداد المرتحلين قدر بمليون مهاجر هلاكي (2)، إلا أن لعثمان الكعك رأي آخر حيث يرى أن رقم المليون مبالغ فيه، ويرجح أن العدد يتراوح ما بين المئتي ألف والنصف مليون (3)، وهو ما ذهب إليه كل من الباحث الفرنسي غاروا (Garruet) (4)، وجورج مارساي (Georges Marçais)، اللذين شددوا على أن تقدير مليون مهاجر مبالغ فيه، فضلا على أن العدد في حدود مئتي ألف نسمة فقط. (5)

وبعد دراسة المعطيات الخاصة بالتقديرات الرقمية المتعلقة بعدد المهاجرين الهلاليين إلى بلاد المغرب، أوافق الرأي الذي قدمته نعيمة طيب بوجمعة (6)، بحيث أرجح أن القول بضخامة أعداد هذه القبائل أقرب إلى المنطق التاريخي، خصوصا أن هذه الهجرة لم تكن مجرد

(1) حسين مؤنس: المرجع السابق، مج 01، ص 60.

(2) مبارك المليقي: المرجع السابق، ج 02، ص 202.

(3) عثمان الكعك: المرجع السابق، ص 195.

(4) Garrot Hemir: **Histoire Générale de L'Algérie**, 1er Ed, Imprimerie P.Crescenzo

VoutsBastin-Nord, France, 1916.p213.

(5) MARCAIS GEORGE: **LA BERBRIE Musulmane et L'Orient du XIe au XIVe siècle**, 1er Ed, Afrique Orient, Editeur, Maroc, 1991, P194. Mars. Avril 1903. p89.

(6) نعيمة بوجمعة طيب: "الهجرة الهلالية من خلال مخطوط كتاب نسب زغبة"، المرجع السابق، ص 122.

تتقل قبلي محدود، بل كانت حركة جماعية كبرى ذات طابع اجتماعي وعسكري، هدفها المعن هو الإطاحة بدولة قائمة الأركان، ألا وهي الدولة الزييرية التي كانت تشكل امتدادا سياسيا منفصلا عن الخلافة الفاطمية، فليس من المعقول وفي ضوء هذا الهدف، أن تسير جموع قليلة من البدو الرحل لتحقيق غاية بهذا الحجم، بل تقتضي طبيعة المهمة إرسال جموع بشرية ضخمة قادرة على التغلغل والسيطرة وبسط النفوذ على رقعة جغرافية واسعة، كما حدث بالفعل في بلاد الزاب والمغرب الأوسط عموما، ويؤيد هذا الطرح ابن خلدون (ت 808هـ)، الذي كان أكثر وضوحا في وصفه لحجم هذه الجموع العربية، حيث شبه أعدادهم الهائلة وانتشارهم الكاسح بالجراد المنتشر، قائلا: "وسارت قبائل دياب وعوف وزغب وجميع بطون هلال إلى إفريقيا كالجراد المنتشر، لا يمرون بشيء إلا أتوا عليه".⁽¹⁾

وكما نرى أن عددهم قد يتجاوز النصف مليون مهاجر، بل نرى أيضا أن الذي قدر عدد المهاجرين الهلاليين بالمليون ليس مبالغا فيه، وذلك بالنظر إلى حجم التأثير الذي أحدثوه في مجال المغرب الإسلامي عموما، وبلاد الزاب على وجه الخصوص، سواء من حيث الاستيطان أو التحول الاجتماعي والعمراني الذي صاحب استقرارهم في هذا المجال، ومع ذلك لا يمكننا إنكار أن تحديد العدد الإجمالي للوافدين الهلاليين إلى بلاد المغرب يبقى من المسائل التي يصعب تحديدها والحسم فيها بدقة، وذلك لعدة اعتبارات منها افتقار المصادر إلى إحصاءات دقيقة حول الموضوع، وتفاوت الروايات التاريخية حول التقديرات العددية، فضلا عن امتداد حركة الهجرة على مراحل متعددة، وانتشارها بين عدة أقاليم داخل بلاد المغرب.

لم يكن المجال الواحي لإقليم الزاب بمنأى عن موجات الهجرة العربية، سواء تلك التي جاءت في إطار الفتح الإسلامي المبكر، أو التي رافقت الزحف الهلالي في القرن الخامس الهجري (11م)، وذلك بالنظر إلى الموقع الجغرافي الذي يتمتع به هذا الإقليم، باعتباره يشكل

(1) عبد الرحمن ابن خلدون: المصدر السابق، ج 06، ص 20.

الامتداد الجنوبي الغربي لسيادة ولاية إفريقية في العهد الوسيط، فقد كانت هذه الهجرات لا سيما الهلالية منها ذات الأثر البالغ في إعادة تشكيل البنية الاجتماعية والثقافية للمنطقة، حيث أحدثت تحولات عميقة في النسيج القبلي خاصة بين العنصر العربي الوافد والعنصر البربري المستقر، مكونة مجتمعا جديدا، تجلت معالمه في مختلف أوجه الحياة اليومية، منتقلة من حياة البداوة والترحال إلى حياة الاستقرار وال عمران، كما كان لذلك أثر مباشر في إعادة توزيع السلطة والنفوذ القبلي داخل المجال الزابي، بما في ذلك نشوء إمارات محلية جديدة، وتراجع نفوذ القبائل البربرية التقليدية، وظهور أخرى تحت راية القبائل العربية كبنو مزني ورياح، مشكلة تحولات في التركيبة السكانية، والنظم الاجتماعية، والاقتصادية، واللغوية والجنسية، بحيث ظهرت حركة التعريب في الكثير من قبائل البربر نتيجة المصاهرة والاحتكاك بسكان المنطقة⁽¹⁾، مما ساعد على نشر الثقافة العربية بالمغرب الإسلامي عموما وبلاد الزاب على وجه الخصوص⁽²⁾.

1-4 القبائل الهلالية بلاد الزاب:

كان إقليم الزاب وجبال الأوراس بمثابة البوابة التي دخلت منها قبائل بني هلال وسليم إلى المغرب الأوسط، واستقرت بعض بطونهما في منطقة بسكرة والمناطق المجاورة لها، ومن بين هذه القبائل التي استقرت بالمنطقة نذكر:

أ- قبيلة الأثبج:

تعد قبيلة الأثبج من أكبر بطون بني هلال عددا، وأكثرها تفرعا من حيث البطون والفروع⁽³⁾، وقد تميزت بالتقدم والرئاسة لا سيما عند دخولها بلاد المغرب، واندراج تحت رايها

(1) راجع بونار: المغرب العربي تاريخه وثقافته، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط2، 1981م، ص 200.

(2) فافة بكوش: "الهجرة الهلالية ببلاد المغرب خلال القرن (5هـ/11م) وقائعها وآثارها"، مجلة القرطاس، ع 07، جانفي

2018م، ص ص 69-70.

(3) عبد الرحمن ابن خلدون: المصدر السابق، ج06، ص30. حسن محمد: البادية والمدينة بإفريقيا في العهد الحفصي،

جامعة تونس الأولى، تونس، 1999م، ج01، ص 98.

العديد من القبائل العربية، كفزارة، وأشجع، وجشم، وسلول، ومعل، وعمرة، وبني ثور، وعدنان، وطرود⁽¹⁾، فأصبحت تنسب إلى بني هلال، وبشكل خاص إلى فرع الأثيج⁽²⁾.

بعد عبورهم النيل، واصل فرع الأثيج من بني هلال زحفهم نحو بلاد المغرب، حتى ولجوا المغرب الأوسط عبر بوابة قفصة، ومنها توغلوا تدريجيا نحو نواحي بسكرة وطبنة والمسيلة، وصولا إلى تخوم قلعة بني حماد الذي يمثل المركز السياسي للدولة الحمادية⁽³⁾، وقد تميز مسارهم هذا بخصوصية سياسية، إذ اختصهم الحماديون بتحالف استثنائي لم يمنح لسواهم من القبائل العربية⁽⁴⁾، فاستوطنوا إقليم الزاب، ومنحوا عددا من أعماله، مما أتاح لهم توطيد وجودهم وتعزيز نفوذهم داخل المجال الواحي لبلاد الزاب، كما شملت مواطن الأثيج عموما على غرار بلاد الزاب المجال الجغرافي لشرقي جبال الأوراس الذي يشمل قسنطينة، والحصنة⁽⁵⁾.

(1) عبد الوهاب بن منصور: المرجع السابق، ج01، ص 413.

(2) عبد الرحمن ابن خلدون: المصدر السابق، ج06، ص 30. ابراهيم إسحاق إبراهيم: هجرات الهلاليين من جزيرة العرب إلى شمال إفريقيا وبلاد السودان، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض، ط01، 1416هـ/1996م، ص51.

(3) محمد طمار: المغرب الأوسط في ظل صنهاجة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2010م، ص116.

(4) عبد الرحمن ابن خلدون: المصدر السابق، ج06، ص 27. روجي ادريس الهادي: المرجع السابق، ج01، ص 309.

(5) عبد الرحمن ابن خلدون: المصدر السابق، ج06، ص 34. محمد حسن: المدينة والبادية، المرجع السابق، ج01، ص 98. الطاهر بونابي: مظاهر المجال والدين والمجتمع بالمغرب الأوسط خلال العصر الوسيط، سلسلة الكتب الأكاديمية لكلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة محمد بوضياف المسيلة، 2017م، ص 125. مصطفى بن عريب: "التوطين

الهلالي بالمغرب الأوسط خلال العهد الحمادي من منتصف القرن 5هـ/11م إلى منتصف القرن 6هـ/12م (قراءة في

طرق وأساليب التوطين وآثاره بتلول وصحراء المغرب الأوسط)"، مجلة البحوث التاريخية، مج05، ع 02، 2021م، ص

79. هدى حملاوي: العرب الهلالية في بلاد المغرب الأوسط وعلاقتهم بالمجال والسلطة والمجتمع (عهد الدولة الحمادية

أنموذجا)، مذكرة مكملة لمتطلبات نيل شهادة الماستر تخصص: تاريخ الغرب الإسلامي، كلية العلوم الإنسانية

والاجتماعية، قسم التاريخ، جامعة المسيلة، 2021م، ص29.

يزعم بعض النسابين أن الأثبج هو ابن ربيعة بن نهيك بن هلال⁽¹⁾، مستنديين في ذلك إلى الروايات التي ترجع نسبه إلى صلب هلال بن عمر، الذي أنجب عددا من الأبناء وهم : شعيثة، وناشرة، ونهيك، وعبد مناف، وعبد الله، وهو ما جعل بعض النسابين ينسبون الأثبج إلى نهيك بن هلال مباشرة⁽²⁾، ومن أبرز بطون قبيلة الأثبج نذكر:

- فرع الضحاك:

يعد الضحاك بن مشرف بن أثبج من أبرز وأهم فروع قبيلة الأثبج، وقد انبثقت عنه بطون عديدة أسهمت في توسيع نفوذ القبيلة في بلاد إقليم الزاب، غير أن هذا التفرع سرعان ما أنتج صراعا على الزعامة بين أميرين من نسل الضحاك، هما : أبو عطية وكنب بن منيع، وقد بلغ هذا النزاع ذروته خلال مطلع العصر الموحيدي، وانتهى لصالح كنب بن منيع الذي تمكن من استعادة الرئاسة على بلاد الزاب، في حين اضطر أبو عطية إلى مغادرة المنطقة، فرحل أولا إلى سبلماسة، ثم اختلفت الروايات حول مصيره، فهناك من قال إنه لجأ إلى الأندلس، بينما ذهب آخرون إلى أنه قتل على يد الموحيدين أثناء محاولته مقاومة نفوذهم المتصاعد، ومع مرور الزمن تغيرت موازين القوى بحيث تمكنت أسرة الدواودة من فرض هيمنتها على فرع الضحاك، فأصبح هذا الأخير تابعا لها سياسيا وعسكريا، غير أن أبناء الضحاك واصلوا تأثيرهم في المنطقة، وأسهموا إلى جانب الدواودة في تأسيس عدد من المدن والمراكز الحضرية المهمة بإقليم الزاب.⁽³⁾

(1) عبد الرحمان ابن خلدون: المصدر السابق، ج06، ص 30.

(2) ابن حزم الأندلسي: المصدر السابق، ج01، ص 274.

(3) عبد الرحمان ابن خلدون: المصدر السابق، ج06، ص 33-34. مصطفى أحمد عمر أبو ضف: القبائل العربية ببلاد المغرب في عصر الموحدين وبني مرين (524-876هـ/1130-1472م)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط01، 1982م، ص 200. محمد حسن: المدينة والبادية، المرجع السابق، ص 101. ينظر أيضا: مختار حساني: تاريخ الدول الإسلامية بالمغرب، المرجع السابق، ص75. عبد الوهاب بن منصور: المرجع السابق، ص 418.

- فرع عياض:

ينتسب عياض إلى مشرف، ومن أبرز بطونه قبيلة مهاية، وكانت رئاسة هذا الفرع في أولاد ديفلو، وتحديدًا في بطون الخراج والزبر والمرتفع، وقد تولى الخراج بن أولاد زائد بن عباس بن خفير زعامة هذا الفرع، وكان إلى جوارهم بطون أخرى من عياض، مثل أولاد صخر وأولاد رحمة. (1)

- فرع لطيف:

يعد لطيف بن كسلان بن خليفة بن لطيف بن دوي مطرف ودوي أبي الخليل ودوي حلال بن معافى⁽²⁾، من أبرز الفروع المنحدرة من قبيلة الأثبج، وقد اشتهر بقوته وعدته بين بطون الأثبج، غير أن سيطرة الذواودة على الضواحي التي كانت تحت نفوذهم أضعفت شوكتهم، مما أدى إلى تشتت بطونهم وانقسامها، حيث استقر جزء منهم في بلاد الزاب، وعمرؤا مدنه وقراه كتهودة وبادس وتتومة، وقد تفرعت عن لطيف بطون عديدة، كان من أبرزها بطن مزنة، التي ينسب إليها بنو مزني المعروفون في أرض الزاب وبسكرة. (3)

- فرع دريد:

تعد قبيلة دريد من أبرز القبائل العربية التي دخلت شمال إفريقيا، تزعمها الحسن بن سرحان بن وبرة، وتمكنت من السيطرة على منطقة خصبة تمتد من عنابة إلى جنوب قسنطينة، كانت القبيلة تسعى إلى التوسع جنوبًا إلى أراضي الزاب للاستفادة من الأراضي في الشتاء،

(1) عبد الرحمان ابن خلدون: المصدر السابق، ج06، ص 48. ينظر أيضا: مصطفى أبو ضياف: المرجع السابق، ص

199. وأيضا: عبد الوهاب بن منصور: المرجع السابق، ص 419.

(2) عبد الرحمان ابن خلدون: المصدر نفسه، ج06، ص 34. عبد الوهاب بن منصور: المرجع نفسه، ص 418. أبو ضياف مصطفى: المرجع نفسه، ص 200.

(3) عبد الرحمان ابن خلدون: المصدر نفسه، ج06، ص 586. عبد الوهاب بن منصور: المرجع نفسه، ص 418.

مصطفى أبو ضياف: المرجع نفسه، ص 200.

لكن تحالف القبائل الأخرى، بما في ذلك قبيلتي كرفة وعياض وقر، منعها من تحقيق هذا التوسع. (1)

انقسمت قبيلة دريد نتيجة الصراع داخل القبيلة الواحدة، إلى فرعين رئيسيين هما: أولاد عطية وتوبة، ثم انقسمت توبة بدورها إلى رئاستين هما: وشاح ومبارك، وكل واحدة من هاتين الرئاستين تفرعت إلى مجموعات أخرى، بحيث تفرعت رئاسة وشاح إلى كل من شجم وأولاد أحمد، بينما رئاسة مبارك تفرعت إلى كل من نجاح وعبد الله وراجح، يعزى هذا التقسيم إلى التطورات السكانية بالمجال الواحي والتي أثرت على البنية الاجتماعية والاقتصادية للقبيلة. (2)

- فرع كرفة الأثبج:

يعد فرع كرفة من أبرز بطون قبيلة الأثبج، وقد تميزوا بكثافة عددهم وامتدادهم الواسع، فكانوا من بين أكثر الأحياء الهلالية كثافة عند دخولهم إلى إفريقيا (3)، وهو ما أكسبهم مكانة بارزة بين القبائل العربية، وقد ظل لهم دور مهم في الحياة القبلية حتى منتصف القرن السابع الهجري، بحيث اعتمدت عليهم الدولة الحفصية في مواجهة القبائل الراحية في الجهة الغربية من البلاد (4)، وبالتحديد جبال الأوراس وبلاد الزاب، حيث قال ابن خلدون: "وأقطعتهم الدولة لذلك جباية الجانب الشرقي من جبال الأوراس وكثيرا من بلاد الزاب الشرقية حيث كانت محلاتهم الشتوية" (5)، ومن أبرز بطون كرفة: بنو محمد بن كرفة، والمرأونة أبناء كثير بن مروان بن قطن بن كرفة، بالإضافة إلى أولاد نابت بن الفضل. (6)

(1) عبد الرحمان ابن خلدون: المصدر نفسه، ج06، ص ص 44 - 45.

(2) هدى حملاوي: المرجع السابق، ص 30.

(3) عبد الرحمان ابن خلدون: المصدر السابق، ج06، ص 23.

(4) محمد حسن: المرجع السابق، ج01، ص ص 98-99.

(5) عبد الرحمن ابن خلدون: المصدر نفسه، ج06، ص 31.

(6) مصطفى أبو صف: المرجع السابق، ص 197.

ب- قبيلة رياح:

تعتبر قبيلة رياح إحدى قبائل بني هلال الشهيرة التي دخلت بلاد المغرب خلال الهجرة الهلالية، ويعود نسبهم إلى رياح بن أبي ربيعة بن نهيك بن هلال بن عامر، وكانت رئاسة القبيلة في تلك الفترة لدى موسى بن يحيى الصنبري من بطون مرداس بن رياح⁽¹⁾، وهو بطن من عامر بن صعصعة من العدنانية⁽²⁾، وفي سنة 443هـ/1051م، استطاعت القبيلة السيطرة على المناطق الخصبة في ناحية باجة⁽³⁾.

عقد الرياحيون تحالفا مع الزيريين، ما مكنهم في بداية الأمر من الاستقرار في أغلب مناطق إفريقية وضواحيها. وقد جاء هذا التحالف في سياق محاولات الزيريين استمالة القبائل العربية لتأمين حدودهم وتعزيز نفوذهم بالمنطقة⁽⁴⁾، وخلال القرن 6هـ/12م استطاعت قبيلة بني رياح التغلب على القبائل المنافسة، مثل الأتيج وزغبة، لتسيطر على مناطق واسعة من المجال الواحي لبلاد الزاب وأريغ ووركلا وما وراءها من القفار⁽⁵⁾، واستقرت في سهوله الخصبة، مما أدى إلى زيادة عدد أفرادها وتنوع قبائلها وعشائرها، وتشير الرسائل الموحدية إلى الخلافات داخل بني هلال، بما في ذلك خلاف القبائل والعشائر والأفخاذ⁽⁶⁾، مما جعلها غير قادرة على الصمود أمام الزحف العسكري الموحي بحيث عجز التحالف البدوي، الذي ضم قبائل رياح

(1) عبد الرحمان ابن خلدون: المصدر السابق، ج06، ص 43. ينظر أيضا: محمد حسن: البادية والمدينة المرجع السابق، ص 105. أيضا: عبد الوهاب بن منصور: المرجع السابق، ص 421. أيضا: مختار حساني: المرجع السابق، ص 90.

(2) القلقشندي: المصدر السابق، ص 266. النويري: المصدر السابق، ج24، ص 118.

(3) مدينة باجة هي مدينة صغيرة وحسنة في وطاء من الأرض تتميز بكثرة القمح والشعير. تشتهر المدينة بكثرة غلاتها لخصوبة أرضها، كما تمتاز المدينة بتوفر أسباب العمران بطيب هواءها وكثرة رخاءها. ينظر: الادريسي: المصدر السابق، ص ص 84-85.

(4) عبد الرحمان ابن خلدون: المصدر نفسه، ج06، ص 21. الهادي روجي إدريس: المرجع السابق، ج01، ص 309.

(5) عبد الرحمان ابن خلدون: المصدر نفسه، ج06، ص 45. خديجة بورملة: "التغيرات السياسية والعسكرية والاقتصادية

بالمغرب الأوسط في ظل الهجرة الهلالية منتصف القرن 05 هـ/11م - منتصف القرن 06 هـ/12م"، مجلة المواقف

للبحوث والدراسات في المجتمع والتاريخ، مج 20، ع02، ماي 2025م، ص 399.

(6) محمد حسن: البادية والمدينة، المرجع السابق، ج01، ص 105.

وعدي والأثبج بقيادة الأمير محرز بن زياد، عن الصمود أمام القوة العسكرية الموحدية، فانهزم في معركة سطيف سنة (574هـ/1153م)، وهي الهزيمة التي فتحت الطريق أمام توسع الموحدين في المنطقة، باعتبار أن المنطقة تابعة لملكهم بحيث فرضت على الهلاليين إلتزامات إتجاه الدولة كدفع الضرائب مع المساهمة في الحملات العسكرية التي يقوم بها الولاة الموحدين⁽¹⁾، ومنذ ذلك التاريخ دخلت قبيلة رياح في صراع متكرر مع الدولة الموحدية تارة، ومع الحفصية تارة أخرى.⁽²⁾

تفرقت قبيلة بني رياح إلى عدة بطون وهي: الذواودة، وسويد، وأشجع، والنضر، وكرفة⁽³⁾، واعتمادا على التصنيف الخلدوني وبتتبع الأحداث التاريخية التي لعبتها بطون قبيلة رياح فإن أهم بطونها بنو مرداس⁽⁴⁾، التي تعد من أكبر بطون القبيلة خلال مرحلة الزحف، وهم من نسل مؤنس بن يحيى الصبري، الذي كان صاحباً للمعز وصهرا له.⁽⁵⁾

ج- قبيلة زغبة:

تعد زغبة قبيلة عربية بطن من رياح بن هلال، تنتسب إلى زغبة بن ربيعة بن نهيك بن هلال بن عامر بن صعصعة بن هوازن بن منصور بن عكرمة بن يزيد بن حفص بن قس بن عيلان بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان من العدنانية وهم إخوة لرياح، وهو زغبة ابن

(1)أفاة بكوش: المرجع السابق، ص 69.

(2)محمد حسن: البادية والمدينة، المرجع السابق، ج01، ص 105.

(3)الحسن بن محمد الفاسي ليون الإفريقي الوزان (ت 956هـ/1549م): وصف إفريقيا، تر: محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الاسلامي، بيروت، ط02، 1983م، ج01، ص 49.

(4)عبد الرحمان ابن خلدون: المصدر السابق، ج06، ص 43. ينظر أيضا: الهادي روجي إدريس: المرجع السابق، ج01، ص 250.

(5)عبد الرحمان ابن خلدون: المصدر نفسه، ج06، ص 211. ينظر أيضا: محمد علي رحالي: بطون بني هلال في بلاد المغرب الإسلامي مناطق استقرارها وآثارها من ق5هـ إلى ق7هـ/من ق11م إلى ق13م، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الوسيط، قسم التاريخ، المدرسة العليا للأساتذة، بوزريعة، الجزائر، 2018م، ص 98. وأيضا: عبد الوهاب بن منصور: المرجع السابق، ص 421.

أبي ربيعة بن نهيك بن هلال بن عامر⁽¹⁾، وقد كانت قبيلة زغبة تتمتع بكثرة وعزة عند دخولها إلى إفريقية، بحيث كان لها شأن بين القبائل الهلالية⁽²⁾، غير أن القلقشندي خالف الصواب حين نسب زغبة إلى بطون رياح، إذ تؤكد معظم المصادر أن زغبة تعد شقيقة لرياح والأثبج، لا فرعاً تابعا لها.⁽³⁾

كما أن قبيلة زغبة تنحدر من القبائل الهلالية، بحيث تتكون من خمسة بطون رئيسية وهي: يزيد، حصين، عامر، مالك، وعروة، حيث نزلت زغبة في بادئ الأمر نواحي طرابلس وقابس سنة (429هـ/1030م)⁽⁴⁾، غير أنها أجبرت على مغادرة إفريقية سنة (466هـ/1073م) بعد أن طردتها قبائل رياح، فتوجهت نحو المغرب الأوسط لتدخل في خدمة الدولة الحمادية⁽⁵⁾، وتوجهت بعض بطونها شمالاً إلى أن بلغت سهل متيجة واستقرت في نواحيه، بينما اتجهت بطون أخرى نحو الصحراء، فامتدت مجالاتها ما بين المسيلة وقبلة تلمسان في القفار والمناطق الصحراوية⁽⁶⁾. وعند توسع الدولة الموحدية على مجال إفريقية، كانت قبيلة زغبة من أبرز حلفائها، إذ شكلت سندا قويا لها في مواجهة ابن غانية، الذي تحالفت معه بعض القبائل الهلالية الأخرى.⁽⁷⁾

(1) عبد الرحمان ابن خلدون: المصدر السابق، ج06، ص 54. النويري: المصدر السابق، ج02، ص 350. محمد حسن: المدينة والبادية، المرجع السابق، ج01، ص 102.

(2) عمر رضا كحالة: معجم قبائل العرب القديمة والحديثة، المطبعة الهاشمية، دمشق، 1368هـ/1949م، ج02، ص 475.

(3) القلقشندي: المصدر السابق، ص 272.

(4) عبد الرحمان ابن خلدون: المصدر نفسه، ج06، ص 55.

(5) المصدر نفسه، ج06، ص 54. ينظر أيضا: أبي الحسن علي بن محمد بن الخطيب القرشي التلمساني: كتاب نسب زغبة ومنتهى أصلهم (جوانب من تاريخ القبائل الهلالية)، تح: نعيمة طيب بوجمعة، النشر الجامعي الجديد، تلمسان، الجزائر، 2019م، ص 117.

(6) عبد الرحمان ابن خلدون: المصدر نفسه، ج06، ص 54.

(7) المصدر نفسه، ج06، ص 54.

د - قبيلة بني مزني:

في حدود القرن الرابع الهجري/(10م)، كان الزاب منطقة تتميز بتعدد الاثنيات والثقافات والمذاهب، هذه المنطقة كانت مكونة من مجموعة من القصور التي تشكل نمط المدينة الواحدة على عهد الأمير الحمادي الناصر بن علناس، وفي سنة 454هـ/481هـ، شهدت الزاب تحولات كبيرة حيث أباد الأمير أسرة بني رمان، التي كانت تتحدر من أصول بربرية التي كانت تسيطر على بسكرة، بعد ذلك قام بتقسيم الزاب إلى قاعدتين وهما: الزاب الأعلى وقاعدته نقاوس والتي تكفل بتسييرها أحد أفراد العائلة الحمادية، والزاب الأدنى وقاعدته بسكرة التي كانت تسيير من قبل أسرة بني سندل الزناتية.⁽¹⁾

تركزت السيطرة الهلالية على بلاد الزاب أثرا بالغا في الكتابات الجغرافية، وهو ما يظهر جليا في وصف الجغرافي الإدريسي لبعض الحصون والمدن التي خضعت للنفوذ العربي، حيث أشار إلى حصن بادس، كان عامرا بأهله قبل أن يتمكن العرب من الاستيلاء عليه، رغم كونه في الأصل حصنا بربريا، وقد أشار إلى أن العرب بسطوا سيطرتهم على الحصن بشكل كامل لدرجة أنهم منعوا سكانه من الخروج إلا تحت حراسة رجل منهم⁽²⁾، وأما مدينة بغال التي كانت قبل الهجرة الهلالية مدينة كبيرة، تحولت إلى مصدر إفساد للعرب بسبب ما آلت إليه الأمور من سيطرة مشيختهم، حيث كانوا يتولون جمع المغارم والضرائب، ويتصرفون في شؤون المدينة بطريقة أضرت بها.⁽³⁾

(1) عمارة علاوة: "التحولات المحالية والطونيمية لبلاد الزاب من الفتح الإسلامي إلى نهاية القرن الثامن الهجري/ الرابع

عشر الميلادي"، مجلة تراث الزيبان، مج 01، ع 01، 2016م، ص 19.

(2) الإدريسي: المصدر السابق، مج 01، ص 264.

(3) المصدر نفسه، مج 01، ص 264.

إن التحول الجغرافي والقبلي من بلاد قبيلة زناتة إلى بلاد قبيلة رياح في القرن السابع الهجري (13م)، يبدو أنه كان نتيجة لاضطرابات وصراعات القبائل المحلية مع القبائل الوافدة، التي قامت باغتصاب ممتلكات قبيلة زناتة الزراعية بشكل متتابع في مناطق إفريقية والزاب، بالمغرب الأوسط، وبسبب هذه الاعتداءات، فقدت قبيلة زناتة سلطتها وعجزت عن الدفاع عن ممتلكاتها⁽¹⁾، مما أدى إلى تحول واضح في البنية الاجتماعية لأرياف بلاد الزاب، إذ انتقل المشهد من تنوع اثني تقوده القبائل المحلية إلى سيطرة عربية مشرقية، تميزت بترسيخ الدور المحوري للقبيلة في تنظيم النسيج الاجتماعي.⁽²⁾

كما يصعب الجزم في تحديد نسب هذه القبيلة حيث ينسبون أنفسهم لمازن بن فزارة، إلا أن ابن خلدون يرى أن نسبهم يعود إلى لطيف من الأثبج ثم من بني جرى بن علوان بن محمد بن لقمان بن خليفة بن لطيف، أما أبوهم الأعلى فهو مزنة بن ديفل بن محيا بن جرى، وفي تلك المرحلة كانت معظم قبائل الزاب تنتمي إلى أفخاذ الأثبج التي حالت ظروف عديدة دون ترحالهم، فاستقروا في قرى المنطقة إلى جانب من سبقهم من زناتة طوال الفتح، غير أن بني مزني تميزوا عن غيرهم، إذ استتفوا عن الانتساب إلى الأثبج، وادعوا نسبا آخر حيث نسبوا أنفسهم إلى مازن من فزارة كما أشرنا سابقا، وذلك تهربا من دفع المغارم والضرائب التي كان يفرضها أهل الأثبج على سكان الزاب.⁽³⁾

ويعد بنو مزني من أبرز الأسر العربية التي استقرت في بلاد الزاب، حيث دخلوا الإقليم بصفتهم حلفاء لطوالع بني هلال، وقد اتخذوا من إحدى قرى بسكرة، والمعروفة باسم حياس

(1) عبد الرحمان ابن خلدون: المصدر السابق، مج06، ص 586. ينظر أيضا: خديجة بورملة: المرجع السابق، ص 394.

(2) عمارة علاوة: "التحويلات المحلية"، المرجع السابق، ص 19.

(3) عبد الرحمان ابن خلدون: المصدر نفسه، مج06، ص 586. أبو ضيف مصطفى: المرجع السابق، ص 133. الدراجي

بوزياني: "بنو هلال وأحلافهم (المنشأ والهجرة والاستقرار)"، مقال في دولة بني مزني بسكرة 1279-1402م"، المجلة

الخلدونية، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، عين مليلة، ع 09، جانفي 2011م، ص 31.

موطنا لهم وكان ذلك في منتصف القرن الخامس هجري (11م)، حيث تكاثروا وازدادت أعدادهم، فشاركوا سكان المنطقة في الأرض والمياه، ومع مرور الوقت انتقلوا إلى مدينة بسكرة واندمجوا في نسيجها الاجتماعي خصوصا مع بني رمان، بل وشارك وجهاؤهم في مجلس الشورى، غير أن هذا الاندماج ما لبث أن أفضى إلى صراع بين الطرفين، بدأ بالتنازع اللفظي واللجوء إلى السلطان، ليتطور إلى سعي كل فريق للهيمنة على الآخر.⁽¹⁾

انضم إقليم الزاب إلى نفوذ الدولة الموحدية في إطار الحملة التي قادها عبد المؤمن ابن علي لفتح إفريقية ومناطقها الداخلية عام (553هـ/1158م)، وقد تجسدت الحملة في القضاء على مقاومة محلية بقتل ابن عتو عامل الزاب وأحد كبار شيوخ القبائل، ما أفسح المجال لبسط نفوذهم على ضواحي الزاب ووركلان، ونظرا للأهمية الاستراتيجية لهذا الإقليم، باعتباره عقدة تربط بين شمال المغرب وعمق الصحراء، لم يترك الموحدون ليحيى بن غانية فرصة للتمركز في مدنه التي حاول اتخاذها قاعدة لنشاطه، إلا أن الموحدين لاحقوه حتى فر إلى عمق الصحراء⁽²⁾، وفي سنة (589هـ/1193م)، تمكن أبو زكريا، والي بجاية الموحي، من القضاء على ما تبقى من مقاومة غانية في الزاب، وتمكن من إعادة فرض السيطرة الكاملة على الإقليم، وأسند إدارة الزاب بأكملها إلى منصور بن مزني، واستقرت هذه الولاية في ذريته من بعده.⁽³⁾

أما مدينة بسكرة فقد خضعت بدورها لسلطة الموحدين، وشهدت لاحقا تعاقب العديد من القبائل الهلالية خاصة رياح والأثبج الذين استقروا فيها واختلطوا بسكانها المحليين، فكان

(1) عبد الرحمان ابن خلدون: المصدر السابق، ج06، ص586. مصطفى أبو ضيف: المرجع السابق، ص ص 134-135. لحسن حافظي علوي: واحات بلاد المغرب من القرن 4هـ-10هـ/14م، رسالة دكتوراة بجامعة محمد الخامس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، أكادال، الرباط، السنة الجامعية 2004-2005م، ص 274. السقا سميرة: المرجع السابق، ص 17.

(2) عبد الرحمان ابن خلدون: المصدر نفسه، ج07، ص 64.

(3) المصدر نفسه، ج07، ص 65.

لهم دور بارز في صياغة التركيبة الاجتماعية والقبلية للمنطقة خلال القرنين السادس والسابع الهجريين. (1)

بعد تفكك الدولة الموحدية واندثار سلطاتها في بلاد المغرب، دخلت المنطقة مرحلة جديدة من التنافس والصراع السياسي بظهور كيانات سياسية جديدة في بلاد المغرب، ممثلة في الحفصيين والزيانيين والمرينيين، وأصبح إقليم الزاب منطقة متنازعا عنها بين هذه الكيانات السياسية، فتارة يخضع لسلطة الحفصيين، وتارة يقع ضمن نفوذ الزيانيين، وأحيانا أخرى يدخل تحت حكم الدولة المرينية.

لم يتوقف الصراع بين بني مزني وبني رمان عند حدود التنافس على النفوذ، بل تطور إلى مواجهة عسكرية سعى فيها كل طرف إلى القضاء على الآخر، ومن أبرز محطات هذا الصراع ما وقع أثناء تمرد الأمير الحفصي أبو إسحاق على أخيه السلطان محمد المستنصر بالله (647هـ-675هـ / 1249م-1277م)، حيث انتقل أبو إسحاق للإقامة بين قبائل الذواودة، حيث بايعه أميرهم موسى بن مسعود البلط، ثم توجه إلى بسكرة فبايعه الفضل بن علي بن أحمد بن الحسن بن علي بن مزني وساندته أسرته، وعلى الرغم من أن السلطان المستنصر أرسل جيشا لاستعادة السيطرة على الزاب، فإن بني مزني ثبتوا على ولائهم لأبي إسحاق، وقد أثمر هذا الولاء السياسي لاحقا إذ كافأهم أبو إسحاق بعد توليه السلطنة (678هـ-683هـ / 1279م-1284م)، فعهد إلى الفضل بن علي بحكم بلاد الزاب، وعين أخاه عبد الواحد واليا على بلاد قسطينية، وبذلك دخل الفضل إلى بسكرة وأخضع بني رمان لسلطته. (2)

وكانت خدمة الفضل بن علي للسلطان حتى توفي في سنة (683هـ / 1284م)، حيث عمد عرب أولاد حر من لطيف، إحدى قبائل الأثبج، إلى قتل الفضل بن علي بن مزني وقومه،

(1) عبد الحميد خالدي: الوجود الهلالي السلمي في الجزائر، دار هومة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2007م، ص 169

(2) عبد الرحمان ابن خلدون: المصدر السابق، ج 06، ص 436. ينظر أيضا: مصطفى أبو ضيف: المرجع السابق، ص 135. وكذلك: لحسن حافظ علوي: المرجع السابق، ص 274.

ففر ابنه المنصور بن الفضل إلى تونس سنة (683هـ / 1284م)، وحاول الاستبداد بالبلاد غير أن بني رمان منعه من ذلك، واستقلوا بأمر بلاد الزاب، وأعلنوا البيعة للسلطان الحفصي أبي حفص عمر الأول (683-694هـ / 1284-1295م)، وبعد إعلان البيعة للسلطان الحفصي، خاطبوه في شأن المنصور بن الفضل فأمر بسجنه مدة، غير أنه وبعد انقسام الدولة الحفصية بسيطرة أبي زكريا يحيى بن أبي إسحاق على بجاية وبونة، فر المنصور بن الفضل من تونس إلى بجاية في سنة (691هـ / 1292م).⁽¹⁾

وحاول المنصور بن الفضل أن ينال مكانة لدى أبي زكريا يحيى بن أبي إسحاق عند دخوله إلى بلاد الزاب سنة (693هـ / 1294م)، حيث عمل على إخضاع بلاد الزاب لسلطته، وسعى لفرض نفسه على تلك المنطقة من خلال الانتقام لوالده، ولما علم أن عرب أولاد حر، قتلة أبيه قد طردوا من المنطقة إلى بلاد ريغة، لم يجد أمامه سوى مواجهة بني رمان، فقام بإخضاعهم، واستغلهم في بناء قصر له بمدينة بسكرة.⁽²⁾

وبعد أن أحكم قبضته على بلاد الزاب واستطاع تحصيل جبايتها، ضم إليه السلطان الحفصي أبو زكريا يحيى بن أبي إسحاق كلا من جبل الأوراس، وقرى ريغة، وواركلا، وبلاد الحضنة كمقرة، والمسيلة، بالإضافة إلى نقاوس، وذلك لتنظيم إدارتها وتحقيق جبايتها، وبهذا اغتنت بسكرة وازدادت مكانة بني مزني.⁽³⁾

(1) عبد الرحمان بن خلدون: المصدر السابق، ج 06، ص 453. مصطفى أبو ضيف: المرجع السابق، ص 135. مصطفى سالم: "الدنانير المضروبة في عهد إمارة بني مزني - دراسة تاريخية أثرية"، مجلة الإحياء، مج 25، ع 36، جانفي 2025م، ص 553.

(2) عبد الرحمان ابن خلدون: المصدر نفسه، ج 06، ص 588. مصطفى أبو ضيف: المرجع نفسه، ص 135. لحسن حافظ علوي: المرجع السابق، ص 274. سميرة السقا: المرجع السابق، ص 18. سالم مصطفى: المرجع السابق، ص 553.

(3) عبد الرحمان بن خلدون: المصدر نفسه، ج 06، ص 588. مصطفى أبو ضيف: المرجع نفسه، ص 136. لحسن حافظ علوي: المرجع السابق، ص 274. سميرة السقا: المرجع نفسه، ص 18.

ونظرا لمكانة قبيلة بني مزني عند الحفصيين خاصة بعد وفاة أبي زكريا يحيى وتعيين ابنه أبي البقاء خالد مكانه (709-711 هـ / 1309-1311 م) الذي تولى إدارة شؤون السلطة وحاجبه أبو عبد الرحمن بن عمر، الذي كانت تربطه علاقة جيدة مع الفضل بن المنصور بن مزني، فأضاف له السلطان أجزاء من بلاد التل، شملت أراضي بربر سدويكش⁽¹⁾ وعرب عياض، فامتد نفوذ الإمارة وتوسعت حدودها حتى أصبحت تسيطر على مناطق شاسعة من المجال الشرقي لبلاد المغرب الأوسط⁽²⁾، غير أن هذا التوسع أدى إلى نتائج عكسية إذ تطلع المنصور بن الفضل إلى السيطرة على مملكة بجاية بأكملها، فتوجه إلى قسنطينة برفقة الأمير يحيى بن خالد بن أبي إسحاق، بعد أن بايعه واستمال عرب الذواودة لمناصرتهم، فحاصر قسنطينة لكن لما راودته الشكوك في ولاء الأمير يحيى له والتخلي عن دعوته قام باعتقاله والعودة به إلى بسكرة، بعد أن أعلن من جديد طاعته للسلطان أبي البقاء خالد وبقي يحيى بن خالد معتقلا في بسكرة إلى أن توفي سنة (720 هـ / 1320 م).⁽³⁾

إلا أن المنصور بن مزني أعلن البيعة لدولة بني عبد الواد، ومعه حلفاؤه من عرب أولاد حر بقيادة عثمان بن ناصر، وعرب أولاد خنفر بقيادة يعقوب بن إدريس، بعد أن ألزموا بتوفير الأموال اللازمة لحملة الأمير أبي يحيى إلى تونس، واستمروا على هذا الحال حتى وفاة المنصور سنة (725 هـ / 1325 م).⁽⁴⁾

بعد وفاة المنصور تولى ابنه عبد الواحد حكم بلاد الزاب وسعى إلى إعادة الدعوة لصالح بني حفص، لكن العلاقة توترت بينه وبين محمد بن أبي الحسن سيد الناس حاجب

⁽¹⁾ سدويكش: هم من قبيلة كتامة وهم بطن مرادف أولاد سواق، ومواطنهم في جوار لواتة في جبال تابور وما إليه من نواحي بجاية. عبد الرحمان ابن خلدون: المصدر نفسه، ج 06، ص 198.

⁽²⁾ المصدر نفسه، ج 06، ص 588. سميرة السقا: المرجع السابق، ص 18.

⁽³⁾ عبد الرحمان ابن خلدون: المصدر نفسه، ج 06، ص 589. مصطفى أبو ضيف: المرجع السابق، ص 137.

⁽⁴⁾ عبد الرحمان ابن خلدون: المصدر نفسه، ج 06، ص 590.

بجاية بسبب التنافس على كسب ود السلطان في تونس، ما دفع الأخير إلى مهاجمة أملاك بني مزني، فرد عبد الواحد بإعادة البيعة لبني عبد الواد، وهذا ما زاد من حدة الهجمات التي شنتها جيوش بجاية على بلاد الزاب، حتى تغير موقفه وسلم بجاية الزاب لوالي بجاية، كما سعى إلى التهدئة عبر مصاهرة الحاجب، حيث عقد على ابنته واستمر الوضع على هذا النحو حتى اغتاله أخوه يوسف بن المنصور سنة (729هـ / 1329م).⁽¹⁾

قدم يوسف بن المنصور الولاء للدولة المرينية، بعد انتقاله إلى فاس وتقديم بيعته للسلطان أبي الحسن المريني، الذي أكرمه لوفاءه وأقره على حكم الأقاليم التي كانت تحت سلطته في بلاد الزاب، وانطلق يوسف مع السلطان في حملاته العسكرية نحو المغرب الأوسط وإفريقية، إلى أن تمكن أبو الحسن من السيطرة على تونس، وبعد اكتمال الفتح عاد يوسف بن المنصور إلى بسكرة.⁽²⁾

ظل يوسف متمسكا بطاعة أبي الحسن محافظا على إرسال المال له وداعيا له على المنابر حتى توفي سنة (752هـ / 1351م)، فبايع ابنه أبا عنان مرسلا إليه كتاب بيعته، ثم قدم عليه برفقة كاتبه أبي عبد الله محمد بن أبي عمر سنة (754هـ / 1373م).⁽³⁾

وفي هذا السياق قام السلطان المريني أبو عنان بشن حملة عسكرية على منطقتي الزاب وقسنطينة سنة (758هـ / 1357م)، حيث استقبله يوسف بن منصور بقسنطينة فضمه السلطان إلى طبقة وزرائه، أما شيخ الذواودة يعقوب بن علي فقد رفض ذلك مما دفع السلطان إلى

(1) عبد الرحمان ابن خلدون: المصدر السابق، ج6، ص 590. مصطفى أبو ضيف: المرجع السابق، ص 137.

(2) ابن الحاج النميري (ت 768هـ / 1367م): فيض العباب وافاضة قдах الآداب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة

والزاب، دراسة وإعداد محمد بن شقرون، دار الغرب الاسلامي، بيروت، لبنان، ط01، 1990م، ص431.

(3) ابن الحاج النميري: المصدر نفسه، ص 432-433. ابن خلدون عبد الرحمان: المصدر نفسه، ج6، ص 592.

تجهيز حملة على بلاد الزاب بحجة تمرد عرب رياح على سلطة الدولة بقيادة زعيمهم يعقوب بن علي. (1)

وبعد وصول المرينيين إلى منطقة الزاب في منتصف القرن الثامن الهجري (14م) وخلال غزوهم لتلك المناطق بعد إخضاع قسنطينة، كان هدفهم الوصول إلى مواطن عرب بني هلال، وبالتحديد فرع بني رياح، الذين انتقلوا من الحياة البدوية والريفية إلى حياة الاستقرار والإقامة في القصور والقصبات، بحيث أضحت القصور من أهم المعالم العمرانية في منطقة الزاب، ممتدة من قصر لميس وباتنة، وطولقة، وحصون فرفر، وبسكرة وسفيان، وصولاً إلى نقاوس التي اتخذها السلطان مقراً له (2)، وهذا ما سنتطرق إليه في الجانب العمراني لبلاد الزاب أيام القبائل الهلالية بمختلف بطونها.

لقد خرب السلطان المريني بلاد يعقوب، وقطع أشجارها وهدم مبانيها غير أن يعقوب الرياحي توغل في الصحراء، فعجز أبو عنان عن اللحاق به، فرجع وأقام بظاهر بسكرة أربعة أيام (3)، على نفقة يوسف بن مزني، الذي تكفل بعلف جياد الجيش وأخرج الطعام من المخازن ثم رفع إلى السلطان قناطير من الذهب جباية سنة، فاستحسن أبو عنان هذا العمل وأمر بأن يخلع عليه وعلى ولده خلع مملوكية، وكساهم بالملابس الفاخرة، وأعطاهم من أجود الجياد. (4)

وفي ذلك الحين جدد يوسف بن منصور بيعته وطاعته للحفصيين بعد فشل السلطان المريني أبي عنان في حملته الثانية، واستعاد سيطرتهم على بجاية وقسنطينة، واستمر على ذلك حتى وفاته سنة (767هـ / 1366م)، فتولى الحكم من بعده ابنه أحمد بن يوسف بن مزني، وخلال فترة حكمه، قام السلطان الحفصي أبو العباس أحمد بإخضاع مدن الجريد

(1) عبد الرحمان ابن خلدون: المصدر السابق، ج06، ص 593.

(2) ابن الحاج النميري: المصدر السابق، ص 454.

(3) ابن الحاج النميري: المصدر نفسه، ص 437. عبد الرحمان ابن خلدون: المصدر نفسه، ج06، ص 593.

(4) ابن الحاج النميري: المصدر نفسه، ص 434. عبد الرحمان ابن خلدون: المصدر نفسه، ج06، ص 593.

والقضاء على الحركات الخارجة فيها، فانتقل شيوخ تلك المناطق إلى بسكرة، حيث تأمروا على مبايعة بني عبد الواد، فزحف إليهم السلطان أبو العباس بعد تحالفه مع بني سليم، إلا أن السلطان الحفصي اضطر إلى مهادنة بني مزني. بعد تحالف قبائل رياح والأثيج للدفاع عن بلاد الزاب.⁽¹⁾

إلا أن شوكة أحمد بن يوسف قد ضعفت وقل شأنها خاصة بعد الحملة التي قادها السلطان الحفصي أبو فارس عبد العزيز (796هـ-837/1394-1434م) على بسكرة سنة (804هـ/1402م)، فرأى أحمد بن يوسف أنه لم يبق له سوى الاستسلام أو الفرار، فسلم المدينة للسلطان، وبذلك انتهت فترة حكم أسرة بني مزني على بلاد الزاب.⁽²⁾

1-2 المولدون:

امتاز مجتمع المغرب الأوسط قبل الفتح الإسلامي بالتنوع العرقي فكان يشمل العديد من الفئات، منها ما أسمتهم المصادر البيزنطيون بالمولودين⁽³⁾، بحيث عرفت قصور الزاب وورجلان توافد هذه الجماعات، ومنها مدينة بسكرة التي اختصت بهذه الفئة نتيجة التصاهر بين الجنود البيزنطيين والعائلات البربرية، كما كان التصاهر أيضا بين العرب والبربر بعد الفتح الإسلامي لبلاد المغرب.⁽⁴⁾

(1) مصطفى أبو ضيف: المرجع السابق، ص 138.

(2) أبو العباس أحمد بن الخطيب ابن قنفذ القسنطيني (ت 810هـ / 1407م): الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية، تق وتح: محمد الشاذلي النيفر وعبد المجيد التركي، الدار التونسية للنشر، 1968م، ص 198. الزركشي: المصدر السابق، ص 122.

(3) هشام جعيط: تأسيس المغرب الإسلامي القرن الأول والثاني هجري/ السابع والثامن ميلادي، دار الطليعة، بيروت، لبنان، ط02، 2008م، ص 156.

(4) مختار حساني: تاريخ الجزائر الوسيط، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، 2013م، ج02، ص 303.

وفي وصف البكري لمدينة بسكرة وسكانها، يشير إلى أن سكانها من المولدين⁽¹⁾، ونظرا للتفاعلات الاجتماعية والثقافية بين العرب والبربر في المغرب خلال فترة الحكم الإسلامي، والتي أدت إلى نشوء فئة اجتماعية جديدة تعرف بـ المولدين، الذين اختلطوا المدن والأماصار وعمروها، وبالتالي انصهرت هذه الفئة في المجتمع الإسلامي، ونتيجة لهذا التمازج أصبحت اللغة والثقافة العربية مؤثرة بشكل كبير على البربر، مما أدى إلى تعريب المنطقة بشكل شبه كامل.⁽²⁾

2- أثر العصبية القبلية في تشكل المجتمع ببلاد الزاب:

راجت فكرة تشكل نسيج اجتماعي ذي طابع قبلي عربي⁽³⁾، مما أدى في نهاية المطاف إلى تحول الزاب إلى معقل للجماعات الهلالية المتنافسة، ومع استفحال العصبية القبلية طغت لغة الغلبة والسيف على المشهدين الاجتماعي والسياسي، فتحوّلت مجالات الزاب حتى الربع الأول من القرن (15/هـ)، إلى إقطاعات قبلية وعائلية متنازعة، ولم تقتصر هذه الظاهرة على بلاد الزاب فحسب، بل امتدت آثارها إلى سائر بلاد إفريقية والمغرب الأوسط، حيث غلب منطق القوة والانتماء القبلي على مؤسسات الحكم والإدارة.

ووردت روايات كثيرة عن صراع القبائل العربية للاستحواذ على مجالات ببلاد إفريقية والزاب، كما هو حال الصراع بين رياح وزغبة والتي أرجعها ابن خلدون إلى التنافس القبلي على المجالات الرعوية في تخوم بلاد إفريقية والزاب⁽⁴⁾، وكذا الصراع بين كرفة بن الأثبج بعد

(1) البكري: المصدر السابق، ص 51.

(2) ادعاء جاسم جاهل: المرجع السابق، ص 77.

(3) جورج مارساي: المرجع السابق، ص 223.

(4) عبد الرحمان ابن خلدون: المصدر السابق، ج 06، ص 25.

تتنافسهم مع الذواودة على مجالات بلاد الزاب خاصة بعد الإقطاعات التي منحتها الدولة الحفصية لقبيلة كرفة في بلاد الزاب.⁽¹⁾

شهد إقليم الزاب بدايات الفترة المدروسة حالة من الاضطراب وعدم الاستقرار السياسي والاجتماعي، تمثلت في كثرة الحروب والصراعات الدامية بين القبائل المتجاورة، حيث لجأت القبائل إلى فرض سيطرتها بقوة السيف على المناطق المجاورة لها، ويذكر ابن خلدون سياسة الغلبة بين القبيلتين بقوله: "وزحفوا إلى مواطنهم فتغلبوا على أطراف الزاب من واركلان وقصور ريغ وصيروها سهاماً بينهم، وانتزعوها للموحدين فكان آخر عهدهم بملكها".⁽²⁾ وقال أيضاً: "فاعتزال زواودة... وغلبوا بقايا الأثابج فنزلوا قرى الزاب وقعدوا على الطعن وأوطنوا بالقرى والآطام".⁽³⁾

استمر الصراع على مجالات إقليم الزاب بين القبائل العربية، في ظل تنازع دائم على المناطق الرعوية، وقد برزت في هذا السياق قبيلة كرفة⁽⁴⁾ كقوة قبلية استطاعت أن تفرض وجودها في مناطق متعددة من الزاب، لاسيما بعد ضعف قبائل أخرى كانت مهيمنة كقبيلة رياح، وقد اختص فرع أولاد نابت من كرفة بالاستقرار في الجانب الشرقي من الزاب، وتمكن من السيطرة على عدة مواطن حيوية أبرزها : بادس وتنومة، وهما منطقتان كانتا في السابق من منازل قبيلة رياح، قبل أن يتم اقتطاعهما لصالح كرفة، كما امتد نفوذ كرفة إلى الجانب الشرقي من جبل الأوراس، وهو ما يؤكد ابن خلدون بقوله: "نزل كرفة هؤلاء بجبل أوراس،

(1) عبد الرحمان ابن خلدون: المصدر السابق، ج06، ص 31.

(2) المصدر نفسه، ج06، ص 45.

(3) المصدر نفسه، ج06، ص 31.

(4) عرفت كرفة بتعدد فروعها واتساع انتشارها في مناطق مختلفة من المغرب الأوسط ومنهم: بنو محمد بن كرفة، وأولاد شبة، وأولاد صبيح، وأولاد سرحان، وأولاد نابت، وقد نزحت هذه القبيلة بأهلها وماشيئها نحو تخوم بلاد الزاب، واستقرت في مناطق قريبة من حدوده. ينظر: عبد الرحمان ابن خلدون: المصدر نفسه، ج06، ص 32.

وسكنوه حلا متفرقة" ⁽¹⁾، في إشارة إلى انتشارهم الواسع واستقرارهم داخل هذا المجال الجبلي المهم، وهو ما يعكس تحول قبيلة كرفة من مجرد فرع قبلي مهاجر إلى قوة محلية ذات موطئ قدم راسخ، تمتلك مجالات استقرار، ونفوذاً حقيقياً في التوازنات القبلية التي حكمت الزاب وبعض المناطق المجاورة له.

أما في الضفة الغربية من إقليم الزاب، فقد كانت السيطرة في البداية في يد أولاد محمد وأولاد سباع بن يحيى، الذين ورثوا النفوذ عن أولاد أبي بكر بن مسعود، ومع مرور الزمن وتوالي الفتن والصراعات الداخلية التي أدت إلى تراجع شوكة هذا التحالف القبلي، مما أفسح المجال لصعود سليمان وأولاده الذين نجحوا في توطيد الزعامة وتعزيز مواقعهم داخل بلاد الزاب خاصة بعد تصاعد الفتن بين القبائل المتجاورة، وقد شهدت هذه المرحلة صراعاً حاداً بين أولاد سباع وأولاد عمر الذين كانوا يستوطنون إقطاعات مقررة، حيث استطاع أولاد سباع الانتصار والسيطرة على تلك النواحي، ثم وسعوا نفوذهم ليصل إلى منطقة المسيلة ⁽²⁾، حيث استحوذوا على بعض الإقطاعات التابعة لها، وتتجلى آثار هذا النزاع والسيطرة القبلية في عدد من المواقع الريفية بالزاب، خاصة في مواطن جماهير أولاد محمد، الذين استوطنوا فرفر (فرفار)، وهي البلدة الحصينة التي اعتبروها مقر عزهم ومفخرة لهم، حتى وصفت بـ: "الذخر الأعظم، والملجأ الأكرم، والعتاد الأفخر والأفخم" ⁽³⁾، في تعبير عن مكانتها العسكرية، باعتبارها مركز دفاع واستقرار وحماية خلال فترات التوتر والنزاع القبلي في الزاب.

تظهر جلياً سياسة الإقطاعات التي مارستها الدول المتعاقبة التي ضمت مجالات الزاب إلى نفوذها وكيف كانت السلطة الموحدة ثم الحفصية والزيانية لاحقاً توظف هذه السياسة لضبط المجال وتوزيعه وتقويضه لبعض الزعامات المحلية بإدارة شؤون قرى ومدن بلاد الزاب

(1) عبد الرحمن ابن خلدون: المصدر السابق، ج 06، ص 31.

(2) المصدر نفسه، ج 06، ص 47.

(3) ابن الحاج النميري: المصدر السابق، ص 446.

مقابل الولاء للسلطة الحاكمة، حيث اختص إقطاع مقرة بأحمد بن عمر بن محمد، وهو ابن عم شبل بن موسى بن سباع، وعلى رغم من وجود رابطة قرابة بين فرعي أولاد عمر وأولاد سباع، إلا أنه لم يمنع التنافس والصراع بينهما على مجالات الزاب، إلا أن هذا الإقطاع مكن أحمد بن عمر من ترسيخ حضوره في المنطقة، وجعل من مقرة قاعدة حكمه، أما نقاوس فقد كانت من نصيب أولاد عساكر، الذين استقروا بها واتخذوها موطنًا دائمًا لهم، مشكلة توازنات قبلية جديدة في المنطقة. (1)

كما حكم أولاد محمد بقيادة شيخهم علي بن أحمد بن عمر، وأولاد عمر بقيادة يعقوب قاعدة بلاد الزاب بسكرة والمناطق المحيطة بها، حيث كانت لهم سلطة وعزة كبيرة، وتمكنوا من حماية بسكرة ومجالاتها من تعديات الأعراب وفسادهم (2)، إلا أن بني مزني سيطرت على هذه المجالات الجديدة التي كانت في يد قبائل رياح وكرفة، ووسعوا نفوذهم حتى تمكنوا من إقامة إمارة قوية سادت المنطقة حتى الربع الأول من القرن التاسع الهجري/ (15م). (3)

3- التوازن القبلي وتغير البنية الاجتماعية لبلاد الزاب بعد الهجرات الهلالية:

يتجلى تغير البنية الاجتماعية لبلاد الزاب، في ظل تشكل الأوطان القبيلة الهلالية، انطلاقًا من منتصف القرن (05هـ/11م)، والذي أدى إلى تراجع نفوذ العديد من القوى القبلية التقليدية، التي كانت تهيمن بشكل خاص على المجالات الريفية لبلاد الزاب، وفي مقدمتها بطون زناتة، التي كانت تعد من أبرز القوى القبلية في بلاد الزاب وصحراء المغرب الأوسط (4) بعد عجزها عن الدفاع على هذا المجال (5)، ورغم هذا التراجع، إلا أنه لم يتم القضاء على

(1) عبد الرحمان ابن خلدون: المصدر السابق، ج06، ص 46.

(2) المصدر نفسه، ج06، ص 47.

(3) عبد الرحمان ابن خلدون: المصدر نفسه، ج06، ص 591-593.

(4) المصدر نفسه، ج06، ص 29.

(5) المصدر نفسه، ج06، ص 27.

وجود هذه القبائل تماما، بل واصلت العيش والتفاعل إلى جانب القبائل الهلالية الوافدة، ضمن واقع اجتماعي جديد فرضته موازين القوى المتغيرة، تفرضها قوة السيف، وقد كانت لهذه القبيلة بطون متعددة استوطنت أجزاء واسعة من المجال الريفي لبلاد الزاب، ونذكر ضمن هذا السياق قبيلة بني يفرن، التي شكلت بدورها إحدى القوى الزناتية البارزة في المنطقة⁽¹⁾، كما بقيت جماعات محلية أخرى من قبيلة لواتة ضمن هذا المشهد الاجتماعي الجديد حيث خضعت لسلطة الوافدين الجدد بل أصبحت تدين لهم بالولاء، مما أدى إلى تفكك نفوذ هذه القبائل وتراجع دورها في إدارة المجال الريفي لبلاد الزاب، ويتجلى ذلك في اندماجهم تحت سلطة بني هلال من خلال دفع المغارم والضرائب وبشكل قصري أو الانسحاب نحو مناطق أخرى.⁽²⁾

ويشير الإدريسي (ت 548هـ / 1153م) بوضوح إلى امتلاك العرب مجالات واسعة تابعة لقرى الزاب مستشهدا على ذلك بوصفه لمدينة بادس التي قال عنها إنها كانت بمثابة حصن لبشر، في دلالة على تحولها إلى مركز نفوذ واستقرار للعرب، إلا أنه لم يشر إلى وجود البربر إلا في ضواحي بغاية⁽³⁾، الأمر الذي قد يفهم منه تراجع حضورهم الديمغرافي والسياسي واستحواذ العرب على عواصم المدن أما البربر فتركز وجودهم في المناطق الأقل أهمية في الحواشي بحيث انكفؤوا نحو المناطق الجبلية والضواحي لمدن بلاد الزاب، خلال القرن السادس الهجري (12م)⁽⁴⁾، وبهذا أصبح الوافدون الجدد من القبائل الهلالية بعد استقرارهم سادة المجال السهبي والزابي، حيث عملوا على تقليص وجود الجماعات البربرية في المنطقة، وتم ذلك عبر آليات قهرية شملت التهميش والإقصاء وحتى الاستعباد.⁽⁵⁾

(1) الصادق زيان: "الجغرافيا التاريخية لبلاد الزاب"، المرجع السابق، ص 144.

(2) عبد الرحمان ابن خلدون: المصدر السابق، ج 06، ص 54. ينظر أيضا: الصادق زيان: المرجع نفسه، ص 143.

(3) الإدريسي: المصدر السابق، ج 01، ص 264-270.

(4) المصدر نفسه، ج 01، ص 276.

(5) عمارة علاوة: "بين حبل الأوراس والواحات ظهور وانتشار واختفاء الجماعات الاباضة بالزاب (ق 8 - 9م / ق 2 - 3هـ)"، مجلة المعارف للبحوث والدراسات التاريخية، ع 09، جانفي 2017م، ص 272.

كما قدم لنا ابن الحاج النميري في رحلته إلى الزاب سنة (758هـ/1356م) من خلال مؤلفه فيض العباب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة والزاب، معلومات بالغة الأهمية حول الوضعية الاجتماعية والعمرانية للمنطقة في منتصف القرن (08هـ / 14م)، وقد أشار إلى أن الزاب أصبح يشهد غيابا شبه كلي للمراكز الحضرية التي كانت تمثل في السابق معادل للنفوذ البربري، حيث عوضت القرى المحصنة بهذه الناحية، بقصور جديدة أنشأها زعماء عرب رياح على أنقاض الحصون القديمة، ويبرز هذا الوصف الجغرافي أن المنطقة أصبحت تخضع فعليا لسيطرة قبيلة رياح، في حين برزت بسكرة كعاصمة للزاب، تحت نفوذ بني مزني، وهي عائلة ذات مكانة قيادية ضمن القبائل الهلالية⁽¹⁾، كما لم يشر ابن الحاج في وصفه إلى البربر إلا بإشارة عابرة كقبيلة لواتة، التي أصبحت تؤدي خدمات لصالح القبائل الهلالية المهيمنة، فيقول: "ولم يزل به جديد الإنس ناعم البال، جانبا قبل ثمرات الحقائق وثمرات الآمال، متظاهرا بالرباط نازعا فيما يزعم عن الهياط والمياط، مشتدا على لواتة الذين غصب أرضهم ، وانبسط في أرجائها بالبناء فأعظم قبضهم".⁽²⁾

ويعزز ابن خلدون (ت 808هـ/1406م) ما نقله ابن الحاج النميري من معلومات، حيث أكد بدوره هيمنة قبيلة رياح على منطقة الزاب، وبروز حواضر واحة جديدة تتجلى في القصور والمؤسسة التي جاءت كبديل عن المراكز الزناتية القديمة التي اندثرت، مثل مكناسة، وقد أشار ابن خلدون كذلك إلى أن القصور الزابية الجديدة التي سميت باسم من اختطها⁽³⁾ لم تكن مجرد مراكز استقرار فحسب بل كانت نواة لتحول عمراني واجتماعي واقتصادي جديد

(1) ابن الحاج النميري: المصدر السابق، ص 422-435. ينظر أيضا: عمارة علاوة: بين جبل أوراس والواحات، المرجع السابق، ص 269.

(2) ابن الحاج النميري: المصدر نفسه، ص 415.

(3) عبد الرحمان ابن خلدون: المصدر السابق، ج 06، ص 29.

يعكس انتقال السلطة من البربر إلى الهلاليين، وخصوصا بنو رياح الذين أحكموا قبضتهم على المنطقة، بقوله: "وغلّبوا على الضواحي وعجزت زنّانة على مدافعتهم بإفريقيا والزاب".⁽¹⁾

وعقب انحسار نفوذ بني رياح خلال القرن (08هـ/14م)، ورثت أسرة بني مزيني السيطرة على مجالات الزاب، في ظل تراجع قبائل لواتة التي كانت تستقر بهذه المناطق في وقت سابق، وقد أشار المؤرخون إلى أنه ومع استقلال بني مزني فعليا عن الدولة الحفصية، بعد أن استبدوا بالحكم على بلاد الزاب وعمدوا إلى إقصاء بقايا لواتة بإبعادهم نحو المناطق الجبلية⁽²⁾، الأمر الذي يعكس تغيرا في موازين القوى وتحول الزاب إلى مجال تتحكم فيه الزعامات الهلالية ذات الطابع المحلي.

لم يكن الحضور الهلالي في إقليم الزاب مجرد سيطرة عسكرية أو سياسية فحسب، بل شمل أيضا إعادة تشكيل البنية الاجتماعية للمنطقة، فمع أن الهلاليين لم يرغب فيهم بشريا في بداية الأمر، إلا أنهم فرضوا وجودهم على مختلف المدن والقرى المحصنة، حيث تحول سكان هذه القرى تدريجيا إلى قبائل تابعة لأسيادهم الجدد.⁽³⁾

4- استقرار وتوسع الجماعات الهلالية ببلاد الزاب خلال القرن السادس هجري:

تشكل المعطيات الجغرافية الواردة في كتابي نزهة المشتاق للإدريسي والاستبصار مرجعا هاما لفهم طبيعة التغيرات التي شهدتها بلاد الزاب خلال القرن السادس الهجري (12م)، وذلك في سياق التوطين الهلالي الجديد، رغم أن هذه النصوص جاءت زمنيا متأخرة عن حدث الهجرة الهلالية الكبرى، ومع ذلك فإن ما تتضمنه من إشارات دقيقة حول المجال والعمران

(1) عبد الرحمن ابن خلدون: المصدر السابق، ج06، ص 27.

(2) المصدر نفسه، ج06، ص153.

(3) عمارة علاوة: "بين حيل أوراس والواحات"، المرجع السابق، ص270.

والعلاقات السكانية، يمكن من استقراء نتائج وامتدادات التغلغل الهلالي خاصة في القطاعات الريفية من بلاد الزاب.⁽¹⁾

استطاعت القبائل الهلالية أن تبسط نفوذها على غالب المجال السياسي لمنطقة باديس، لتتخذ منها قاعدة انطلاق نحو التوسع في قلب المجال الحمادي ببلاد الزاب، وكان من أولى المدن التي بلغت في هذا الزحف نقاوس وما جاورها، مثل دار ملول، والتي أصبحت لاحقا تعد من المجالات العربية المستقرة، وقد أشار بعض الجغرافيين إلى هذا التحول في ملكية الأرض والسيادة، بوصفهم تلك المناطق بمجال العرب في بلادهم⁽²⁾، في دلالة واضحة على تغير الطابع الديمغرافي والسياسي لهذه الأقاليم وانتقاله من سيطرة القوى البربرية المحلية إلى سلطة القبائل الهلالية الناشئة.

ورغم ما شهدته مدينة طبنة وهي إحدى أهم مدن الزاب من تخريب في فترات سابقة، إلا أنها أصبحت لاحقا مستقرا للهلاليين، الذين تعايشوا مع سكانها الأصليين في إطار علاقات اجتماعية واقتصادية جديدة، ويظهر هذا الاندماج من خلال ما مارسه الطرفان من أنشطة صنائع وتجارات⁽³⁾، إذ تحول أهل المدينة والهلاليون إلى أخلاط، يتشاركون في الأموال والمصالح التجارية، وقد كانت طبنة ونقاوس محطة للتبادل التجاري، حيث تشحن البضائع من هناك إلى قلعة حماد، بجاية، وغيرها من مدن المغرب الإسلامي، مما يشير إلى استمرار النشاط الاقتصادي رغم التغيرات السياسية والاجتماعية التي شهدتها الإقليم.⁽⁴⁾

(1) الصادق زيان: "الجغرافيا التاريخية لبلاد الزاب"، المرجع السابق، ص 139.

(2) الإدريسي: المصدر السابق، مج 01، ص 264.

(3) المصدر نفسه، مج 01، ص 263.

(4) مجهول: الاستبصار، المصدر السابق، ص 172.

أما فيما يخص قبائل زناتة، فإن بطونها الرئيسية، مثل بني يفران، وبني مغراوة، وبني برزال، فقد انسحب أغلبها من إقليم الزاب، وفضلوا الانتقال نحو جنوب تلمسان وما جاوره، أو التوجه نحو المغرب الأقصى، وكذلك إلى مناطق الصحراء الكبرى، أما من بقي منهم في الزاب، فقد أصبح خاضعا لسلطة القبائل الهلالية، سواء من حيث الولاء أو عبر إدماجه ضمن النسيج القبلي الجديد كما ذكرنا آنفا. (1)

5- المجتمع الهلالي من الحضور إلى الاندماج الاقتصادي ببلاد الزاب:

بعد جنوح القبائل الهلالية نحو الاستقرار لم تعد تلك الجماعات تعيش على الغزو والترحال فقط، بل بدأت تفكر في الاستقرار في الأرياف والبوادي ذات الاقطاعات الزراعية الكثيرة، بعد طرد السكان المحليين من أراضيهم (2)، ويشير المستشرق مارساي في هذا الصياغ إلى ما سماه بالتخريب الزراعي الذي طال الأرياف، وقد ترتب على هذا التحول صراع حاد بين الهلاليين والملاك المحليين، خصوصا من البربر الزناتيين، حيث دمرت محاصيلهم وأتلفت أشجارهم، وتم تحييدهم عن اقطاعاتهم الزراعية، وفي هذا السياق يقول مارساي: " فنزاة الذين دحروا نحو الغرب، لم يعد لهم اتصال بسهول قسنطينة والزاب حيث استقر العرب كأصحاب أرض". (3)

إلا أن هذه النظرة لم تدم طويلا خاصة بعد التحول التدريجي للهلاليين من البداوة والتنقل تدريجيا إلى الاستقرار وخدمة الأرض مما ساهم في تغيير الصورة السوداوية التي كانت مرسومة على عانتهم في المراحل الأولى لوفودهم كغزات، خاصة بعد مشاركة القبائل العربية الجماعات المحلية في المجال الاقتصادي، كتنظيم عمليات الادخار، وحرث الأرض وتخزين

(1) عمارة علاوة: "بين حيل أوراس والواحات"، المرجع السابق، ص 271.

(2) عمارة علاوة: "الهجرة الهلالية وإشكالية انحطاط حضارة المغرب الإسلامي الوسيط"، كلية الآداب والعلوم الإنسانية،

جامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة، أكتوبر 2004م، ص 39.

(3) جورج مارساي: المرجع السابق، ص 240.

الحنطة⁽¹⁾، وغيرها من الموارد الأساسية، وفي هذا الصياغ يورد ابن خلدون خبر اختلاط بني رياح بالجماعات المحلية في بسكرة، حيث اشتغلوا بالزراعة واستصلاح الأراضي وسقيها، وقال في ذلك: "وكان أول نزولهم بقرية من قرى بسكرة، وكانت تعرف بقرية حياس، فاندمجوا في الزراعة وأقاموا بها، ثم كثر عددهم وتفرقوا في أرجاء المنطقة، حتى شاركوا أهل بسكرة نصيبا وافرا في تملك العقار والمياه"⁽²⁾، في إشارة منه على الاندماج والتحول في وظيفة القبائل العربية من عامل مخرب وغير مستقر، إلى ركيزة من ركائز الحياة الاقتصادية في بلاد الزاب.

لم يقتصر نشاط العرب على ممارسة الزراعة فحسب، بل شمل أيضا النشاط التجاري، حتى غدت لهم محلات وأسواق خاصة بهم وأشار في هذا الصياغ صاحب رحلة التيجاني إلى سوق خاص بالمجتمع العربي، بقوله: "وهناك مجتمع العرب وسوقهم، حيث يباع مجتلبهم، ومسوقهم"⁽³⁾، وعكس هذا التعاون درجة عالية من التكامل الاجتماعي والاقتصادي، وأسهم في تعزيز الروابط بين الوافد الجديد والمجتمعات المحلية، مما أرسى أسسا راسخة للتنمية الاقتصادية والاستقرار الاجتماعي بالمنطقة، كما مارس العرب العديد من الأنشطة الاقتصادية خصوصا في إفريقية والزاب، وقد برز بنو رياح في هذا المجال، حيث انخرطوا في أنشطة متنوعة مثل الزراعة وتربية الخيول، وقد دخل هؤلاء في طاعة الدولة فصاروا بمثابة دم واحد معها، ويذكر صاحب الكامل، نقلا عن ابن شداد الصنهاجي، أنهم ساهموا بأعدادهم الكبيرة، وما امتلكوه من خيول قاموا بتربيتها، بالإضافة إلى الأسلحة التي صنعوها، في جهاد المسلمين ضد الفرنجة في الأندلس، وهكذا كان لهم دور فعال في دعم روح الإسلام وتعزيز قوة الأمة.⁽⁴⁾

(1) الادريسي: المصدر السابق، مج01، ص265.

(2) عبد الرحمان ابن خلدون: المصدر السابق، ج06، ص586.

(3) أبو محمد بن عبد الله بن محمد بن أحمد التجاني: رحلة التجاني، تق: حسن حسني عبد الوهاب، الدار العربية للكتاب، ليبيا- تونس، 1981م، ص214.

(4) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، المصدر السابق، مج09، ص222.

6- الحياة الاجتماعية ببلاد الزاب:

تطرق ابن خلدون لموضوع العمران بأنواعه ، فالدارس لمصنفه المقدمة (العبر) يلاحظ أن العمران البشري قد حظي باهتمام بالغ من طرفه، كما أنه لم يغفل عن العمران المادي الذي يتجسد من خلال التجمعات البشرية، حيث تطرق من خلالها إلى العمران والبناء وأحكامه واختطاط المدن وشروطها، كما تطرق إلى دور المدن وأهميتها مؤكداً على تأثير العوامل الطبيعية والبشرية على عمران المدن سلبيًا وإيجابيًا، فالعمارة عند ابن خلدون جزء لا يتجزأ من المجتمع، وهذا من خلال مراحل تطورها أو تراجع دورها خاصة بعد ظاهرة خراب العمران، كما أنه من خلالها يمكننا الوقوف على مدى تقدم علومها وفنونها، والعمران البشري عند ابن خلدون قسمان:

6-1. مجتمع غير مستقر (رعوي):

ظل مفهوم البادية غير دقيق إذ ارتبط مفهوم البادية بالمجال المحيط خارج الحواضر، وتداخل مع نمط الاستقرار البدوي، ويفرق ابن خلدون (ت808هـ/1405م) بين صنفين من البدو: المستقرين والمترحلين، بحث تتميز أصناف هذا المجتمع عن بعضه البعض بحسب الأساليب التي يمتنونها لتحصيل معاشهم، بحسب إذا كانوا بدوا رحلا تعتمدون على تربية الإبل والماشية، أو سكان الريف الذين يمتنون الزراعة والصناعة والتجارة، أو بالأحرى هو كل ما يسد حاجة الإنسان⁽¹⁾، أما من اعتمدوا في معاشهم على الغنم والبقر، فكانوا أضعف

(1) محمد عبد المولى الدقس: سوسيولوجيا الصنائع عند ابن خلدون، جامعة الملك سعود، 2001م، ص385. ينظر أيضا: أحمد علي أزاد وآخرون: الفكر الاجتماعي الخلدوني (المنهج والمفاهيم والأزمات المعرفية)، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط01، 2004م، ص 146.

في الحضارة وأكثر ميلا إلى التنقل لطلب المراعي والمياه، ويعرفون بالشاوية، لكونهم قائمين على رعاية الشاء والبقر". (1)

يشير ابن خلدون في المقدمة إلى أن العمران البدوي يتجسد في المجتمعات التي تعتمد على الرعي وخدمة الأرض وزراعة المحاصيل، وتربية الحيوانات، والاستفادة من منتجاتها، ويبرز ابن خلدون أن هذا النمط من المعيشة يتسم بالبساطة والاقتصار على الضروريات، حيث يقول: "إن أهل البدو... مقتصرون على الضروري من الأقوات والملابس والمساكن وسائر الأحوال والعوائد". (2)

تعتبر البداوة نمط حياة يعتمد على التنقل والرعي، بحيث كانت مرحلة سابقة للاستقرار الدائم، فكان السكان يتنقلون من مكان لآخر بحثا عن الموارد الطبيعية الضرورية للبقاء، وعندما تتوافر الظروف الملائمة مثل وجود المياه والموارد الزراعية، يمكن أن تتطور المجتمعات من حياة البداوة إلى حياة الاستقرار والزراعة.

وتعتبر الجماعة هي الأساس في تكوين النظام القبلي، وتعتبر القبلية على رأس التنظيم الاجتماعي للمجتمعات البدوية، حيث يرتبط أفراد القبيلة بجد واحد مشترك بينهم ويعيشون في منطقة واحدة ويجمعهم دم واحد، بحيث يعتبر النسب أو قرابة الدم هو السر في اجتماع القبيلة وتمسكها بحيث يعتبر النسب أكبر وشائج القربى، وقد حضي باعتناء كبير لدى القبائل العربية⁽³⁾، و من هنا يتوقع من الفرد أن يمنح قبيلته كل ولائه وجهده مقابل حماية القبيلة له

(1) عبد الرحمن ابن خلدون: مقدمة ابن خلدون، المصدر السابق، ص 121.

(2) المصدر نفسه، ص 120.

(3) أمين كرطالي: سلطة شيوخ القبائل العربية في المغرب الأوسط خلال العهد الزياني، أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه علوم في التاريخ الوسيط، قسم التاريخ، جامعة الجزائر 02 أبو القاسم سعد الله، 2017/2018م، ص 109.

وتوفير الأمن، مع ضرورة القيام بواجباته تجاه القبيلة للحصول على هذه الحقوق، والعصبية تُعد جزءا أساسيا من قوة القبيلة والمحافظة على وجودها واستقرارها. (1)

والقبيلة ككيان سياسي مستقل يعتمد على هيئات تنظيمية وقوانين مستمدة من الأعراف والعادات والتقاليد الموروثة، وهذه الهيئات تؤدي وظائف متعددة تهدف إلى خدمة المصلحة العامة للقبيلة، ويعنى هذا النظام بضمان التوازن الداخلي بين الأسر والعشائر المكونة للقبيلة، وذلك لمنع نشوب النزاعات بينها. (2)

تمنح القبيلة لكل فرد فيها موقعا اجتماعيا محددا لا يمكن تجاوزه بسبب التقاليد والعادات القبلية الموروثة، بحيث يعكس هذا الترتيب التسلسلي الهرمي الاجتماعي داخل القبيلة، حيث يتم تحديد مكانة الفرد ووظيفته بناء على موروثة قبلية صارمة (3)، وهذا النظام الاجتماعي يتضمن عدة طبقات مرتبة كما يلي:

1- **شيخ القبيلة** (4): يمثل أعلى سلطة في القبيلة فكان يتزعم كل عائلة شيخ يمثلها ويقودها، بحيث كان يتم اختيار شيخ القبيلة بطريقة توافقية من بيت الرئاسة الذي كان يتفوق

(1) عبد الكريم جودت: المرجع السابق، ص 251.

(2) مفتاح خلفات: قبيلة زوارة بالمغرب الأوسط (06-09هـ / 12-15م)، المؤلفات للنشر والتوزيع، المسيلة، 2016م، ص 70.

(3) المرجع نفسه، ص 69. ينظر أيضا: عبد الكريم جودت: المرجع السابق، ص ص 252-254. وأيضا: ابراهيم الفادري بوتشيش: مباحث في التاريخ الاجتماعي في المغرب والأندلس خلال عصر المرابطين، دار الطباعة والنشر، بيروت، ط01، 1998م، ص ص 230-233.

(4) شيخ القبيلة: هو القائد الأعلى للقبيلة، حيث يتولى مسؤولية رعاية وإدارة شؤون القبيلة. وللوصول إلى هذه المرتبة الرفيعة، يجب أن تتوفر في شيخ القبيلة عدة شروط، أبرزها أن يكون لديه عصبية قوية، أي دعم كبير وقوي من العشيرة أو العشائر التابعة له، مما يعزز من نفوذه وسلطته وزعامة القبيلة غالبا ما تكون وراثية، حيث تنتقل القيادة من جيل إلى جيل داخل نفس العائلة أو العشيرة، مما يعكس الأهمية الكبيرة للمكانة الاجتماعية والعلاقات الأسرية في الهيكل القيادي للقبيلة. ينظر: أمين كرتالي: المرجع السابق، ص 109.

على سائر فروع القبيلة حسباً ونسباً وعدداً⁽¹⁾، ومن أبرز هؤلاء الشيوخ ببلاد الزاب نذكر على سبيل المثال لا الحصر: عطية بن سليمان، شيخ أولاد سباع؛ وعيسى بن يحيى، شيخ أولاد عساكر؛ وأحمد بن حسن، شيخ أولاد عطية؛ ويحيى بن أحمد بن عمر، شيخ أولاد محرز؛ وعثمان بن الناصر، شيخ أولاد حرب.⁽²⁾

2- **مجلس القبيلة**: يتكون من كبار وأعيان القبيلة، بحيث كان يعنهم أرباب العائلات وهم من يشاركون شيخ القبيلة في النظر في المصالح والتحكم في الخصومات واتخاذ القرارات الهامة وإدارة الأمور المختلفة في السلم والحرب.⁽³⁾

3- **عامة القبيلة**: يشمل باقي أفراد القبيلة الذين يتبعون توجيهات القيادة ويؤدون أدوارهم ضمن النظام الاجتماعي.

4- **طبقة العبيد**: وهم أفراد ينتمون إلى طبقة أدنى، ويقومون بأعمال معينة وفقاً للهيكل الاجتماعي المحدد من قبل القبيلة.

شهدت بلاد المغرب الإسلامي ظاهرة البداوة منذ أقدم العصور، بحيث ترسخت هذه الظاهرة مع استقرار القبائل العربية بواحات المغرب الأوسط وهذا من خلال حفاظ العائلات العربية على موروثها المشرقي من خلال نقل أنماط القصور وأفكار البداوة والريف إلى مجالات بلاد الزاب، واستمر التأثير البدوي على المجال العمراني والاجتماعي في بلاد الزاب على مر الزمن، حيث ظلت أنماط العيش الريفي والبداوة العربية تطبع حياة المجتمع، وتنعكس على تنظيم الفضاء والمجال الواحي لبلاد الزاب، باستثناء الفترة التي برز فيها حكم بني مزني،

(1) أمين كرطالي: المرجع السابق، ص 109.

(2) عبد الرحمان ابن خلدون: المصدر السابق، ج 06، ص 589.

(3) مليكة فرحات: **"القبيلة كتنظيم اجتماعي وحتمية تاريخية"**، أفكار وآفاق، مج 10، ع 03، 2022م، ص 92. ينظر أيضاً: مومن مزوري: **"النظام القبلي في الجنوب الجزائري قبيلة ذو منبع أنموذجاً"**، مجلة آفاق علمية، مج 09، ع 02، 2019م، ص 215.

والتي تعد مرحلة تحول نسبي نحو العمارة المستقرة متمثلة في الإبداع في اختطاط القصور، لا سيما في مجالات قبائل الرياحية التي شيدت الدور والقصور بالأوراس والزاب على السواء. (1)

2-6 العمران البدوي:

وهو العمران الذي يركز على دراسة الحياة في المناطق الريفية والبادية، ويشمل فهم الهيكل الاجتماعي والسلوكيات والاقتصاد والممارسات الثقافية التي يتبعها سكان هذه المناطق (2)، ويعنى أن العمران البدوي هو كل الأنماط المعيشية القائمة في كل المناطق الخارجة عن نطاق الأسوار والمدينة سواء كان في الجبال أو الصحاري أو الواحات (3)، بحيث اعتمدت أنماط معيشتهم أو إنتاجهم على الترحال بحثا عن الكأ مما يفرض عليهم عدم الاستقرار في مكان واحد بل الحركة المستمرة، ومنه لم يكن اتخاذ المدن أمرا ضروريا لذلك. (4)

عرف ابن خلدون البدو بأنهم قوم يعيشون بمنجاة من ارتكاب السرف والترف في ملابسهم وزينتهم وسائر متناولاتهم، لما عليه من خشونة البداوة وسذاجة الدين الذي لم يفارقوها، وعرف أيضا البدو بالمجتمع الذي يقتصر على الضروري في أحواله، باعتبار أن البدو أصل الحضر، وأهل البدو أكثر شجاعة من أهل الحضر. (5)

(1) عمارة علاوة: "الهجرة الهلالية وآثارها"، المرجع السابق، ص ص 82-84.

(2) عبد الجبار نبيل: تاريخ الفكر الاجتماعي، دار الشرق، عمان، ط 01، 2007م، ص 122.

(3) عبد الغني مغربي: الفكر الاجتماعي عند ابن خلدون، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1978م، ص 131.

(4) البشير بوقاعدة: خراب المدن بالمغرب الأوسط والأدنى 296هـ - 909م / 547هـ - 1152م، رسالة مقدمة لنيل شهادة

الماجستير في تاريخ المشرق والمغرب الاسلامي، المدرسة العليا للأساتذة بوزريعة، الجزائر، 2012-2013م، ص 36.

(5) عبد الرحمان ابن خلدون: المقدمة، المصدر السابق، ص 125.

عرفت بادية⁽¹⁾ المغرب الأوسط تنوعا واختلافا في العمارة الريفية، حيث كان البدو يعيشون في الضواحي وفي الحلل المنتجة في القفار وأطراف الرمال، ويسكنون الخيام المصنوعة من الشعر والوبر⁽²⁾ أو البيوت المبنية من الطين والحجر⁽³⁾، وذكر ابن خلدون أن قبيلة زناتة التي كانت تقطن المجال الواحي لإقليم الزاب مثلها مثل العرب كانت تعيش في الخيام وتستخدم الإبل والخيول في حياتهم اليومية، وتعكس هذه المعطيات نمط الحياة البدوية التي كانت تعتمد بشكل كبير على التنقل والترحال، مما جعل الخيمة هي المسكن الأساسي لهذه القبائل، بالإضافة إلى اعتمادهم على تربية الإبل والخيول كمصدر للرزق والوسيلة الرئيسية للتنقل⁽⁴⁾، كما أن حياة البدو التي تعتمد الترحال في بلاد المغرب عموما لم تظهر مع قدوم العرب، فمنذ العصور القديمة كانت تظعن بتلك الربوع قبائل بأكملها بحثا عن المرعى لماشيتها المتكونة من الغنم والبقر⁽⁵⁾، وفي هذا الصياغ يشير الجزائري إلى أن البربر عند نزولهم أرض

(1) البادية هي الأرض التي لا حضر فيها، والبادوة خلاف الحضر، وينسب البادية بدوي. ابن منظور: المصدر السابق، ص 178. ويقال قد بدوت يا فلان أي نزلت البادية أي صرت بدويا. محمود بن عمر الزمخشري (ت 538هـ / 1143م): أساس البلاغة، تح: محمد باسل عيون السود، منشورات محمد بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط01، د ت ط، ج01، ص 51.

(2) قدم مارمول كربخال وصفا دقيقا للخيمة العربية الهلالية بقوله إن الخيمة: " مصنوعة من نسيج أسود من الصوف وشعر الماعز وغيرها، وكذلك من نسيج سعف النخل، ويكون كل ذلك مجموعا من النسيج الخشن المتراس جدا بحيث يقاوم المطر وحرارة الشمس القويين في هذه المناطق، وتتراص الخيام بعضها مع بعض حتى كأهنا حائط لا يخترقه سوى ممرين أحدهما لدخول قطعان الماشية والآخر لخروجها، ويغلق هذان الممران ليلا بالشوك لمنع دخول السباع". كما قدم حمدان ابن عثمان خوجة وصفا مقاربا للخيام لما جاء به مارمول بقوله: " أنها من الوبر، وهو قماش مصلع بالأحمر أو بالألوان الأخرى، وتأخذ هذه الخيام شكلها المكور أو المثبت بواسطة أوتاد من الخشب وتقاس ثروة المالك باتساع هذه الخيام وبعده الأوتاد التي تشدها، تحاط الخيمة بحجارة توضع عليها الأواني والذخائر اليومية" ينظر: مارمول كربخال: إفريقيا، تر: محمد حجي وآخرون، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، 1984م، ج01، ص 100. يراجع أيضا: حمدان بن عثمان خوجة: المرأة، تر وتح: العريب الزبيري، منشورات ANEP، الجزائر، 2005م، ص ص 33-34.

(3) عبد الرحمان ابن خلدون: المقدمة، المصدر السابق، ص121.

(4) المصدر نفسه، ص121.

(5) روبر بارشيفياك: تاريخ افريقيا في العهد الحفصي من القرن 13 إلى القرن 15م، تر: حمادي الساحلي، 1988م، ج02، ص 162. وقال المسعودي: أن البربر سكن الجبال والأودية والرمال الدهاس وأطراف البراري والقفار، وقال إن

المغرب قادمين من فلسطين كانوا في الجبال والرمال يسكنون بيوت آدم وشعر، وهم أصحاب غنم وإبل وبقر. (1)

6-3 مجتمع بدوي مستقر (زراعي):

وبعد اتساع أحوال تلك المجتمعات البدوية، وتحصيلهم لما فوق حاجاتهم من الغنى وكثرة الأرزاق أسرع هذه المجتمعات إلى توسعة البيوت واختطاط المدن والأمصار بالأرياف، (2) بحيث كانوا يبنون دورهم باستخدام الطوب والحجر في المجال الواسع لبلاد الزاب (3)، وأحيانا بالطابية والآجر والرخام عندما لا يتوفر التراب (4)، أي اعتماد المجتمع على المواد المحلية المتاحة بالمنطقة، وكانت المنازل مربعة والغرف متصلة ببعضها البعض، مع وجود مدخل يتصل بالغرف ودرج يؤدي إلى الطابق الأول الذي يكون بنفس شكل الطابق السفلي (5)، إلا أن الوزاني وصف بعض بيوت الزاب بالقبيحة كالمسيلة ونقاوس (6)، وهو حكم قد يكون ناتجا عن مقارنة هذه البيوت بالعمارة الحضرية التي عهدها في المدن والحواضر الكبرى، غير أننا نرى أن هذه البيوت كغيرها من منازل القصور الصحراوية تتميز بالبساطة والوظيفية، وتعكس الطابع البيئي والمعيشي لأهل الزاب، حيث يستغل في بنائها على ما توفر من موارد محلية،

مساكنهم تتناسب أخلاقهم في انخفاضها وارتفاعها. ينظر: أبو الحسن علي بن الحسين المسعودي (ت 346هـ/957م)، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط 05، 1393/1973م، ج 02، ص 119.

(1) علي أبي الحسن الجزنائي: جتنى الأس في بناء مدينة فاس، مطبعة باسنيدي جردان/كاربونيل، الجزائر، 1340هـ/1922م، ص 06.

(2) عبد الرحمان ابن خلدون: المقدمة، المصدر السابق، ص 342.

(3) رشيد بورويبة: الدولة الحمادية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1397هـ/1977م، ص 163.

(4) يحيى أبو المعاطي: الملكيات الزراعية وآثارها في المغرب والاندلس (237-488هـ/852-1095م) دراسة تاريخية مقارنة، رسالة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه، قسم التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، كلية دار العلوم، جامعة القاهرة، 1421هـ/2000م، ج 02، ص 853.

(5) المرجع نفسه، ج 02، ص 853.

(6) الحسن الوزان: المصدر السابق، ج 02، ص ص 52-53.

مثل جذوع النخيل والطوب النيء والحجر، كما قامت هذه البيوت على مبدأ الاكتفاء بالضروري في العيش دون إسراف أو ترف.

كما يحتوي كل بيت من بيوت أهل البادية بما في ذلك بلاد الزاب على مطمورة إلى ثلاثة، والمطمورة هي بمثابة حفر أو مخازن أرضية تستخدم لتخزين الحبوب والمؤونة، كوسيلة لضمان الأمن الغذائي على مدار السنة، ويبدو أنها تنقر في الحجر لحفظ المؤن بشكل جيد⁽¹⁾، ومن جهة أخرى، كان بعض الفلاحين البسطاء يسكنون في أكواخ مشيدة من مواد طبيعية كالقش، وجذوع الأشجار، وهي مساكن مؤقتة أو موسمية تعكس بساطة الحياة البدوية الريفية والمعيشة التي تركز على التعامل مع البيئة المحلية، وعلى مواردها المتاحة دون تكلفة أو تعقيد. (2)

ساهم ابن خلدون في تكوين فكرة جغرافية دقيقة عن الزاب الهلالي، خاصة خلال فترة إقامته في منطقة الدوسن وفرفر وبسكرة، وهذه المناطق كانت تمثل جزءا من البنية الجغرافية والاجتماعية في المغرب الأوسط خلال فترة تاريخية مضطربة تميزت بعدم الاستقرار السياسي.

وباعتبار أن ابن خلدون مؤرخا واجتماعيا، كان له الدور المحوري في دراسة التغيرات الاجتماعية والسياسية التي شهدتها تلك المناطق، فقام بتوثيق العديد من المعطيات الجغرافية والإنسانية التي تعكس التفاعل بين البدو والحضر، مما أتاح له بناء مفاهيم كالضواحي، ومجالات الزاب، والبادية وكل هذه المصطلحات تشير إلى مفهوم واحد وهو الأراضي المفتوحة التي لا يشملها الاستيطان المستقر، بل تكون معروفة بتنقلات السكان في الفيافي والصحاري في المجال الحيوي للقبائل في حلها وترحالها، بحثا عن المراعي والمياه. (3)

(1) الهادي روجي إدريس: المرجع السابق، ج2، ص 214.

(2) الحموي: معجم البلدان، المصدر السابق، ج 01، ص403.

(3) محمد حسن: البادية والمدينة، المرجع السابق، ج01، ص89.

وبفضل تواجده في المجال الواحي لبلاد الزاب وخاصة الدوسن، فرفر، وبسكرة، استطاع ابن خلدون دراسة التحولات الاجتماعية والاقتصادية التي شهدتها تلك المناطق نتيجة لممارسات الجماعات الهلالية التي كانت تجوب الصحراء، وقد ساعدت دراسته الدقيقة لتلك التغيرات في تكوين فكرة جغرافية شاملة للمنطقة، وأدت إلى اكتشاف التداخل بين الاستقرار المحلي والتنقلات الرعوية.⁽¹⁾

كما استغلب المجتمعات البدوية المجالات الريفية الخارجة عن أسوار المدينة قصد الاستقرار خاصة ما يعرف بالأرباض باعتبارها الامتداد العمراني خارج المدينة، وقد مثلت هذه الأرباض إحدى السمات المميزة لعمران المدن في بلاد الزاب خلال العصر الوسيط، وهذا ما سنفصل فيه كمنشأة عمرانية في قادم الدراسة، بينما نشير إليه كمجال ناتج عن تزايد عدد السكان وضيق النواة الحضرية عن استيعابهم، مما دفع العديد من الأسر لاسيما ذات الأصول البدوية منها، إلى الاستقرار بهذا المجال الواحي، حيث كانت الأراضي أوسع، كما أن دوافع الاستقرار في الأرباض لم تكن اقتصادية فحسب، بل امتزجت بأبعاد اجتماعية ودفاعية، إذ شكلت الأرباض منطقة عازلة تحمي المدينة في حال الخطر، كما كانت أحيانا مجالا لاندماج القبائل المستقرة تدريجيا في الحياة الحضرية، دون أن تنقطع تماما عن بيئتها الأصلية.⁽²⁾

⁽¹⁾Mohamed Meouak: les ziban entre Aurès et Sahara une géographie historique de Biskra et de ses oasis du moyen âge à la fin de l'époque moderne, academia Scientiarum Fenica, 2017, p140-142.

⁽²⁾مصطفى شاكر: المدن في الإسلام حتى العصر العثماني، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق، ط02، 1997م، ج01، ص 26.

6-4 مجتمع مستقر (سكان الحضر):

وهم الذين يعيشون في الأمصار والقرى والمدن للاعتصام بها والتحصين بجدرانها، وسموا بالحضر لأنهم الحاضرون أو المقيمون بالأمصار والمدن⁽¹⁾، وهم الذين يمتنون الصناعة والتجارة ويشكلون أساس النشاط الاقتصادي داخل العمران الحضري في المدن وما تحتضنه من المظاهر العمرانية والاجتماعية والاقتصادية واللغوية بحيث يبنى الحضر على سلوك يومي منتظم، يختلف عما هو سائد في البادية.⁽²⁾

وعرف ابن خلدون أهل الحضر بأنهم الذين "تعاونوا في الزائد على الضروري، واستكثروا من الأقوات والملابس، والتأنق فيها وتوسعة البيوت... وانتقاء الملابس في أنواعها من الحرير والديباج وغيرها... فيتخذون القصور والمنازل ويجرون فيها الماء ويعالون في صروحها ويبالغون في تجديدها... ومن هؤلاء من ينتحل في معيشة الصنائع ومنهم من ينتحل التجارة وتكون مكاسبهم أمني وأربح من أهل البدو لأن أحوالهم زائدة على الضروري".⁽³⁾

وقد ينتقل الإنسان من حياة البدو إلى حياة الحضر، عندما يتوفر لديه فائض في الإنتاج الزراعي في المجتمعات البدوية، وهذا الفائض يسمح بتوفير المعاش لفئات أخرى من المجتمع يمكنها أن تتفرغ لأعمال الصناعة والتجارة والسياسة، مما يؤدي إلى نمو المدن وتطور الحضارات⁽⁴⁾، بحيث يرى ابن خلدون في نظريته حول العمران البشري أن هذا التحول إلى حياة الرغد والترف يمكن أن يؤدي إلى تراجع روح المجتمعات مع مرور الوقت بسبب زيادة

(1) نجاح حسين أحمد هبارنة: "ملاحم العمران البشري عند ابن خلدون (دراسة مقارنة)"، حوليات عين شمس، جامعة عين

شمس، مج45، أبريل 2017م، ص 122.

(2) أنبيل عبد الجبار: المرجع السابق، ص 126.

(3) عبد الرحمان ابن خلدون: المقدمة، المصدر السابق، ص 120.

(4) محمد حسن: البادية والمدينة، المرجع السابق، ص 91.

الاعتماد على الراحة والرفاهية، مما قد يضعف القدرة على مواجهة الصعوبات، وهذا ما يؤدي إلى توسع العمران وتطور المدن. (1)

تتطلب الحياة في المدن مجموعة من الضروريات والمهارات التي قد لا تكون متوفرة بالكامل لدى أهل البادية، ففي البادية تتركز الأمور الضرورية على ما يتعلق بالزراعة وتربية المواشي، في حين أن سكان المدن يحتاجون إلى العديد من الصناعات والحرف والتجارة التي قد لا تتوفر في البادية مثل النجارة، الخياطة، والحدادة، إلا أن الانتقال من البادية إلى الحضر يتم تدريجيا، حيث يتبنى أهل البادية بعض عناصر الحضارة مع مرور الوقت، مثلما يحدث في الانتقال التدريجي من الحياة الريفية إلى الحياة المدنية. (2)

والحضارة غاية للبداءة، والعمران كله من البداءة، والحضارة ملك وسوقة له عمر محسوس، كما أن للشخص الواحد من الأشخاص عمرا محسوسا، وتبين في المعقول والمنقول أن الأربعين للإنسان غاية في تزايد قواه ونموها، وأنه إذا بلغ سن الأربعين وقفت الطبيعة عن أثر النشوء والنمو برهة، ثم يأخذ بعد ذلك في الانحطاط، فلتعلم أن الحضارة في العمران أيضا كذلك (3)، وهو ما تجسد بوضوح في التواجد العربي الهلالي ببلاد الزاب، حيث وفدت هذه القبائل في البداية على هيئة جماعات بدوية، استقرت في الضواحي والبوادي، مستعملة الخيام كمساكن متنقلة، وممارسة حياة تقوم على الرعي والتنقل، لكن ومع مرور الوقت وتوفر شروط الاستقرار، بدأت هذه المجتمعات في التحول التدريجي نحو الاستقرار، وهو ما انعكس في بناء القصور، وقد تجلّى هذا التحول بشكل خاص في حالتي قبيلتي رياح التي انتقلت من حياة الظعن إلى السيطرة على مدن وقرى الزاب كبسكرة، وبادس، وتنومة، أما بنو مزني فتمكنوا من

(1) عبد الرحمان ابن خلدون: المقدمة، المصدر السابق، ص123.

(2) المصدر نفسه، ص120.

(3) المصدر نفسه، ص371.

تأسيس إمارة محلية قوية بسطت نفوذها على أجزاء واسعة من بلاد الزاب، معتمدين على الزراعة والجبابة وتوطين البدو في مجالات عمرانية واضحة المعالم.

الفصل الثالث:

المنشآت والمرافق المدنية والدينية

1- نشأة وتطور المدن الصحراوية ببلاد الزاب:

قبل أن نتطرق إلى تعريف المدينة الإسلامية لا بد أن نشير إلى العلاقة بين الإسلام ونشأة المدن، إذ لا يمكن فهم طبيعة المدينة الإسلامية من دون إدراك الأثر الذي خلفته تعاليم الدين الإسلامي في إنشاء ملامحها وتحديد وظائفها وخصائصها، فقد لعب الإسلام دورا محوريا في توجيه العمران وتنظيم الحياة الحضرية، بحيث أضفى الإسلام على المدن التي نشأت في ظل تعاليمه طابعا خاصا مرتبطا بفقته النوازل يميزها عن سائر المدن الأخرى التي عرفها التاريخ الإنساني.

غالبا ما نجد نوعا من الاختلاط لدى الباحثين بين مصطلح المدينة والقصر في الواحات الصحراوية محل الدراسة فمنهم من يجمع بين المصطلحين دون تمييز ومنهم من يفرق بينهما⁽¹⁾، ولعلنا نجد هناك فرقا بين القصر والمدينة خاصة فيما يتعلق بمركز الخلافة والسلطة الحاكمة بحيث لا نجدها إلا في المدن، وهذا ما أكدته ابن خلدون عندما أكد أن الملك يدعو إلى نزول الأمصار وبه يتم تخطيط المدن باعتبار أن الدولة أقدم من المدينة، كما يكون اختطاط عمران الأمصار والمدن وتوسعهم مرتبط بقوة الدولة باعتبارها مصدر الأمن والتوسع في الصناعات والمنازل.⁽²⁾

(1) علي حملاوي: القصر بالجنوب الجزائري "مفهومه ومكوناته"، مطبعة سومر، الجزائر، 2001م، ص 46.

(2) عبد الرحمان ابن خلدون (808هـ / 1406م): تاريخ ابن خلدون (المقدمة)، تح: عبد الله محمد الدرويش، دار الكتاب المصرية، القاهرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط01، 2004م، ج02، ص 08.

يعرف ابن منظور المدينة بالمكان الذي نقيم فيه، موضحاً أن أصل الكلمة مشتق من الفعل دنى بمعنى مكث، كما يشرح أيضاً أن مدن تجمع على المدائن⁽¹⁾، والمدينة هي حصن يبني أصطمة الأرض⁽²⁾ وكل الأرض يبني بها حصن في أصطمتها في مدينة⁽³⁾. والمدينة هي مفهوم يرتبط بعدة مصطلحات ومفاهيم، وتختلف في التسميات باختلاف الثقافات واللغات منها: حاضرة، مصر، مدرة، ولكل هذه الأسماء معنى واحد⁽⁴⁾، ومن مصطلحات المدينة نجد لفظة القصب، حيث ذكر النميري كلمه قصبه في إشارة إلى قصبه مدينه طولقة وهي مركز الحكم للسلطة الحاكمة⁽⁵⁾، والمدينة مأخوذة من لفظة مدن بالمكان أي أقام به وهي مشتقة تشير إلى المساكن والأبنية⁽⁶⁾، ومن هذا المنطلق سنتطرق إلى استعراض أبرز المدن والحوضر التي اختص بها إقليم الزاب، والتي لم تكن مجرد مراكز عمرانية فحسب، بل لعبت أدواراً محورية في مسار التاريخ الإسلامي بالمنطقة، سواء من الناحية السياسية أو الاقتصادية أو حتى العسكرية، فقد شكلت هذه المدن نقاط إشعاع حضاري وثقافي، باعتبار أن بلاد الزاب كانت ملتقى القوافل التجارية والحجبة، من بين هذه الحواضر نذكر:

(1) ابن منظور: المصدر السابق، ج13، ص 402.

(2) اصطمة: بعض الشيء وتمامه، ينظر: محمد مرتضى الزبيدي (ت 1205هـ / 1790م): تاريخ العروس من جواهر القموس، تح: حسين ناصر، راج: عبد العليم الطحاوي وعبد الستار أحمد فراج، ج13، مطبعة الحكومة، الكويت، 1343هـ / 1974م، ص 364.

(3) فرحات عبد الاحد السبتي و حليلة: المدينة الإسلامية قضايا وثائق من تاريخ الغرب الاسلامي، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، ط01، 1994م، ص 13.

(4) عبد الجبار ناجي: دراسات في تاريخ المدن العربية الإسلامية، شركه المطبوعات للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 2001 م، ص 59.

(5) ابن الحاج النميري: المصدر السابق، ص 43.

(6) مصطفى عباس الموسوي: العوامل التاريخية لنشأة وتطور المدن العربية الإسلامية، دار الرشيد لنشر، العراق، 1982م، ص 15.

2- مدن وحواضر بلاد الزاب وعمارتها:

لا بد من الإشارة في مستهل هذه الدراسة إلى أن جل المدن التي حضي بها هذا المجال الواسع لم تكن في بداياتها إلا مجرد حصون عسكرية شيدها الرومان ضمن خط الدفاع المعروف بالليمس (Limes) ، وهو نظام من التحصينات أنشأته الإمبراطورية الرومانية لحماية حدودها الجنوبية من التهديدات القادمة من عمق الصحراء، لتتحول هذه المراكز الدفاعية بعد الفتح الإسلامي إلى مدن وحواضر آهلة بالسكان، محولة العمارة من عمارة حربية إلى عمارة مدنية حيث شيدت بها المساجد والمسكن والأسواق التي تحيط بها الأسوار والحصون قصد الحماية، ومن بين هذه المدن نذكر:

2-1 مدينة بسكرة:

تعد مدينة بسكرة واحدة من أبرز واحات ومدن المغرب الأوسط، على ارتفاع 122م على سطح البحر⁽¹⁾، باعتبارها واحة تقع بإقليم قسنطينة وتقوم على سفح جبال الأوراس على حدود الصحراء الكبرى⁽²⁾، تدعى بسكرة بملكة الجنوب الجزائري، إلا أن الباحثين والكتاب اختلفوا في تحديد أصل كلمة بسكرة فهناك من أرجع أصلها إلى الكلمة الرومانية فيسيرة (vescera) والتي تعني الموقع الجغرافي، وهناك من قال أن أصلها بيسينام (AD Pisciname)، والتي تعني المنبع⁽³⁾، وهناك رأي آخر يرجع تسميتها إلى الأصل

(1) أسماء خلوط وعبد الحق شرف: "المدن الصحراوية في كتابات الجغرافيين بسكرة نموذجا"، مجلة العبر للدراسات التاريخية والأثرية، مج 03، ع01، جانفي 2020م، ص215.

(2) ابن الأثير (ت 637هـ / 1239م): كتاب تعريف بالأماكن الواردة في البداية والنهاية لابن كثير، د د ن، د ت ط، ج01، ص87.

(3) عبد القادر بومعزة: بسكرة في عيون الرحالة الغربيين، بسكرة، الجزائر: دار علي بن زيد، ط2016، ج01، ص28.

الفنيقي فيسكرة (Veskra)، أو سكرة وذلك حسب مصدر تسميتها والتي تعني مستودع الأسلحة. (1)

تظهر الشواهد الأثرية المكتشفة بمدينة بسكرة ما يدل على وجود الإنسان في هذه المنطقة منذ العصور القديمة، ويتجلى ذلك فيما عثر عليه في منطقتي شتمة والقنطرة من رؤوس سهام وأدوات حجرية كالمكاشط، فضلا عن النقوش الصخرية التي تم اكتشافها في رأس الميعاد، وأيضا في منطقتي أمزيرة ومشونش (2)، ويتجلى من هذا أن مدينة بسكرة ومجالها الواسع كانت تشكل منذ أزمنة غابرة نقطة استقرار واستغلال للإنسان، لتتحول في ما بعد إلى حصن دفاعي للدولة الرومانية، قبل أن يشكل مركزا حضريا وعمرانيا في الفترات الإسلامية في ظل الدول المتعاقبة.

بحيث تشغل بسكرة مكان المدينة الرومانية القديمة التي أخذت منها اسم فيسكرة (vescera)، وتعتبر المدينة من بين المراكز العسكرية المحصنة التي شيدت لحماية الزاب، حيث أدرجت ضمن شبكة من المدن المحصنة التي شكلت ما يعرف بنظام (الليمس) (3)، وقد ورد ذكر اسم بسكرة في الكتب العربية لأول مرة في سياق إخماد الثورة التي قامت في بلاد الزاب سنة 251هـ، ضد أبي عبد الله محمد الأغلب الملقب بأبي الغرائق. (4)

(1) عبد الغني غانم: "مدينة بسكرة نموها وتهينة محالها الحضري"، حوليات وحدة البحث بإفريقيا العالم العربي، مجلة محكمة، دار الهدى، عيد مليلة، الجزائر، 1999م، مج03، ص24. بسكرة أسوار وحضارة، من منشورات وزارة الثقافة، 2013، ص 19.

(2) عبد الحليم صيد: معجم أعلام بسكرة، دار النعمان للطباعة والنشر، الجزائر، 2014م، ص 18.

(3) خط الليمس (Limes): هو عبارة عن خط دفاعي لحماية الأراضي المحتلة من هجمات البربر المنطلقين من الجنوب نحو الشمال، سواء تائرين أو مسالمين وهو من بين المؤسسات العسكرية الدفاعية التي أسسها الرومان في بلاد المغرب لغرض اقتصادي أكثر منه دفاعي. ينظر: عبد العزيز شهيبي: "بسكرة عاصمة الزيان، نشأة المدينة وتطورها"، مديرية التراث الثقافي، الملتقى 04 للبحث الاثري والدراسات التاريخية، تندوف، 1996م، ص91. ينظر أيضا، محمد الصغير غانم: المرجع نفسه، ص 56.

(4) اسماعيل العربي: المرجع السابق، ص 148.

تتميز مدينة بسكرة بموقع جغرافي هام وذلك لما عرفتة المدينة من مكانة تاريخية وحضارية، حيث تقع المدينة في الجهة الجنوبية الشرقية من الجزائر، وتعد الحد الطبيعي الفاصل بين الشمال والمجال الصحراوي، عند نقطة التقاء جبال الأوراس بجبال الزاب، بحيث تمثل منطقة انتقال بين الأطلس التلي والمجال الصحراوي، هذا الموضع جعل من بسكرة حلقة وصل محورية بين الفضاء الزراعي الخصيب في الشمال حيث النشاط الفلاحي، وبين الجنوب الذي يمثل خزاناً غنيا بالثروات الطبيعية كالمعادن والمياه الجوفية والمجالات الرعوية، أما فلكياً فتقع مدينة بسكرة شرق خط غرينتش، بين خطي طول 24° و 25° ، وخطي عرض 27° شمالاً⁽¹⁾، واستناداً على ما ذكره ابن سعيد المغربي بخصوص موقع المدينة حين قال: "أن مدينة بسكرة من حيث الطول هي أربعة وعشرين درجة وخمس وعشرين دقيقة والعرض سبع وعشرين درجة ونصف".⁽²⁾

أطنب الكثير من المؤرخين والجغرافيين في الحديث عن مدينة بسكرة إلا أن معظم هذه الكتابات وعلى الرغم من ثرائها المعرفي، إلا أنها لم تفصل بشكل كاف في الجانب المعماري التاريخي للمدينة، خصوصاً ما يتعلق بتواريخ اختطاط القصور والمساجد وغيرها من المرافق الخدماتية والحربية، أو ذكر أسماء الأمراء والولاة الذين أشرفوا على إنشائها، ولعل في هذا النقص في توثيق التاريخ المعماري يرجع جزئياً إلى طبيعة المصادر العربية، التي كانت تميل إلى الوصف العام والوظيفي للمدن الصحراوية دون تناول تفاصيلها الأخرى.

ورد ذكر مدينة بسكرة عند عدد من الجغرافيين والمؤرخين بصيغ مختلفة، إذ ضبطها الياقوت الحموي بكسر الكاف والراء، حيث وصفها بأنها بلدة تقع في إقليم الزاب، في المغرب

⁽¹⁾ عبد الحميد زردوم: تاريخ بسكرة القديمة، تر: أمال هيدال، مطبعة المنار، بسكرة، الجزائر، 2003م، ص 22.

⁽²⁾ ابن سعيد المغربي: بسط الأرض في الطول والعرض، تح: خوان غرنيط خينيس، خزانة محمد نزار الدباغ، معهد مولاي الحسن، مطبع وكريمانيس، تيطوان، المغرب، 1958م، ص 60.

الأوسط، محددًا المسافة بينها وبين المدن المجاورة لها، كقلعة بني حماد التي تبعد عنها مسافتان (مرحلتان)، بينما تبعد عن مدينة طبنة بمسافة مرحلة واحدة فقط، كما أشار إلى أنها مدينة مسورة، تضم أسواقًا وحمامات، ما يدل على طابعها الحضري وتطور عمرانها في تلك الفترة⁽¹⁾، كانت بسكرة قرية بربرية أيام الحكم الروماني⁽²⁾، ولعل المدينة أسست أيام الاحتلال الروماني للمغرب.⁽³⁾

أما القلقشندي فذكر أن اسم بسكرة ينطق بكسر الباء، وقيل أيضًا بفتحها، مع سكون السين المهملة، تليها الكاف، ثم الراء المهملة فهاء، ويضيف أن بسكرة تعد في نظره ضمن مدن بلاد الجريد وتقع في أواخر الإقليم الثاني، ويبدو أنه خالف الصواب بضمها إلى بلاد الجريد.⁽⁴⁾

وتعتبر بسكرة خلال فترة الدراسة من أبرز مدن بلاد الزاب الواقعة بأرض المغرب وقاعدته⁽⁵⁾، بحيث تقع في آخر مدن القسم الثاني من بلاد الجريد قبالة المغرب الأوسط⁽⁶⁾، في إشارة إلى الموقع الحدودي للمدينة ضمن التصنيف الجغرافي لبلاد الجريد، حيث تقع بسكرة في النقطة الفاصلة بين بلاد الجريد والمغرب الأوسط.

(1) الحموي: المصدر السابق، مج1، ص 422. ينظر أيضًا: عماد الدين إسماعيل ابن علي الأيوبي أبو الفداء (ت 732هـ / 1331م): **تقويم البلدان**، تح: رينود وماك كوكين ديسلان، دار صادر، بيروت، د س ن، ص 264.

(2) أحمد توفيق المدني: **كتاب الجزائر**، المطبعة العمرية، دط، د س ن، ص 198.

(3) مارمول كربخال: **إفريقيا**، تر: محمد حجي وآخرون، دار المعرفة، الرباط، المغرب، 1989م، ج03، ص168.

(4) أبو العباس أحمد القلقشندي: **صبح الأعشى في كتابة الإنشاء**، دار الكتب الخديوية بالمطبعة الأميرية، القاهرة، 1333هـ / 1915، مج05، ص 107.

(5) محمد بن عبد المنعم الحميري (ت 726هـ / 1326م): **الروض المعطار في خبر الأقطار**، معجم جغرافي، تح: إحسان عباس، مطابع هيد لبرغ، مكتبة لبنان، بيروت، ط01، 1975م، ص 113-114.

(6) ابن سباهيزادة (ت 997هـ / 1589م): **أوضح المسالك في معرفة البلدان والممالك**، تح: المهدي عبد الرواضية، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2006م، ص212.

أما ابن خلدون فيصف المدينة بأنها قاعدة وطن الزاب لهذا العهد، الذي يشمل مجموعة من المدن والقرى المتجاورة، تتصل ببعضها البعض، وتعرف كل منها باسمها الخاص يسبقها لفظ زاب كزاب الدوسن، وزاب طولقة، زاب مليلة، زاب بسكرة، وزاب بادس، ويؤكد أن بسكرة هي أم هذه القرى جميعا، كما وضع ابن خلدون الحدود الجغرافية لهذه المدينة انطلاقا من قصر الدوسن غربا إلى قصور هولة وبادس شرقا، أما من جهة الشمال فقد أشار إلى أن بسكرة يفصلها عن منطقة الحضنة سلسلة جبلية تعرف بجبل جاتم التي تمتد من الغرب إلى الشرق، تتخللها ثنايا ومسالك تؤدي من الحضنة إلى بسكرة، ويطلق على هذا الامتداد الجبلي اسم جبل درن، وهو الذي يتصل جغرافيا من أقصى المغرب غربا حتى قبلة برقة شرقا، كما أنه لم يغفل عن الإشارة إلى أن بعض المناطق المتاخمة لبلاد الزاب من الجهة الغربية والتي كانت لا تزال مأهولة ببقايا من قبائل زناتة، الذين ظل لهم حضور سكاني في ظل التحولات القبلية والسياسية التي عرفها المغرب الأوسط من القرن 6هـ إلى 9هـ.⁽¹⁾

بينما ياقوت الحموي فذكر مدينة بسكرة واصفا إياها بالمدينة المسورة، التي تحتوي على المرافق الخدماتية كالأسواق والحمامات، وهذا ما يدل على وجود تنظيم عمراني وتجاري كبير بهذا المجال الواسع، كما يشير الحموي أيضا إلى وجود جبل مجاور للمدينة يستخرج منه نوع من الحجر الصلب يشبه ما وصفه بالصخر الجليل، مبينا اعتماد السكان على الموارد الطبيعية المتاحة في محيط المدينة، واستغلالها في المجال العمراني خاصة في بناء الأسوار والحصون والمنشآت الدفاعية التي كانت ضرورية لحماية المدينة من الغارات والتهديدات المحدقة، كما عرفت مدينة بسكرة أيضا ببسكرة النخيل وهي تسمية عرفت بها

(1) عبد الرحمن ابن خلدون: المصدر السابق، ج 06، ص 585.

المدينة منذ قرون، نظرا لما تتمتع به من وفرة في واحات النخيل، التي شكلت بدورها ركيزة اقتصادية وزراعية حيوية لسكان المنطق. (1)

أما ابن حوقل فسلط الضوء على موقع مدينة بسكرة في العصر الوسيط والتي تعد مركز الشبكة التجارية في الجهة الشرقية للمغرب الأوسط، بحيث أشار إلى أن بسكرة تقع إلى يسار جبل أوراس، إلى جانب مدن أخرى مثل وادي، وبادس، حيث يشير إلى وجود طريق تجاري يمتد من القيروان إلى جبل أوراس ويعبر عبر هذه المدن، ويلفت ابن حوقل إلى وجود طريق تجاري حيوي يمتد من القيروان، عاصمة إفريقية إلى جبل أوراس، الذي يمر عبر هذه المدن بما فيها بسكرة، مشيرا إلى أهمية بسكرة في الحركة التجارية والقوافل. (2)

ويشير الإدريسي إلى مدينة بسكرة أثناء تحديده المسافة بين سورها وبين مدينة نقاوس التي قدرها بمرحلتين، واصفا إياها بالمدينة المنيعه، التي تقع على كدية من التراب العالي، ما يمنحها حصانة طبيعية من الأخطار المحدقة، كما وصفها بأنها مدينة عامرة، بها سوق نشطة، وعمارة قائمة، إلى جانب تنوع محاصيلها من التمر، قائلا إن فيها: "من التمر كل غريبة وطريف" (3)، بحيث تعتبر مصدرا رئيسيا لتزويد الحواضر الكبرى بمنتجاتها مثل حاضرتي تونس وبجاية باعتبارها مركزا فاعلا في شبكة التبادل التجاري في الإقليم (4)، أما الوزان وعلى الرغم من أن مؤلفه يعود إلى القرن العاشر الهجري/ (16م)، أي بعد الفترة التي تشملها نطاق هذه الدراسة، إلا أن الرجوع إلى ما كتبه يبقى ضروريا، وهذا ما يجعل من وصفه يذكر بعض المعالم التي تنتسب إلى القرون السابقة، بحيث وجدها عامرة مأهولة

(1) الياقوت الحموي: المصدر السابق، ج 01، ص 422.

(2) ابن حوقل: المصدر السابق، ص 88.

(3) الإدريسي: المصدر السابق، ص 264.

(4) ابن سعيد (ت 685هـ / 1286م): بسط الأرض في الطول والعرض، تح: خوان غرنيط خينيس، خزنة محمد نزار الدباغ، معهد مولاي الحسن، مطبعة كريماديس، تيطوان، المغرب، 1958م، ص 60.

بالسكان مستمرة في العمران، باعتبار أن المدينة تعود إلى العهد الروماني لبلاد البربر، مشيراً إلى أن المدينة قد تعرضت للتخريب في إحدى الفترات التاريخية دون أن يحدد ظروف ذلك، ثم أعيد بناؤها مع دخول الجيوش الإسلامية إلى إفريقية مبرزاً دور العرب الفاتحين في اختطاط المدن والأمصار عكس ما وصفهم المستشرقين بالمقلدين.⁽¹⁾

بينما العياشي فهو أيضاً يعود إلى القرن العاشر الهجري (16م) إلا أنه خص مدينة بسكرة بوصف مميز في رحلته، حيث عبر عن إعجابه الشديد بعمرانها باعتبارها مدينة توفر أسباب العمران وتعد من أعظم المدن وأجمعها لمنافع كثيرة، ويصرح العياشي بوضوح أن بسكرة هي أحسن المدن التي مر بها شرقاً وغرباً، وأجمعها لأسباب المعاش لمكانتها وموقعها الطبيعي الواقعة بين التل والصحراء.⁽²⁾

2-2 مدينة طنبنة:

لا شك أن تاريخ مدينة طنبنة المعروفة حالياً ببيطام والتي تعد إحدى بلديات بركة⁽³⁾ موغل في القدم، فهي مدينة رومانية بالأساس تابعة لولاية نوميديا حيث تعاقب عليها الوندال والبيزنطيون⁽⁴⁾، لذلك نجد إشارات هامة قدمتها كتابات الجغرافيين والرحالة العرب والذين غالباً ما يبدأ وصفهم لها بأنها مدينة قديمة أو أزلية، من صنع الأولين، ومع ذلك تقتصر

(1) الحسن الوزان: المصدر السابق، ج 02، ص 138.

(2) من سالم العياشي (ت 1135هـ / 1722م): الرحلة العياشية، تح: أحمد بن أحمد التونسي، دار السويدي للنشر والتوزيع، ط01، 2006م، مج02، ص ص 539 - 540.

(3) حدة ريغي: "انطباعات حول المدينة الإسلامية بإقليم الأوراس في ضوء النصوص الجغرافية"، مجلة الحكمة

للدراستات التاريخية، مج: 03، ع05، جانفي 2015م، ص 03.

(4) حنان عطية: "مدينة طنبنة من خلال المصادر والدراسات الأثرية"، مجلة المواقف للبحوث والدراسات في المجتمع

والتاريخ، مج 18، ع 01، أوت 2022م، ص 323.

المصادر إلى معطيات تاريخية وشواهد يقينية تمكننا من تحديد زمن إنشائها، إلا أن بعض الدلائل تشير إلى الفترة الرومانية.⁽¹⁾

تظهر مدينة طبنة في المصادر التاريخية القديمة كموقع ذي طابع عسكري في الحقبة الرومانية، والتي بنيت بعد التواجد الروماني الفعلي في هذه المنطقة خلال عهد الإمبراطور تراجانوس (98-117م)، الذي شهدت فترته توسعا للنفوذ الروماني باتجاه جنوب الأوراس⁽²⁾، وعلى الرغم من اختلاف صيغ تسميتها في تلك النصوص التاريخية، إلا أنها حملت المعنى ذاته، بحيث ورد اسم طبنة لأول مرة في الكتابات التاريخية للمؤرخ الروماني بلينيوس الأكبر (Plinie l'Ancien)، وتحديدًا في عمله المعروف بالتاريخ الطبيعي (Histoire Naturelle)، حيث أشار إليها باسم (Tuben Oppidum) واصفا إياها بكونها (Oppidum)، أي مدينة محصنة أو حصنًا⁽³⁾، ومن بين هذه الصيغ أيضًا، نجد (Tobunis) كما وردت في نصوص القديس أوغسطين⁽⁴⁾، ويلاحظ أن اسم طبنة يظهر تقريبا لافتًا على المستويين الصوتي واللغوي مع التسمية اللاتينية الأصلية.⁽⁵⁾

لم تسلم طبنة كغيرها من مدن بلاد الزاب من الخراب العمراني أثناء الحكم الوندالي لها إلا أن البيزنطيين أعادوا بناءها لتشكل حصنًا دفاعيًا حدوديًا لتأمين تخومهم الجنوبية

(1) محمد البشير شنيقي: الجزائر في ظل الاحتلال الروماني، ديوان المطبوعات الجامعية ديوان المطبوعات الجامعية، 1999م، ص 289.

(2) أسامة طيب جليل: "حواضر إقليم الزاب الكبرى في العهد الوسيط من خلال كتب الجغرافيا البلدانية دراسة

تاريخية"، مدارات تاريخية، مج 01، ع 01، 2019م، ص 346.

(3) نور الدين بن قويدر: "طبنة العتيقة من الازدهار إلى الذبول والانقراض"، المنقلى للبحوث والدراسات، مج 03، ع 05، جوان 2022م، ص 99.

(4) Augustin, S. (n.d.). Debatismo contra Donatistas., pp. 12- 19.

(5) فاتح مزودي، الطيب بوسعد: "دور العلماء في ازدهار الحياة الفكرية في المراكز الحضرية لبلاد الزاب خلال العصر الوسيط"، مجلة العلوم الإنسانية، مج 22، ع 01، 2022م، ص 134.

من التهديدات الخارجية⁽¹⁾، وسرعان ما تحول هذا الحصن إلى حاضرة كبيرة لها مقومات المدينة التي تعج بالسكان.⁽²⁾

تقع طبنة في الناحية الشرقية من منطقة الحضنة بين الزاب والتل⁽³⁾، ضمن بلدية بيطام التي تعد إحدى بلديات دائرة بريكة، على بعد 4 كلم جنوب غرب مدينة بريكة، و81 كلم عن باتنة، و162 كلم عن قسنطينة، و65 كلم عن المسيلة، أما فلكيا فتمتد طبنة بين خطي طول 4 و2⁰ شرقا، ودائرتي 35 و37⁰ شمالا⁽⁴⁾، ويحدها من الشمال والشرق سلسلة جبلية يتراوح ارتفاعها ما بين 1400 و1800 متر، وهي تشكّل حلقة وصل بين الأطلس التلي والأطلس الصحراوي، وتتمثل هذه السلاسل في: جبال الحضنة شمالا، وجبال باتنة شرقا، ومن جهة الغرب تحدها جبال أولاد سيدي إبراهيم، بينما تقع مرتفعات بوسعادة في الجنوب الغربي، وتنتهي هذه المرتفعات بجبال أولاد نايل⁽⁵⁾.

تطرق بعض المؤرخين والجغرافيين المسلمين إلى ذكر مدينة طبنة، حيث قدم بعضهم وصفا أثريا دقيقا لها، وأشار بعضهم إلى موقع المدينة من طرق القوافل التجارية والحجبة، علما أن هذه الأوصاف تمكننا من رسم تصور تخطيطي للمدينة خاصة خلال الفترة الإسلامية، كون مدينة طبنة كانت من بين المدن النوميديّة باعتبارها مقرا للولاية، وهو ما يعكس أهميتها السياسية والعسكرية قبل الإسلام، بحيث سكنها أخلاط من قريش والعرب والجنود والعجم والأفارقة والروم والبربر، ما يدل على تنوعها العرقي والثقافي.⁽⁶⁾

(1) أشنيتي: المرجع السابق، ص 411.

(2) جعيل: المرجع السابق، ص 347.

(3) عبد الرحمان ابن خلدون: المصدر السابق، ج 06، ص 132.

(4) Encyclopedie de l'Islam , Tome IV , Paris , 1934, P 847.

(5) عطية: المرجع السابق، ص 324. Despose; J : Le Hodna. Algerie. Paeis. 1953.pp67.

(6) اليعقوبي: المصدر السابق، ص 190.

تعد مدينة طبنة من أبرز مدن الزاب⁽¹⁾، حيث وصفها ابن حوقل بالمدينة الكبيرة القديمة والعظيمة⁽²⁾، حتى أن أبو الفداء ذكر بأنها لم تكن هناك مدينة أكبر منها على الطريق الممتد من القيروان إلى سجلماسة⁽³⁾، ما يدل على عظمتها العمرانية ومكانتها الاستراتيجية في العصر الوسيط، بحيث تقع طبنة على ضفة الزاب في طرف إفريقية من جهة المغرب، وقد فتحت هذه المدينة على يد القائد موسى بن نصير، ليتم بناؤها على الصيغة الإسلامية من طرف المنصور أبو الدوانيق⁽⁴⁾، وفي سنة 454هـ / 1062م قام عمر بن حفص هزارمرد المهلبى وهو أحد ولادة الدولة الزييرية بإعادة إعمارها وتجديدها.⁽⁵⁾

على الرغم من المكانة التي حظيت بها المدينة أيام الحكم الأغلبى إلا أنها سرعان ما تراجع دورها بعد سقوط الأغالبة سنة (296هـ/800م) وبداية السيطرة الفاطمية على المنطقة، حيث تعرضت طبنة خلال هذه الفترة إلى أعمال تخريب وإهمال، ساهمت في انحسار دورها الحضري والسياسي، خاصة بعد أن قرر الفاطميون نقل عاصمة الزاب إلى مدينة المسيلة التي اختطوها سنة (313هـ/817م)⁽⁶⁾، ورغم ذلك يشير الإدريسي إلى أن المسيلة تقع في أرض طبنة، في دلالة على أن المجال الجغرافي للمدينة ظل حاضرا في

(1) أبو الفداء: المصدر السابق، ص 139.

(2) ابن حوقل: المصدر السابق، ص ص 85-88.

(3) أبو الفداء: المصدر نفسه، ص 139.

(4) البكري: المصدر السابق، ص 50.

(5) الأياقوت الحموي المصدر السابق، مج 04، ص 21. تضاربت آراء المؤرخين حول سنة تولية موسى بن نصير ولاية

إفريقية، حيث ذكر ابن عبد الحكم أن التولية تمت سنة 78هـ. ينظر: ابن عبد الحكم (ت 268هـ / 882م): فتوح

إفريقيا والأندلس، تح: عبد الله أنس الطباع، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1987م، ص 68. بينما ذهب ابن خياط

إلى أنها كانت في سنة 81هـ. ينظر، أبو عمرو خليفة ابن أبي هبيرة الليثي العصفري الملقب بشباب ابن خياط (ت

240هـ / 854م): تاريخ خليفة ابن خياط، تح: سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، 1993م، ص 216.

(6) جعيل: المرجع السابق، ص ص 349-350.

الكتابات الجغرافية⁽¹⁾، ومع دخول الهلاليين واستقرارهم في المنطقة خلال القرن السادس الهجري (12م)، عرفت الخريطة الحضرية للزاب تحولا جديدا، حيث بدأت بسكرة تبرز شيئا فشيئا كمركز حضري واقتصادي بديل عن المدينتين، على الرغم مما تعرضت له المدينة من خراب جراء الصراعات السياسية والمذهبية إلا أنها حافظت على دورها الحضري بحيث وصفها صاحب الاستبصار الذي عاش في القرن السادس بالمدينة الكبيرة⁽²⁾ وعلى النقيض من ذلك وصفها الحموي بالمدينة الصغيرة⁽³⁾، أما ابن خلدون فقد أخرج المدينة عن نطاق إقليم الزاب ليضمها إلى الحضنة بكونها مدينة بين التل والزاب، أي في موقع انتقالي بين التل المستقر والمجال الواحي، وهو تصنيف له دلالاته الجغرافية والسياسية يعبر عن تغير في حدود النفوذ الإداري للزاب خلال عصره.⁽⁴⁾

إلا أن بعض الجغرافيين حددوا المسافة بين مدينة طبنة والمدن المحيطة بها بدقة، مشيرين إلى أهميتها كمحور تنقل واستقرار في بلاد الزاب، فقد ذكر اليعقوبي أن المسافة من القيروان إلى الزاب تقدر بعشر مراحل، وأن مدينة الزاب العظمى هي طبنة⁽⁵⁾، كما وصف البكري المدينة بكبيرة⁽⁶⁾، أما صاحب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق فقدم وصفا دقيقا لشبكة المسالك التي كانت تربط مدينة طبنة بمدن إقليم الزاب وخارجه، ما يبرز مكانتها كمركز محوري بين الحواضر والطرق التجارية خلال العصر الوسيط، كما أشار إلى أن المسافة بين المسيلة وطبنة تقدر بمرحلتين، وهو ما يدل على القرب الجغرافي بين المدينتين، ويعزز ما سبق ذكره من أن المسيلة كانت قائمة في نظره على أرض طبنة أو امتدادا لها،

(1) الإدريسي: المصدر السابق، ص 261.

(2) مجهول: الاستبصار، المصدر السابق، ص 172.

(3) الياقوت الحموي: المصدر السابق، مج 04، ص 21.

(4) عبد الرحمان ابن خلدون: المصدر السابق، ج 06، ص 132.

(5) اليعقوبي: المصدر السابق، ص 190.

(6) البكري: المصدر السابق، ص 50.

أما المسافة بين طبنة وبجاية، فقد حددها بسبع مراحل، وعلى الرغم من موقع طبنة البعيد نسبيا عن الساحل، إلا أنه في الوقت نفسه يضعها على خط تجاري مهم يربط الساحل بالمجال الواحي، ونظرا لهذا الموقع الاستراتيجي جعل الإدريسي يصفها بأنها مدينة الزاب⁽¹⁾، رغم بعض التحولات السياسية التي قللت من دورها الإداري لاحقا، كما أشار إلى أن المسافة بين طبنة ومدينة باغاي والتي تقدر بأربع مراحل، أما شرقا فمن طبنة إلى ملول ذكر الإدريسي أن المسافة تقدر بمرحلة كبيرة⁽²⁾، ما يظهر امتداد المدينة وانفتاحها على مجالات واسعة في شبكات الطرق القديمة، وإلى جانب موقعها الجغرافي المتصل فقد ذكرت طبنة بأنها مدينة عامرة في سابق عهدها، تتوفر فيها الأسواق والمزارع والغلات الوفيرة، إضافة إلى وجود حصن يؤمنها من الأخطار المحدقة⁽³⁾، وهذا ما يبرز بنيتها الاقتصادية والعسكرية المشجعة على الاستقرار، إلا أن انتقال مركز الحكم منها إلى مدينة بسكرة ما بعد القرن السادس هجري غاب ذكر طبنة على لسان الجغرافيين عند وصفهم لبلاد الزاب.

2-3 مدينة تهودة:

تقع مدينة تهودة ضمن النطاق الجغرافي لإقليم الزاب، وهي قريبة من مدينة بسكرة⁽⁴⁾، إذ تقدر المسافة الفاصلة بينهما بحوالي 16⁽⁵⁾ نحو الجنوب الشرقي، كما بتعد تهوده بحوالي

(1) الإدريسي: المصدر السابق، ص 263. أبو الفداء: المصدر السابق، ص 139.

(2) الشريف الإدريسي: وصف إفريقيا الشمالية والصحراء مأخوذ من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، تص

ونش: هنري بريس، جامعة الجزائر، الجزائر، 1376هـ / 1957م، ص 75

(3) المصدر نفسه، ص 66

(4) الحميري: المصدر السابق، ص 142.

(5) الهادي روجي ادريس: المرجع السابق، ج 02، ص 88.

6 كلم شمال بلدة سيدي عقبة⁽¹⁾، وتقع على الطريق المؤدي إلى سيدي خليل⁽²⁾، وهي منطقة تتوسط شبكة من المسالك المحلية التي ظلت مستخدمة منذ العصور القديمة، وتتمتع تهوده بموقع استراتيجي عند السفوح الجنوبية لجبال الأوراس، عند مخرج وادي الأبيض، وعلى مقربة من الطريق الروماني القديم، كما تقع قرب موقع بادس التاريخي، وتعد من أعظم مدن الزاب من حيث المكانة التاريخية والموقع الجغرافي.

لعبت مدينة تهوده دورا تاريخيا بارزا منذ الحقبة الرومانية، تحت عدة مسميات فقد أشار إليها بلين باسم (Tabudium Oppidum)، كما ورد ذكرها باسم (Thabudeos) في سلسلة من الشواهد الميلية التي تربطها بمدينة (Ad Majores)⁽³⁾، وهذا بفضل موقعها الاستراتيجي عند السفوح الجنوبية لجبال الأوراس، فقد مثلت نقطة متقدمة في حماية الحدود الجنوبية للإمبراطورية الرومانية، حيث أدرجت ضمن شبكة من المدن المحصنة التي شكلت ما يعرف بنظام (الليمس) وهو نظام دفاعي حدودي أنشأه الرومان لتأمين تخومهم الجنوبية من التهديدات الخارجية، خصوصا تلك القادمة من عمق الصحراء، وقد منحها هذا الدور العسكري مكانة خاصة في المنظومة الدفاعية الرومانية بشمال إفريقيا⁽⁴⁾، كما تعد تهوده من المدن النوميديّة القديمة التي لعبت دورا بارزا في تاريخ المنطقة، وقد شهدت المدينة تعاقب عدة قوى سياسية على حكمها، حيث خضعت أولا لسيطرة الونداليين، ثم دخلت لاحقا

(1) ياسين رايح حاجي: "المسح الأثري بموقع تهودة وضواحيه"، مجلة الآثار، ع 11، 2014م، ص 36.

(2) Pierre Morizot: «Regard sur les inscriptions de Thouda du XVIIIe siècle à nos jours», Comptesrendus des séances de l'Académie des Inscriptions et Belles-Lettres, 154-2 (2010), p 817.

(3) ياسين رايح حاجي: "المسح الأثري بموقع تهودة وضواحيه"، المرجع نفسه، ص 38.

(4) ياسين رايح حاجي: التحصينات الدفاعية البيزنطية في شمال إفريقيا، رسالة ماجستير آثار قديمة، جامعة بغداد، 2002م، ص ص 151-155.

ضمن نطاق الحكم البيزنطي⁽¹⁾، ويؤكد هذا الامتداد التاريخي للمدينة وما تم العثور عليه من شواهد مادية وأثرية، من بينها أجزاء من نقيشة اكتشفت أثناء التحري الأرضي الذي قام به الباحث براداز، وهو ما يعكس استمرارية الاستيطان وأهمية الموقع على مدى عصور مختلفة⁽²⁾، إلى جانب النقيشة المكتشفة تم العثور أيضا على شقف فخارية مكتوبة جنوب سلسلة جبال الأوراس، والتي تقع على نفس الخط الذي يربط بين المدن المكونة لنظام الليمس، ومن ضمنها مدينة تهوده، وتشير هذه الكشوفات إلى وجود بيزنطي مستقر في المنطقة، يرجح أن يعود إلى عهد الإمبراطور جوستينيانوس، وهو ما يعكس استمرار الدور العسكرية للمدينة خلال الفترة البيزنطية، واندماجها ضمن الشبكة الدفاعية للحدود الجنوبية للإمبراطورية.⁽³⁾

أما خلال الفترة الإسلامية، فقد ذكرت تهوذة من طرف المؤرخين والرحالة العرب على أنها إحدى أكبر المدن الزاب، لاسيما أنها كانت مسرحا للمعركة التي استشهد فيها الفاتح عقبة بن نافع.⁽⁴⁾

وجاء اسم المدينة في المصادر العربية برسم متباين، فتتووع بين ثلاثة أشكال رئيسية: تهوذة، تهوده، وتهوذا⁽⁵⁾، وردت باسم تهوذة عند صاحب الروض المعطار بحيث عدها من أعظم مدن المغرب، وقد ورد ذكرها في سياق الحديث عن تفريق جيش عقبة بن نافع

⁽¹⁾ياسين رابح حاجي: التحصينات الدفاعية، المرجع السابق، ص 143-144. Un. DESANGES, J:

In «témoignage peu connu de Procope sur- la Numidie vandale et byzantine»

BYZANTION, 33, 1963, p. 56.

⁽²⁾HADJI, Y-R., Op. Cit., pp. 325-326. ; MORIZOT, P., Op. Cit., pp. 268.

⁽³⁾ياسين رابح حاجي: التحصينات الدفاعية، المرجع نفسه، ص 144.

⁽⁴⁾أبو عبد الله محمد بن عبد الله ابن الأبار (595-658هـ/ 1199-1260م): الحلة السيرة، تح وتبع: مؤنس

حسين، المركز العربي للطباعة والنشر، القاهرة، ط01، 1963، ج02، ص323.

⁽⁵⁾الصادق زيانبي: الجغرافيا التاريخية، المرجع السابق، ص273.

بعد عودته من حملته الشهيرة بالمغرب الأقصى، ولقائه بجيش كسيلة الذي اتحد مع جيوش الروم واستشهاده بمدينة تهوذة.⁽¹⁾

وقد وردت تسمية تهوذة، في معجم البلدان للحموي، غير أن المقصود بها لم يكن المدينة التي نتناولها بالدراسة، بل أشار الحموي إلى قبيلة بربرية حملت هذا الاسم في أرض إفريقية، وعرفت الأرض بهم⁽²⁾، كما أشار صاحب كتاب المحن إلى ذكر مدينة تهوذة بالذال من خلال ذكر الموضع الذي شهد مقتل عقبة بن نافع، حيث ورد في نصه: "فقتل عقبة وكثير ممن معه بقرب مدينة تهوذة."⁽³⁾

بينما صاحب الاستبصار فذكر المدينة بالذال من خلال وصفه لمدن الزاب بقوله: "بالقرب من بسكرة مدينة تهوده وهي مدينة كبيرة قديمة أزلية".⁽⁴⁾

وعلى الرغم من أن البكري ليس في مجال الدراسة باعتباره من رحالة القرن الخامس الهجري (11م) إلا أنه يعد من أهم المصادر التي تناولت المدينة قبلاً وبعداً، بحيث ذكر المدينة بتهوذاً، مقدماً لنا وصفاً دقيقاً أخذ منه من جاء بعده، والذي اعتبر تهوداً بمدينة السحر باعتبارها مدينة الأولية والآلهة كثيرة الثمار والنخيل والزرع، كما أنها تزخر بكل مقومات الحياة، بوجود جامع جليل ومساجد كثيرة وأسواق وفنادق، وأهلها على مذاهب أهل العراق.⁽⁵⁾

(1) عبد المنعم الحميري: المصدر السابق، مج01، ص143.

(2) الحموي: المصدر السابق، مج02، ص64.

(3) محمد بن أحمد التميمي التميمي أبو العرب (ت 333هـ / 945م): كتاب المحن، تح: يحي وهيب الجبوري، دار الغرب الإسلامي، ط03، 1427هـ / 2006م، ص230.

(4) مجهول: الاستبصار، المصدر السابق، ج01، ص174.

(5) البكري: المصدر السابق، ص72.

أقل نجم المدينة القديمة بظهور ما يسمى بـمدن الأضرحة، بحيث استحدثت مدينة جديدة على ضريح الصحابي الجليل عقبة بن نافع، وسميت باسمه سيدي عقبة لتحل محل تهوده، بحيث أن المدينة الجديدة لم تؤسس لأغراض ودواعي عسكرية أو اقتصادية بل سمحت الأضرحة ببناء مسجد لاستقطاب الوافدين الجدد للاستقرار بها قصد التبرك، وبالتالي بدأت المدينة في النمو دون تدخل للسلطة السياسية أو العسكرية، حتى أصبحت تؤدي دور المدينة بكل مقوماتها الحضرية مع تعاقب العصور الإسلامية.⁽¹⁾

2-4 مدينة مقرة:

تعد مدينة مقرة إحدى المدن التابعة لإقليم الزاب بحيث كانت تسمى قبل الفتح الإسلامي (Macri)⁽²⁾، وقد أشار إليها الجغرافيون باعتبارها مركزا مهما يربط بين عدد من الحصون المنتشرة في محيطها، ما يعكس دورها العسكري البارز خلال الفترة الوسيطة، وقد وصفها اليعقوبي بأنها مدينة كبرى محصنة، كثيرة الحصون، ما يدل على أهميتها الدفاعية، كما يشير أيضا إلى التركيبة الاجتماعية للمدينة والتي كانت أخلاطا، بحيث أن غالبية سكانها ينتمون إلى قبيلة بني ضبة، كما أقام فيها قوم من العجم، في حين أحاطت بالمدينة جماعات من البربر يعرف بعضهم باسم كزبرة، وآخرون باسم سارسة⁽³⁾، تقع مدينة مقرة جغرافيا بين مدينتي طبنة والمسيلة، وهو ما أكده ابن حوقل في وصفه لطريق التنقل في

(1) ياسين رابح حاجي، السعيد تريعة: الحاضرة في إقليم الزاب الشرقي بـدس تهودة سيدي عقبة نموذجا، تحولات المدينة الصحراوية الجزائرية، مدن وأقاليم صحراوية جزائرية، إصدارات مركز البحث في العلوم الإسلامية والحضارة، الأغواط، الجزائر، ط1، 01، 1439هـ/2018م، ج02، ص141.

(2) علي الهطاي: "الجغرافيا التاريخية لبلاد الزاب من الفتح إلى منتصف القرن الخامس هجري/ الحادي عشر ميلادي

دراسة في تطور المحالات والمواقع"، مجلة المواقف والبحوث والدراسات في المجتمع والتاريخ، ع 12، ديسمبر

2017م، ص21.

(3) اليعقوبي: المصدر السابق، ص191.

المنطقة، حيث قال: "ومن مقرة إلى المسيلة مرحلة"⁽¹⁾، وتظهر هذه الإشارة إلى موقع مقرة كحلقة وصل في شبكة الطرق والمسالك، ما يعزز من أهميتها الجغرافية ضمن إقليم الزاب، ويعكس في الوقت ذاته دورها في الحركة التجارية والعسكرية بين مدن الإقليم.

لا تقتصر أهمية الموقع الجغرافي لمدينة مقرة على كونها محطة عبور للقوافل التجارية فحسب، بل تتجاوز ذلك لتشكّل مركزا اقتصاديا نشطا قائما على الإنتاج الزراعي الوفير بفضل ما تتمتع به من موارد طبيعية، ويؤكد البكري هذه المكانة بقوله: "إن مقرة بلد كبير ذو ثمار وأنهار ومزارع"⁽²⁾، في إشارة واضحة إلى خصوبة أراضيها وتنوع إنتاجها الزراعي، مما يفسر ازدهارها الاقتصادي ضمن شبكة مدن إقليم الزاب.

لقد ساهم موقع مدينة مقرة باعتبارها منطقة عبور للقوافل والمسافرين في تعزيز مكانتها الحضرية، إلى جانب الخصائص الزراعية الغنية التي أشار إليها الجغرافيون، وقد أسهم تلاقي هذه العوامل الجغرافي منها والاقتصادي في نمو المدينة وتطورها، مما منحها أهمية بارزة في تلك المرحلة التاريخية، سواء على الصعيد المحلي داخل إقليم الزاب أو في شبكة المدن المجاورة.⁽³⁾

2-5 مدينة باغية - باغاي - باغاية:

ورد ذكر المدينة في العهد الروماني بعدة تسميات كباغية وباغاي، (Bagaï ou Bagaïa) كما ذكرها القسيس أوغسطين باسم (Vagaïa)⁽⁴⁾، ورغم صمت المصادر عن

(1) ابن حوقل: المصدر السابق، ج01، ص85.

(2) البكري: المصدر السابق، ص51.

(3) السعيد كداد: المدينة والبادية في المغرب الأوسط خلال العصر الوسيط، مذكرة ماستر تاريخ القرون الوسطى، قسم

التاريخ، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة المسيلة، 1434-1435هـ/2013-2014م، ص30.

(4) Ragot, M: Recueil des notices et l'histoire de la société archéologique de la province de Constantine. ALGER: ARNOLET, Libraire-Éditeur 1874, pp213.

ذكر تفاصيل أصل اسم المدينة ومن أين اشتقت إلا أن البعض يرجعها إلى الأصل الفينيقي المستمد من العمق الليبي⁽¹⁾، وتبعد باغية عن مدينة خنشلة بحوالي 12 كلم في المكان المعروف باسم باغاي.⁽²⁾

صممت المصادر التاريخية عن تحديد تاريخ تأسيس هذه المدينة إلا ما ورد في بعض الحفريات والنقوش والتي تؤكد أن أصلها يعود إلى العهد الفنيقي، وتقيد الدراسات والحفريات المنجزة أن المدينة أيام الحكم الروماني كانت تزخر بنشاط غير مسبوق، وهذا من خلال الشواهد والنصب التذكارية التي تبين أسماء بعض أباطرة الرومان كأوريليوس فيروس (Auréleyus verus)، ومارك أوريليوس (Marc-Aurèle)⁽³⁾، أي أن مدينة باغية كانت ضمن المدن الداخلية للتوسع الروماني في نوميديا.⁽⁴⁾

أما في العهد البيزنطي فبقيت المدينة مستقلة بكيانها حتى أخضعها القائد شولمون (Solmon) سنة 538م أيام حكم الإمبراطور البيزنطي جوستينييان (Justinien) في إطار استعادة الممتلكات الرومانية⁽⁵⁾، بحيث تعد إحدى الحصون البيزنطية التي حافظت على

ينظر أيضا: أمين كرتالي: "مدينة باغية خلال العصر الوسيط المحطات السياسية-التغيرات العمرانية والتحويلات

الاجتماعية"، مجلة المواقف للبحوث للدراسات في المجتمع والتاريخ، مج: 13، ع 01، جوان 2018م، ص 175.

⁽¹⁾رشيد بورويبة: الدولة الحمادية تاريخها وحضارتها، ديوان المطبوعات الجزائرية، الجزائر، 1977، ص 160.

⁽²⁾الهادي روجي ادريس: المرجع السابق، 1992، ص 82. ينظر أيضا: أمين كرتاني: المرجع السابق، ص 175.

⁽³⁾Ragot, M: Recueil des notices et l'histoire de la société archéologique de la province de Constantine. ALGER: ARNOLET, Libraire-Éditeur 1874, pp213.

⁽⁴⁾محمد البشير شنييتي: أضواء على تاريخ الجزائر القديم، دار الحكمة، الجزائر، 2003م، ص 176.

⁽⁵⁾عمار سلامة: من روما إلى الإسلام، تاريخ إفريقيا العام، اللجنة العلمية الدولية لتحرير تاريخ إفريقيا العام (يونيسكو)، دار النشر جون أفريك ، 1985م، مج 02، ص 416.

اسمها في المصادر العربية (باغاي)⁽¹⁾، وهي بلدة تقع على السفح الجنوبي لجبال الأوراس.
(2)

كانت مدينة باغية مدينة محصنة بأسوار كبيرة كباقي مدن الزاب إلا أن الفاتحين المسلمين لم يمنعهم من ذلك دخول هذا الإقليم ومحاصرة مدنه، لتتعرض مدينة باغيا إلى حصار من جيش الفاتحين بقيادة عقبة بن نافع سنة (62هـ/682م)، إلا أن الروم خرجوا للقائه خارج أسوار المدينة، فقاتلوه قتالا شديدا إلا أن المسلمين هزموهم وقتلوهم قتلا ذريعا وغنم منهم غنائم كثيرة، إلا أن عقبة بن نافع لم يستطع تجاوز أسوار المدينة بعد التحالف بين قبيلة جراوة وأوربة والحاية التي احتوى بها الروم بعد الهزيمة⁽³⁾، فأقام عقبة بحصارهم مدة من الزمن وكره المقام فسار إلى بلاد الزاب⁽⁴⁾، وبعد مقتل عقبة صممت المصادر عن ذكر باغية إلا عهد الحسان بن النعمان التي أسندت له ولاية إفريقية (74هـ/694م)، حين اتخذت الكاهنة مدينة باغية حصنا متقدما يحمي ظهر جيوشها من تقدم الفاتحين، إلا أنها قامت بهدم حصن باغية خشية اقتحام جيوش حسان بن النعمان له واتخاذة كقاعدة عسكرية⁽⁵⁾، إلى أن هزم الحسان بن النعمان الكاهنة ومقتلها سنة 82هـ/701م، على الرغم من خسارته أمامها من قبل بالقرب من نهر نيني.⁽⁶⁾

(1) على الهطاي: "الجغرافيا التاريخية لبلاد الزاب"، المرجع السابق، ص24.

(2) أمين كرطاني: المرجع السابق، ص176.

(3) عبد الواحد طه ذنون: الفتح والاستقرار الإسلامي في شمال إفريقيا والأندلس، دار المدار الإسلامي، بيروت، ط01، 2004م، ص 116. حسين مؤنس: فتح شمال إفريقيا ومقاومة البربر، تاريخ إفريقيا العام، اللجنة العلمية الدولية لتحرير تاريخ إفريقيا العام (يونيسكو)، دار النشر جون أفريك، 1997م، مج03، ص 261.

(4) ابن الأثير: المصدر السابق، ج03، ص 451. النويري: المصدر السابق، ج24، ص26.

(5) ابن عذاري: المصدر السابق، ج01، ص62. مؤنس: المرجع السابق، مج03، ص271.

(6) النويري: المصدر نفسه، ج24، ص 36.

بعد الهجرة الهلالية لبلاد الزاب أضحت مدينة باغية كغيرها من مدن الزاب ملاذا لقبائل الأثنج بعد انتقال الحماديين إلى بجاية⁽¹⁾، حيث جاء في وصف الإدريسي للمدينة خلال القرن السادس هجري أن مدينة باغية إحدى المدن الكبرى والمحصنة في بلاد الزاب، بحيث أحيطت بسورين من الحجر، وكان ربض المدينة محاطا بدوره بسور خاص تقام فيه الأسواق، في مشهد يعكس ازدهار النشاط التجاري خارج أسوار المدينة الرئيسية، إلا أن هذا الازدهار التجاري لم يدم طويلا إذ يشير الإدريسي إلى أن الأسواق قد انتقلت لاحقا إلى داخل المدينة، بينما خلت الأرباض من سكانها ونشاطها بسبب ما لحق بها من تخریب على يد بعض القبائل العربية وهو ما أدى إلى تراجع عمرانها، كما مس هذا التخریب البوادي والقرى والعمارات المحيطة بها حتى أصبح كل ذلك قليلا فيها، كما تعد مدينة باغية أيضا في نظره أول بلاد التمر في تلك الجهة، وتروى من واد يجري إليها من جهة القبلة، كما يعتمد سكانها كذلك في شربهم على الآبار العذبة التي يحفرونها.⁽²⁾

كما أشار الإدريسي إلى طبيعة العلاقة التي نشأت بين العرب الوافدين الذين استحوذوا على المدينة والسكان المحليين الذين اتخذوا من المناطق المجاورة موطنًا لهم، مبرزًا أنها لم تكن علاقة صدام دائم، بل اتسمت في كثير من الأحيان بقدر من الاندماج والتعايش⁽³⁾، ومع سيطرة القبائل الهلالية على المدينة وبلاد الزاب على العموم، فقدت المدينة جانبا كبيرا من تنوعها الإثني والمذهبي الذي كان يميزها في الفترات السابقة، إذ بدأت ملامح التعريب تهيمن تدريجيا على البنية السكانية للمنطقة، وتراجع حضور العناصر البربرية لصالح القبائل العربية الغالبة، كما شهدت المدينة تحولا مذهبيا واضحا إذ انحسر التنوع المذهبي الذي كانت تعرفه المدينة في المراحل السابقة، لاسيما خلال فترات النفوذ

(1) جعيط: تأسيس الغرب الإسلامي، المرجع السابق، ص 53.

(2) الإدريسي: المصدر السابق، ج 01، ص 276.

(3) المصدر نفسه، ج 01، ص 277.

الإباضي الخارجي للمدينة على غرار مدن الزاب الأخرى ، ليفسح المجال أمام انتشار المذهب السني الذي أصبح المرجعية الدينية السائدة للسكان.⁽¹⁾

ومع تحول السلطة المحلية داخل إقليم الزاب لصالح القبائل العربية، وعلى رأسها بنو مزني وبنو رياح، شهدت المنطقة انتقال القبائل البربرية التي كانت تستوطن أرياف الأوراس، مثل جراوة وأوربة وهوارة، بالإضافة إلى بعض بطون البدو كمزاتة وضريسة في منطقة الهضاب، إلى مدينة بسكرة، التي حلت محل طبنة وتهوذة اللتين كانتا سابقا من أهم المراكز الحضرية في الإقليم.⁽²⁾

وقد أسهم هذا التحول في تغيير موقع المدينة ضمن الخريطة السياسية والتجارية للمنطقة، حيث أضحت باغية مدينة معزولة نسبيا عن الحواضر الكبرى، لا سيما بعد التحول الذي طرأ على الشبكة التجارية الداخلية، والتي باتت تفضل المسالك الساحلية على حساب الطرق الداخلية القديمة⁽³⁾، وإفساد المسالك المؤدية منها وإليها وسيطرة بني هلال عليها مما جعلها غير آمنة، وعوضت بطرق أخرى كالتى سلكها أبو عنان المريني في مسيرته إلى بلاد الزاب وهي الطريق الرابطة بين بسكرة وقسنطينة وبسكرة وبلاد الجريد دون المرور بباغية.⁽⁴⁾

⁽¹⁾Amara Alloua: Entre le massif de L'Aures et les oasis: apparition, évolution et disparition des communautés ibadites du Zab (VIII-XIV siècle), Revue des mondes et de la Méditerranée, 2012, pp.115-135.

⁽²⁾عبد الواحد طه ذنون: المرجع السابق، ص 52. حسين مؤنس: المرجع السابق، مج3، ص 261.

⁽³⁾روبار برنشفيك: تاريخ إفريقيا في العهد الحفصي، تر: حماد الساحلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1988م، ج1، ص 327.

⁽⁴⁾ابن الحاج النميري: المصدر السابق، ص ص 412-425-468. روبار برنشفيك: المرجع نفسه، ص323.

2-6 مدينة المسيلة:

بعد بسط الدولة الفاطمية لنفوذها على بلاد المغرب ومع الرفض المحلي للمذهب الشيعي، واجه الفاطميون عداء كبيرا خاصة من قبائل زناتة التي قتلت الوفد الذي أرسله أبو عبد الله الشيعي إلى سجلماسة في مهمة إلى عبيد الله المهدي بمدينة طنبنة⁽¹⁾، وبعد هزيمة الجيش الشيعي سنة 311هـ/924م، على يد قبيلة مغراوة من زناتة التي كان لها الأثر البارز في بلاد المغرب⁽²⁾، إلا أن أبي القاسم بن عبيد الله المهدي أعاد المياه إلى مجاريها وأرجع الاستقرار بالمنطقة ليقوم بعدها بتأسيس مدينة جديدة لحماية الطرق التجارية وتكون له حصنا من المخاطر المحدقة خاصة من الغرب⁽³⁾، حيث تولى بناء مدينة المسيلة علي بن حمدون بن سماك بن مسعود بن منصور الجدامي، المعروف بابن الأندلسي، وقد ولاه القائم عليها حتى مات بها بسبب فتنة أبي يزيد، وبقي ابنه جعفر في المدينة فتولى أمرها وأصبح أميرا على كامل بلاد الزاب حتى غادرها سنة 360هـ.⁽⁴⁾

تأسست مدينة المسيلة على حسب ما ورد عند المقرئزي وابن خلدون سنة (315هـ/928م)⁽⁵⁾، بينما يرى ابن عذاري وصاحب الاستبصار أن تأسيس المدينة كان

(1) محمد سهيل طقوش: تاريخ الفاطميين في شمال إفريقيا ومصر وبلاد الشام (297-567هـ/910-1171م)، دار النفائس، بيروت، ط02، 2007م، ص 88.

(2) عبد الرحمان ابن خلدون: المصدر السابق، ج04، ص 50.

(3) محمد بن عميرة: دور زناتة في الحركة المذهبية بالمغرب الإسلامي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984م، ص 183.

(4) البكري: المصدر السابق، ص 59-60.

(5) تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي المقرئزي (ت 845هـ/1442م): إتعاض الحنفا في أخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، تح: جمال الدين الشيال، لجنة إحياء التراث الثقافي، القاهرة، ط02، 1996م، ج01، ص 72. ينظر أيضا: عبد الرحمان: ابن خلدون المصدر نفسه، ج04، ص 50-51.

سنة (311هـ/926م)⁽¹⁾، ولعلي أرى أن الرأي الراجح ما اتفق عليه جل المؤرخين والباحثين ألا وهو الرأي الأول.

حظيت مدينة المسيلة باهتمام الجغرافيين خاصة في القرون الأولى من تأسيسها، يصف الإدريسي المدينة بالعامرة في أرض منبسطة، استحدثها علي بن الأندلسي خلال ولاية إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، وهي في أرض طينة⁽²⁾، ويضيف أن المسيلة تحيط بها مزارع واسعة تنتج مختلف المحاصيل التي تحتاجها، كما يمتلك سكانها قطعاناً من الخيول والأغنام والأبقار، وتشتهر ببساتينها وعيون مياهها، كما أن المدينة تنتج أصنافاً من الفواكه والخضروات واللحوم، إلى جانب مزارع القطن والقمح والشعير، ويقع على ضفة نهر يسمى نهر سهر⁽³⁾ يجري مأؤه ظاهراً على سطح الأرض، عذبا وغير عميق ويحتوي على كميات كبيرة من السمك، بحيث يفخر سكان المدينة بهذا النهر، ويبلغ حجم بعض أسماكها شبرا أو أقل، وغالبا ما يصطاد منه الكثير⁽⁴⁾، كما تعرف المدينة بعين خراة يقال لها عين مخذ تجتمع فيها وتتدفق منها منابع نهر سهر، وتحتوي المدينة على المرافق الحيوية التي تختص بها المدن والحوضر الكبرى من أسواق نشطة بالإضافة إلى وجود حمامات بها.⁽⁵⁾

(1) ابن عذاري: المصدر السابق، ج1، ص 215. ينظر أيضا: مجهول: الاستبصار، المصدر السابق، ص172.

(2) الإدريسي: نزهة المشتاق، المصدر السابق، مج1، ص 254.

(3) المصدر نفسه، مج1، ص254.

(4) المصدر نفسه، مج1، ص 254.

(5) البكري: المصدر السابق، ص 59-60.

أما من الناحية الاجتماعية فكانت المدينة تضم عددا من قبائل البربر، من بينها: عجيسة، وهوارة، بنو برزال⁽¹⁾، ونداح، وصدراة، ومزاةة، وتعد المسيلة مدينة نابضة بالحياة، مكتظة بالسكان والتجار.⁽²⁾

إلا أن المسيلة فقدت بريقها كحاضرة ومركز سياسي خاصة بعد تأسيس الدولة الحمادية سنة (395هـ/1008م)⁽³⁾، واتخاذها قلعة بني حماد عاصمة لها، على الرغم من بسط نفوذها على جزء كبير من بلاد الزاب بما في ذلك المسيلة، إلا أن حماد بن بلكين عمد إلى تفرغ المسيلة من سكانها حيث قام بنقلهم إلى العاصمة الجديدة قلعة بني حماد، في خطوة تهدف إلى تعزيز مركزية السلطة السياسية وتكثيف العمران البشري في مقر الحكم الجديد، وقد ترتب على ذلك تخريب مدينة المسيلة واندثار الكثير من مظاهرها العمرانية، مما أدى إلى تراجع وفقدان مكانتها التي كانت تحتلها في الفترة السابقة ضمن الحواضر الكبرى في بلاد الزاب.⁽⁴⁾

3- المنشآت المدنية ببلاد الزاب:

تمتلك الواحات الصحراوية بالمغرب الأوسط تنوعا جغرافيا وبيئيا كبيرا، مما ساهم في تشكل أنماط عمرانية مختلفة تناسب الظروف المحلية واحتياجات المجتمع، وتتأثر العمارة الصحراوية بالعوامل البيئية والثقافية والاجتماعية للمجتمعات المقيمة بثغورها، ويمكن تصنيف أنماط العمارة الصحراوية بناء على العديد من العوامل خاصة بما يتعلق بالشكل

(1) مجهول: الاستبصار، المصدر السابق، ص 172.

(2) الإدريسي: المصدر السابق، ص 254.

(3) عبد الحليم عويس: دولة بني حماد صفحة رائعة من تاريخ الجزائر، دار الصحوة للنشر والتوزيع، القاهرة، ط02،

1991م، ص 70.

(4) عبد الرحمان ابن خلدون: المصدر السابق، ج06، ص 227.

والوظيفة للعمارة، ويمكن تصنيفها إلى مدن وقصور وما تحتويها من وظائف أمنية وخدمانية ودينية نذكر منها:

3-1 القصور ببلاد الزاب:

يعتبر القصر النواة السكنية في المجال الواحي والصحراوي، لما له من أهمية بالغة في المجال الديمغرافي ووظائفه الاجتماعية والاقتصادية وتشكيله المرفلوجي ومعالمه الحضارية، وعلاقته مع الأرباض والحياة البدوية، ويعرف القصر الصحراوي على عكس القصور الملكية بالقرية المحصنة التي تضم مجموعات سكنية متراصة ومتراصة تقطنها مجموعات بشرية من أجناس وطبقات اجتماعية مختلفة.

إن وجود القصر الصحراوي، ليس بظاهرة مستحدثة، بل هو امتداد طبيعي في بيئة قاحلة تتسم بقيود مناخية صعبة تستلزم ابتكارات اجتماعية للتكيف، حث تناول العديد من الباحثين مسألة العمارة الصحراوية، بدءاً من الرحلات الاستكشافية للبعثات الفرنسية، وعلى رأسها هنري دوفيري (Henry Duveyrier)⁽¹⁾، مروراً بأعمال ندير معروف (Nadir Marouf)⁽²⁾ وسعيد بالقيدوم (Said Belguidoum)⁽³⁾، والتي أظهرت كيفية استدامة تأهيل المساحات الواحية من قبل الجماعات المتعاقبة ضمن ظروف وفترات متباينة.

تتشكل القصور الصحراوية بعدة عناصر تميزها عن باقي القصور في الأقاليم الأخرى، وهذا لعدة عوامل طبيعية متمثلة في الحرارة والرياح، وبشرية مرتبطة بحاجة السكان لهذا النمط المعماري الذي يأوي إليه أهل البدو من قساوة الصحراء القاحلة.

(1) Henry Duveyrier, voyage dans le pays des Beni Mezab, Paris, 1861.

(2) Nadir Marouf :Lecture de l'espace oasisienne, la Bibliothèque arabe de Sind Bad, 1980.

(3) Said Belguidoum : Urbanisation et urbanité au Sahara, in Méditerranée n 3.4, année 2002.

أ- مفهوم القصر:

تباينت آراء الباحثين في تحديد المدلول اللغوي والاصطلاحي للقصر، وذلك راجع إلى ذلك الاختلاف الوارد في المصادر التاريخية والجغرافية لهذا الإرث الحضاري، فاختلف مدلول القصر على حسب مكانه والدور الذي يؤديه، لذلك حاولنا رصد بعض التعاريف التي تتماشى والقصور الصحراوية التي تختلف اختلافا جليا على القصور الأميرية المخصصة لسلطة الحاكم في المدن.

- القصر لغة:

القصر في اللغات القديمة يعني البيت الكبير الخاص بعلية القوم⁽¹⁾، أما عند ابن منظور فيعني المنزل أو البيت المبني من الحجر⁽²⁾، وسمي القصر قصرا لأنه تحبس به المحارم مصداقا لقوله تعالى: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ﴾⁽³⁾، ويعرف كذلك بتلك البناية العالية والمنفردة والتي تمتاز بالطول والضخامة.⁽⁴⁾

- القصر اصطلاحا:

أما من الناحية الاصطلاحية فكان الاختلاف جليا بين الباحثين في تعريفهم للقصر فيفهم القصر في عرف المدن والمناطق الحضرية على أنه البيت الواسع والفخم الذي يتخذه الملوك والسلطين والأثرياء مقرا للإقامة، إلا أن هذا المعنى الحضري للقصر يختلف تمام الاختلاف عن القصور الصحراوية التي تنتشر في واحات المغرب الأوسط، بحيث لا تدل الكلمة على البناء الملكي بالضرورة، بل تشير إلى وحدة عمرانية محصنة، تضم جماعة

(1) علي ثويني: معجم عمارة الشعوب الإسلامية، بيت الحكمة، بغداد، 2005م، ص 566.

(2) ابن منظور: المصدر السابق، ج 05، ص 100.

(3) سورة الرحمن: الآية 72.

(4) أرغد جمال مناف العزاوي: العمارة الأندلسية "من القرن الثاني الهجري إلى الخامس الهجري"، رسالة دكتوراه لنيل شهادة دكتوراه في التاريخ الإسلامي. جامعة بغداد. العراق، 2013م، ص 148.

بشرية متماسكة، قد تكون من أصل عرقي واحد أو من طبقات اجتماعية متنوعة يجمعها الاستقرار المشترك والمصلحة الجماعية، سواء كانت اقتصادية أو أمنية أو اجتماعية.⁽¹⁾ أستعمل مصطلح القصر في صياغ العمارة الصحراوية في واحات المغرب الأوسط كدلالة على وظائف عمرانية أمنية متمثلة في الحصون والأربطة القائمة لأغراض دفاعية أو يدل على المخازن الجماعية تحفظ فيه المؤن والمحاصيل الزراعية، أو النواة السكنية المحصنة التي تتسع لبضع عشرات من الأسر التي تنتمي في الغالب إلى جماعات قبلية⁽²⁾، والقصر هو ذلك الفضاء المشترك والمغلق، أو القرية المحصنة التي تضم مجموعات سكنية تشغل مساحات صغيرة وأخرى كبيرة، والتي تقع في غالب الأحيان في أماكن مرتفعة مع قربها من الأودية والواحات.⁽³⁾ (ينظر الملحق رقم: 09-10-11-12).

ومن خلال ما قدم من مفاهيم وتعريفات يمكننا أن نعطي مفهوما خاصا للقصر في الواحات الصحراوية للمغرب الأوسط، إذ هو ذلك المجل الجغرافي والبيوت المتراسة والمترابطة التي تتوزع في إطار عمراني منظم تتحكم فيها الأعراف المحلية والنوازل الفقهية للشريعة الإسلامية، أو هو المجال الذي يضم جماعة بشرية تنتمي في الغالب إلى أصل واحد أو تربط بينها روابط النسب والقرب، ويتوفر في هذا الفضاء المحصن على الحد الأدنى من شروط الاستقرار والاستمرار، التي تضمن له عدم الاندثار أو الخراب، تشمل هذه الشروط العناصر الطبيعية كوفرة الماء وطيب الهواء، والقرب من المناطق والواحات

⁽¹⁾ علي حملاوي: نماذج من قصور منطقة الأغواط دراسة تاريخية أثرية، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 2006م، ص 18. ينظر أيضا: صلاح الدين هدوش: "ركائز عمران القصر في المغرب الأوسط: بحث في مصادر المياه من القرن 05 إلى القرن 09هـ (11-15م)"، مجلة قيس للدراسات الإنسانية والاجتماعية، مج 06، ع 02، أكتوبر 2022م، ص 1159. وأيضا: هجيرة تمليكشت: "مميزات العمارة السكنية بالقصور الصحراوية بالجزائر (مساكن قصر

تمنيط نموذجاً)"، مجلة الاتحاد العام للأثاريين العرب، ع 15، د ن، ص 309.

⁽²⁾ محمد حسن: الجغرافيا التاريخية، المرجع السابق، ص 28.

⁽³⁾ علي حملاوي: المرجع السابق، ص 19.

الزراعية، وبشرية متمثلة في توفر الأمن والقرب من الطرق والمسالك التجارية، ومن خلال هذا التعريف يصبح القصر في الواحات الصحراوية للمغرب الأوسط ليس مجرد تجمع سكاني فحسب، بل نظام عمراني واجتماعي متكامل يعكس آليات التكيف والعيش في بيئة صحراوية قاحلة طاردة للاستقرار.

ظهرت القصور بعد الإسلام في المشرق الإسلامي فكان أول قصر في الإسلام قصر الكوفة، والذي أسس سنة 17هـ⁽¹⁾ لصاحبه سعد بن أبي وقاص⁽²⁾، كما يرى بعض الباحثين أن بني أمية هم أول من قاموا ببناء القصور بمعناها المعماري المتكامل.⁽³⁾

تمتاز المدن والقصور الصحراوية في المغرب الأوسط رغم اختلاف مواقعها ووظائفها وثقافة أهلها بالثبات والتشابه في نمطها المعماري، ويرجع هذا إلى فطرة المجتمعات، ومدى احتياجهم للعناصر الأساسية للمدينة منها الطبيعية كالماء والغذاء، ومنا الاقتصادية ببحثهم عن الطرق والمسالك التجارية، ومنها المعمارية كالمساجد والمسجد الجامع والمرافق العامة كالسوق والحمامات، والشوارع والمناطق السكنية، مراعية الشروط المتعارف عليها بحفظ الدين والنفس والمال والعرض.

ينعكس النمط المعماري للقصور الصحراوية على منطلقات الدين الإسلامي لا سيما ما يتعلق بحفظ الدين والنفس والمال والعرض، وتتميز القصور بالمظاهر العمرانية التي تعبر عن الاحترام والتعايش بين السكان، وإعطائهم أهمية كبيرة بالحرمة، تماشياً وما يفرضه ديننا الحنيف، بحيث احتوت هذه القصور على عناصر أساسية متمثلة في المساجد والمسجد الجامع، والسوق والأحياء السكنية، والساحات، والأسوار والأبواب، كما تحتوي بعض

⁽¹⁾ ياقوت الحموي: المرجع السابق، ج4، ص 491.

⁽²⁾ أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (ت 310هـ / 923م): تاريخ الطبري، بيت الأفكار الدولية، الأردن، د س ن، ص 649.

⁽³⁾ علي ثويني: المرجع السابق، ص 566.

القصور على قسبة محصنة تكون مقرا للحاكم وهذا إضافة إلى التوابع الأخرى والتي أعطت صورة إبداعية للقصر كالمساحات والأرضية المتكونة من البساتين والواحات. (1) وما يميز هذه القصور الصحراوية هو وقوعها على هضبة صخرية صلبة أو فوق قمم الجبال لتسهيل عملية الدفاع أيام النكبات والمحن، كما ترتبط ارتباطا وثيقا بالماء والأراضي الزراعية قصد ممارسة الفلاحة (2)، لذلك نجد الكثير من الجغرافيين يذكرون واحات النخيل ببلاد الزاب المحيطة بقصورها والتي تعتبر الأساس الاقتصادي لسكانها، وعلى الرغم من الثروة الواحية المتمثلة في جني التمر، إلا أن للواحة أدوارا أخرى فيستعملها سكان القصر كفسحة لراحة البال ورطوبة الجو هروبا من ضوضاء المدينة وحرارتها المرتفعة.

أشارت العديد من المصادر الجغرافية والتاريخية إلى وجود المدن والقصور في كل المجال الواحي لبلاد الزاب، وما كانت تحتويه من مرافق دينية كالمساجد، وخدماتية كالأسواق والحمامات، ودفاعية كالأسوار والحصون، إلا أن هذه المصادر وعلى الرغم من إشارات المتكررة أغفلت تقديم وصف دقيق أو مستفيض لطبيعة هذه القصور من حيث الطراز المعماري، ومواد البناء، والتنظيم الداخلي لهذا المجال الحضري، إذا ما استثنينا ابن النميري في رحلة السعدية مع السلطان المريني أبي عنان، مما جعلنا نواجه صعوبة في إعادة تركيب الصورة العمرانية لهذه المعالم، ولعلنا نرجع هذا الصمت على الأرجح إلى تركيز الجغرافيين على الوظائف العامة للقصور دون الخوض في تفاصيلها الهندسية أو

(1) عبد الله رسيوي والبشير غانية: "العمران في واحات المغرب الأوسط (قصر متلبلي الشعانبة نموذجا)"، مجلة المعارف

للبحوث والدراسات التاريخية، مج 07، ع 04، ديسمبر 2024، ص 127.

(2) علي حملاوي: القصر بالجنوب الجزائري "مفهومه ومكوناته"، مطبعة سومر، الجزائر، 2001م، ص 35.

المعمارية، علما أن مدن وقصور الزاب لم تكن عواصم لدول بل كانت مجرد عواصم لإمارة منفصلة على السلطة المركزية.

وفي هذا السياق سنركز في هذا العنوان على القصور الراحية التي ورد ذكرها عند النميري في كتابه فيض العباب، لما تمثله من نموذج مميز في العمارة الواحية والعمران القبلي الهلالي في بلاد الزاب، ويعد هذا المصدر من بين النصوص القليلة التي قدمت إشارات مباشرة إلى طبيعة العمارة العربية الراحية لهذه القصور، سواء من حيث موقعها الجغرافي أو من حيث معالمها العمرانية والأثرية، وكذا أدوارها الوظيفية داخل محيطها القبلي، وسنسعى من خلال ذلك إلى استثمار ما ورد في المصادر الجغرافية والتاريخية الأخرى، بغرض تسليط الضوء على الوظائف الدينية التي كانت تؤديها هذه القصور، كاحتضانها للمساجد، والخدمات مثل وجود الأسواق، والحمامات، والفنادق، فضلا عن المرافق الدفاعية كالسور والحصون والأبواب، مما يتيح لنا تصورا أقرب إلى البنية الداخلية والتنظيم المعماري لهذه القصور، ودورها الحيوي في المجال الريفي لبلاد الزاب خلال فترة الدراسة.

ب - قصر عثمان بن علي بن أحمد بن رباح:

أولى بنو رباح اهتماما بالغا بالجانب الجمالي في التخطيط المعماري لقصورهم، وهو ما يعكس إدراكهم لأهمية العمارة كأداة للتعبير عن الترف والتحضر الاجتماعي داخل القبائل الهلالية والتي وصفت في فترة من الفترات بالمخرجة، فضلا عن الاستجابة لحاجات الحياة اليومية لسكانه، وقد نقل ابن الحاج النميري في فيض العباب أوصافا دقيقة لعدد من هذه القصور التي كانت قائمة خلال فترة حكمهم، مبرزاً عظمة الطراز المعماري الذي كان سائدا في بلاد الزاب في تلك الفترة، ومن بين أبرز النماذج التي استوقفته، قصر عثمان بن علي

بن أحمد بن رياح، والذي وصفه النميري بأنه "بديع التصميم، منفسح الساحة، منخرقة المساحة"⁽¹⁾، وهي عبارات تدل على اتساع القصر وضخامة بنائه، واحتوائه على ساحات مفتوحة، ما يعكس تناغم القصر بين الوظيفة الدفاعية والراحة المعيشية، إضافة إلى الحس الجمالي في التوزيع الداخلي والخارجي للمجال المعماري للقصر.

إلى الارتفاع اللافت لحيطانها وصلابة بنائها وجودة المواد المستخدمة في تشييد هذه الجدران، كونها مبنية بالحجر المنجور من جهاتها الأربع، ويعد هذا الحجر من أنواع الحجارة الفاخرة التي تستخدم عادة في البنايات الرفيعة المستوى والمحصنة، والذي يعرف محليا باسم الحجر العيسوي، ولعل مثل هذا الحجر موجود بوادي متليلي وهو نفس الحجر الذي بني به سور طنبه وقصرها⁽²⁾، ولعل الاعتماد على هذا النوع من الحجارة في اختطاط القصور الرياحية ببلاد الزاب هو محاولة تحقيق التوافق بين الوظيفة الدفاعية والتحصينية من جهة، والطابع الجمالي للقصر من جهة أخرى، ولعل النميري ينفي اختطاط عثمان الرياحي للقصر بكون أن القصر موجود منذ القديم أي أن عثمان الرياحي قام بترميمه فقط ليبقى متماسكا على مر الدهر.⁽³⁾

ولقد أشار ابن الحاج النميري إلى أن القصر كان يحتوي على خمس أبراج دفاعية، أربعة منها مشيدة في أركان القصر الأربعة، في حين ارتفع البرج الخامس فوق مدخل القصر، ووصفه بأنه: "أبيض منير كعمود الصبح"⁽⁴⁾، في تعبير يبرز من خلاله جمال البناء وروعة التصميم، ومن المرجح أن هذا النظام المعماري في توزيع الأبراج كان سائدا في قصور أخرى بالمنطقة كقصر طنبه وزراي وزانة، والتي تظهر تشابها واضحا مع الطراز

(1) ابن الحاج النميري: المصدر السابق، ص 415.

(2) الصادق زباني: "جغرافيا العمران ببلاد الزاب من خلال رحلة فيض العباب للنميري (قصر عثمان الرياحي نموذجا)"، مجلة ميلاف للبحوث والدراسات، مج 04، ع 01، 2018م، ص 568.

(3) ابن الحاج النميري: المصدر السابق، ص 413.

(4) المصدر نفسه، ص ص 413 - 114.

البيزنطي القديم في اعتماد الأبراج الركنية والمداخل المحصنة، مع إضافة لمسات معمارية إسلامية ميزت هذه القصور في الفترات اللاحقة. (1)

على الرغم من النظرة المنحازة لابن النميري لسلطانته المريني إلا أنه لم يخف إعجابه الشديد بالتخطيط العمراني لقصر عثمان بن أحمد الرياحي، حيث خصه بوصف معماري مفصل يكشف عن رقي العمارة المدنية في تلك الحقبة، فقد أشاد النميري بتماسك البناء ودقة التنسيق، متوقفا وبشكل خاص عند دار عثمان بن أحمد التي وصفها بأنها بديعة التصميم، فسيحة المساحة، مثيرة للإعجاب من حيث الاتساع والإتقان، ومن بين أبرز العناصر التي لفتت نظره الأعمدة الرخامية التي كانت تزين القصر، والتي يشير إلى أنها من ابتكارات الرومان قبل الإسلام، مشيرا إلى تأثير الحضارات السابقة على العمارة الإسلامية ومبرزا التكامل بين التراث المعماري القديم والابتكارات الجديدة في البناء. (2)

أقيم هذا القصر على أراضي قبيلة لواته البربرية بعد الاستيلاء عليها، حيث تم اختيار موقع القصر بعناية ليشرّف على المسالك والسهول المحاذية لها مما يدل على أهميته الاستراتيجية، أما القصر فكان له طابع يشبه القلعة الصغيرة، كزراي وزانة⁽³⁾، مما يعكس الجانب الدفاعي في تصميمه، ربما لحماية المنطقة من الهجمات أو السيطرة الخارجية عليها، وبالتالي القصر لا يعد مجرد مبنى سكني فحسب بل كان يستخدم كمركز للسيطرة والمراقبة، مما يعزز الهيمنة والنفوذ على المنطقة المحيطة به، وبهذا المفهوم يمكننا تصور

(1) محمد حسن: الجغرافيا التاريخية لإفريقيا من القرن الأول إلى القرن التاسع هـ فصول في تاريخ المواقع والمسالك والمجالات، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط01، 2004م، ص 36.

(2) ابن الحاج النميري: المصدر السابق، ص 414.

(3) للاطلاع على الشكل الهندسي لقلعتي زراي وزانة ينظر: يوسف عبيش: الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية لبلاد المغرب القديم أثناء الاحتلال البيزنطي، أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه دولة في تاريخ وآثار المغرب القديم، قسم التاريخ والآثار، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، جامعة منتوري، قسنطينة، الجزائر، 2007م، ص 352 - 362.

أن قصر عثمان لم يكن مجرد بناء عادي، بل كان له أهمية استراتيجية ودفاعية كبيرة⁽¹⁾، باعتبار أن قبيلة بني رياح من القبائل المناهضة للسلطة المركزية المرينية بفاس، وامتناعهم عن دفع الجبايات وارتباطهم بالسلطة الحفصية جعل من القبيلة في صراع مرير مع السلطان المريني الذي عجل في دمار قصورها ونهاية حكمها على بلاد الزاب، وبالتالي أصبحت قبيلة بني رياح تحت رحمة بني مزني⁽²⁾.

إن المتمعن في السرد الوصفي الذي قدمه لنا النميري يدرك أن القصر يعتبر أحد أبرز أشكال الهيمنة المجالية ومن ضمنها تلك التي أسسها الهالليون في بلاد الزاب، حيث يعتبر قصر عثمان القطب هو القصر المهيمن ضمن شبكة القصور المتواجدة بالمنطقة، وقد شكل هذا القصر مركزا لتجارة الذواودة ومحطة عبور نشطة في مساراتهم، وتكمن دلالة أهمية هذا القصر في وجود السور الذي كان عنصرا دفاعيا ساهم في حماية حرمة الدور داخله والمجال الجغرافي المحيط به من الهجمات والاعتداءات الخارجية، وبذلك يمكن القول أن بناء القصر خضع لمنطق مزدوج يجمع بين التواصل والقطيعة مع الأحواز المجاورة⁽³⁾.

(1) محمد حسن: الجغرافيا التاريخية، المرجع السابق، ص 43. ينظر كذلك: عمار علاوة: "التحولات المحالية

والطوبىونية لبلاد الزاب"، المرجع السابق، ص 18. ينظر أيضا: صلاح الدين هدوش: المرجع السابق، ص 108.

(2) لعل قوة بنو رياح أفلت بعد ظهور إمارة بني مزني برئاسة الشيخ أبو يعقوب يوسف بن منصور ابن الفضل ابن مزني وسيطرتها على بلاد الزاب، وتمكنت الأرض والماء بالوادة أيام السلطان أبي الحسن والد أبو عنان والتي أولت له الطاعة والبيعة، وأثناء حكم أبي عنان للدولة المرينية زادت روابط الصلة بين بني مزني والسلطان المريني وضعف بنو رياح وتفرقهم في مختلف الأمصار وهذا ما عجل من زوال حكمهم. للتوسع أكثر ينظر: ابن الحاج النميري: المصدر السابق، ص 431 - 432. ينظر كذلك: محمد حسن: البادية والمدينة، المرجع السابق، ج 01، ص 115.

(3) حليلة بوقاعة: "معالم المشهد العمراني في إقليم الزاب في ظل التواجد الهلالي الرياحي، من الخيمة إلى القصر خلال

القرن 08هـ/14م"، الملتقى الدولي حول: "المدينة والتطور العمراني في ضوء فقه العمران والاجتماع البشري"، المنظم من طرف كلية الشريعة والاقتصاد بالتنسيق مع قسم الفقه وأصوله، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، 24 و25 شعبان 1442هـ الموافق 07 و08 أفريل 2021م، ص 19.

ج- قصر باينة:

ونذكر كذلك قصر (باينة) الذي بناه سعيد بن أحمد الرياحي، كمقر لادخار إلا أن النميري لم يفصل كثيرا في شكله الهندسي بل تطرق إلى شق عصى الطاعة للسلطان المريني، وبعد أن علم السلطان المريني بهذا أمر عمدا إلى إلحاقه بقصر ابن عمه حتى صارت خرابا، وما كان حال هذا القصر خير حال ممن سبقوه، كما وقف النميري على أطلال مدينة لميس متأملا في بقاياها التي نال منها الدهر، إلا أن وجود بعض الآثار لا تزال قائمة تقاوم النسيان، بحيث حاول النميري الإبداع في وصف جمالية تلك العمارة لا سيما القبة التي بنيت من الحجارة المنحوتة المزدانة بنحوت وصور وتحف من كل جانب، كما أشار إلى حيطانها المرتفعة التي تعانق السماء وتتخللها أعمدة بديعة لم ير مثلاً في بلاد المغرب أو المشرق على حد سواء، كما وصف الساحة بكونها تتصف بالاتساع والمتصلة ببلاطات قائمة على سواقي عظيمة تدهش الأبصار وتورث الحسرة لخرابها، وكيف انتقل أهلها من القصور إلى القبور ينتظرون يوم النشور.⁽¹⁾

د- قصر القنطرة:

كما يصف النميري قصر القنطرة الذي اختطه يعقوب بن علي بإزاء النهر المرتفعة سواقيه، حيث انتشرت على جوانب واحتها جنبات النخيل والأشجار الدانية قطوفها، تمارها وزرعها يسر الناظر ويعجب الزراع نباته، ومراعي مزدهرة ومخضرة، وهو بذلك جمع بين إبداع البناء ومتانة التحصين⁽²⁾ حيث يقول: "وأفضوا إلى قصر بديع بل حصن منيع قد أعمقت حفائره، وأعليت مظاهره، ونسقت أبراجه، ووعرت أنهاجه"⁽³⁾، والذي أسكن به صهره

(1) ابن الحاج النميري: المصدر السابق، ص 417.

(2) المصدر نفسه: ص 422.

(3) المصدر نفسه: ص 422.

علي بن الحكيم، ويشير هذا الوصف إلى أن القصر يتميز بجمال هندسي مذهل ودفاعات قوية، بعد أن اختص بحفائر خنادقه العميقة وجدران أسواره المرتفعة، والأبراج المصممة بدقة، والمسالك صعبة الوصول، وكذلك اختيار الأماكن العالية حيث شيد على ربوة من الحجارة نظراً للجانب الأمني والذي جعل منه مستودعاً للذخيرة ومركزاً للراحة والسكينة⁽¹⁾، إلا أن مصيره كان التخريب والهدم وهذا ما سنتطرق إليه في سائر البحث بعد أن شق يعقوب بن علي عصى الطاعة على لسلطان المريني، كما ورد ذكر قصر باتنة الذي بناه سعيد بن العاصي الذي خرج هو كذلك عن حكم بني مرين مما جعل قصره يناله ما نالته القصور السابقة.⁽²⁾

هـ - قصبة طولقة:

تتميز مدينة طولقة بقصبتها الشهيرة المعروفة باسم قصبة الأقالم، والتي تعود ملكيتها إلى عبد الرحمن الطولقي، وتعتبر هذه القصبة من أبرز المعالم التاريخية المهمة في المنطقة، وقد أولى ابن الحاج النميري في الرحلة السعدية عناية خاصة بوصف هذه القصبة حيث قدم لها وصفاً دقيقاً، حيث يبرز جمالها المعماري ومتانتها الدفاعية، وقد أشار إلى طابعها الحصين بقوله: "قصبة طولقة التي اشتهرت في البلاد، وقبضت المنعة يدها أباد عن الانقياد، واطمأنت لها مفاصل فصل الجلال، وسنت مناكبها درع الاستعداد... موشحة العطفين لكن بالعدد الوافر الأعداد"⁽³⁾، هذا الوصف يبرز قوة القصبة واستعدادها الدفاعي، مما جعلها معلماً مهماً حصيناً في تلك الحقبة.

⁽¹⁾ ابن الحاج النميري: المصدر السابق: ص ص 422 - 423.

⁽²⁾ المصدر نفسه: المصدر السابق ص 420.

⁽³⁾ المصدر نفسه، ص 435.

إن إعجاب النميري بتفاصيل القصور الرياحية ببلاد الزاب سواء من حيث قوتها الدفاعية أو سيماتها الجمالية، ما هو إلا دليل يعكس اهتمام العرب الهلالية بالجانب العمراني عكس ما تروج له بعض الكتابات الواصفة له بالتخريب والنهب والسطو فقط، ومن وجهة نظرنا أن القدوم العربي الهلالي إلى بلاد المغرب لم يكن محل ترحيب من طرف السكان المحليين وخاصة القبائل البربرية المستقرة بالمناطق الريفية، وهو ما أدى إلى صدام طبيعي بين الوافد الجديد والسكان المحليين، ونتيجة هذا التوتر كان من الطبيعي حدوث أعمال تخريب ودمار طالت بعض المدن والأرياف، كما نرى أن التخريب كظاهرة لم تكن مرتبطة فقط بالقدوم الهلالي، بل كان نتيجة للصراعات المتعددة التي شهدتها المغرب الإسلامي، سواء كانت سياسية أو مذهبية أو حتى قبلية بغض النظر عن اسم واتجاه القبيلة.

4- المرافق الخدماتية والدينية ببلاد الزاب:

اختصت بلاد الزاب كغيرها من مدن وحواضر واحات المغرب الأوسط بتنوع مرافقه الخدماتية التي ساهمت في تشكيل نسيجه العمراني والاجتماعي، فقد شملت هذه المرافق الأسواق التي مثلت شريان الحياة الاقتصادية، والحمامات التي عكست مستوى الرفاه ونظافة المجتمع في مدن الزاب، والفنادق التي وفرت الإقامة للمسافرين والتجار، أما الجانب الروحي فقد تجلّى في المرافق الدينية وعلى رأسها المساجد والمساجد الجامعة، التي كان لها أثر بالغ في توجيه الحياة الدينية والثقافية للمجتمع، إلى جانب الأضرحة التي شيدت على قبور الصحابة والصالحين، والتي نالت تقديسا من المجتمع المحلي، وهو ما يعكس عمق الارتباط الروحي بين السكان والمجال، كما لا يمكننا أن نتحدث عن المكون الديني دون التطرق إلى الزوايا، والتي يبرز دورها بعد انتشار التصوف في الفضاء الواسع لإقليم الزاب، حيث أصبحت مراكزا للعلم والعبادة والتربية الروحية، كما لا نغفل عن ذكر المقابر باعتبارها من مظاهر العمارة الجنائزية، والتي تعد مرفقا عموميا ذات طابع دائم، مخصصة لجميع سكان القصر أو المدينة، وانطلاقا مما سبق سنحاول تقديم صورة تحليلية لهذه المرافق بالاعتماد

على ما توفر في المصادر من إشارات ولو كانت عابرة، بدءاً بأحد أبرز المرافق وأكثرها ارتباطاً بالحياة اليومية وهو السوق لكونه مركزاً حيوياً للتبادل التجاري.

4-1 الأسواق:

تعد التجارة شريان الاقتصاد ومحركه الحيوي، إذ تمثل أحد الركائز الأساسية التي تقوم عليها قوة المدن واستقرارها المالي، فهي لا تقتصر على كونها وسيلة لتبادل السلع فحسب، بل تتعدى ذلك لتكون من أبرز مصادر الدخل لما تدره من ثروات وأرباح تسهم في تنمية الخزينة⁽¹⁾، فهي تعد وسيلة فعالة لتنمية رأس المال حيث يقوم التجار بشراء البضائع بأسعار معينة ثم يعاد بيعها بهامش ربح يضمن زيادة في العائد المالي، وتعزز هذه العملية من حركة الأموال داخل السوق⁽²⁾، وقد عرفها الجرجاني بأنها: "شراء شيء لبيعه بالربح"⁽³⁾.

تعد الأسواق فضاء تتم فيه عمليات البيع والشراء، وتجلب إليه السلع والتجارات من مختلف البقاع، وهي تشكل مركزاً حيوياً لتجمع التجار والصناع وأرباب الحرف، وقد ارتبط بها نشأة وتطور المدن الإسلامية واستقرار عمرانها⁽⁴⁾، حيث أشار لويس ماسنيون إلى أن

(1) خالد بلعربي: "الأسواق في المغرب الأوسط خلال العهد الزياني"، دورية كان التاريخية، ع 06، ديسمبر 2009م، ص 32.

(2) عبد الرحمان ابن خلدون: المقدمة، المصدر السابق، ص 395.

(3) علي بن محمد الشريف الجرجاني (ت 816هـ / 1413م): التعريفات، تح، محمد صديق المنشاوي، دار الفضيلة للنشر، القاهرة، ط 01، 2004م، ص 73.

(4) أحمد يوسف الدرويش: أحكام السوق في الإسلام وأثرها في الاقتصاد الإسلامي، عالم الكتب، الرياض، ط 01، 1989م، ص 21. ينظر أيضاً: محمد عطا الله الخلفيات: "أسواق الأندلس في عصر الدولة الأموية"، مجلة المشكلات للعلوم الإنسانية والاجتماعية، مج 01، ع 01، ربيع الأول 1435هـ / كانون الثاني 2014م، ص ص 144-145.

محمد عبد الله مسعد: أسواق المغرب الأقصى في عصر الدولة الموحدة (541-609هـ / 1145-1212م)، مجلة كلية الأدب، جامعة بنها، ع 29، يوليو 2012م، ص 338.

الأسواق كانت من أهم مكونات المدن العربية الإسلامية⁽¹⁾، وتعتبر الأسواق عنصرا مركزيا في نشأة المدن العربية وتطورها، باعتبارها قلب النشاط الاقتصادي والاجتماعي وملقى القوافل التجارية والمتسوقين، بحيث لم تكن فقط مجرد أماكن تجارية، بل كانت أيضا مراكز ثقافية واجتماعية⁽²⁾، ويعد أيضا مكان لأعمال الكسب⁽³⁾، حيث يتم تبادل الأفكار والمعرفة وتداول الأخبار، ولعل الباحثة بامون آمنة جانبت الصواب بتحديد موقع السوق في القصور الصحراوية بكونه يقع أسفل القصر أو يكون في طرفه، ومن الواضح أنها اعتمدت في بحثها على سوق قصر غرداية الذي تغير مكانه من وسط القصر إلى أسفله لأسباب خاصة بسكانه⁽⁴⁾، علما أن موقع السوق في القصور والمدن الإسلامية يكون غالبا بالقرب من المسجد أي في مركز المدينة، بحيث تلتقي كل الأزقة والشوارع بهذا المجال الاقتصادي والحيوي، والذي يعتبر عصب الحياة بالنسبة لسكانه، أما ساحات السوق فتلعب دورا هاما يتمثل في تهوية الطرق، وكذلك مركزا تجاريا هاما، أما من الناحية الاجتماعية فهي تستغل للتجمعات اليومية لسكان القصر الذين يترأسهم شيخ القبيلة أو المدينة لأجل البحث في القضايا الاجتماعية العالقة⁽⁵⁾.

على رغم ما شهدته مدن وأرياف بلاد الزاب خلال القرنين الخامس والسادس هجري (11-12م) من اضطرابات سياسية وفوضى أمنية، ورغم التحولات العميقة التي عرفت

(1) ماسنيون لويس: "الهنات الحرفية والمدينة الإسلامية"، تر: أكرم فاضل، مجلة المورد، مج02، ع03، دار الحرية للطباعة، بغداد، 1963م، ص 12.

(2) عبد الكريم يوسف جودت: الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية بالمغرب الأوسط خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين (09-10م)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، د س ن، ص 136.

(3) عبد الرحمان ابن خلدون: المقدمة، الطبعة البهية المصرية، د ت ن، ص 256.

(4) آمنة بامون: "مجمع القصور شاهد حي لهوية الأمة"، مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة قالة، الجزائر، ص

(5) نعيمة محمود: "حماية القصور الصحراوية في إطار التنمية المستدامة بالجزائر"، جامعة قسنطينة، 2014م، ص 06.

بلاد المغرب الأوسط عموماً وبلاد الزاب على وجه الخصوص خلال هذه الفترة، والتي كان لها أثر مباشر على عدم استقرار الطرق التجارية، إلا أن هذه الطرق ظلت تؤدي دوراً محورياً في تنشيط الحركة التجارية، فقد شكلت شريانا حيويًا لتبادل السلع والمنتجات، خاصة في المناطق الريفية التي اعتمدت أساساً على النقل البري في تصريف منتوجاتها، وتمت هذه العمليات التجارية عبر شبكة من الطرق الداخلية التي ربطت بين القرى بعضها البعض، كما ربطت بينها وبين مدن المغرب الأوسط.⁽¹⁾

كما ساهمت المدن والقرى الغنية بالمنتجات الفلاحية والحرفية في تنشيط هذه الطرق التجارية، إذ أسهمت في ربط الأرياف بالحوضر والقرى المجاورة، مما زاد من الحركة الاقتصادية والتجارية بالمنطقة، وقد كانت مدن الزاب تزخر بتنوع كبير في السلع، خاصة تلك القادمة من أريافها، والتي تميزت بغناها بالمنتجات ذات الأصل الحيواني، والمتمثلة في المواشي والأغنام، إلى جانب أصناف متعددة من التمور التي شكلت أحد أبرز المحاصيل الزراعية في المنطقة، إضافة إلى الزروع الأخرى كالقطن والحنطة والشعير.

لا شك أن الأسواق الموجودة في مدن الزاب لا تختلف كثيراً عن أسواق مدن المغرب الإسلامي، خاصة فيما يتعلق بطرق البيع أو العوامل المتحركة في الأسعار التي ترتفع وتتخفض حسب العرض والطلب، بسبب تأثير احتكار السلع وتخزينها في زيادة السعر، وأيضاً عرض السلع التي لا تكون في موسمها⁽²⁾، كما يؤثر حجم المدينة في الأسعار

(1) مباركة بوعزة: البادية والأرياف في المغرب الأوسط خلال القرنين 5 و6هـ / 11 و12م، مذكرة مقدمة لنيل شهادة ماستر، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، قسم التاريخ، جامعة الجيلالي الياقوت، سيدي بلعباس، 1439-1440هـ/2018-2019م، ص 68.

(2) عبد الكريم يوسف جودت: الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في المغرب الأوسط خلال القرنين 3-4هـ، الجزائر، د س ن، ص 157.

فكلما كبرت المدينة كبر سوقها وكلما كبر السوق كثرت السلع مما يؤدي إلى انخفاض أسعار السلع الضرورية، أما فيما يتعلق بالكماليات فغالبا ما تكون الأسعار غالية.⁽¹⁾

امتازت مدينة طبنة بكثرة البساتين والزرع والقطن والحنطة والشعير⁽²⁾، كما ضمت صنائع وتجارات، وأموالا يتصرف بها أهلها في شتى أنواع التجارة⁽³⁾، بحيث كانت المدينة عامرة في سالف الزمان، بأسواق ناشطة، ومزارع وافرة، وغللات كثيرة⁽⁴⁾، مما يجعلها بحاجة ماسة إلى سوق لتصريف هذه السلع، وأما مدينة بسكرة فكانت مركزا تجاريا مهما حيث اختصت المدينة بأسواقها العامرة التي تستقطب التجار والزوار⁽⁵⁾؛ كما عرفت المدينة باتساع عمرانها بحيث تحتوي على سوق نشط وعمارة متميزة، ويشير ابن خلدون في هذا الصدد إلى أن الأمصار الكبيرة يكثر فيها الترف، ويعظم الغلاء في السلع لوفرة الكماليات التي أصبحت في نظر المجتمع المتحضر ضرورية، حيث يحتاج ساكن المدن الكبيرة كبسكرة إلى المال الكثير لينفق على أهلها⁽⁶⁾، إضافة إلى أن المدينة عرفت إنتاج أصناف التمر والتي عرفت بجودتها حتى أنها صدرت إلى خارج المدينة مما يجعلها أحد دعائم الاقتصاد المحلي لبلاد الزاب⁽⁷⁾، كما تحتوي المدينة أيضا على أسواق وحمامات لتلبية حاجيات السكان كما تعكس مستوى الجانب الاجتماعي للسكان⁽⁸⁾، وأما الحسن الوزان فقد وجد المدينة عامرة كما ينبغي⁽⁹⁾، بينما مدينة مقرة فقد عرفت بزراعة الكتان الذي لم يقتصر

(1) عبد الرحمان ابن خلدون: المقدمة، المصدر السابق، الطبعة البهية المصرية، ص 256.

(2) الإدريسي: نزهة المشتاق، المصدر السابق، ج 01، ص 263. أبو الفداء: المصدر السابق، ص 139.

(3) الإدريسي: المصدر نفسه، ج 01، ص 263.

(4) الإدريسي: وصف إفريقيا الشمالية والصحراء، المصدر السابق، ص 66.

(5) الياقوت الحموي: المصدر السابق، ج 01، ص 422.

(6) عبد الرحمان ابن خلدون: المقدمة، المصدر السابق، الطبعة البهية المصرية، ص 256.

(7) الإدريسي: نزهة المشتاق، المصدر نفسه، ج 01، ص 264.

(8) الحموي: المصدر نفسه، مج 01، ص 422.

(9) الحسن الوزان: المصدر السابق، ج 02، ص 138.

استخدامه للاستهلاك المحلي فقط بل كان يصدر إلى المدن المجاورة مما يساهم في تنشيط الحركة التجارية لبلاد الزاب⁽¹⁾، ومدينة نقاوس وعلى الرغم من صغرهما إلا أنها تحتوي على أسواق دورية قائمة تجمع التجار وبيعهم بسكان المدينة، ومعايش كثيرة، كما عرفت بساكنيها بإنتاج الجوز الذي يتم بيعه في الأقطار المجاورة لهذه المدينة.⁽²⁾

4-2 الفنادق:

الفندق هو مؤسسة خدمتية اقتصادية معدة لخدمة التجار الوافدين والغرباء⁽³⁾، حيث ترجع تسميته إلى مصطلح بندوكيون المشتقة من الكلمة اللاتينية (bandokeion) التي تدل على الخان أو مكان إقامة المسافرين⁽⁴⁾ ومكان مبيتهم، مع دوابهم وتجاريتهم⁽⁵⁾، أما ابن منظور فعرف في معجمه الفندق باعتباره خان ينزله الناس حيث يكون هذا المرفق في الطرق والمدائن.⁽⁶⁾

ومن خلال هذه التعريفات يتضح جليا أن الفندق عبارة عن مؤسسة خدمتية تستغل لإقامة المسافرين خاصة التجار منهم إضافة إلى دوابهم وتجاريتهم، حيث تتكون جل فنادق العالم الإسلامي من دورين، خصص الطابق الأرضي لحفظ البضائع وإسطبل للدواب، أما الطابق الأول فيحتوي على غرف للمبيت، كما للفندق مدخل واحد بوابته ضخمة تسمح

(1) الإدريسي: نزهة المشتاق، المصدر السابق، ج1، ص 263.

(2) المصدر نفسه، ج1، ص 264.

(3) سامية مصطفى مسعد: الحياة الاقتصادية والاجتماعية في إقليم غرناطة في عصر المرابطين والموحدين، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط1، 2003م، ص 153.

(4) أوليفيا ريمي كونستابل: إسكان الغريب في العالم المتوسطي، تع وتق: محمد الطاهر المنصوري، دار المدار الإسلامي، بيروت، ط1، 2013م، ص 41.

(5) علي عبد الله حرث: "الفنادق ودورها في النشاط التجاري لبلاد المغرب خلال العصر الإسلامي"، مجلة لارك للفلسفة واللسانيات والعلوم الاجتماعية، مج 02، ع 41، 2021م، ص 599.

(6) ابن منظور: المصدر السابق، مج 10، ص 313.

بدخول الدواب التي تستغل في نقل البضائع⁽¹⁾، كما يحتوي على حمام ومكتبان لمراقبة المعاملات التجارية التي تتم داخل الفندق من بيع وشراء قصد قمع الغش في الكيل والميزان.⁽²⁾

ونتيجة للرخاء الاقتصادي الذي شهدته بلاد الزاب باعتبار أن المنطقة كانت محورا للمبادلات التجارية ومركز ربط الطرق والقوافل التجارية فرض إقامة مؤسسة تجارية خدماتية لتسهيل تنقل التجار والغرباء، ومن هذا المنطلق نستغرب صمت جل المصادر الوسيطة خاصة منها الجغرافية والرحلة عن ذكر هذا المرفق الحيوي، إلا أن مدن هذا الإقليم لا يمكنها أن تهمل هكذا مؤسسة تدر من خلالها النقود، وباعتمادنا على منهجية خصوصية الحدث من عموم التاريخ، لا يمكننا أن نفصل الفندق عن السوق فبطبيعة الحال كلما كثرت الأسواق زادت الفنادق، وباعتبار أن بلاد الزاب هو منطقة ربط بين التل والصحراء وبلاد السودان لا يمكنها أن تخلو من هكذا مرفق، ومن دون شك أن المرافق التي اختصت بها فنادق المغرب الإسلامي لا تختلف عن بعضها البعض خاصة في ما يخص النمط المعماري رغم اختلاف المدن والأمصار.

3-4 الحمامات⁽³⁾:

تعتبر الحمامات إحدى المؤسسات الاجتماعية التي اشتهر بها العالم الإسلامي في العصور الوسطى، والتي قصدها الناس من مختلف الطبقات للاستحمام باعتبارها أكثر

⁽¹⁾ حفصة معروف: "مؤسسة الفنادق في الغرب الإسلامي خلال العصر والوسط - قراءة في الدور والفعالية على ضوء معطيات مصيرية"، دراسات تراثية، ع 16، 2022م، ص 578.

⁽²⁾ أحلام بوسالم: "الفنادق بالمغرب الأوسط ودورها في تعزيز الصلات الاقتصادية مع دول الحوض الغربي للبحر المتوسط (فنادق المملكة الزيانية أنموذجاً)"، الحوار المتوسطي، مج 14، ع 01، ديسمبر 2023م، ص 45.

⁽³⁾ استلهم المسلمون النموذج الروماني في بناء الحمامات وتحويلها إلى مرافق عامة ذات طابع شعبي، حتى أصبحت مكونا أساسيا من مكونات النسيج العمراني للمدن الإسلامية، على الرغم أن بعض الباحثين يرون أن الحمام، كمؤسسة

الممارسات أهمية في حياة الرجال والنساء على حد سواء⁽¹⁾، حيث ورثت الحضارة الإسلامية الحمامات العامة من الحضارات السابقة، لاهتمام الدين الإسلامي على الخصوص بفريضة الغسل والوضوء بحيث أن الإسلام جعل النظافة ركنا من أركان الإيمان، وقد نص الإسلام على النظافة واعتبرها جوهر العقيدة⁽²⁾، كما أن الحمامات لعبت دورا اجتماعيا بالغ الأهمية علاوة على المتعة التي توفرها للناس، لأجل ذلك التحق بناء الحمامات بالمؤسسات الدينية والاجتماعية بما فيها المساجد، وتعد الحمامات من مرافق الحياة الحضرية، ومن المعروف والمشاهد أن سكان الأرياف حرصوا على إتيان الحمامات عند وجودهم بالمدينة لفرط حبهم لها والاستمتاع بالاغتسال فيها بالماء الحار.⁽³⁾

عرف المغرب الإسلامي انتشارا واسعا للحمامات، موزعة على دروبه وحاراته حتى أصبح تقريبا في كل حي حمام⁽⁴⁾، تماشيا مع ما بلغه المجتمع من رفاه اقتصادي وتحضر عمراني، حتى أصبحت مكونا أساسيا في النسيج الحضري، واحتل هذا المنشأ مكانة مرموقة

عمرانية يعد عنصرا دخیلا على الحضارة الإسلامية، في المقابل يرفض باحثون آخرون هذا الطرح، ويشيرون إلى أن بعض الحواضر العربية العريقة، مثل اليمن، والحيرة، وبلاد الشام، كانت على دراية بوجود الحمامات، إذ يبدو أن الرأي الثاني أقرب إلى الصواب، خاصة وأن تلك الحواضر كانت تتوفر على مقومات طبيعية وبنى مائية ساعدت على نشأة الحمامات قبل الإسلام، ولو بدرجات متفاوتة، مما يدل على معرفة العرب بها، ولو في نطاق محدود. يراجع: محمد ولد هم: **العمران الوقي في الغرب الإسلامي بين القرنين (5-9هـ / 11-15م)** دراسة من خلال النوازل والشواهد الأثرية، أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الوسيط، جامعة الوادي، 2022-2023م، ص 176.

⁽¹⁾ زهية بن عبد الله: **"الحسد والرعاية الصحية به في رحاب حضارات الماء قراءة أنثروبولوجية لعادات الاغتسال في**

التراث المتوسطي"، مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية، ع 18، مارس 2015م، ص 92.

⁽²⁾ فتية خروبي: **"تطور عمارة الحمام عبر العصور"**، عصور، ع 26-27، جويلية - ديسمبر 2015م، ص ص 166-167.

⁽³⁾ الحسن الوزان: وصف إفريقيا، المصدر السابق، ج 01، ص 230. وأيضا: عطاء الله ذهينة: **الحياة الاجتماعية والاقتصادية لدولة بني زيان**، ضمن كتاب تاريخ الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984م، ج 3، ص 465.

⁽⁴⁾ عبد العزيز فيلالتي: **بحوث في تاريخ المغرب الأوسط**، المرجع السابق، ص 137.

ضمن مرافق المدينة، وقد استقطبت هذه الحمامات فئات واسعة من السكان، إلى درجة أن بعضهم عمدوا إلى تشييدها داخل منازلهم.⁽¹⁾

غالباً ما كانت الحمامات تشيد في قلب المدينة بمحاذاة المسجد⁽²⁾، باعتبارها من المرافق الأساسية المرتبطة بالحياة اليومية للمجتمع، وقد تميزت هذه الحمامات بتنوعها، حيث انقسمت إلى ثلاثة أنواع: النوع الأول خصص للرجال، وكان يشرف عليه رجل يعرف بالمتقبل⁽³⁾؛ والنوع الثاني خصص للنساء، وتشرف عليه نساء وعلى رأسهن المعلمة التي كانت مسؤولة عن تنظيم العمل والحفاظ على النظام العام وآداب الاستحمام⁽⁴⁾، أما النوع الثالث، فهو الحمامات المختلطة، التي كانت تقسم زمنياً بين الجنسين، بحيث تخصص في العادة للرجال خلال الفترة الصباحية، وللنساء في مساء اليوم، وفي بعض الحمامات الأخرى تخصص أيام معدودة للرجال وأخرى للنساء على حسب النظام المتعارف عليه⁽⁵⁾، إلا أن البعض استنكر استخدام هذا المرفق لما يترتب عليه من كشف العورة، وعدم دخوله إلا

(1) محمود ولد همز: المرجع السابق، ص 177.

(2) مصطفى شاكر: المدن في الإسلام حتى العصر العثماني، مكتبة لسان العرب، ط1، 01، 1408هـ/1988م، ج2، ص 663.

(3) ابن سهل أبو الإصبع عيسى ابن سهل (ت 486هـ/1092م): ديوان الأحكام الكبرى، تح: يحي مراد، دار الحديث، القاهرة، 2007م، ص 477. محمود ولد همز: المرجع السابق، ص 177. وكان المتقبل يسمى أيضاً الحمامي الذي تعتبر المسؤول الكبير الذي يقوم باستقبال الزبائن، واستخلاص ثمن الاستحمام كما يسهر على راحتهم وتوفير حاجياتهم. ينظر: الهادي الشتوي المقطوف: "الحمامات في الحضارة الإسلامية"، مجلة كلية التربية، ع 21، أبريل 2021م، ص 432.

(4) خالد محمد مصطفى عزب: تخطيط وعمارة المدن الإسلامية، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر، ط1، 1418هـ/1997م، ص 110.

(5) مصطفى شاكر: المرجع السابق، ج2، ص 663.

بمئزر، كما منعوا دخول النساء إلا المريضة أو النفساء⁽¹⁾، غير أن أعراف وعادات أواسط المجتمعات الإسلامية تجاوزت هذه الموانع متحججين بواجب الطهارة في الإسلام.⁽²⁾

على الرغم من المكانة الاجتماعية التي حظي بها الحمام باعتباره رمزا من رموز التحضر في البلاد الإسلامية على غرار بلاد الزاب، فقد مثل هذا المرفق عنصرا أساسيا في الحياة اليومية للمجتمع الإسلامي، بحيث يجمع بين النظافة الجسدية والاستجمام والراحة، وقد أشار ابن خلدون إلى الأثر النفسي الإيجابي الذي يحدثه الحمام في رواده المتمتعين الذين يدخلهم إليه، حيث قال إن الهواء الدافئ الذي يتنفسه المستحمون يسخن أرواحهم، مما يبعث فيهم الفرح والسرور، حتى إن كثيرا منهم انبعث في الغناء تعبيراً عن سعادته⁽³⁾، إلا أن هذا المرفق لا يخلو من الأضرار، خاصة نتيجة التغير المفاجئ في درجة حرارة الهواء، وهو ما قد يفضي إلى وفاة المستحم⁽⁴⁾، استنادا إلى هذا الوعي بالمخاطر الصحية، حرص مخطوطو الحمامات على ابتكار تصميم معماري، يعتمد على تقسيم الحمام إلى ثلاث غرف تختلف من حيث درجة حرارتها، لضمان سلامة المستحم، تبدأ الغرفة بغرفة باردة مرطبة، تليها غرفة دافئة مرخية، وتنتهي بغرفة ساخنة مجففة، على أن يكون الانتقال بين هذه الغرف تدريجيا، لتجنب الصدمات الحرارية التي قد تؤثر سلباً على جسم المستحم، سواء كان الانتقال من البرودة إلى الحرارة أو العكس، ورغم بساطة مكونات هذه المرافق، فإن وجودها وتنظيمها بهذه الدقة يعبر عن درجة عالية من الوعي الحضاري والتطور

(1) الوثنيريسي: المصدر السابق، ج06، ص 419. عبد العزيز فيلالي: بحوث في تاريخ المغرب الأوسط، المرجع السابق، ص 138.

(2) عبد العزيز فيلالي: المرجع نفسه، ص 138.

(3) الشنوي المقطوف الهادي: المرجع السابق، ص 435.

(4) الحسن الوزان: المصدر السابق، ج01، ص 229. ينظر أيضا: ولد همر محمود: المرجع السابق، ص 178.

العمراني الذي بلغه مجتمع بلاد الزاب كغيره من مدن وحوضر المغرب الإسلامي خلال الفترة المدروسة.⁽¹⁾

ومدن الزاب لا تخرج عن هذا المنطلق حيث ذكرت حمامات في المصادر الجغرافية مشيدة بالدور الحيوي لهذا المرفق، وفي هذا الصدد اتفق كل من عبيد الله البكري، وياقوت الحموي، والحميري في وصف مدينة بسكرة، وأشاروا إلى عدة جوانب تتعلق بالمدينة، وذكروا كثرة الحمامات التي كانت جزءا أساسيا من حياة المدن الإسلامية ببلاد الزاب، إذ لم تكن أماكن للنظافة الشخصية فحسب، بل كانت أيضا ملتقى اجتماعيا حيث يلتقي الناس ويتبادلون الأحاديث، كما كانت تعتبر رمزا من رموز الحضارة والنظافة، وكانت لها أهمية دينية أيضا حيث كانت النظافة جزءا من الشعائر الإسلامية⁽²⁾، ونظرا لأهمية هذا المرفق الخدماتي سمي أحد أبواب مدينة بسكرة باسمه باب الحمام.⁽³⁾

(1) محمدو ولد همر: المرجع السابق، ص 177.

(2) البكري: المصدر السابق، ص 52-53. ينظر أيضا: الحموي: المصدر السابق، مج 01، ص 182. وأيضا: محمد بن عبد المنعم الحميري (ت 9 هـ 15 م): الروض المعطار في خبر الأقطار، معجم جغرافي، تح: إحسان عباس، مطابع هيد لبرغ، مكتبة لبنان، بيروت، ط 1975، ص 113-114.

(3) البكري: المصدر نفسه، ص 52-53.

5- المنشآت الدينية:

5-1 المساجد:

غالبا ما يتوسط المدن الإسلامية المسجد ⁽¹⁾ الجامع الذي يمثل القلب النابض للقصر أو المدينة، والذي يعتبر أحد أسس المدينة الإسلامية، لما له من أدوار دينية واجتماعية وحتى سياسية في المدن الإسلامية، فمن خلاله تنطلق الأزقة والدروب المتشعبة والمباني المترصة في أنحاء القصر. ⁽²⁾

ضمت مدن الزاب هذا المرفق الديني، الذي يمتاز بالجمالية حيث أن كل المساجد مبنية باللبن وهي تعود في بنائها إلى مسجد رسول الله صل الله عليه وسلم ⁽³⁾، ويبدو أن بعض الجغرافيين لم يولوه اهتماما كبيرا عند ذكرهم لهذه المدن، لاعتقادهم أن جميع الحواضر الإسلامية لا تكاد تخلو من مثل هذه المؤسسة الدينية، مما جعلهم يغفلون عن الإشارة إليه تفصيلا، غير أن بعض المصادر ذكرت هذا المعلم الديني عرضا دون تفصيل عن أي معلومات حول تاريخ تأسيسه أو المواد التي استعملت في بنائه، فقد عرفت مدينة بسكرة على سبيل المثال باحتضانها جامعا كبيرا ⁽⁴⁾ وعددا من المساجد المنتشرة في مختلف

⁽¹⁾ يشير الزركشي إلى سبب اختيار كلمة مسجد لوصف مكان الصلاة، إلى أن السجود هو أشرف أفعال الصلاة، لأنه يعبر عن قرب العبد من ربه. فالسجود هو اللحظة التي ينخرط فيها المؤمن في خضوعه وتذلل أمام الله. ونظرا لأن المكان الذي يتم فيه السجود هو حيز قرب العبد من ربه، اشتقت كلمة مسجد من فعل السجود، لتعني المكان الذي يسجد فيه ويؤدي العبادات، وهذا يبرز الأهمية العظيمة للسجود في الصلاة وكونها ركنا أساسيا من أركان العبادة في الإسلام. ينظر: أبي عبد الله محمد إبراهيم الزركشي (ت 794هـ / 1392م): إعلام الساجد بأحكام المساجد، تح: أبو الوفاء مصطفى المراغي، ط 02، دار الكتاب المصري، القاهرة، 1989م، ص 26-27. عاصم محمد رزق: معجم مصطلحات العمارة والفنون الإسلامية، ط 01، مطبعة مدبولي، القاهرة 2000م، ص 282.

⁽²⁾ العمودي التجاني: "العلاقة بين العمران والإنسان في القصور الصحراوية وفق المنظور الإسلامي"، جامعة حمه لخضر، الوادي، الجزائر، 25-08-2019، ص 07.

⁽³⁾ حسين مؤنس: المساجد، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1981م، ص 198.

⁽⁴⁾ مع توسع الدولة الإسلامية وزيادة عدد المسلمين، ومع تطور المجتمع الإسلامي، بدأت المساجد تتطور تدريجيا في التصميم والبنية لتلبية احتياجات الجماعة المتزايدة وتطلعاتها فباشروا ببناء المساجد الواسعة والتي عرفت بالمساجد الجامعة

أحيائها⁽¹⁾، بحيث خصص في كل حي مسجد لإقامة الصلوات الخمس⁽²⁾، ويذكر الإدريسي أن داخل قصر طنبنة جامعا⁽³⁾ وهو ما يعكس انتشار الممارسة الدينية وتنظيم الحياة الروحية داخل النسيج العمراني ببلاد الزاب، واستنادا إلى ما سبق، يمكننا الإشارة إلى بعض المساجد التي كانت قائمة خلال فترة الدراسة ومن بينها المسجد العتيق بطولقة الذي يعود تاريخ تأسيسه عند بعض الباحثين إلى بدايات الفتح الإسلامي في بلاد المغرب أي ما بين سنة 20 إلى 27هـ، بعد أن كان هذا المعلم عبارة عن كنيسة خلال الحكم الروماني ليتحول إلى مسجد جامع بعد الفتوحات الإسلامية للمنطقة، إلا أن المسجد بحاجة ماسة إلى الترميم بعد تعرضه لعدة اهتراءات بفعل العوامل الطبيعية، نظرا لرمزيته التاريخية بالمنطقة بحيث يعد من بين أقدم المساجد بالمغرب الإسلامي عموما. ⁽⁴⁾

أ- مسجد سيدي عقبة:

- موقعه:

يعتقد أن المسجد شيد في المكان الذي استشهد فيه الصحابي الجليل عقبة بن نافع ورفاقه، حيث يقع المسجد على بعد ثماني عشر كلم جنوب شرق مدينة بسكرة وعلى بعد ثمانية كلم جنوب مدينة تهوده، ويتميز موقع المسجد بأنه في سهل فسيح، بالقرب من مجرى

أو الكبيرة، بحيث تكون فيها بعض التحسينات والتطويرات في هياكلها، مما يمكن أن يشمل استخدام مواد بناء متقدمة وتصاميم أكثر تعقيدا، وذلك لتلبية الاحتياجات المتزايدة للمصلين والمجتمعات المحلية. الحسين قصي: **موسوعة الحضارة العربية، العصر الفاطمي والأيوبي**، دار ومكتبة الهلال للكتاب، بيروت، 2005م، ص 278-279.

⁽¹⁾ البكري: المصدر السابق، ص 52-53. الحميري: المصدر السابق، ص 113-114.

⁽²⁾ حسن بن محمد الورتلاني: الرحلة الورتلانية الموسومة بنزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والاخبار، مكتبة الثقافة الدينية، ط01، 1429هـ / 2008م، ج01، ص 118.

⁽³⁾ الإدريسي: **نزهة المشتاق**، المصدر السابق، ج01، ص 263.

⁽⁴⁾ عبد الحق مواقي: **"من المساجد الأثرية بمنطقة طولقة"**، مجلة البصائر، <https://elbassair.dz/11753>، ع

1270، نوفمبر 2020.

نهر صغير يُعرف باسم وادي الأبيض⁽¹⁾، كما عرفت البلدية باسمه، فقد تطرقت له العديد من المصادر التاريخية وكذا المراجع بإسهاب نظرا لأهميته الروحية وتعلق سكان المنطقة بصحابة رسول الله صل الله عليه وسلم.

- نسبه:

هو عقبة بن نافع بن عبد القيس بن لقيط بن عامر بن أمية بن الظرب بن الحارث بن فهر⁽²⁾، ويمتد نسبه إلى أهم البطون العربية من قريش، وبنو فهر بطن من بني كنانة وهو فهر بن مالك بن النضر بن كنانة، ويقال لبني فهر من قريش الظواهر⁽³⁾، وهو ما أكده القرطبي بقوله: «فهر هو أبو قريش ومن لم يكن من ولد فهر فليس من قريش»⁽⁴⁾، وقال بن أبي الفياض إن عقبة ولد قبل وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم بسنة واحدة⁽⁵⁾، وبذلك فقد ولد على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، أما فيما يتعلق في صحبته، فوقع اختلاف كبير، فمنهم من يعتبره صحابي بالمولد، ومنهم من يعتبره تابعي⁽⁶⁾.

(1) رحمة خليل صفاء خيشة: مسجد عقبة بن نافع ببسكرة (دراسة أثرية)، مذكرة مكملة لمتطلبات الحصول على شهادة الماستر في تاريخ الوسيط والحديث، كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، جامعة الشهيد حمه لخضر، الوادي، 1437 - 1438 هـ / 2016 - 2017 م، ص 26.

(2) ابن عذاري: المصدر السابق، ج 01، ص 43.

(3) أبي العباس أحمد القلقشندي (ت 821 هـ / 1418 م): نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، تح: إبراهيم الأبياري، ودار الكتاب اللبناني، بيروت لبنان، ط 02، 1980 م، ص 394.

(4) ابن عبد البر النمري القرطبي (ت 463 هـ / 1071 م): القصد والأهم من الأمم، مكتبة القدسي، القاهرة، عام 1350 هـ، ص 67.

(5) ابن عذاري: المصدر نفسه، ج 01، ص 44. ينظر أيضا: أبو زيد بن عبد الرحمان بن محمد الأنصاري الأسدي الدباغ (ت 699 هـ / 1299 م): معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، أكمله وعلق عليه: أبو الفضل ابو القاسم بن عيسى التنوخي، تص وت: إبراهيم شيوخ، مكتبة الخانجي بمصر، ط 02، 1968 م، ج 01، ص 164.

(6) يرى موسى لقبال أن عقبة بن نافع الفهري قد نال شرف الولادة قبل وفاة رسول الله صل الله عليه وسلم بسنة، أي يعتبر صحابيا بالمولد لا بالصحة والمجالسة. موسى لقبال: عقبة بن نافع الفهري، منشورات وزارة الثقافة والسياحة، مديرية الدراسات التاريخية وإحياء التراث، الجزائر، د ط، د ت ن، ص 07.

لقد تكلمنا عن فتوحاته في الفصل الأول وطريقة استشهاده، والذي يجدر بنا الإشارة إليه هو ذلك التقديس الذي حضي به هذا الصحابي الجليل من مجتمع المغرب وسكان الزاب خاصة وأن الفاتحين من صحابة رسول الله صل الله عليه وسلم ومن تابعيه وما خصهم من فضل، فعن عمر بن الحصين رضي الله عنه قال: قال صل الله عليه وسلم: "خير القرون قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يأتي قوم يشهدون ولا يستشهدون، وينذرون ولا يوفون، ويظهر فيهم السمن"⁽¹⁾، وكما أشارت بعض المصادر إلى أخبار عن كراماته كونه مستجاب الدعاء، ولعل ما ذكره عبد الحكم عندما أصاب العطش عقبة وأصحابه بواد يسمى بوادي فرس ولم يكن به ماء حتى أشرف عقبة ومن معه على الهلاك، فصلى ركعتين ودعا الله عز وجل، جعل فرس عقبة يبحث الأرض برجله حتى انفجر الماء من تحته فأبصره عقبة وناد الناس من حوله وشربوا منه وسمي بوادي فرس.⁽²⁾

بعد استشهاد الصحابي عقبة بن نافع وأبي مهاجر دينار وثلة من الفاتحين الأخيار الذي جاوز عددهم ثلاث مئة شهيد⁽³⁾، حيث تشرفت مدينة تهودة والمغرب الأوسط برفاتهم، اهتم المسلمون بقبورهم فميزوها وجصصوها، وبنو بجوارها مسجدا جامعاً، وأعتبر مزارا ومظان للبركة، بل اعتبره ابن خلدون أشرف مزار على وجه الأرض لما توفر فيهم من عدد الشهداء من الصحابة والتابعين⁽⁴⁾، حتى أصبح اسم المدينة سيدي عقبة بدلا من تهوده

(1) أبي عبد الله محمد إسماعيل البخاري (194-256هـ): صحيح لبخاري، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، ط01، 1423هـ/2002م، ص 897.

(2) ابن عبد الحكم: فتوح إفريقيا والأندلس، المصدر السابق، ص 53.

(3) عبد الرحمان ابن خلدون: المصدر السابق، ج04، ص 238. ينظر: ياسين رابح حاجي والسعيد تريعة: الحاضرة في إقليم الزاب الشرقي بادنس وتهودة وسيدي عقبة أنموذجا، تحولات المدينة الصحراوية الجزائرية، معهد الآثار، جامعة الجزائر، جامعة حسبية بن بوعلي بالشلف، الجزائر، إصدارات مركز البحث في العلوم الإسلامية والحضارة، الأغواط، الجزائر، ط01، 1439هـ - 2018م، ج02، ص 142.

(4) عبد الرحمان ابن خلدون: المصدر نفسه، ج06، ص 194.

التي سقط اسمها من الوسط الرسمي والشعبي تكريما من الولاية وسكان بلاد الزاب للصحابي الجليل. (1)

لم تشر المصادر التاريخية والجغرافية إلى تاريخ بناء مسجد عقبة بن نافع بل اكتفوا بالإشارة إليه فقط، وحتى الشواهد الأثرية لم تعط تاريخا رسميا لتأسيسه فشاهد القبر الموجود على ضريح عقبة بن نافع يفتقر للسنة التي وضع فيها، مما جعلنا لا نملك تاريخا محددا لبناء هذا الصرح الديني، مما فتح بابا للتكهنات عند البعض بأن المسجد هو أقدم أثر ديني إسلامي في إفريقيا⁽²⁾، ويبدو أن الأدلة التاريخية والمادية الأثرية غير متوفرة بشكل كافي لتحديد تاريخ بناء المسجد بشكل دقيق⁽³⁾، وعلى الرغم من وجود مصادر أدبية وأثرية، إلا أنها قد لا تكون كافية لتوضيح تاريخ البناء بدقة، إلا أنه يعد المسجد الذي ضم قبره أقدم المباني في إفريقيا، ولهذا المسجد مئذنة مربعة⁽⁴⁾، وكما أشار كارل بروكلمان إلى أن المسجد يضم رفات الصحابي عقبة بن نافع، وأن المنطقة سميت باسمه تخليدا لذكراه، ويعد هذا المسجد وفق ما ذكره من أقدم الشواهد العمرانية في إفريقيا، وقد اتسم هذا المرفق الديني بطراز معماري بسيط يخلو من الزخارف المبالغ فيها.⁽⁵⁾

أما الرأي الآخر من المصادر التاريخية يدحض هذا الرأي، فمسجد عقبة بن نافع يعد الثاني بعد مسجد القيروان الذي اختطه نفس الصحابي بعد توليته على إفريقية سنة 670هـ/670م، أما جورج مارساي فحاول أن يعطي تاريخ تأسيسه بعد المقارنة التي قام بها

(1) موسى لقبال: عقبة بن نافع الفهري، المرجع السابق، ص 71 - 72.

(2) Gustave le bon: la civilisation des arabes, S.N.E.D, Algérie , p196.

(3) صالح يوسف بن قربة: أبحاث ودراسات في تاريخ وآثار المغرب الإسلامي وحضارته، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، 2011، ص ص 14-59.

(4) عبد العزيز شهبي: مساجد أثرية في منطقتي الزاب ووادي ريغ، أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه، تخصص الآثار الإسلامية، جامعة الجزائر، 1985م، ص 16.

(5) كارل بروكلمان: المرجع السابق، ص 127.

من خلال دراسة الكتابة التي كتبت على الضريح بالكتابة الموجودة بالقيروان ومنها استنبط تاريخاً لتأسيسه إلى القرن الخامس هجري الحادي عشر ميلادي ولعله يقصد تاريخ إصلاحه بقوله: "...هناك مستند آخر يسمح لنا أيضاً بتحديد التاريخ، وهو الكتابة الكوفية المنقوشة على الحجر، والتي هي الآن مرصعة في إحدى زوايا الضريح... ليس لها تاريخ، ولكن شكل الحروف يعطينا معلومات مفيدة وتقريباً كل الحروف التي تكونها، لها ما يشابهها في خطوط الكتابة التونسية الموجودة في مقابر القيروان، والتي تعود إلى القرن الحادي عشر ميلادي⁽¹⁾، كما رجح عبد العزيز شهبي أن المسجد قد تأسس في الفترة الزمنية المحصورة بين القضاء على الردة، وعلى الكاهنة سنة (82هـ/701م) وعودة الفتوحات الإسلامية إلى إفريقيا، وبين نهاية حكم الأسرة الفهرية الإفريقية سنة (140هـ/758م).⁽²⁾

أما حسين مؤنس تطرق إلى ذكر هذا المسجد باعتباره أحد المعالم الإسلامية الأولى التي ساهمت في ترسيخ الوجود العربي الإسلامي في المغرب، قائلاً: "لا نزاع في أن هذا المسجد يعتبر أقدم مساجد المغرب بعد مسجد القيروان فالراجح أنه نشأ أول الأمر ضريحاً، أو روضة في الموضع الذي استشهد فيه عقبة هذا الصحابي الفاتح العظيم".⁽³⁾

وعند الرجوع إلى الأدلة التاريخية والمعطيات العمرانية المتوفرة، يتضح أن هذا المسجد يعد بحق من أقدم مساجد الجزائر، فهو يمثل مرحلة مبكرة من دخول الإسلام وانتشاره في هذا المجال، كما أنه يحمل دلالات روحية عميقة باعتباره مرتبطاً بذكرى استشهاد الصحابي عقبة بن نافع ورفاقه الأخيار.⁽⁴⁾

⁽¹⁾Marçais George: L'architecture musulmane d'occident, PP 70-71.

⁽²⁾عبد العزيز شهبي: مساجد الزاب، المرجع السابق، ص 19 - 20.

⁽³⁾حسين مؤنس: تاريخ المغرب وحضارته (من قبل الفتح العربي إلى بداية الاحتلال الفرنسي للجزائر من القرن 06

إلى القرن 19م)، مطبعة العصر الحديث، بيروت، لبنان، ط01، 1992م، ج01، ص 60.

⁽⁴⁾عبد العزيز شهبي: مساجد الزاب، المرجع السابق، ص 19.

يشكل مسجد عقبة بن نافع جزءا من التاريخ الإسلامي في المغرب، ويعتبر مكانا مقدسا يحظى بتقدير كبير من قبل المسلمين، كما يظهر هذا المسجد كمثال للتطور التاريخي والثقافي في المنطقة، حيث تعكس بنيته البسيطة جوانب الفترات الأولى للاستيطان الإسلامي في المغرب، حيث شبه بروكلمان المساجد في تلك الفترة لمسجد رسول الله صل الله عليه وسلم قائلا: "فكانت المساجد تتألف من فناء، في أحد طرفيه سقيفة على غرار بيت النبي في المدينة، ولكن هذه البساطة لم تلبث أن أصبحت زيا قديما"⁽¹⁾، وينطبق هذا الوصف تماما على مسجد سيدي عقبة الذي مر بالعديد من الترميمات والتوسعات التي أضفت عليه طابع الزخرفة والضخامة ما غير من بساطته الأولى، ومع ذلك لا يزال المسجد يحتفظ بجوهره التاريخي وعبقه الروحاني، وهو ما يمنحه قيمة خاصة للزوار والمؤمنين على حد سواء.

على الرغم من أن الرحالة والمؤرخين ذكروا هذا المسجد دون الخوض في تفاصيل بنائه أو تاريخ تأسيسه بشكل مفصل، إلا أنهم أولوا اهتماما بموقعه الجغرافي، بحيث أشار صاحب الروض المعطار إلى أن قبر عقبة يقع بتهودة، على مقربة منها بمسافة تقدر بمرحلة واحدة.⁽²⁾

على الرغم من أن رحلتي الورتلاني والعياشي تعودان إلى القرن العاشر الهجري، حيث قدما لنا أوصافا لمسجد يرجح أن يعود تأسيسه إلى القرن الأول للهجرة، ومن هذا المنطلق كان الرجوع إلى روايتيهما ضرورة حتمية لمحاولة سد الثغرة التي تركتها المصادر الوسيطة، والتي التزمت الصمت حيال وصف هذا المعلم الديني أو تقديم أي تفاصيل دقيقة عنه خاصة خلال فترة الدراسة، بحيث ذكره الورتلاني في رحلته قائلا: "...ثم دخلنا لزيارته مع جملة وافرة من أصحابنا اصفرارا، وقبره أي عقبة بالبسيط تحت جبل أوراس الذي قتل

⁽¹⁾كارل بروكلمان: المرجع السابق، ص 140.

⁽²⁾الحميري: المصدر السابق، مج 01، ص 143.

به، وهو مشهور ويزار وعليه مسجد عجيب وحوله قرية جميلة في وسط هذا البسيط...⁽¹⁾، أما العياشي فتحدث عن موقع المسجد المقدس والمشهور، كيف لا وهو مرتبط بقبر بشخصية صحابي جليل، حيث كان هذا الموقع يحظى بتقدير كبير من الناس حيث يقصدونه للزيارة، وعليه مسجد جميل وعجيب، ومحاطا بقرية كبيرة⁽²⁾، فمن خلال ما ورد في الرحلتين يتضح جليا الأثر البالغ للجانب الروحي في ازدهار المدينة واتساعها، إذ نشأت مدينة سيدي عقبة وتوسعت تدريجيا حول مركزية الضريح والمسجد، اللذين شكلا قطبا دينيا وروحيا جذب السكان للاستقرار والتبرك، ومع مرور الوقت اكتسبت المدينة مكانة بارزة داخل إقليم الزاب مما جعلتها تحل محل مدينة تهوده الأزلية.

ومما لا شك فيه أن المسجد تعرض لعدة ترميمات نظرا إلى الفترة الزمنية التي عاشها وتعرضه للعديد من النكبات الطبيعية كون المنطقة تقع في منخفض وتمر بها عدة أودية كواد الأبيض وواد العرب التي تصب في شط ملغين⁽³⁾، كما لا شك أن المواد المستعملة في ترميم هذا المعلم الديني مستوحاة من الطبيعة المحلية للمنطقة، التي تعتمد على اللبن والطين وجذوع النخل والحصى، كما أن طريقة البناء أيضا تعود إلى البيئة المحلية، عندما كانت منطقة الزاب تحت سيطرة الأغالبة حدثت في المسجد بعض التغييرات وفي عهد حكم الأمير الزيري المعز بن باديس سنة (406 - 454هـ / 1062 - 1106م)، تم ترميم المسجد بإضافة شريط كتابي جاء فيه: "هذا قبر عقبة بن نافع الفهري"⁽⁴⁾، كما تعرض لعدة ترميمات في التاريخ المعاصر كسنة 1960م بعد الفيضانات التي حلت

⁽¹⁾الورتلاني حسن بن محمد (ت 589هـ / 1193م): الرحلة الورتلانية الموسومة بنزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والاختبار، مكتبة الثقافة الدينية، ط1، 1429هـ / 2008م، ج1، ص ص 104 - 105.

⁽²⁾عبد الله بن محمد العياشي (ت 1135هـ / 1722م): الرحلة العياشية (1661-1663م)، تح: سعيد الفاضلي، دار السويدي للنشر والتوزيع، أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة، ط1، 2006م، مج2، ص539.

⁽³⁾الطيب كريم: المرجع السابق، ص184.

⁽⁴⁾رحمة خليل صفاء خيشة: المرجع السابق، ص28.

بالبلاد وسنة 1997م كاهتمام السكان بالمسجد على حسب إمام المسجد الزبيري⁽¹⁾، أما في الوقت الحالي، فقد تغير المسجد تغيرا كبيرا عما كان عليه في الماضي، إذ أصبح أكثر اتساعا وجمالا من حيث التصميم والجمال المعماري، فقد أعيد بناؤه وتوسيعه باستخدام مواد معاصرة كالرخام والزليج، وأضيفت إليه زخارف متعددة أعطته طابعا فحما يختلف تماما عن ما كان عليه من بساطة، التي كانت تميز العمارة الإسلامية في بداياتها.

- الدراسة الأثرية لجامع سيدي عقبة:

على الرغم من أن الدراسة التي نقوم بها تتدرج ضمن المنهج التاريخي، إلا أننا حاولنا أن نعطي لمحة ولو موجزة للجانب الأثري لمسجدي سيدي عقبة مسجد سيدي موسى الخذري، كغيرهما من المعالم الأثرية الأخرى التي سنتطرق إليها في قادم دراستنا.

يشغل مسجد سيدي عقبة مساحة واسعة وغير منتظمة تقدر بـ 2220م²، بحيث يبلغ طوله 60م وعرض قدر بـ 37م، وكغيره من المساجد الإسلامية يضم هذا الصرح الديني العناصر المعمارية الأساسية التي تميز العمارة الإسلامية والتي تتماشى مع متطلبات أداء الشعائر الدينية. (ينظر الملحق رقم: 13 و 15).

- بيت الصلاة⁽²⁾:

تشبه بيت الصلاة بيوت الصلاة في بعض المساجد المعروفة في المغرب الإسلامي مثل مسجد سوسة وجامع القرويين في مدينة فاس بالمغرب⁽³⁾، والجامع الكبير في قسنطينة،

(1) الطيب كريم: المرجع السابق، ص 184.

(2) هو مكان الصلاة داخل المسجد الذي يكون مسقوفا ومتجها نحو القبلة (باتجاه الكعبة في مكة المكرمة)، وعمق بيت الصلاة، والذي يسمى جوفه، ويجب أن يكون مكانا واسعا يتسع لعدد المصلين، وينبغي أن يكون الفراغ داخل المصلى خاليا من العوائق البصرية التي تحول دون تركيز المصلين، وعدم وجود حائل يمنع من تلاحق وتتابع صفوفهم. حسين مؤنس: المساجد، المرجع السابق، ص 61.

(3) Bouruiba Rachid: apport de l'Algérie a l'architecture religieuse arabo- islamique, O.P.U, Alger, 1986, PP 64-65.

بحيث يتوسط مسجد سيدي عقبة بيت الصلاة، ويقع نحو الجنوب الشرقي منه، يبلغ مقاسها (22 م 23X م)⁽¹⁾، وقد خضع هذا الجزء لتوسعة لاحقة تمثلت في إضافة بلاطتين من الجهة الخلفية، الأمر الذي زاد من عمقه بشكل ملحوظ، إذ انتقل من 23 م إلى 29 م، وهو ما يعكس زيادة السكان بالمنطقة وعدم قدرة المسجد على إستيعاب كل المصلين، وهو ما جعل القائمين على المسجد عبر العصور يحرصون على التوسعة قصد استيعاب أكبر عدد ممكن من المصلين. (ينظر الملحق رقم: 17-18-19-20).

يحتوي المسجد على سبعة أبواب منها ثلاثة في الجدار الغربي متصلة بالرواق الرئيسي، مقابلة للبلاطات الثالثة والرابعة والسادسة الموازية لجدار المحراب، وعرض كل باب هو 1.30 متر، (ينظر الملحق رقم: 15) باب في الجهة اليسرى للمحراب يؤدي إلى غرفة عرضها متر واحد، وآخر في الزاوية الغربية يوصل إلى قاعة عرضها 1.30 متر، وكذا باب آخر يفضي إلى الضريح عرضه 3,30 م، وباب آخر يؤدي إلى المئذنة عرضه متر، ويحيط بها أروقة من الناحية الشرقية والغربية، وبعد توسيع قاعة الصلاة، أضيف باب يفتح على رواق فراغي، عرضه 1,30 م، ويبلغ ارتفاع كل هذه الأبواب 2.60 م، يمكن أن تكون كثرة عدد الأبواب في المساجد مفيدا لتسهيل دخول وخروج المصلين وتقليل الازدحام، كما يتألف المسجد من سبع بلاطات عمودية على جدار المحراب محصورة بين ستة صفوف من الأعمدة، عرضها 2,70 م، كما توجد سبع بلاطات موازية لجدار المحراب، إلا أنها تختلف من حيث الطول فالثلاث البلاطات المجاورة على اليسار من المحراب يبدو أنها تشكل مساحة تعادل عمق بيت الصلاة، أما البلاطات الثلاثة المتواجدة على اليمين منه فهي أطول بقيمة 12.90 م، ويبدو أن هذا الاختلاف في المقاسات يعود إلى وجود الضريح والقاعة على الجانب الأيمن من المحراب.

(1) الطيب كريم: "المعالم الأثرية الإسلامي في منطقة الزاب الشرقي"، مجلة العلوم الإنسانية، ع 47، جوان 2017 م، ص 248.

يحتوي المسجد على سبع بلاطات متعامدة مع جدار القبلة، وهذه البلاطات تعكس ترتيباً هندسياً دقيقاً يسهل توجيه صفوف الصلاة نحو القبلة المكية، أما بالنسبة للأساكيب، فهي الأعمدة الخشبية التي تستخدم في دعم السقف داخل المسجد، فهناك سبعة أساكيب في المسجد، وهي جزء من التصميم الداخلي للمسجد وتسهم في دعم الهيكل وإضفاء الجمالية على الفضاء، بحيث تختلف من حيث المقاسات على حسب موقع كل أسكوب.⁽¹⁾

يعتبر مسجد سيدي عقبة من المعالم التاريخية الهامة في العالم الإسلامي والمغرب الأوسط، وهو يضم العديد من الملحقات التي تعود إلى مختلف الفترات التاريخية، ومن بين هذه الملحقات، غرفة الضريح التي تعتبر كواحدة من أقدم الأجزاء في الجامع، حيث تم تأسيسها قبل تأسيس المسجد، كما تحتوي هذه الغرفة على عدة غرف تخصصت للتعليم الديني والإقامة للطلاب، وكذلك كمأوى للائمة والزوار، هذه الاستخدامات المتعددة تشير إلى أهمية المسجد في المجتمع كمركز ديني وعلمي مهم على غرار جامع القرويين في المغرب والقيروان والزيتونة بتونس⁽²⁾، وتشمل هذه الغرف غرفتين على يسار المحراب وثالثة بالركن الأيمن للجدار الجنوبي، بالإضافة إلى غرفة رابعة بجدار الضريح، أزيلت الآن العديد من القاعات والغرف بعد عملية الإصلاح والترميم، ويبقى المسجد مكوناً من غرفتين وقاعتين فقط، واحدة في الزاوية الجنوبية والأخرى في الزاوية الشرقية، مما يظهر أنه ربما تم تقليص استخداماته وتركيزه على أداء فريضة الصلاة وبعض الأنشطة الدينية الأساسية.⁽³⁾

(1) الطيب كريم: المرجع السابق، ص 248.

(2) أحمد فكري: مساجد القاهرة ومدارسها، العصر الفاطمي، دار المعارف، مصر، 1965م، ج1، ص 126.

(3) رشيد بورويبة: المساجد الأثرية، المرجع السابق، ص 53.

ب- مسجد سيدي موسى الخذري:

يقع مسجد سيدي موسى الخذري في وسط حي لمسجد داخل غابات النخيل بالجهة الجنوبية الشرقية لمدينة بسكرة⁽¹⁾، عند تقاطع خطي طول وعرض (175 - 177.50)⁽²⁾، والذي صممت المصادر عن تاريخ تأسيسه مما يجعل باب التأويلات مفتوحا، والتي أرجعت تاريخ تأسيسه إلى القرن الثاني الهجري الثامن الميلادي نظرا لعدة اعتبارات نذكر منها التشابه بينه وبين مسجد سيدي عقبة والتي تعود إلى نفس الفترة خاصة من خلال النمط المعماري والمواد المستعملة كخشب النخيل الذي سقّف به، والذي استبعد الباحث عبد العزيز شهيبي تاريخ تأسيسه بتاريخ تأسيس مسجد سيدي عقبة⁽³⁾، إلا أنه يعتبر ثاني أقدم مسجد ببلاد الزيبان خاصة وأن البكري ذكره عند وصف مدينة بسكرة بأن فيها جامعا تؤدي فيه صلاة الجمعة ومساجد كثيرة⁽⁴⁾، وهذا يعني أن المسجد أسس قبل سنة 487 هـ - 1094م وهي السنة التي توفي فيها البكري، ولعل المسجد أسس أيام الحكم الأغربي أي في الفترة الممتدة من سنة 184 هـ - 296م، نظر لانقسام المغرب الإسلامي منذ الفتح الإسلامي إلى غاية قيام الدولة الأغلبية إلى خمس أقسام بدأ من طرابلس وقسطنطية وتونس وكذلك بلاد

⁽¹⁾أفتيحة شلوق: العمارة الدينية بمنطقة الزاب دراسة أثرية ومعمارية، مذكرة مكملة لنيل شهادة الماجستير في اثار الصحراوية، قسم اثار الصحراوية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة محمد خيضر بسكرة، 2007/2008م، ص 37. ينظر أيضا: محمد فاضل بن الشيخ الحسين: البيئة الحضرية في مدن الواحات وتأثير الزحف العمراني على توازنها الإيكولوجي، أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه دولة في العمران، جامعة قسنطينة، 2001م، ص 263.

⁽²⁾أفتيحة شلوق: "دراسة معمارية وأثرية لمسجد سيدي موسى الخذري بسكرة"، كلية الأدب والعلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة محمد خيضر، بسكرة، ع 04، 2009م، ص 02.

⁽³⁾عبد العزيز شهيبي: المرجع السابق، ص 20.

⁽⁴⁾البكري: المصدر السابق، ص 52.

السوس (المغرب الأقصى) وخامسا بلاد الزاب وقاعدتها مدينة طبنة التي تبعد بثلاثة أميال جنوب باريكة ومدينة بسكرة.⁽¹⁾

أما شخصية موسى الخذري فصمتت أيضا عنها المصادر، ويرجح أن الخذري من قبيلة خذران جمع خذري المنحدرين من فرقة بني رياح من بني هلال بني عامر⁽²⁾، ولعله يعتبر أحد التابعين بدليل ما ورد في الوثيقة التاريخية التي عثر عليها بجدار صومعة الجامع بعد هدمها قصد ترميمها سنة (1140هـ - 1727م) والمكتوب بها: "هذا هو القرار التاريخي بإعادة بناء منارة المسجد المبني من طرف المجاهد تابع صحابة رسول الله مولاي موسى الجذري"⁽³⁾، كما وردت لفظة الولي الصالح وهو ما ورد في مدخله الجملة التالية: "هذا مسجد الولي الصالح موسى الأخذاري"⁽⁴⁾ ولعل هذا اللفظ جاء بعد الترميمات التي تعرض لها المسجد خاصة بعد ظهور حركات التصوف، كما نرجح أن شخصية سيدي موسى ترجع إلى تابعي رسول الله صل الله عليه وسلم نظرا للتاريخ الذي رجحنا فيه بناء المسجد.

يعتبر مسجد سيدي موسى من المعالم البارزة بمدينة بسكرة لما يتصف به من جمالية وصلابة البناء وعلو المئذنة وشموخها، وهو ما نستشفه من وصف الرحالة العياشي قوله: "ودخلنا المسجد وطلعنا مئذنته وهي في غاية الطول والإتقان والسعة، تقدر الدابة على الصعود إليها بحملها، وأدراجها مئة وأربع وعشرون درجا، والمسجد في غاية السعة والإتقان والبناء"⁽⁵⁾، أما الورتلاني فيصف مدينة بسكرة بالمدينة القاهرة عظمة البنيان ويربط هذه العظمة بجامعها الأعظم، معجبا بسعته وكذلك أعجب بجمالية المئذنة.⁽⁶⁾

(1) عبد الرحمان الجيلالي: تاريخ الجزائر العام، دار مكتبة الحياة، بيروت، ط2، 1384هـ/1965م، ج1، ص 173.

(2) فتحة شلوق: "دراسة معمارية وأثرية لمسجد سيدي موسى الخذري بسكرة"، المرجع السابق، ص4.

(3) فتحة شلوق: العمارة الدينية بمنطقة الزاب دراسة أثرية ومعمارية، المرجع السابق، ص 38.

(4) المرجع نفسه، ص 38.

(5) العياشي: المصدر السابق، مج 02، ص539-540.

(6) الورتلاني: المصدر السابق، ص 109.

عرف المسجد عدة ترميمات بعد تدهور حالته سواء كان بالأسباب الطبيعية، أو الأسباب البشرية من خلال الأزمات التي تعرضت لها بسكرة خلال الحكم الفاطمي والمريني وكذلك الغزو التركي على المنطقة بعد سقوط الحكم الحفصي في القرن العاشر هجري (16م)، كما أعيد بناء منارته التي هدمت "أثناء صلاة الظهر في الاثني والعشرين من شهر الله الأقوى شهر رجب عام 1140هـ"، ومن خلال الرخام الموجود عند مدخل المسجد يتضح أن المسجد أعيد ترميمه خلال الفترة الاستعمارية سنة 1369هـ - 1950م، ثم رمم مرة أخرى بعد التوسعة التي شهدتها الجهة الشمالية للمسجد سنة 1419هـ/1998م.⁽¹⁾

5-2 الأضرحة:

الضريح شق في وسط القبر، أو اللحد في الجانب، وقال الأزهري في ترجمة لحد الضريح والضريحة ما كان في وسطه يعني القبر، وقيل الضريح القبر كله، وقيل هو قبر بلا لحد، والضرح حفرة الضريح للميت، وضرح الضريح للميت يضرحه ضرحا: حفر له ضريحا؛ قال الأزهري سمي ضريحا لأنه يشق في الأرض شقا.⁽²⁾

يشق مصطلح "الضريح" من الفعل ضرح، الذي يعني في اللغة العربية إخفاء الشيء في الأرض، فيقال: ضرح الشيء إذا دفنه وأخفاه، وضرح الميت أي حفر له وشق الأرض ليوارى فيها، ومن هذا الاستخدام نشأت دلالة "الضريح" باعتباره القبر الذي يبنى عليه معلم ظاهر.⁽³⁾

(1) فتحة شلوق: دراسة معمارية وأثرية لمسجد سيدي موسى الخدي - بسكرة-، المرجع السابق، ص 05.

(2) ابن منظور: المصدر السابق، مج 08، ص 43.

(3) محمد سعيدي: ظاهرة زيارة الأولياء والأضرحة في منطقة تلمسان وأبعادها الاجتماعية والنفسية، مطبوعات الكراسك، وهران، 1995م، ص 40.

يفهم الضريح عموماً بأنه مكان تم دفن شخص ما فيه وغالباً ما يكون ولياً صالحاً، ويتم تشييده كنوع من التكريم لهذا الشخص، قد يكون الضريح أوسع من القبر نفسه ويشمل مساحة أكبر كالمكان المحيط به مثل الغرفة المتواجدة بها القبر⁽¹⁾، وغالباً ما يتم تصميم الضريح بشكل يجمع بين العناية بمكان الدفن وتوفير مكان للزوار للتأمل والصلاة. والضريح معلم أثري توفرت فيه سمات العظمة والهيبة، بحيث بقيت تتقاذفه موجات القبول والرفض، وذلك راجع للنزاع الديني والاجتهاد المذهبي وبما أن الحديث لن يتصل بهذا الجانب، فنحن نحذب الحديث عنه كمعلم أثري بارز لعب دوراً هاماً في إثراء الفن المعماري الإسلامي.

اهتم المسلمون بهذا المعلم الديني حتى أضحت أحد المعالم الحضارية للعمارة الدينية للعالم الإسلامي بمختلف أقطابه مشرقاً ومغرباً، والأضرحة من العماثر التي اختص بها الأولياء والصالحون، ولعل من أسباب انتشار الأضرحة هو درجة الاحترام والتقدير الذي يخصصه السكان للأولياء والصالحين، كما كان لانتشار الحركة الصوفية في العالم الإسلامي الأثر البارز في ظهور هكذا عمران، وبلاد الزاب لا يخرج عن هذه الصورة التي انتشرت بشكل واسع ببلاد المغرب والمغرب الأوسط على وجه الخصوص، فنجد ضريح سيدي عقبة بالمدينة الحالية سيدي عقبة القريبة من مدينة تهودة الأثرية، وضريح عبد الرحمان الخصري، وضريح سيدي عطية...إلخ.

تنوعت أشكال الأضرحة في مختلف أنحاء العالم الإسلامي، بناء على الفروق الجغرافية والثقافية والزمانية، ويجدر بنا الإشارة إلى أن الضريح لا يخلو من القبة فاختلفت عنها الآراء فمنهم من قال أنها: "تبرز لصورة متطورة للخيمة التي يستعملها البدو العرب

(1)فتيحة شلوق: العمارة الدينية بمنطقة الزاب دراسة أثرية ومعمارية، المرجع السابق، ص 18.

...والمشرق إلى الباري عز وجل أبو الخيمة الزرقاء أي مالك السماوات والأرض" (1)، فهي تجمع بين الجمال الفني والعمق الروحي، وتعكس التطور الثقافي والفكري للمجتمعات الإسلامية عبر العصور.

- ضريح سيدي عقبة :

الأضرحة هي مباني كانت تشيد بهيئة فاخرة لدفن أهل الفضل أو كبار رجال الدولة من المسلمين، ويرى البعض أنه ليس من المرغوب في الشريعة الإسلامية (2)، ومن الملاحظ حالياً البناء على القبور، خوفاً أن تصبح هذه الأماكن مزاراً ويعظم أصحابها وصولاً إلى الشرك، ومن الملاحظ أيضاً توجد الكثير من المدافن والأضرحة تزار (3) قصد التبرك وطلب الرزق والشفاء، ومن بين أقدم الأضرحة بالمغرب الإسلامي ضريح عقبة بن نافع الذي أُنشئ في مدينة تهودة سنة (63 هـ/682 م)، حيث يوجد قبره بالمكان الذي استشهد فيه (4)، وقد جعل على قبره اسمه ثم جصص واتخذ عليه مسجد عرف باسمه. (5)

يظل تاريخ بناء المسجد وضريح عقبة بن نافع الفهري موضع جدل لعدم وجود مصادر تاريخية دقيقة تؤرخ لهذه الأحداث، ومع ذلك يمكن أن نعتبر بناء المسجد وتكريم عقبة بن نافع بالضريح قد حدث في الفترة الزمنية القريبة من وفاته، استناداً إلى تقاليد المجتمع الإسلامي بتكريم وتقديس هكذا شخصيات، ولا شك أن الضريح جاء قبل بناء المسجد وبدوره تبدأ المدن بالتوسع باعتبار أن المسجد يمثل القلب النابض للمدينة، والذي يعتبر أحد أسس المدينة الإسلامية، لما له من أدوار دينية واجتماعية وحتى سياسية في

(1) محمد أرسنت كونل: الفن الإسلامي، تر: الدكتور أحمد موسى، دار صادر، بيروت، 1966م، ص 124.

(2) كمال عناني إسماعيل: مقدمة في الآثار الإسلامية، دار المعرفة، الإسكندرية، 2008م، ص 138.

(3) المرجع نفسه، ص 138.

(4) البكري: المصدر السابق، ص 74.

(5) عبد الرحمان ابن خلدون: المصدر السابق، ج 06، ص ص 194.

المدن الإسلامية، فمن خلاله تتطلق الأزقة والدروب المتشعبة والمباني المتراسة في أنحاء المدينة أو القصر.⁽¹⁾

رغم الإجماع التاريخي الذي حظي به استشهاد الصحابي الجليل عقبة بن نافع ودفنه بمدينة تهوده التي حملت لاحقاً اسمه تكريماً لشخصه، فإن بعض المستشرقين حاولوا التشكيك في صحة هذه الروايات ومن أبرز هؤلاء المستشرقين الفرنسي هنري سيمون في دراسته المعنونة بـ"نقاط حول جامع سيدي عقبة"، حيث طرح فرضية مفادها أن قبر عقبة بن نافع لم يكن إلا موضعاً رمزياً أقيم لإحياء ذكرى الفاتح، دون أن يكون جثمانه مدفوناً به فعلياً، ومع ذلك فإن هذه النظرية على الرغم من إثارتها للنقاش والجدل بين الباحثين، إلا أنها لا تستند إلى أي دليل تاريخي موثوق، كما أن رأيه لا يتصل بأي درجة من الصحة، ولعلنا نستند على ما ذكره الكثير من الباحثين والمؤرخين التي أكدت استشهاد عقبة بن نافع قرب تهوده في معركته الشهيرة ضد البربر بقيادة كسيلة، كما أشار الباحث كريم الطيب في دراساته إلى تفاصيل دقيقة حول مسار عقبة وجيشه في تلك الحملة، إذ مر عبر ممر الثنية الوسطى المؤدي إلى بلاد الضاية، وهو الطريق الذي يربط بين طبنة ومنطقة الزاب فيما يعرف بطريق الصحراء، ثم اتجه إلى طولقة عبر أراضي السلفة، ومن هناك إلى تهوده عبر مليلي سالكا طريق أوماش الرابطة بينها وبين قرية سيدي عقبة⁽²⁾، ولا تقتصر البحث في الشواهد التاريخية المدونة فحسب، بل نستند لكشف هذه الحقيقة على الروايات المتواترة التي توارثتها الأجيال في المنطقة، أبرزها ما تناقلته عائلة ابن منصور جيلاً عن جيل، ومن أشهر تلك الروايات ما رواه الشيخ عبد المجيد بن حبه رحمه الله عن شيخه محمد بن

(1) العمودي التجاني: "العلاقة بين العمران والإنسان في القصور الصحراوية وفق المنظور الإسلامي"، مجلة الإعلام والمجتمع، مج3، ع 03، 25-08-2019، ص 22.

(2) الطيب كريم: تطور العمران الإسلامي بولاية بسكرة خنقة سيدي ناجي نموذجاً - دراسة تاريخية أثرية عمرانية، المرجع السابق، ص 207.

المنصور المعروف بابن دايدة، والتي تتحدث عن حادثة تاريخية بالغة الأهمية، إذ تشير الرواية إلى أن الشيخ أحمد بن الحاج محمد بن الحاج تواتي، الذي كان يتولى مشيخة مدينة سيدي عقبة، أبدى رغبة في التحقق بنفسه من صحة وجود جثمان الصحابي الجليل بعد انتشار الشكوك التي أثارها بعض المعاصرين آنذاك، وقد أقدم الشيخ تحت ذريعة ترميم القبر، على كشفه مع تعهده إن لم يجد الجثمان بأن يرسل سرا عن المكان دون أن يفشي الحقيقة لأحد، حفاظا على مكانة الضريح في نفوس العامة، غير أن ما شاهده داخل القبر كان قاطعا في تأكيد الروايات المتوارثة، فقد وجد الجثمان كاملا كما وصفته الروايات القديمة، وهو ما زاد من رسوخ الاعتقاد العلمي والشعبي بأن ضريح سيدي عقبة يضم بالفعل رفات القائد الفاتح.⁽¹⁾

نظرا لصمت المصادر عن تاريخ اختطاط هذين المعلمين عمد الباحثون إلى دراسة تصميم المسجد والضريح وهيكلتهما العمرانية في محاولة لتحديد الفترة الزمنية التي شيئا فيها، مستندين في ذلك إلى الأساليب المعمارية وطرائق البناء، باعتبارها مؤشرات دالة على العصور التاريخية المختلفة، وقد أظهرت الدراسات أن حجرة الضريح خضعت لأعمال ترميم خلال القرن الخامس الهجري (11م)، وذلك بأوامر من الحاكم الزيري المعز بن باديس الصنهاجي، الذي استعان بالمواد المحلية المتاحة في تلك الفترة، وعلى رأسها الطوب الطيني، أما في الوقت الحالي فيبدو أن جدران الحجرة مقسمة إلى مستويين أما الجزء السفلي فمكسو ببلاطات خزفية، بينما غطي الجزء العلوي ببلاطات جصية، في حين توج السقف بقبة ذات طابع زخرفي بسيط يتناسب مع روح العمارة الإسلامية في المغرب الأوسط، ويرجح عدد من الباحثين أن الباب الحالي للضريح يعود أيضا إلى تلك الفترة الزيرية، أي

(1) الطيب كريم: تطور العمران الإسلامي بولاية بسكرة خنقة سيدي ناجي نموذجا - دراسة تاريخية أثرية عمرانية، المرجع السابق، ص 209.

إلى عهد المعز بن باديس تحديداً، مستندين في ذلك إلى قرائن أثرية من خلال إقامة مقارنات مع العمائر الزيرية، خاصة تلك المنتشرة في تونس، ما أتاح استخلاص استنتاجات تدعم هذا الرأي وتؤكد استمرارية الطراز الزيري في المنطقة.⁽¹⁾

يرى بعض الباحثين أن الترميمات التي شهدتها ضريح سيدي عقبة قد تعود إلى العهد الفاطمي، مستدلين في ذلك على وجود الباب الخشبي الرئيسي للضريح، والذي يظهر تشابهاً ملحوظاً في أسلوب صناعته وزخرفته مع أخشاب جامع القيروان، والتي ترجع بدورها إلى الفترة الفاطمية⁽²⁾، غير أن هذا الرأي يواجه رفضاً لدى عدد من الباحثين الآخرين، إذ ينفون بشكل قاطع نسبة هذه الترميمات إلى العهد الفاطمي، مستندين إلى اعتبارات مذهبية وعقائدية، حيث أن السلطة الفاطمية التي كانت تتبنى المذهب الشيعي الإسماعيلي الذي عرف بموقفه السلبي من الرموز السنية، وبالأخص كل ما يمت بصلة إلى الصحابة والتابعين الذين كانوا يمثلون رموزاً للعقيدة السنية في مواجهة الفكر الشيعي. وبما أن عقبة بن نافع يعد من أبرز الصحابة الفاتحين المنتمين إلى التيار السني، فإن الاهتمام بضريحه أو ترميمه بشكل يليق بمكانته التاريخية والدينية لم يكن ليجد قبولا في سياق السياسة الفاطمية آنذاك، بل بالعكس كان ذلك أدعى لإهماله وربما تحقيره⁽³⁾، ومن ثم فإن هذا الطرح يدعم الرأي القائل بأن الترميمات التي شهدتها الضريح قد تعود في حقيقتها إلى العهد الزيري السني الموالي للخلافة العباسية.

- غرفة الضريح:

تشغل مساحة مربعة (4,88 × 4,65) أي مساحة 22,62م²، (ينظر الملحق رقم: 23-24) تحوي أربع مداخل، اثنين منها مقابل جدار المدخل وواحد مقابل جدار القبلة

⁽¹⁾BLANCHET, P., La porte de Sidi Okba, Paris, 1900, p 18

⁽²⁾BLANCHET, P., Op. Cit, p 18

⁽³⁾الطيب كريم: "المعالم الأثرية الإسلامية في منطقة الزاب الشرقي"، مجلة العلوم الانسانية، جامعة محمد خيضر، بسكر، ع 47، 2017، ص 249.

والأخير بجانب قاعة صلاة مخصصة للنساء⁽¹⁾، وتعلوها قبة بسيطة وفتح في جدارها الجنوبي باب عرضه 3م يطل على بيت الصلاة، أما الضريح فهو يتوسط الغرفة المخصصة⁽²⁾، بحيث عثر على لوحة حجرية مثبتة بإحدى زوايا الدعائم الشمالية للضريح⁽³⁾، نقش عليها بالخط العربي عبارة: "هذا قبر عقبة بن نافع رحمه الله"، (ينظر الملحق رقم: 18) ما يضيف عليها طابعا تاريخيا مهما، بحيث كانت هذه اللوحة محل اهتمام عدد من الباحثين، حيث أشار عبد الحق معزوز إلى أن تاريخها يعود إلى فترة مبكرة، ربما تسبق القرن الخامس الهجري، مستندا في ذلك إلى أسلوب النقش وخصائص الخط المستعمل⁽⁴⁾، بينما يرى المستشرق الفرنسي جورج مارساي أن هذه اللوحة ترجع إلى القرن الخامس الهجري تحديدا⁽⁵⁾، مما جعلنا نفتح بابا واسعا للنقاش حول بدايات التدوين الجنائزي في العمارة الإسلامية المبكرة بالمغرب الأوسط.

(1) رحمة خليل وصفاء خيشة: المرجع السابق، ص 59. أما كريم الطيب فقال مساحتها تقدر ب 25م²، ينظر: الطيب كريم: تطور العمران الإسلامي بولاية بسكرة خنقة سيدي ناجي نموذجا - دراسة تاريخية أثرية عمرانية، المرجع السابق، ص 188.

(2) الطيب كريم: المرجع نفسه، ص 188.

(3) عبد الحق معزوز: الكتابات الكوفية في الجزائر القرنين الثاني والثامن الهجريين (08-14 م)، د د ن، الجزائر، 2002م، ص 148.

(4) المرجع نفسه، ص 149.

(5) MARÇAIS, G: «Le tombeau de Sidi Okba», in Annales de l'institut d'études orientales, 5, 1939- 1941, p. 15.

3-5 الزاوايا:

أ- **الزاوية لغة:** هي ركن البيت الزاوية في مفهوم الهندسة تشير إلى الفراغ المكون بين نقطة مشتركة تسمى الرأس ⁽¹⁾، والزاوية قرية بالموصل بالقرب من البصرة كانت به الموقعة المشهورة بين الحجاج وعبد الرحمان بن محمد بن الأشعث سنة 83هـ / 702 م. ⁽²⁾

ب- **اصطلاحاً:** فهي الانزواء قصد العكوف على العبادة أو تلقي العلم بعيداً عن المشاغل الدنيوية للناس، وهي رباط المجاهدين، إلا أن لفظ الزاوية اليوم هي مراكز للعبادة وإيواء الواردين والمحتاجين واطعامهم ⁽³⁾، وهي كذلك مراكز تحفيظ القرآن الكريم ومختلف تعاليم الدين ونشر الأخلاق والفضائل الإسلامية، وهي بذلك تعتبر حصن المسلم الدنيوي من الأخطار الخارجية وحصنه الديني من فضائل العقيدة والإيمان. ⁽⁴⁾

شهدت الزوايا انتشاراً واسعاً بالمغرب الإسلامي خلال الفترة الممتدة من القرن الخامس إلى القرن الثامن الهجري، وسميت في بادئ الأمر بدار الكرامة ⁽⁵⁾، التي بناها الخليفة الموحي يعقوب المنصور في أواخر القرن 6هـ / 12م بمراكش، كما سماها المرينيون بدار الضيافة من خلال الزوايا التي بنوها في عهدهم في القرنين 7 - 8هـ / 13 - 14م ونذكر منها الزاوية التي بناها أبي عنان المريني خارج مدينة سلى منتصف القرن 8هـ /

⁽¹⁾ المنجد في اللغة والأعلام، دار المشرق، بيروت، ط 26، 1986م، ص 312.

⁽²⁾ شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي البغدادي الحموي: **معجم البلدان**، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت، دس ن، مج 03، ص 128.

⁽³⁾ محمد حجي: **الزاوية الدلائية ودورها العلمي والديني والسياسي**، مطبعة النجاح الجديدة، ط 02، 1409هـ / 1988م، ص 23.

⁽⁴⁾ عبد العزيز شهبي: **الزاوية والصوفية والعزابة والإحتلال الفرنسي في الجزائر**، دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران، 2007م، ص 13.

⁽⁵⁾ المرجع نفسه، ص 14.

14م⁽¹⁾، وتعكس هذه التسميات مختلف الأدوار والوظائف التي كانت تقوم بها الزوايا في المجتمعات الإسلامية المختلفة من إيواء وإطعام الواردين والغرباء والفقراء.⁽²⁾

ارتبط مصطلح الزاوية بحركة التصوف، حيث كان مؤسسوها متصوفين زهادا يسعون للتقرب من الله والتأمل في الحقائق الروحية، وهي تمثل مركزا دينيا للمتصوفة، حيث تشكل مركزا لتعليم العلوم الدينية والعلوم العامة تحت إشراف الشيخ أو الولي، ومكانا للتأمل والتواصل الروحي وملاذا لاعتزال الشيخ أو الولي ومريديه من الدنيا وزخرفها، كما تمثل الزاوية دارا للضيافة ومأوى للفقراء⁽³⁾ وهي لاتزال تقوم بهذا الدور إلى يومنا الحالي.

ظهرت الحركة الصوفية في بلاد الزاب مطلع القرن 8هـ / 14م، مع بروز شخصية صوفية بارزة من قبيلة بني رياح، هو الشيخ سعادة الرحماني الرياحي⁽⁴⁾، الذي تفقه على يد الشيخ الفقيه أبا إسحاق التسولي⁽⁵⁾، الذي أخذ عنه ولأزمه وتفقه عليه⁽⁶⁾ علوم الفقه المالكي من شرح مدونة سحنون، ورسالة أبي زيد القيرواني⁽⁷⁾، وبعد عودته لبلاد الزاب

(1) محمد حجي: المرجع السابق، ص 24. عبد العزيز شهبي: الزوايا الصوفية والعزابة، المرجع السابق، ص 14. يوسف بن حيدة: "مؤسسة الزوايا ودورها في التواصل الصوفي ببلاد المغرب خلال الفترة العثمانية"، مجلة آفاق فكرية، ع01، ديسمبر-جانفي 2014م، ص 76.

(2) عبد اللطيف بن رحو: الزوايا ودورها الاجتماعي بالمغرب الأقصى في عصر بني مرين، شبكة الألوكة، قسم التاريخ، 2022م، ص 22.

(3) دوماس المشير دو كدي: الصحراء الجزائرية، تر: قندوس عباد فوزية، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحوث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954، غرناطة للنشر والتوزيع، الجزائر، د ط، د ت ن، ص 300.

(4) عبد الرحمان ابن خلدون: المصدر السابق، ج06، ص51. الصادق زيان: المرجع السابق، ص 85.

(5) هو إبراهيم بن عبد الرحمان بن أبي بكر التسولي التازي أبو إسحاق، ويعرف بابن أبي يحيى المتوفى بعد سنة

748هـ، وكان فقيها عالما بالدين والقضاء. ينظر: لسان الدين ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، دار الكتب العلمية، بيروت، 2002م، مج01، ص 196.

(6) عبد الرحمان ابن خلدون: المصدر نفسه، ج06، ص51.

(7) على الهطاي: "حركة سعادة الرياحي صاحب طائفة "السنية" بنواحي يسكر"، مجلة مدار التاريخية، مج03، ع 02،

جوان 2021م، ص 212.

موطن رياح يحمل الفكر الصحيح والورع الوافر⁽¹⁾، بدأ دعوته التي لم تكن مجرد دعوة شيخ يقود حركة صوفية روحية فحسب بل كانت حركته ذات بعد اجتماعي وسياسي⁽²⁾، معتمدة في نشاطها على العصبية القبلية للمجتمع العربي الهلالي قصد مواجهة إمارة بني مزني، حيث اجتمع حوله عدد من شيوخ قبائل رياح وزغبة، الذين بايعوه على اتباع طريقته والالتزام بها، بحيث قدم لنا صاحب العبر وصفا لنشأة وتوسع هذه الحركة الصوفية، بحيث استطاع سعادة الرحماني أن يفرض نفوذه بداية من منطقة طولقة، قبل أن يغادرها بعد أن أسس زاويته الخاصة به، والتي أصبحت مقرا لاستقرار أتباعه الذين بايعوه على الإلتزام بالسنة والاستعداد للفداء دونه⁽³⁾، وبعد توطيد قاعدته توجه نحو محاصرة قاعدة الزاب، أي مدينة بسكرة عاصمة بني مزني، وذلك في حدود سنة (703هـ/1303م)، ثم تابع توسعه بالسيطرة على منطقة مليلي حوالي سنة (705هـ/1305م)، غير أن هذه الحركة الصوفية ذات الطابع المرابطي اصطدمت برد فعل قوي من طرف بني مزني (الذواودة) ووالي بجاية التابع للدولة الحفصية⁽⁴⁾، الذين تمكنوا من محاصرة نفوذ سعادة الرحماني، واستعادة السيطرة على بلاد الزاب نسبيا، بعدما استشعروا خطر فقدان قسم من مجالاتهم لصالح هذه الحركة.⁽⁵⁾

لم تتطفي جذوة التصوف السعادي في نفوس أتباع الشيخ سعادة الرحماني، رغم الضربة التي تلقتها حركتهم، إذ واصل أنصاره السير تحت قيادة الشيخ أبي يحيى بن أحمد، مدعوما بحلفائه من أولاد محرز وقبائل أولاد سباع، وأولاد عساكر، وأولاد عطية، وتمكن

(1) عبد الرحمان ابن خلدون: المصدر السابق، ج06، ص51.

(2) علي الهطاي: "حركة سعادة الرياحي"، المرجع السابق، ص210.

(3) عبد الرحمان ابن خلدون: المصدر نفسه، ج06، ص52. الصادق زيان: المرجع السابق، ص85.

(4) الطاهر بونابي: الحركة الصوفية في المغرب الأوسط خلال القرنين الثامن والتاسع الهجريين 14-15 الميلاديين،

أطروحة الدكتوراه علوم في التاريخ الإسلامي الوسيط، قسم التاريخ، جامعة الجزائر، 1429-1430هـ / 2008-2009م، ص348.

(5) عبد الرحمان ابن خلدون: المصدر نفسه، ج06، ص52. الصادق زيان: المرجع نفسه، ص85.

هؤلاء من محاصرة مدينة بسكرة مجدداً، واستطاعوا الانتقام من بني مزني بقتل زعيمهم علي بن منصور بن مزني في صحراء الزاب سنة (713هـ/1313م) وحلفائه من الذواودة وقطع النخيل وإتلافه، وهكذا استعاد المرابطون السيطرة على بلاد الزاب، وأصبحت تحت نفوذ الشيخ أبي يحيى و بعده ابنه عيسى، اللذين فرضا سلطتهما على الإقليم، معيدين بذلك إحياء المشروع الصوفي السعادي في المنطقة.⁽¹⁾

إلا أن هذه السيطرة لم تدم طويلاً إذ استطاع يوسف بن مزني متحداً مع علي ابن أحمد بن محمد من أولاد أحمد من القضاء على هذه الحركة نهائياً بعد القضاء على قائدها حسن بن سلامة سنة (740هـ/1339م)، ومنح قضاء بسكرة للفقير أبي عبد الله محمد ابن الأزرق المقرئ⁽²⁾، خاصة بعد انتقال الحركة من ثوبها المرابطي الإصلاحية إلى ثوب الصراع القبلي البدوي السياسي الذي أفقدها البعد الروحي مما جعل المرابطين السنة ينزعون ثوب الثقة والولاء لهذه الحركة.⁽³⁾

تتصف الزاوية الرياحية في جانبها المعماري بالبساطة والتواضع، ويعكس ذلك روحانية المكان، بحيث تتصف بحيطانها القصيرة والقباب المنخفضة والنوافذ القليلة وعادة ما يتميز المسجد فيها بعدم وجود مئذنة، إلا أن هذا المعلم التاريخي عانى من التهميش من قبل سكان المنطقة حتى أصبح مكان مهجور، (ينظر الملاحق رقم: 26-27-28)، كما تتكون الزاوية من عناصر أساسية منها المسجد وقبة الشيخ والمتمثلة في ضريحه بعد

(1) الطاهر بونابي: "حركة المرابطين السنة بالزاب بين التصوف والرباط"، المجلة الخلدونية، ع 09، 2011م، ص

67. الصادق زيانبي: المرجع السابق، ص 85.

(2) المرجع نفسه، ص 86.

(3) الطاهر بونابي: الحركة الصوفية، المرجع السابق، ص 348.

موته والتي تسمى الزاوية باسمه كزاوية سيدي كذا⁽¹⁾، كما تضم الزاوية غرفا لمبيت الطلبة الداخليين ومساكن للضيوف والفقراء.⁽²⁾

أما فيما يتعلق بالوصف الجغرافي للزوايا باعتبارها إحدى المرافق الدينية، فإن المصادر المعتمدة في هذه الدراسة قد بخلت علينا بالمعلومات، إذ لم ترد فيها إشارات واضحة أو تفصيلية حول موقعها أو خصائصها العمرانية، على الرغم من أهميتها ضمن النسيج الديني والمعماري للمنطقة.

6- الأرباض:

الربض بفتح الراء والباء هو الفضاء العمراني الذي يحيط بالمدينة من خارج كتلتها السكنية الرئيسية أو أسوارها، وقد أُطلق هذا المصطلح في المصادر الجغرافية والتاريخية على ما يجاور المدن من أبنية وأحياء سكنية أو مناطق تجارية وصناعية. ويؤكد ذلك ما ورد في الحديث الشريف: "أنا زعيم بمن يبيت في ربض الجنة"، أي في أطرافها أو نواحيها⁽³⁾، وفي السياق الحضري الوسيط، استخدم لفظ الربض للدلالة على الامتداد الخارجي للمدينة، الذي كان يخصص في الغالب للسكن أو لإقامة الورش الحرفية والأسواق التجارية التي يصعب إقامتها داخل النسيج العمراني المحاط بالأسوار، وذلك لأسباب تتعلق بضيق المساحات الداخلية أو بدواع أمنية وتنظيمية⁽⁴⁾، كما أن لفظة الربض عدة ألفاظ

(1) أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي (1500-1830م)، دار الغرب الإسلامي، الجزائر، ط1، 1998م، ج 01، ص ص 163-170.

(2) محمد حمزة إسماعيل الحداد: موسوعة العمارة الإسلامية في مصر من الفتح العثماني حتى عهد محمد علي، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، 1998م، ج 01، ص ص 118-119.

(3) محمد عبد الرحمان المابرمكفوري: تحفة الأحمدي في شرح جامع الترمذي، راج: عبد الوهاب عبد اللطيف، دار

الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، د س ن، ج 06، ص 129.

(4) ابن منظور: المصدر السابق، مج 07، ص 152.

مترادفة أو قريبة الدلالة استخدمت في المصادر التاريخية والجغرافية العربية، مثل :
الضاحية، والناحية، والحوز، والحفص، والحارة، وجميعها تحمل معنى واحداً أو متقارباً
يتمثل في الإشارة إلى العمران القائم خارج أسوار المدينة أو على أطرافها.⁽¹⁾

تعتبر الأرباض ظاهرة حضرية قديمة، ارتبطت بنشأة المدن الكبرى منذ العصور
الإغريقية، حيث ظهرت كمناطق خارجية تحيط بالمراكز الحضرية الأساسية، ومع تطور
المدن العربية الإسلامية وتوسعها في العصر الوسيط، اتخذت الأرباض طابعاً أكثر وضوحاً،
فكانت تضم الأحياء السكنية والحرفية الواقعة خارج أسوار المدينة.⁽²⁾

أما فيما يخص مدن الزاب خلال فترة الدراسة، فقد تم اختيار بعض النماذج من
الأرباض بناء على ما توفر لدينا من إشارات في المصادر الجغرافية، ولو بشكل مقتضب،
تناولت بعض الفضاءات المحيطة بهذه المدن، كما تشير بعض الوثائق إلى أن واحات بلاد
المغرب الأوسط كانت تقل فيها المراكز الحضرية والمدن، نظراً لغلبة الطابع البدوي
والترحالي على السكان، لذلك لم يكن العمران خارج الأسوار واسع الانتشار، باستثناء بعض
الحالات المحدودة، التي كانت تتخذ غالباً شكل ضيعات زراعية، وبساتين فلاحية، ومنتزهات
وميادين وملاعب لسباق الخيل.⁽³⁾

تبرز الأرباض في مدن الزاب كمكون أساسي في الفهم الشامل لتاريخ عمران
المنطقة، فهي تمثل استجابة طبيعية لقيود الجغرافيا والمناخ، وكذلك لاحتياجات المجتمع

(1) أسليم زاوية: "أرباض المدن العربية الإسلامية القديمة (دلالات عمرانية وسوسيو وثقافية بعض مدن المغرب الأوسط
نموذجاً"، مجلة العلوم الإنسانية، مج 30، ع 04، ديسمبر 2019م، ص 70.

(2) عبد العال عبد المنعم السامي: "جغرافية المدن عند العرب"، مجلة عالم الفكر، مج 09، ع 01، أبريل-مايو-
يونيو، 1978م، ص 139. ينظر أيضاً: عبد العزيز فيلاي: مدينة قسنطينة: تاريخ- معالم- حضارة، دار الهدى
للطباعة والنشر والتوزيع، 2007م، ص 57.

(3) عبد الله عطوي: جغرافية المدن، دار النهضة العربية، لبنان، ط 01، 2002م، ج 02، ص 118.

الزابي في التوسع والأمن، والتنظيم الاجتماعي، وتظل دراسة هذه الظاهرة مفتاحا مهما لفهم تطور المدينة الإسلامية في البيئات الصحراوية وشبه الصحراوية.

تمتاز الخصائص العمرانية ببلاد الزاب باحتوائه على الأرباض كمجال تابع للمدينة، فقد استخدمت في هذا السياق عدة مصطلحات تشير إلى توابع المدينة، من بينها: الريف، الضيعة، الضاحية، والربض، حيث لم تكن الأرباض مجرد امتداد سكني لمدن الزاب فحسب، بل لعبت أدوارا متنوعة، بحيث كانت تحتضن الأسواق والمهن الحرفية والفلاحية، خاصة في المناطق القريبة من الواحات الزابية، رغم أنها كانت خارج الأسوار، على الرغم من أن سكان الأرباض غالبا ما تكون الفئات الفقيرة أو المتوسطة، أو المهاجرين من القرى الأخرى، إلا أن بعض الأرباض كانت تحاط بخنادق أو يتم ربطها بمنافذ استراتيجية نحو المدينة.⁽¹⁾

وبناء على ما أورده الجغرافيون العرب، وفي مقدمتهم صاحب الاستبصار، يتضح جليا وجود الأرباض خارج أسوار مدينة بسكرة، وكذلك خارج خندق مدينة تهودة، التي اشتهرت بكثرة الأرباض المحيطة بها والمحصورة ضمن نظام دفاعي خندقي، وتشير المصادر أيضا إلى أن مدينة بادس كانت تضم أرباضا واسعة، أما مدينة طبنة تتميز أيضا بأرباضها الواسعة، التي شكلت امتدادا حيويا خارج أسوارها⁽²⁾، كما أن مدينة باغية اختصت بربض كبير خارج أسوارها يمتد حولها من ثلاث نواحي الشرق والشمال والجنوب⁽³⁾، ويعد هذا الامتداد العمراني خارج أسوار مدن الزاب دليلا واضحا على الكثافة السكانية الكبيرة التي تميزت بها هذه المدن مقارنة بسائر مدن الإقليم.⁽⁴⁾

(1) هدوش: المرجع السابق، ص 120.

(2) أبو الفداء: المصدر السابق، ص 139.

(3) البكري: المصدر السابق، ص 144.

(4) مجهول: الاستبصار: المصدر السابق، ص ص 174-175.

ومن خلال ما سبق يمكننا أن نستخلص أن مدن بلاد الزاب، بعد أن عجزت عن استيعاب التزايد السكاني نتيجة ما بلغته من تضخم حضري، اضطرت إلى إنشاء تجمعات سكنية خارج الأسوار، مما نتج عنه نشوء حياة اجتماعية خاصة اتسمت بنمط عمراني متميز يختلف في تخطيطه ووظائفه عن النسيج الداخلي للمدن المسورة، حيث اتسمت هذه التجمعات غالباً بالطابع البدوي الأكثر بساطة.

الفصل الرابع:

المجتمع والسلطة وأثرهما في قيام وخراب عمران الزاب

1- أثر المجتمع في قيام العمارة ببلاد الزاب:

كان للعوامل الطبيعية والمناخية كالحرارة وحركة الشمس والأمطار ومواسم الرياح، الأثر البالغ في توجيه النمط المعماري بإقليم الزاب، كونه أحد حواضر واحات المغرب الأوسط، بحيث يلجأ المجتمع إلى تخطيط عمارة تتماشى وطبيعة البيئة المقامة بها، مكونا نسيجاً عمرانياً ملهماً ومستنبطاً من البيئة التي نشأت فيها، وهوية المجتمع الزابي الذي يختص كذلك بأصالته وعاداته وتقاليده، كما أن التطور العمراني مرتبط أيضاً بالظروف الجغرافية سواء تعلق الأمر ببعدها عن الطرق التجارية أو ضعف حماية تلك المدن، وكذا مدى توفر المياه وقلته. (1)

أ- شروط نشأة مدن الزاب:

ركز الكثير من المؤرخين والمفكرين على العناصر الطبيعية والبشرية وحتى الاقتصادية التي يجب أن تتوفر عليها المدن لضمان استمرارها وتوسعها، ومن بين هذه الشروط نذكر:

- سعة الماء وطيب الهواء:

لا يختلف اثنان على ما للماء من أثر بالغ في قيام المدن وتوسعها، بحيث لا يمكن إقامة تجمع بشري دون وجود الماء والذي يعتبر من أهم شروط الحياة، وقلته تسبب القحط وتلف الحقول والواحات وخراب العمران. (2)

(1) عزالدين بويحيىوي: المرجع السابق، ص 64.

(2) عبد العزيز فيلالي: بحوث في تاريخ المغرب الأوسط في العصر الوسيط، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، عين مليلة، الجزائر، 2014م، ص 134.

أشار كل من أبي زرع⁽¹⁾ ابن خلدون و ابن القاضي⁽²⁾ وكذا القزويني⁽³⁾ والماوردي⁽⁴⁾ إلى الأهمية البالغة التي يكتسبها الماء في قيام العمران، بحيث أجمع الكل على ضرورة قرب المدن من مصادر المياه سواء كان نهرا جار أو منابع وعيون المياه، حتى يتوفر الماء لسكانها قصد تزويد السكان بالماء، ولعل ابن خلدون أعطى كل الاهتمام على وسائل الحماية والوقاية من الآفات الطبيعية، ويتحقق ذلك بمراعاة نظافة الماء، إذ إن الماء الفاسد أو الراكد، أو المجاور للمياه الآسنة والمستنقعات أو المروج المتعفنة، يسرع من انتشار الأمراض، وأشار كل من الماوردي وابن خلدون على ضرورة اعتدال الموقع بما يلائم صحة الهواء، وغالبا ما تكون المدن التي لم يراع فيها صفاء الهواء هي المدن الأكثر عرضة لانتشار الأمراض والأوبئة، كما أكد ابن خلدون على مراعاة وفرة الماء الطيب العذب، لأن وجوده بالقرب من المدن لا تقتصر فائدته على تلبية حاجيات السكان اليومية فحسب، بل يساهم أيضا في تسهيل حياتهم وتنشيط الزراعة، مما يؤدي إلى ازدهار العمران واستقرار المجتمعات.⁽⁵⁾

فمجمّل مدن وقصور المغرب الأوسط راعت هذا الجانب فتجدها دائما بالقرب من المجاري المائية وروافدها، والعيون الجارية، أو حتى حفر أهل المدن والأمصار الآبار قصد

(1) على ابن أبي زرع (ت 726هـ / 1325م): الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، الرباط، 1973م، ص 33.

(2) أحمد ابن القاضي (ت 1025هـ / 1616م): جذوة الاقباس فيمن حل من الأعلام في مدينة فاس، الرباط، 1973م، ج 01، ص 42. ينظر أيضا: عبد الأحد السبتي، حليلة فرحات: المدينة في العصر الأوسط قضايا ووثائق من تاريخ الغرب الإسلامي، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، 1994م، ص ص 15-17.

(3) زكرياء محمد بن محمود القزويني (ت 682هـ / 1283م): آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، بيروت، د س ن، ص 08.

(4) أبو الحسن علي بن محمد الماوردي (ت 450هـ / 1058م): تسهيل النظر وتعجيل الظفر في أخلاق الملك وسياسة الملك، تح: محي الدين هلال سرحان وحسن الساعاتي، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ط 01، 1981م، ص 162.

(5) عبد الرحمان ابن خلدون: المقدمة، المصدر السابق، ص 348. الماوردي: المصدر نفسه، ص 162.

توفيرها، وهكذا استطاع المسلمون استغلال الماء وإيصاله إلى المدن وفق ضوابط شرعية حفاظا على هذا العنصر الهام في حياة المسلم المرتبطة بالجانب الديني كالغسل والوضوء والسقاية، ومن خلال هذا وجب علينا اكتشاف الثروة المائية التي تحضي بها واحات ومدن إقليم الزاب، وكيف يتم تقسيم هذه الثروة في الزراعة، خاصة أوقات الأمن والقرح؟

تطرق الكثير من الرحالة والجغرافيين إلى هذا العنصر الحيوي في بلاد الزاب مشيرين إلى طعمه من خلال مذاقه، وكذا مصدره وطرق استعماله، كونه عاملا أساسيا في قيام المدن وتوسعها، فانعكست كتاباتهم بين الحيطة والحذر عند ندرته، والانشراح والتشبيه البليغ في حالة الوفرة، ومن الملاحظ أن منطقة الزاب منطقة صحراوية جافة قليلة التساقط جعل من السكان يلجؤون إلى مصادر مياه الأودية وحفر الآبار وينابيع العيون والأنهار⁽¹⁾، مستغلين الصهاريج والخزانات والسدود للحفاظ عليها، ويتم حفر الآبار داخل المدن والقصور الصحراوية لسببين مهمين هما توفير المياه لسد مشاغل الحياة، كما تعتبر الآبار مصدرا مهما للماء أثناء القرح والحروب فعند الحصار يلجأ السكان إلى الآبار الداخلية لقضاء حاجياتهم، أي تعتبر مصدر أمن واطمئنان لهم.

حرص السكان على إدارة موارد المياه المحدودة بشكل مستدام من خلال تخصيص مصادره المعينة لأغراض محددة، وفي ظل الظروف التي غالبا ما تكون نقص المياه أو الجفاف، باعتبار أن بلاد الزاب يقع في المناطق الصحراوية والشبه صحراوية، بحيث فضلوا استخدام مياه الأودية والسيول لأغراض الري، وذلك لأنهم يرغبون في الاحتفاظ بمياه العيون والآبار التي تكون عادة قليلة لأغراض الشرب.⁽²⁾

(1) أسامة طيب جعيل، نبيلة عبد الشكور: "الزراعة في إقليم الزاب في العصر الوسيط من كتب الرحلة والجغرافيا"، الحوار

المتوسطي، مج 11، ع02، جامعة الجزائر 02، الجزائر، سبتمبر 2020م، ص 120.

(2) جمال عناق: "النظام المائي ومنشأته (إقليم الزاب - إفريقيا - نموذجاً) دراسة تاريخية أثرية"، مجلة وميض الفكر

للبحوث، جانفي 2022م، ص 71.

يعتقد الباحث سولينياك (Solognac) أن المسلمين استلهموا فكرة التخزين المائي من البرك التي كانت تنشأ على ضفاف النيل في مصر، ويرى أن العرب الفاتحين لشمال إفريقيا بعد أن تعرفوا على هذا المفهوم المائي المصري وأعجبوا به وحاولوا تطبيقه لأول مرة في القيروان، كما يرجح أنهم قاموا في البداية بإنشاء برك مائية مشابهة لتلك التي عرفوها في مصر، ولكنهم سرعان ما أدركوا عدم ملائمة هذه البرك في مواجهة التغيرات في المجاري المائية التي كانت تحدث بسبب الفيضانات العنيفة والمفاجئة في شمال إفريقيا على عكس فيضانات النيل التي كانت أكثر انتظاما ويمكن التنبؤ بها، أما الفيضانات في المغرب العربي فكانت غير متوقعة وتحدث بشكل مفاجئ، هذا ما دفعهم إلى تطوير البرك وتحويلها إلى أحواض واسعة مبنية، قادرة على مقاومة الفيضانات القوية، سواء كانت طبيعية أو من صنع الإنسان.⁽¹⁾

اهتم سكان الزاب بنظام توزيع المياه أو تخزينها، حيث تكون الصهاريج والخزانات وكذا الأحواض المتجاورة المصممة لأداء أدوار مختلفة مثل تنقية المياه أو توزيعها، وأشار الشيخ سحنون إلى الأعمال الإنشائية، حيث ينسب في نهاية الأمر تدفق الماء وتوفير الموارد الطبيعية إلى إرادة الله، رغم الجهد البشري المبذول في بناء هذه المواجه⁽²⁾، هذا النوع من الخطاب كان شائعا في الأدبيات الفقهية التي تربط بين العمل البشري والقدر الإلهي.⁽³⁾

⁽¹⁾Solognac M: Recherches sur les installations Hydrauliques de - 2 Kairouan et des steppes tunisiennes du VII em au XI em siecles (J-C) Alger 1953.pp29-30.

⁽²⁾ المايل هو خزان يستخدم لتخزين المياه لفترات طويلة. يمكن اعتباره بمثابة مستودع مائي يجمع فيه الماء بشكل دائم أو لفترة طويلة، وهو مناسب للحفاظ على المياه لأغراض مختلفة، الفرق الأساسي بين المايل والصهريج يكمن في أن المايل هو مكان للتخزين طويل الأمد، أو مستنقع الماء الكثير، بينما الصهريج هو نقطة تجميع مؤقتة قبل النقل أو التخزين. ينظر: ابن منظور: المصدر السابق، مج 11، ص 616.

⁽³⁾ للتفصيل أكثر في أدبيات الفقه وما يتعلق بالماء وشروط توزيعه، راجع: نوازل أبو العباس أحمد بن يحيى الوئشيري (ت 915هـ / 1508م): المعيار المغرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقيا والأندلس والمغرب، تح: محمد حجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1401هـ/1981م، ج 09.

تنتشر واحات المغرب الأوسط ووسط مجاري الأودية الصحراوية (ينظر الملحق رقم: 05-06-07-08) التي تكونت في الزمن الجيولوجي الرابع، ويمكن التمييز فيها بين أربع أنواع بالاعتماد على تقنيات الري: الواحات القائمة على الينابيع التي تتبع في قدم الجبل، والواحات القائمة على الأودية، وكذا الواحات القائمة على فرشاة المياه الجوفية، والواحات القائمة على المياه الإرتوازية في أغلب مناطق صحراء بلاد المغرب⁽¹⁾، وعلى حسب ما ذكره الجغرافيون في إشارتهم إلى مصادر المياه ببلاد الزاب فإن هذا الإقليم يختص بكل هذه التقنيات المذكورة.

تتوفر بسكرة على أسباب العمران حيث أنها جمعت بين التل والصحراء، كما حظيت المدينة بوفرة المياه الجارية والمتدفقة في نواحيها⁽²⁾، كما يشق المدينة نهر كبير ينحدر من جبل الأوراس⁽³⁾ يسقي بساتينها ونخيلها ويمتد لمسافة تقارب ستة أميال في غابة متصلة بالمدينة يشق غابتها وقرها⁽⁴⁾، كما تصلها جداول مياه تأتي من خارج المدينة منها وادي الجدي⁽⁵⁾، الذي يسقي بساتينها ونخيلها⁽⁶⁾، أما وداخل المدينة فحفرت آبار كثيرة عذبة تسقى منها ساكنتها، ومن أبرزها البئر المجاور في الجامع والذي عرفت بأنها لا تنزف أي لا ينقطع ماؤها على مدار السنة، وإلى جانب ذلك، كانت مياه النهر تساق عبر قنوات

⁽¹⁾RICHTER (M)، les Oasis du Maghreb: typologie et problèmes agro-écologiques, in actes du séminaire: les oasis au Maghreb mise en valeur et développement , c.e.r.e.s, Tunis, 1995, p 29 et 36.

⁽²⁾ العياشي: المصدر السابق، ج02، ص 540.

⁽³⁾ الأوراس به مياه غزيرة كونه منطقة مرتفعة وخارجة عن الإقليم الصحراوي، ينظر: ابن حوقل: **صور الأرض**، دار مكتبة الحياة للطباعة والنشر، لبنان، 1992م، ص 85.

⁽⁴⁾الحميري: المصدر السابق، ص ص 113-114.

⁽⁵⁾مختار حساني: **موسوعة تاريخ وثقافة المدن الجزائرية (مدن الجنوب)**، دار الحكمة، الجزائر، 2007م، ج02، ص 08.

⁽⁶⁾مجهول: **الاستبصار**، المصدر السابق، ص 170.

مائية منظمة إلى جنات المدينة وبساتينها ⁽¹⁾، ومن الناحية الدفاعية والاقتصادية، أحيطت المدينة بالخنادق لتحصينها من الأخطار المحدقة، كما وجد فيها خزان مائي كبير محفور في باطن الأرض بعمق يناهز أربعين مترا، خصص لتخزين المياه والاعتماد عليه في أوقات الشدة والجفاف ⁽²⁾، وإلى جانب ذلك اشتهرت بسكرة بوجود ينابيع مياه حارة في بعض نواحيها، استعملها أهلها للاستشفاء والعلاج الطبيعي، على غرار الحمامات المعدنية التي ذاع صيتها في بلاد الزاب والمغرب الأوسط عموما، مما جعلها مقصدا للمرضى وموضعا للراغبين في التداوي بالمياه المعدنية. ⁽³⁾

أما طبنة فهي مدينة حسنة كثيرة المياه ⁽⁴⁾، ويشقها جدول من الماء العذب، يعرف بنهر بيطام، كما يشق بساتينها الموجودة في الأرباض، والتي تتميز بكثرة النخيل والثمار، بحيث يعتبر النهر مصدر مياه المدينة، فإذا فاض أغدق وسقى جميع بساتينها، حتى أشتهر أهلها بقولهم: "بيطام بيت الطعام" لوفرة وجودة زروعه ⁽⁵⁾، وقد بني للمدينة صهريج كبير، يقع فيه ماءه وتسقى منه جميع بساتينها وأرضها ⁽⁶⁾، وبالقرب من المقبرة غدير يعرف بغدير فرغان، وهو يجري في مصلى العيد ⁽⁷⁾، كما يصب نهر بمدينة تهوذة مصدره الأوراس، أستعمل لقضاء حوائج السكان اليومية من شرب وري، كما كان له دور في الجانب الأمني

(1) البكري: المصدر السابق، ص 52-53.

(2) أحمد خمار: تحفة الخليل في نبد من تاريخ بسكرة النخيل، دار الهد للطباعة والنشر والتوزيع، عين مليلة، الجزائر، 2012م، ص 12.

(3) العياشي: المرجع السابق، ج 02، ص 539.

(4) الإدريسي: المصدر السابق، ص 263. ينظر أيضا: أبو الفداء: المصدر السابق، ص 139.

(5) البكري: المصدر نفسه، ص 50.

(6) مجهول: الاستبصار، المصدر السابق، ج 02، ص 172.

(7) البكري: المصدر نفسه، ص 50.

أيام المحن، فإذا كانت بينهم وبين أحد حرب، وخافوا النزول إليهم أجروا ماء ذلك النهر في الخندق المحيط بالمدينة فامتنعوا منه. (1)

كما اختصت عدة مدن من بلاد الزاب بوفرة مواردها المائية، فمدينة نقاوس (2) ومقرة (3) وأيضاً أذنة (4) فتميزت كلها بكثرة الأنهار، أما بلزمة فعرفت بمياهها الغدقة الجارية التي سقت أرضها وأهلها (5)، أما مصادر الماء لمدينة باغية (باغاي) أوديتهم الجارية من القبلية من سفوح جبل الأوراس المعروف بالماء الغزير، وكان سكانها يعتمدون أيضاً على الآبار العذبة التي وفرت لهم مياه الشرب والاستخدام اليومي (6)، أما المسيلة، فقد اشتهرت بجداول مياهها العذبة (7)، ومن أبرزها وادي سهر المعروف بغزارة مياهه وعذوبتها (8)، وهو نهر فيه الماء الكثير مستنبط على وجه الأرض وليس بالعميق وهو عذب وفيه سمك على ضفته، حتى صار أهل المسيلة يفتخرون به (9)، وينبع هذا النهر من غدير، وأروى بها من عين خراة تعرف بعين مخذ والذي ينبعث منه نهر سهر. (10)

1- الأحكام الإسلامية في حقوق التصرف وطرق استغلال الماء:

من المعلوم أن دراستنا البحثية لا تتحدث عن الجانب الفقهي في المجال العمراني، إلا أنه وجب علينا الإشارة ولو بإيجاز عن دور النوازل الفقهية في عملية استغلال الماء باعتبار أن واحات الزاب تتصف بالمناخ الجاف مما وجب على المجتمع التعامل مع مصادر المياه

(1) مجهول: الاستبصار، المصدر السابق، ج 02، ص 174.

(2) المصدر نفسه: ج 02، ص 172.

(3) البكري: المسالك والممالك، المصدر السابق، ج 02، ص 230.

(4) المصدر نفسه، ج 02، ص 348.

(5) الإدريسي: نزهة المشتاق، المصدر السابق، ج 01، ص 270.

(6) ابن حوقل: المصدر السابق، ص 84.

(7) المصدر نفسه، ص 85.

(8) مجهول: الاستبصار، المصدر نفسه، ص 271.

(9) الإدريسي: نزهة المشتاق، المصدر نفسه، ج 01، ص 254.

(10) البكري: المصدر نفسه، ص ص 59-60.

بحكمة وعقلانية وفق الأحكام الفقهية، وعلى الرغم من أن المصادر الفقهية بعيدة عن الجانب التاريخي الوصفي إلا أنها غنية بالقيمة المعرفية التي تبرز الحياة الاجتماعية وحتى الثقافية والعمرانية للمجتمع، حتى أصبح الباحثون يجعلون منها الملاذ لسد ما غفلت عن ذكره المصادر الأخرى.

يعتمد الفقه الإسلامي على مصادر الشريعة الرئيسية، وهي القرآن والسنة، حيث ذكر الماء في القرآن الكريم في كثير من المواقع مشيرة إلى أهمية هذه المادة الحيوية المشجعة على العمران بمجاليه البشري والمادي، كقوله تعالى: (أَوْ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا^١ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ^٢)، بحيث ورد الماء في القرآن الكريم 63 مرة، وأشار الله عز وجل إلى مصادر المياه من الأمطار والأنهار والعيون 214 مرة، كما ذكر الله إنزال الماء من السماء بنعمة المطر 24 مرة^(٢)، ولكن هذا لم يمنع الفقهاء من البحث في كيفية تطبيق هذه النصوص على الواقع الاجتماعي المتغير، من خلال القضايا المستجدة أو النوازل، لذا وجب على الفقيه التعمق مع القضايا النازلة استجابة للمتغيرات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي تطرأ في المجتمع، مما يجعل الفقهاء يستنبطون أحكاماً جديدة تتناسب مع تلك المتغيرات، ومن هنا اعتمد الإطار التشريعي للماء في بلاد المغرب الإسلامي على ثلاثة أسس جوهرية وهي:

1. **التشارك:** وهو ضرورة التعاون والتشارك بين مختلف الأطراف في استخدام الموارد المائية، سواء كان ذلك بين الأفراد أو الجماعات باعتبار المياه مورداً مشتركاً، وبالتالي يجب تنظيم استخدامها بطريقة عادلة تضمن استفادة الجميع.⁽³⁾

(1) سورة الأنبياء: الآية 30.

(2) عبد العزيز فيلالي: بحوث في تاريخ المغرب الأوسط في العصر الوسيط، المرجع السابق، ص 135.

(3) جمال عناق: النظام المائي ومنشأته (إقليم الزاب - إفريقيا - نموذجاً)، المرجع السابق، ص 74.

2. **نفي الضرر:** ويقصد به أنه لا يجوز أن يسبب أحد ضرراً للآخرين من خلال استغلاله للماء، وهذا المبدأ يعزز المسؤولية الجماعية في الحفاظ على المياه ويضمن حقوق الجميع في الحصول عليها دون الإضرار بالآخرين.⁽¹⁾

3. **العرف:** يعتبر العرف مصدراً أساسياً في تنظيم استخدام المياه، حيث يتم الاعتماد على الأعراف والتقاليد المحلية في إدارة الموارد المائية، وخاصة في المناطق القروية، والعرف غالباً ما يتكامل مع التشريعات الرسمية، ويعكس التجارب المتراكمة في المجتمعات المحلية بخصوص تنظيم الماء وتوزيعه⁽²⁾، بحيث أن هذه الأسس الثلاثة تجسد الروح التعاونية والمسؤولية الاجتماعية التي كانت ولا تزال حاضرة في الثقافة المغربية تجاه الموارد المائية.

تتعلق مسألة الفقه حول الانتفاع بالمياه في المنازل أو الأراضي الخاصة، وتنطلق من أن الأصل في المياه والموارد الطبيعية هو الإباحة العامة للانتفاع، ما لم يكن هناك ضرر على المالك أو يتعارض مع حقوقه الخاصة، وفي هذه الحالة، يُسمح للناس بالاستفادة من المياه لأغراض مثل الاستقاء، وغسل الثياب، وغيرها من المنافع العامة التي لا تتطلب تغييرات في البنية التحتية (العمارة)، بشرط عدم الإضرار بصاحب المكان دون السقي.

أما استخدام الموارد الخاصة بالإسلام فيجب مبدأ احترام الملكية الخاصة، وهو مبدأ أساسي في الشريعة الإسلامية، مثل المواجل التي يستخدمها الناس في الأحياء والأزقة لسحب المياه بواسطة القرب أو غيرها من الأوعية هي موارد خاصة، ولا يجوز للناس الانتفاع بها إلا بإذن أصحابها، ويعني ذلك أن الملكية الخاصة لهذه المواجل تمنح أصحابها

⁽¹⁾ جمال عناق: النظام المائي ومنشأته (إقليم الزاب - إفريقيا - نموذجاً)، المرجع السابق، ص 74.

⁽²⁾ المرجع نفسه، ص 74.

حق التصرف فيها، وبالتالي لا يحق لأي شخص آخر أن يستخدمها أو ينتفع منها بدون الحصول على الإذن. (1)

أما ما يتعلق بمسألة الانتفاع بالمياه من الآبار التي يتم حفرها خصيصاً للماشية، فإن أصحاب هذه الآبار لهم الأولوية في استخدام مياهها لتروي ماشيتهم أولاً، ثم يكون الماء المتبقي بعد ري الماشية متاحاً للناس. (2)

2- الأرض الصالحة للزراعة:

كما أكد العلماء على ضرورة قرب المدن من الأراضي الصالحة للزراعة التي تعتبر من أهم مصادر القوت سواء في الأرياف والمدن، بحيث يعتبر مصدر الغذاء للسكان، كما تعتبر من الموارد التي تنشط الحركة الاقتصادية للمدن، بحيث أشاروا إلى ضرورة أن يحيط بالمدينة سواد (أرض زراعية) يزود أهلها بالمواد اللازمة (3)، والمحراث الطيب أي الأرض الصالحة للزراعة. (4)

حظيت مدن بلاد الزاب بوفرة البساتين وخصوبة أراضيها، وهو ما مكنها من تحقيق قدر كبير من الأمن الغذائي لسكان هذا المجال الواسع، فضلاً عن تنشيط الحركة الاقتصادية التي كانت تمثل عصب الحياة في هذه الحواضر، وقد تنوعت المحاصيل الزراعية بشكل لافت، نتيجة الاهتمام البالغ الذي أولاه السكان المقيمون في مدن وقرى إقليم الزاب لهذا القطاع الحيوي، مستفيدين من توافر عنصر الماء وخصوبة التربة، وهما عاملان أساسيان أسهما في اتساع الرقعة الزراعية وتنوع منتجاتها، حيث أطنب الرحالة والجغرافيون

(1) أبو العباس أحمد الفرستائي (ت 504هـ / 1110م): القسمة وأصول الأرضين، تح: بكير بن محمد الشيخ بلحاج، محمد صالح ناصر، ط 2 نشر جمعية التراث، غرداية، 1997م، ص 548-549.

(2) سحنون بن سعيد التنوخي (ت 240هـ / 854م): المدونة الكبرى للإمام مالك بن أنس الأصبحي رواية الإمام سحنون بن سعيد التنوخي عن الإمام عبد الرحمن بن قاسم، دار الفكر، بيروت، 1986م، ج 3، ص 289.

(3) الماوردي: المصدر السابق، ص 162-163.

(4) ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص 33. ابن القاضي أحمد: المصدر السابق، ص 42.

في وصف غنى هذه المنطقة بمحاصيلها الزراعية التي كانت تمثل العمود الفقري لمعيشة مجتمع بلاد الزاب، إذ عدت الحبوب وخاصة القمح، والشعير، والحنطة من أهم المحاصيل الزراعية لارتباطها الوثيق بالاستهلاك اليومي للسكان، كما اشتهرت المنطقة بأشجار النخيل التي وفرت التمور بأنواعها، إلى جانب الزيتون والكروم، فضلاً عن زراعة القطن والحري التي ساهمت في النشاط الاقتصادي بالمنطقة، وإلى جانب ذلك تنوعت المنتجات الزراعية الأخرى التي جعلت من بلاد الزاب واحدة من أغنى الأقاليم الزراعية في واحات المغرب الأوسط خلال العصر الوسيط، وركيزة أساسية في تزويد الحواضر المجاورة بمختلف المواد الزراعية.

امتازت مدينة طبنة بكثرة مواردها المائية⁽¹⁾ وبالتالي كثرة البساتين والزرور من القطن والحنطة والشعير، كما توفرت فيها أنواع الحبوب الأخرى التي وصفت بالغزيرة، كما شهدت المدينة كثرة النخل⁽²⁾ التي أعطت إنتاجاً وافراً من التمور بمختلف أصنافها، فضلاً عن تنوع الفواكه المزروعة⁽³⁾، ومن أهم مزروعات مدينة طبنة القطن والكتان⁽⁴⁾، وكانت واحة الماشية من البقر والغنم وسائر الكراع والنعم⁽⁵⁾، وبها بساتين يسيرة ملاصقة للبرص⁽⁶⁾، هذا الازدهار الزراعي جعل من مدينة طبنة مدينة عامرة بالأسواق القائمة ومزارع وغلات الجمة.⁽⁷⁾

(1) أبو الفداء: المصدر السابق، ص 139.

(2) الإدريسي: **نزهة المشتاق**، المصدر السابق، ج 01، ص 263. ينظر أيضاً: أبو الفداء: المصدر نفسه، ص 139.

(3) مجهول: **الاستبصار**: المصدر السابق، ص 172.

(4) ابن حوقل: المصدر السابق، ص 86.

(5) المصدر نفسه، ص 85.

(6) البكري: **المغرب**، المصدر السابق، ص 50.

(7) الإدريسي: **وصف إفريقيا الشمالية والصحراء**، المصدر السابق، ص 66.

أما قاعدة وطن الزاب إبان فترة الدراسة بسكرة⁽¹⁾ فهي بلاد نخيل وزرع ومنها تجلب أصناف التمر إلى حاضرتي تونس وبجاية⁽²⁾، فامتازت المدينة بوفرة وجودة منتوجاتها وبساتينها الكثيرة التي بها أجناس التمور⁽³⁾، وبها من التمر كل غريب وطريف⁽⁴⁾، وأكثر ثمرها الكسبا وهو موجود بمدينة رسول الله صل الله عليه وسلم، وبها أيضا جنس آخر يعرف أيضا باللياري وهو أبيض وأملس وكان صاحب القيروان يأمر عماله بالمنع عن بيعه، وبعث ما هناك إليه لطيبه وحسنه⁽⁵⁾، وأجناس كثيرة يطول ذكرها⁽⁶⁾، حتى أصبحت تعرف ببسكرة النخيل⁽⁷⁾، ويرجع هذا الوصف لكثرة نخيلها⁽⁸⁾ وجودة تمورها، بينما مدينة تهوذة فهي مدينة تمتاز كذلك بكثرة البساتين والنخيل و تنوع الزرع وجميع الثمار⁽⁹⁾، ومدينة المسيلة تعتبر أيضا مدينة عامرة في بسيط من الأرض، ولها مزارع ممتدة أكثر ما يحتاج إليها، ولأهلها جنات وعيون وفواكه وبقول ولحوم ومزارع قطن وقمح وشعير⁽¹⁰⁾.

لقد ساهمت المنتجات الزراعية التي جادت بها أرباض وبساتين إقليم الزاب في بقاء مدنه واستمرار عمرانها، بل وفي توسعها وازدهارها، فعلى الرغم مما لحق هذه المدن أحيانا من تخريب العنصر البشري نتيجة الاضطرابات السياسية أو الصراعات القبلية، فإنها كانت سرعان ما تستعيد حيويتها وعمرانها بفضل امتلاكها أسباب البقاء؛ والمتمثلة في خصوبة

(1) عبد الرحمان ابن خلدون: المصدر السابق، ج06، ص 585

(2) ابن سعيد المغربي (ت 685هـ / 1286م): **بسط الأرض في الطول والعرض**، تح: خوان قرنيط خينيس، مطبعة كريماديس، معهد مولاي الحسن، تيطوان، المغرب، 1958م، ص 60.

(3) البكري: المغرب، المصدر نفسه، ص 52-53.

(4) الإدريسي: **نزهة المشتاق**، المصدر السابق، مج01، ص 264. ينظر أيضا: الإدريسي: **وصف إفريقيا الشمالية والصحرى**، المصدر السابق، ص 66.

(5) مجهول: **الاستبصار**، المصدر السابق، ص 173.

(6) البكري: المغرب، المصدر السابق، ص 52.

(7) الياقوت الحموي: المصدر السابق، مج01، ص 182.

(8) العياشي: المصدر السابق، مج02، ص 539.

(9) مجهول: **الاستبصار**، المصدر نفسه، ص 174.

(10) الإدريسي: **نزهة المشتاق**، المصدر نفسه، مج01، ص 254.

أراضيها، ووفرة مياهها، وكثرة بساتينها ومحاصيلها الزراعية التي شكلت قاعدة اقتصادية صلبة بالمنطقة، وهكذا ظلت مدن الزاب ووحداتها مطمرة المدن المجاورة بفضل مواردها الطبيعية والزراعية الغنية.

3- المحطب القريب:

لا مراء أن الحطب يعتبر عنصرا مهما لا بد أن يهتم سكان المدن والبوادي بتوفيره، لما له من منافع في الحياة العامة كالطبخ والاصطلاء، أما الخشب فقد يستغل في تسقيف البيوت، حيث اعتمد كثيرا في المجال العمراني، وأشار كل من ابن أبي زرع وابن القاضي والماوردي وحتى ابن خلدون، إلى ضرورة القرب من المحطب.⁽¹⁾

فمن الطبيعي أن تؤدي كثرة البساتين والزرع في بلاد الزاب إلى وفرة في الحطب ومواد الوقود، إذ كانت الأشجار المثمرة ولا سيما النخيل مصدرا رئيسا لهذه المادة بعد موتها أو جفافها، وكان السكان يستغلون بقايا الأشجار اليابسة وجذوع النخيل الميتة في التدفئة والطبخ، وهو ما وفر لهم موردا طبيعيا للاستخدام في الحياة اليومية، الأمر الذي يعكس مدى ارتباط النشاط الزراعي بالأنشطة المعيشية في هذه المنطقة.

4- الأمن:

اشتراط ابن خلدون عند استحداث المدن أن يراعى فيها أمان أساسيان : بداية من دفع الأضرار من خلال الحماية من المفاجآت والمخاطر، وجلب المنافع بتيسير سبل المعيشة والخدمات، فأما الحماية من الأضرار، فتتحقق بإحاطة مساكن المدينة بسياج من الأسوار⁽²⁾ حصين⁽³⁾، وباختيار موقع يصعب الوصول إليه، كأن يكون على هضبة وعرة

⁽¹⁾ ابن أبي زرع: المصدر السابق، 1973، ص33. أحمد ابن القاضي (ت 1025هـ/1616 م): جذوة الاقباس فيمن

حل من الأعلام في مدينة فاس، الرباط، 1973م، ج01، ص 42. الماوردي: المصدر السابق، ص 163. عبد

الرحمان ابن خلدون: المقدمة، المصدر السابق، ص 348.

⁽²⁾ عبد الرحمان ابن خلدون: المقدمة، المصدر نفسه، ص 348.

⁽³⁾ ابن أبي زرع: المصدر نفسه، 1973، ص33.

أو في مكان مرتفع من الجبال، بحيث لا يمكن الوصول إليه إلا عبر جسر أو قنطرة، مما يزيد من صعوبة اقتحامه ويعزز مناعته وحصانته ضد الأعداء، وهو ما اختصت به مدن الزاب بحيث بنيت على مرتفعات جبلية أو كدية من تراب وهو ما سنتطرق إليه في قادم البحث.

بحيث أن بناء المسكن بالمجال الواحي للزاب لم يكن وليد الصدفة، بل نتيجة لتفكير عميق يهدف إلى توفير مأوى يقيهم من الأخطار الطارئة طبيعية كانت أو بشرية، حيث كان سكان المدن في المناطق الصحراوية التي تتميز بالمفاجآت الخطيرة، يخططون لمنازلهم بعناية، دون أن يغفلوا عن بناء أسوار دفاعية.⁽¹⁾

مما لا شك فيه أن تأثير العمارة الإسلامية كان جليا في بناء المساكن والمنشآت العمرانية في المناطق الصحراوية، ولا سيما في مدن المجال الواحي لإقليم الزاب، فقد مثلت العمارة الإسلامية أحد أهم العوامل التي أسهمت في تطوير نمط معماري مميز ترك بصمته الواضحة على المشهد العمراني، من خلال المعالم التي لا يزال بعض منها قائما حتى اليوم، رغم ما واجهته المنطقة من تحديات طبيعية وبشرية، وقد تميزت مدن الزاب، شأنها شأن غيرها من مدن الصحراء الكبرى والمغرب الإسلامي، بإرث عمراني غني يعكس قوة هذه الحواضر وازدهارها الاقتصادي والاجتماعي، ويبرز في الوقت ذاته مدى تمسك سكانها بالنمط المعماري الإسلامي الذي لم يكن مجرد طراز بنائي جمالي، بل كان تعبيراً صادقا عن أفكارهم الدينية وقيمهم الاجتماعية.

ومن العوامل المساعدة في تشكل العمران وتوسعه الأمن بحيث تحاط المدن والقصور بالأسوار التي تحتوي على أبوابها وأبراجها، ومن بين المدن التي شهدت اهتماما بالغا

(1) سالم مصطفى: الأطلس الأثري لإقليم الزاب في العهد الإسلامي (بسكرة نموذجا)، رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في الآثار الإسلامية، معهد الآثار، جامعة الجزائر، 2008/2009م، ص74.

بالجانب الأمني نظرا للظروف الأمنية التي عاشها مسلمو المغرب الأوسط على مر الحقب التاريخية، مدن الزاب والتي سنفصل في نمطها المعماري في قادم الدراسة.

كما يؤثر في اتساع المدن وازدهارها السلطان القاهر، الذي به صلاح أهلها وتأمين سبلها⁽¹⁾، ووجب أن يكون السلطان عادلا فبذلك تصلح أحوال المدن والأمصا، وتأمين طرقها، كما يكف عنها جبايرتها، وقد جمعت بلاد الزاب هذه الخصال التي تعد كمالات للمدن وسببا في ازدهارها، وعلى ضوء ما سبق يتضح جليا من خلال وصف الجغرافيين بلاد الزاب أن كل هذه الشروط التي وضعها المفكرون تتوفر في المنطقة.⁽²⁾

2- أثر الصراعات السياسية في بناء العمارة الحربية:

لا يختلف اثنان أن الصراعات العسكرية هي السبب الرئيسي في تدمير المدن واندثار معالمها العمرانية، سواء كانت من القوى الخارجية مثل الروم، أو من القبائل البربرية، أو حتى بين الدويلات الإسلامية المتناحرة، وبسبب هذه الحروب، لم يبق اليوم سوى بعض الأطلال والآثار القليلة في بلاد الزاب والتي تجعل دراستها أمرا صعبا، إذ لم تحفظ المعالم العمرانية بشكل كاف، مما يعوق استنباط القيم الجمالية والمعمارية التي ميزت فترة محل الدراسة، مما يفرض علينا الرجوع إلى المصادر المكتوبة والوثائق التاريخية والجغرافية التي تزخر بوصف المدن التي ازدهرت ثم خربتها الحروب، لمحاولة إعادة بناء صورة تقريبية لما كانت عليه تلك المدن في أوجها.

(1) أحمد ابن القاضي: المصدر السابق، ج 01، ص 42. ينظر أيضا: عبد الأحد السبتي، حليلة فرحات: المدينة في العصر الأوسط قضايا ووثائق من تاريخ الغرب الإسلامي، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، 1994م، ص ص 15-17.

(2) ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص 33. أحمد ابن القاضي: المصدر نفسه، ص 42.

أوصى أهل العلم بالحذر والحيلة والاهتمام الشديد بالعمارة الحربية أيام الحرب والحصار، وهذا ابن منكلي يوصي بجملة من الوصايا فقال "... فالاحتراس من المحاصرة: جمع الطعام والأعلاف والمتاع والحطب وآلة الحرب، وأداة الصناعة، والحديد والصخور، والخشب، وحفر الآبار للماء إن خافوا عوز الماء أو جمعه أيام الأمطار في الصحاريج" ⁽¹⁾، فالحصار هو المنع والضغط والخنق، وهنا يمنع على هذه المدينة ممارسة الحياة اليومية والأنشطة الاقتصادية والعمرانية، مما يخلق سوء في التغذية ونقصا فيها، وعلى هذا المنوال تتضرر كل الأنشطة سواء الاجتماعية أو الاقتصادية أو العمرانية. ⁽²⁾

أمام القرائن التي توحى على عمق الأثر الذي تركته العمارة الحربية، والدور البارز في ترسيخ الطابع العسكري والدفاعي للمدن، يمكن القول إن الاضطرابات السياسية، والصراعات القبلية، فضلا عن الهجمات الخارجية المتكررة التي عرفت المنطقة، سواء في الفترة المدروسة أو قبلها، ساهمت بشكل مباشر في ترسيخ هذا الطابع المعماري الحربي وجعله سمة بارزة في المشهد العمراني لبلاد الزاب.

لم يكن بناء المسكن بالمجال الواحي للزاب عشوائى، بل نتيجة تفكير عميق يهدف إلى توفير مأوى يقيهم من الأخطار الطارئة طبيعية كانت أو بشرية، حيث كان سكان المدن في المناطق الصحراوية التي تتميز بالمفاجآت الخطيرة، يخططون لمنازلهم بعناية، دون أن يغفلوا عن بناء أسوار دفاعية. ⁽³⁾

⁽¹⁾ محمد ابن منكلي الناصري: الحيل في الحروب وفتح المدائن وحفظ الدروب، تح: نبيل محمد عبد العزيز أحمد، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، 2000م، ص 379. ينظر أيضا: الحسين بن عبد الله العباسي (ت 710هـ/1310م): آثار الأول في ترتيب الدول، تح: عبد الرحمن عميرة، بيروت، دار الجيل، ط1989، ص 369.

⁽²⁾ خالد بلعربي: إمضاءات حول تاريخ المغرب الأوسط في العصر الوسيط، دار النشر الجامعي الجديد، تلمسان،

2018م، ص 115.

⁽³⁾ سالم مصطفى: المرجع السابق، ص 74.

وبلاد الزاب مثلها مثل العديد من المدن الصحراوية، كانت عرضة للهجمات والغارات التي تسببت في تدمير المنازل وقلع الأشجار وتغيير الآبار، وهذا الوضع دفع سكانها إلى التفكير بجدية في حماية أنفسهم وأملاكهم، فكان من أولوياتهم عند تخطيط مدينتهم هو مراعاة إمكانية التوسع دون تجاوز الأسوار، لذا تجنبوا بناء المنازل خارج الأسوار وتركوا فراغات كبيرة بين سور وآخر، باعتبار أن السور الداخلي هو السور الحقيقي الذي يختص بقوته وارتفاعه، أما السور الخارجي فيكون أقل قوة وارتفاعاً ويسمى بالستارة، وبهذه الطريقة تحولت المدن الصحراوية، ومنها مدن الزاب، إلى قلاع وحصون محصنة.⁽¹⁾

حيث تمتعت بلاد الزاب بتحسينات دفاعية متطورة، والتي جاءت كرد فعل على التهديدات الخارجية بسبب أهميتها التجارية والثقافية. فقد كانت هذه المدن مراكز حيوية في المغرب الإسلامي، مما جعلها هدفاً دائماً للغزوات.

تطورت الاستحكامات الدفاعية في مدن الزاب نتيجة لحاجة السكان للحماية من الغزاة والهجمات المحتملة، فقد كانت هذه المدن مراكز تجارية وثقافية هامة، وبالتالي كانت معرضة للهجمات والغزوات الخارجية، فامتازت المدينة ببلاد الزاب بالتحصينات الدفاعية المتشكلة من الأسوار والخندق، وهذا ما لفت انتباه الرحالة الجغرافيين فذكروا في كتاباتهم التحصينات التي اختصت بها مدن وقصور هذه المنطقة.

2-1 المنشآت الحربية:

من خلال دراستنا للكثير من القصور الصحراوية لاحظنا الاهتمام البالغ للجماعة المؤسسة للقصر أو المدينة بالجانب الأمني ولعله من الشروط الأساسية في العمارة التي

⁽¹⁾ عبد الحميد سعد زغلول: تاريخ المغرب العربي من الفتح إلى بداية عصر الاستقلال (ليبيا، تونس، الجزائر،

المغرب)، دار المعارف، الإسكندرية، 1993م، ج1، ص 187.

ورد ذكرها عند أبي زرع، وابن خلدون، وابن القاضي وهو السور الحصين، علما أن المدينة أو القصر إن لم تهتم بهذا الجانب عجل خرابها.

كان التحصين عنصرا مهما في تكوين المدن واستقرارها منذ العصور القديمة، وقد كان يلعب دورا حاسما في ضمان الأمن والحماية لسكان المدينة وثرواتها، ولذلك كان يشغل اهتماما كبيرا من الجغرافيين، وقد يشير الجغرافيون إلى أنظمة التحصين المعمارية مثل الأسوار والأبراج الدفاعية والخنادق كعناصر أساسية لتأمين المدن ضد الهجمات الخارجية، كما أن نوع المواد المستخدمة في بناء التحصينات كان يعكس طبيعة البيئة المحيطة والموارد المتاحة، مما يساهم في فهم العلاقة بين المدن وبيئتها الطبيعية، كما كان التحصين يؤثر أيضا على تصميم وتخطيط المدن، حيث يمكن أن يؤدي الاهتمام بالأمن إلى ترتيب المباني والطرق بطريقة تسهل الدفاع وتحمي السكان.

أولى المسلمون اهتماما كبيرا باختيار الموقع الجغرافي باعتباره وسيلة من وسائل الحماية للمجتمعات، كما اهتم ببناء الهياكل الدفاعية لتعزيز حماية وتأمين مدنها من التهديدات الخارجية، والتي يعتبرها الإسلام ببناء الواجب⁽¹⁾، ومن أهم العوائق الدفاعية: الأسوار والحصون والخنادق والرباطات.

بعد الاستقرار الإسلامي في بلاد المغرب الإسلامي على العموم والمغرب الأوسط على وجه الخصوص باشر المسلمون ترميم المدن والأسوار التي عقيبتهم، أو اختطاط مدن وأسوار جديدة وهم على وعي بأهمية البنية التحتية للمدينة محاولين تعزيز القدرة الدفاعية لتلك المدن نظرا للظروف السياسية والمذهبية الراهنة في تلك الفترة.

(1) عثمان محمد عبد الستار: المدينة الإسلامية، عالم المعرفة سلسلة كتاب الثقافة، الكويت، 1988م، ص 121 -

أ- الحصون والأربطة:

الحصون لغة مفرد لها حصن وهو كل مكان منيع لا يوصل إلى ما في جوفه⁽¹⁾، وجمع الحصن أحصان وحصون وهو المكان الذي لا يقدر عليه لعلوه، وهو موضع حريز لا يوصل إلى ما فيه، والحصن المدينة المحصنة والحصن المنيع.⁽²⁾

أما اصطلاحاً فعرفها ابن الحاج النميري في قوله: "بأنها مباني شامخة بديعة، متقنة الصنع راتقة المنظر متناثرة عبر الصحراء القاحلة"⁽³⁾، وهي عمائر حربية في العمارة الإسلامية التي اهتم المسلمون بتشبيدها، بغرض الحماية من الأعداء، كما تتمتع هذه الحصون بالصلابة والمتانة.⁽⁴⁾

أما الربط لغة فهو كلمة مشتقة من فعل ربط الشيء يربطه، أي شده ووثقه ضد حله⁽⁵⁾، كما هو ما تشد به الدابة والقربة وغيرها، ويقال أيضاً رباط الخيل⁽⁶⁾، أما المدلول الاصطلاحي فيعني الحصن والمكان الذي يربط فيه الجند للحراسة للدفاع عن الدولة أو

(1) خليل با أحمد الفراهدي (ت 170هـ / 786م): كتب العين، تح وترت: هنداي عبد الحميد، دار الكتاب العلمية، بيروت، لبنان، ط01، 1424-2003م، ج01، ص 325.

(2) عاصم محمد رزق: معجم مصطلحات العمارة والفنون الإسلامية، مكتبة مدبولي، مصر، ط01، 2000م، ج01، ص 81.

(3) ابن الحاج النميري: المصدر السابق، ص 96.

(4) علياء عكاشة: العمارة الإسلامية في مصر، منشورات بردي، مصر، 2008م، ص 88.

(5) إكرام شقرون: "مصطلح الرباط المفهوم والدلالة"، مجلة كان التاريخية، دار شري للنشر الإلكتروني، ع 18، ديسمبر 2012م، ص 69.

(6) عاصم محمد رزق: المرجع نفسه، ص 115.

الإمارة، وهو مرابطة العدد وملازمة الثغور⁽¹⁾، أو باختصار فالرباط هو المكان أو الثكنة التي تستدعي الدفاع عن الإيمان.⁽²⁾

اختصت بسكرة بتحصينات قوية جعلتها مركزا رئيسا في المنطقة، ووصفت بأنها مدينة مسورة⁽³⁾، بسور منيع في كدية تراب عال⁽⁴⁾ وهذا لحمايتها من الهجمات، بالإضافة إلى خندق يعزز مناعتها الدفاعية⁽⁵⁾، أما مدن بنطيوس، طولقة، ومليلي كانت محصنة بأسوار وخنادق، مما يعكس الأهمية العسكرية والاستراتيجية لهذه المدن في بلاد الزاب⁽⁶⁾، ومدينة تهوده كواحدة من المدن المهمة في بلاد الزاب، كان لها سور عظيم مبني بالحجر الجليل، وهو ما يعكس مدى تحصينها وأهميتها الاستراتيجية⁽⁷⁾، أما مدينة باغاية فتميزت بتحصينات قوية، حيث كانت محاطة بحصن من صخر، إضافة إلى سور آخر حول ربضها⁽⁸⁾، كما شهدت مدينة طبنة تحصينات متنوعة عبر العصور، حيث اختلفت مواد البناء المستخدمة في أسوارها من الطوب الذي كان من المواد الشائعة في بناء الواحات

(1) محمد بن أحمد الأزهرى (ت 370هـ / 981م): تذهيب اللغة، تح: أحمد عبد المنعم البردودي وعلي محمد البجاوي، الدار المصرية، القاهرة، د س ن، ج13، ص 338.

(2) العربي عقون: الأمازيغ عبر التاريخ، نظرة موجزة عن الأصول والهوية، التنوفي للطباعة والنشر، المغرب، ط01، 2001م، ص 47.

(3) الياقوت الحموي: المصدر السابق، ج01، ص 422. ينظر أيضا: الحميري: المصدر السابق، ص ص 113-114.

(4) الإدريسي: نزهة المشتاق، المصدر السابق، ص 264.

(5) البكري: المغرب، المصدر السابق، ص ص 52-53.

(6) المصدر نفسه، ص 72. ينظر كذلك: الحميري: المصدر نفسه، ص ص 400-401. ينظر كذلك: الطاهر طويل: المدينة الإسلامية وتطورها في المغرب الأوسط، المتصدر للترقية الثقافية والعلمية والإعلامية، الجزائر، 2011م، ص 107.

(7) مجهول: الاستبصار، المصدر السابق، ص174.

(8) البكري: المغرب، المصدر نفسه، ص 144.

الصحراوية، نظرا لتوفره وسهولة استخدامه⁽¹⁾، والحصن القديم كان محاطا بسور من الصخر الجليل الضخم متقن البناء⁽²⁾

اهتم سكان بلاد الزاب بالجانب الدفاعي حفاظا على أمن أنفسهم وممتلكاتهم نظرا للأوضاع السياسية والمذهبية السائدة بالمنطقة، ويتجلى هذا الاهتمام في وجود بعض الحصون بالمنطقة نذكر منها:

- **حصن الوطاية:** تبرز معطيات رحلة ابن الحاج النميري، التي دونها أثناء مرافقته للسلطان المريني أبي عنان إلى بلاد الزاب، العديد من ملامح العمارة الدفاعية الرياحية ببلاد الزاب، التي شكلت سمة مميزة لتلك المرحلة، ومن أبرز ما ورد في هذا السياق وصفه التفصيلي لحصن الوطاية، الذي كان من أشهر الحصون في تلك الفترة، ويعد نموذجا واضحا للتحصين المعماري الذي تبنته القبائل الهلالية في المنطقة، وقد وصفه النميري بقوله: "وهذا الحصن كان قرّة عين ليعقوب بن علي، ومنه كانت أقواته المرغدة، ومراقده المسعفة المسعدة، ومرافقه المنتخبة، وأعظم ذخّر لولده المنجدة، وبجراية مياهه عظمت جرايته، وبرعي حميمه كرمّت رعايته"⁽³⁾، يعكس هذا النص ثراء إنشائها ومعماريها، كما يشير أيضا إلى أن الحصن لم يكن فقط منشأة دفاعية، بل كان أيضا مقرا مريحا، ذا مرافق اقتصادية وخدمائية تعكس المستوى العالي من التنظيم والترّف الذي بلغه بعض أمراء بني رياح في بلاد الزاب.

- **حصن فلق:** كما يورد ابن الحاج النميري في رحلته وصفا تفصيليا آخر لأحد حصون الزاب وهو حصن فلق، الذي يعتبر من أبرز النماذج المعمارية التي شيدها العرب الهلاليون في المنطقة، وقد وصفه النميري بعبارات تدل على فخامة البناء وتحصيناته المتينة، فقال عنه: "من قصورهم الشامخة التي تحمى بالطعان والضراب جوانبها... كان عالي البناء،

(1) البياقوت الحموي: المصدر السابق، مج 4، ص 21

(2) مجهول: الاستبصار، المصدر السابق، ص 172

(3) ابن الحاج النميري: المصدر السابق، ص 426.

ذاهبا كل مذهب في الإباء، متناسق الأسوار، مستوسعا بمجاثم الجدار، قد عمرت حفائره قدر ما رفعت آفقه، ولزمت أبراجه، وضيق مداخله قدر ما وسعت مجاجه، واحتوى على دور حسنت فيها المواقف والمرافق، أيادها الأسباع فلم تخرج يمينها المرافق، واستقر فيها خدام العرب".⁽¹⁾

- **حصن فرفر:** يواصل ابن الحاج النميري توثيق مظاهر العمارة الريفية الحربية الراحية، ويسلط هذه المرة الضوء على حصن فرفر، الذي كان يعد من الحصون المنيعة في بلاد الزاب، ومقرا مهما لجماهير أولاد محمد، بقيادة يعقوب بن علي، ويبرز النميري أهمية هذا الحصن، حيث شكل ملاذا آمنا لهم من الشدائد ونوائب الحياة، وكان مكانا يجمع فيه المؤمن، وتدار منه شؤون الجماعة، ومركزا اجتماعيا واقتصاديا حيويا.⁽²⁾

- **حصن ليشانة⁽³⁾:** يقع الحصن على بعد 32 كلم على مدينة بسكرة⁽⁴⁾، والذي يقع بدائرة طولقة، والذي وصفها البكري باحتوائها على أسوار وخنادق⁽⁵⁾، إلا أن المصادر أغفلت عن تاريخ بناءها، ومن المرجح أن بناءه يعود إلى الفترة الرومانية⁽⁶⁾ وبالتحديد في القرن

⁽¹⁾ ابن الحاج النميري: المصدر السابق، ص 428-429.

⁽²⁾ المصدر نفسه، ص 447.

⁽³⁾ تحول حصن ليشانة إلى قصر يضم حوالي 300 مسكن، يتميز كغيره من القصور الصحراوية بتراس المساكن وتلاصقها، وتتميز هذه المساكن بضيق مساحتها وقلة عدد غرفها، مع واجهة واحدة موجهة نحو الشارع، ويتكون كل مسكن من طابقين، حيث يخصص الطابق الأول للمساحات المعيشية، ويضم وسط البيت الذي يعتبر الأوسع مساحة، حيث تتراوح أبعاده بين 3 إلى 4.5 متر، بالإضافة إلى المطبخ، وغرفة استقبال الضيوف، أما الطابق العلوي فيحتوي على الغرف، ويضم السطح، وهو المساحة المفتوحة التي تستغل للتهوية والإنارة الطبيعية، كما يستخدم لتجفيف الملابس. ينظر: رقية بعد الصمد: **"حماية المعالم الأثرية الوطنية بالجزائر - مبانى ليشانة بسكرة"**، مجلة التراث والتصميم، مج 05، ع 16، أفريل 2025م، ص 140.

⁽⁴⁾ أمشري بشي: **الاتجاهات الشعرية عند أحمد سحنون**، رسالة مقدمة لنيل دكتوراه دولة في الادب الجزائري الحديث، جامعة الجزائر، 2006/2007م، ص 26.

⁽⁵⁾ البكري: **المغرب**، المصدر السابق، ص 52 - 53.

⁽⁶⁾ فويدر جهينة بو خليفي: **"منطقة الزيبان دراسة طبيعية جغرافية"**، مجلة قبس للدراسات الاجتماعية والإنسانية، مج 06، ع 02، أكتوبر 2022م، ص 1465.

02م⁽¹⁾، وأعيد بناؤه في القرن الثالث هجري أثناء حكم قبيلة بني رومان نظرا للصراع بين قبائل بلاد الزاب والدولة الفاطمية، إلا أن الحصن لم يبق له أي أثر⁽²⁾، يتجلى في قصر ليشانة البعد المعماري العميق، حيث بني على هضبة عالية وفق المبادئ والأسس التي تناولها ابن خلدون وغيره من المفكرين، مراعيًا في تصميمه البعد الأمني والاستراتيجي، وتمتد مدينة ليشانة التي بها القصر على مساحة تقارب 39 كلم²، تتخللها أزقة ضيقة ومتعرجة تضيف على المكان طابعا تاريخيا مميزا.⁽³⁾

- **حصن أوماش**⁽⁴⁾: يقع موضع أوماش جنوب غرب مدينة بسكرة على بعد نحو 20 كلم⁽⁵⁾، وقد أشار إليه ابن خلدون في معرض حديثه عن أيام حكم بني مزني أمراء بسكرة بقوله: "... ونزل أوماش من قراه (يقصد الزاب) وبها حصن"⁽⁶⁾، ويبدو أن هذا الحصن شيد خلال فترة حكم بني مزني، وهي مرحلة اتسمت بانتشار الفوضى وانحطاط أحوال الرعية نتيجة جور الملوك واستبدادهم⁽⁷⁾، غير أن هذا المعلم الدفاعي لم يبق له اليوم أي أثر مادي يذكر، مما يجعل وصفه من خلال المصادر التاريخية أمرا في غاية الصعوبة لقلة الشواهد التي تحافظ على ذكره.

(1) رقية عبد الصمد: المرجع السابق، ص 139.

(2) أسالم مصطفى: المرجع السابق، ص 96.

(3) رقية عبد الصمد: المرجع نفسه: ص 139.

(4) أوماش: مدينة من مدن بسكرة سكنها العرب من دواودة: ينظر: عبد الرحمان ابن خلدون: المصدر السابق، ج 06، ص 516.

(5) عبد الملك خرامة: التسبيب الإداري بالمرافق العمومية دراسة حالة بلدية أوماش، مذكرة مقدمة ضمن متطلبات نيل شهادة الماستر (في التسيير)، كلية العلوم الاقتصادية والتجارية وعلوم التسيير، جامعة محمد خيضر، بسكرة، ص 42.

(6) عبد الرحمان ابن خلدون: المصدر نفسه: ص 516 - 517.

(7) M.G. de Vulpillieres, Monographie de BISKRA de du SAHARA. Constantinois, P22.

- **حصن بشر:** يعد حصن بشر من القلاع الهامة في أعمال بسكرة، وقد وصفته المصادر بأنه قلعة عامرة، وحصن جليل، ومقل جميل، له عمارات متعددة، غير أن هذا الحصن استبدت عليه الجماعات الهلالية، التي فرضت عليه سلطة الغلبة، فانتقلت السيطرة عليه من المجتمعات الريفية المحلية إلى القبائل العربية. وقد "غلبوا على أهله، فصار في أيدي العرب، وهي تحكمه وتعمره".⁽¹⁾

- قصبة طولقة:

ويقدم لنا النميري شكلا آخر من أشكال العمران الحربي في طولقة، متمثلا في قصبة الأقالام لصاحب المدينة عبد الرحمن الطولقي، وقد أورد وصفا دقيقا لها، حيث قال: "قصبة طولقة التي اشتهرت في البلاد، ناكبها دروع، وقبضت المنعة يدها إباء عن الانقياد، واطمأنت بها مفاصل فصل الجياد، وسنت من الاستعداد... موشحة العطفين، لكنها بالعدد الوافرة الأعداد"،⁽²⁾ يظهر من هذا الوصف مدى الاهتمام بالجانب الأمني لعمارة بلاد الزاب وقوة التحصينات الدفاعية للقصبة.

ب- الأسوار:

مما لا شك فيه أن مدن المغرب الإسلامي بشكل عام، ووحدات المغرب الأوسط على وجه الخصوص، كانت محصنة بأسوار تحيط بها، وذلك بهدف حمايتها من الهجمات الخارجية، حيث أن: "جمع أسوار سيران، وسرت الحائط سورا وتسورته إذا علوته، وتسور الحائط تسلقه، وكذلك هو السور لأنه يحيط بالمدينة"⁽³⁾، وهو تحصين دفاعي يلي الخندق

⁽¹⁾ الإدريسي: **نزهة المشتاق**، المصدر السابق، مج01، ص 270. ينظر أيضا: عمارة علاوة: **"بين حيل أوراس والوحدات"**، المرجع السابق، ص268.

⁽²⁾ ابن الحاج النميري: المصدر السابق، ص 435.

⁽³⁾ ابن منظور: المصدر السابق، ج04، ص ص 385-386.

ويكون السور خشبيا أو حجريا يحيط بالمدينة باعتباره خط دفاعي عدا الخندق⁽¹⁾، ويعتبر السور أحد أهم التحصينات الدفاعية لما له من أدوار هامة في تأمين المدن والقصور عبر التاريخ، حيث يشكل حاجزا دفاعيا يمنع الاختراق السهل للمدينة أو القصر⁽²⁾، ومن أهم الشروط التي يجب مراعاتها في تخطيط المدن الإسلامية هو إحاطة المدينة بسور أو حائط المدينة، والسور في المدن الإسلامية ليس فقط كوسيلة دفاعية ضد الهجمات الخارجية، بل أيضا كرمز للوحدة والتماسك الاجتماعي داخل المدينة الواحدة، فهو يعمل على خلق بيئة محمية ومترابطة، مما يعزز من شعور الأمان والانتماء بين سكان المدينة⁽³⁾.

تتنوع أشكال الأسوار بحسب الزمان والمكان والتقنيات المتاحة، وتختلف مواد البناء في الأسوار كالحجارة الضخمة عند الرومان والبيزنطيين، كما استعمل الطوب النقي والحجارة وجدوع النخيل لتدعيمها⁽⁴⁾، بحيث استخدمت الأسوار للتحكم في عملية الدخول والخروج من وإلى المدينة، ولقد عرفت الأسوار منذ القدم بنوعين هما: الميداني والثابت أو السور الميداني الذي يقام على عجل في زمن الحرب، والسور الثابت فكان يقام في زمن السلم

(1) خضرة كرميش: العمران العسكري في المغرب الإسلامي (بين الوظيفة العسكرية والدينية) لربط أنموذجا، مذكرة مكملة لنيل شهادة ماستر أكاديمي تخصص تاريخ الغرب الإسلامي في العصر الوسيط، جامعة حمد بوضياف، المسيلة، 2021/2020م، ص 09.

(2) الحميري: المصدر السابق، ص 45. أنظر كذلك: الأيوبي مقدم هيثم: مقال الأسوار، الموسوعة العسكرية، دار الفارس للنشر والتوزيع، المؤسسة العربية، بيروت، ط2، 1990، ج4، ص 458. ينظر كذلك: الشريف الإدريسي: وصف إفريقيا الشمالية والصحراوية، المصدر السابق، ص 66.

(3) سعيد ناصف: علم الاجتماع الحضري (المفاهيم - القضايا - المشكلات)، تق: محمود عودة، قسم الاجتماع، كلية الأدب، جامعة عين شمس، ط1، 2006م، ص64.

(4) الطيب كريم: المرجع السابق، ص 91.

ويكون دائما ويعتبر عنصر من عناصر التخطيط العمراني للمدينة وهو أقوى من الأسوار الميدانية. (1)

ج- الخندق:

يعتبر الخندق أحد الوسائل الأمنية الأساسية والهامة في الدفاع منذ العقود الغابرة وشكل من أشكال الدفاع، بحيث اعتمده الرسول صل الله عليه وسلم للدفاع عن المدينة (2)، وتستخدم الخنادق لحماية الحصون والمدن من الاعتداءات الخارجية واكتشف أقدمها بتل الصوان بالعراق ويعود للألف السادسة قبل الميلاد (3)، حيث يتم حفره في الأرض بأعماق مختلفة لتوفير حماية للمقاتلين وتأمين ظروف ملائمة للرمي ورصد حركة العدو (4)، ومع مرور الزمن تطورت فكرة الخندق لتصبح جزءا من الفنون العسكرية، حيث يتم تصميمه واستخدامه بشكل استراتيجي لتحقيق أقصى درجات الحماية والفعالية في الميدان العسكري. (5)

ولا يمكن الفصل بين الخنادق والأسوار، إذ يرتبطان ارتباطا وثيقا بوصفهما عنصرين متكاملين في منظومة الدفاع الحضري، فبينما يشكل السور الحاجز المنيع الذي يحمي المدينة من الاقتحام، يأتي الخندق ليضيف حاجزا طبيعيا أو محفورا من طرف سكان المدينة لتعزيز مناعتها ويصعب الوصول إلى أسوارها، ونظرا للأهمية البالغة للجانب الأمني عمد المسلمون إلى تطوير الأسوار وزيادة ارتفاعها وسمكها، مما يسهل للمسلمين الفتك من

(1) عبد العزيز صلاح سالم وآخرون: "أنواع التحصينات والاستحكامات الدفاعية للمنشآت الحربية الإسلامية في شمال المغرب في عصر الموحدين والمرينيين"، مجلة البحوث والدراسات الأثرية، ع 10، مارس 2022م، ص 508. ينظر كذلك: الطاهر طويل: المرجع السابق، ص 190.

(2) عثمان محمد عبد الستار: المرجع السابق، ص ص 52-53.

(3) فاروق محمد علي: الاستحكامات الدفاعية في تخطيط المدن، أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه، جامعة بغداد، العراق، 2006م، ص 14.

(4) أسعيد محمد رعد: الموسوعة العسكرية، مقال الخندق، دمشق، 1985م، ج 02، ص 137.

(5) المرجع نفسه، ص 172.

أعدائهم عند الاقتراب من أحد زوايا السور⁽¹⁾، وفي هذا الصياغ أشارت العديد من المصادر الجغرافية، كالبكري، والحميري، والإدريسي، وصاحب كتاب الاستبصار، إلى الوسائل الدفاعية التي اعتمدتها المدن الإسلامية ببلاد الزاب، إذ جمعت السور بالخندق وهذا ما سنعتمد عليه في وصف الأسوار والخنادق التي حظيت بها مدن الزاب، إلا أن المعطيات الأثرية الدفاعية والتي تعود إلى الحقبة الإسلامية تكاد تكون منعدمة نظرا لتعرض المنطقة لعدة عوامل طبيعية أو بشرية ساهمت في طمس هذه المعالم الأثرية مما يصعب على الباحث الوصف الدقيق لهذا النوع من العمارة.

كانت جل مدن الزاب تعتمد على توظيف الآثار القديمة والهياكل البنائية السابقة كجزء من النظام الدفاعي، أو حتى في عمليات البناء لتعزيز المناطق الدفاعية، كمدينة بادس التي تعتبر واحدة من هذه المدن التي اعتمدت في تحصيناتها على أنقاض الأولين، وهذا ما أشار إليه صاحب الاستبصار عند وصفه للمدينة القديمة التي فيها آثار الأولين وذكر أن لها حصنان⁽²⁾، أما تهوده فهي مدينة قديمة أزلية عليها سور عظيم مبني بالحجر الجليل⁽³⁾، ويذكر المراكشي: "تهوذة بنيانها من الحجارة".⁽⁴⁾

بحيث وصفت المصادر الجغرافية احتواء أغلب مدن الزاب على الوسائل الدفاعية الضرورية كالسور والخندق، فذكرت بسكرة التي تعد قاعدة بلاد الزاب، وأعظم مدنه، حيث كانت مسورة عليها خندق⁽⁵⁾، كما أشارت إلى مدينة بنطيوس أيضا كان عليها أسوار

(1) عبد العزيز سالم السيد: بحوث إسلامية في لتاريخ والحضارة والآثار، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط 01، 1979م، ج2، ص22. ينظر كذلك: الشريف الإدريسي: وصف إفريقيا الشمالية والصحراوية، المصدر السابق، ص 66، ينظر كذلك: الطاهر طويل: المرجع السابق، ص190.

(2) مجهول: الاستبصار، المصدر السابق، ص 175.

(3) المصدر نفسه، ص 174.

(4) ابن عذاري: المصدر السابق، ج01، ص56.

(5) البكري: المغرب، المصدر السابق، ص52.

وخنادق، وهو الحال بالنسبة لطولقة المتشكلة من ثلاث مدن أحيطت كلها بخنادق وأسوار⁽¹⁾، أما مدينة بادس⁽²⁾ فكان لها حصان⁽³⁾، في حين وصفت مدينة تهوذة بالمدينة الأولية (الأزلية) شيد بنيانها بالحجارة⁽⁴⁾، وهي مدينة كبيرة لها حصان وعليها سور عظيم مبني بالحجر الجليل وخندق⁽⁵⁾ كان سكانها إذا كان بينهم وبين من يجاورهم حرب حولوا مجرى النهر إلى الخندق المحيط بالمدينة فامتنعوا به من عدوهم.⁽⁶⁾

مما لا شك فيه أن المواد المستعملة في بناء الأسوار ببلاد الزاب من المواد المحلية المتاحة مع اختلاف مصادرها، وهذا الاختلاف في مواد البناء يرتبط بالمحيط الجغرافي الذي وجدت فيه هذه المدن⁽⁷⁾، ولعل المصادر الجغرافية تحدثت على المواد المستعملة في البناء والتي انحصرت بين الطوب والآجر والحجارة، فمدينة طبنة وهي مدينة كبيرة قديمة لها سور كبير مبني من الطوب⁽⁸⁾ كما احتوت على حصن قديم عليه سور من صخر جليل

(1) الحميري: المصدر السابق، ص 401.

(2) بادس بكسر الدال المهملة وسين غير معجمة، اسم لموضعين بالمغرب، أحدهما موضع من فاس أي بادس فاس على البحر قرب فاس، وثانيهما بادس الزاب، وبادس الزاب حسب البكري حصان، بينها وبين تهوذا مرحلة وبينها وبين نفطة مرحلتان عبر قيطون بياضة، وأضاف الحموي أن لها جامع وأسواق، وبادس من المدن التي شكلت نوعا من الحصون، وستبقى هذه المدينة محافظة على حصانتها ودورها إلى غاية عهد الشريف الإدريسي في القرن السادس الهجري، وحسبه تقع المدينة أسفل طرف جبل أوراس على بعد ثلاث مراحل من بسكرة، وتحكم العرب سيطرتها عليها، وتمنع أهلها من الخروج عنها إلا بخفارة رجل منهم، وتعد بادس مع مدينة تهوذة أعظم مدائن المغرب ينظر: البكري: المغرب، المصدر السابق، ص 74، ينظر كذلك: الحموي: المصدر السابق، ج 01، ص 317. ينظر كذلك: الحميري: المصدر السابق، ص 75، ينظر كذلك: الإدريسي الشريف: وصف إفريقيا الشمالية والصحراوية، المصدر السابق، ص 66، ينظر كذلك: مجهول: الاستبصار، المصدر السابق، ص 175. وأيضا: طويل الطاهر: المرجع السابق، ص 108.

(3) البكري: المغرب، المصدر نفسه، ص 74، ينظر كذلك: الحميري: المصدر نفسه، ص 75. ينظر كذلك: الطاهر طويل: المرجع نفسه، ص 108.

(4) ابن عذارى: المصدر السابق، ج 01، ص 56. ينظر: البكري: المغرب، المصدر نفسه، ص 72. ينظر كذلك: الطاهر طويل: المرجع نفسه، ص 109.

(5) مجهول: الاستبصار، المصدر نفسه، ص 174.

(6) البكري: المغرب، المصدر نفسه، ص 72.

(7) ابن قرية: المرجع السابق، ص 226-227.

(8) البكري: المغرب، المصدر نفسه، ص 50. ينظر أيضا: الحموي: المصدر السابق، مج 04، ص 21.

ضخم متقن البناء من عمل الأوائل⁽¹⁾، وأشار أبو الفداء أن عليها سورا من تراب⁽²⁾، وكذلك مدينة طولقة وبنطيوخس استخدم الطوب في بناء أسوارهما⁽³⁾، كما أستخدم الآجر في بناء أسوار مدينة بسكرة⁽⁴⁾، أما مدينة تهوده فشكلت الحجارة المادة الأساسية في بناء أسوارها.⁽⁵⁾ كما أن بعض المدن الإسلامية ببلاد الزاب على غرار مدينة المسيلة التي كانت محاطة بسورين ومدينة باغاي التي كانت محاطة أيضا بسورين هي الأخرى من الحجر واللذان اعتمدتا على تقنيات دفاعية متقدمة من خلال بناء أسوار مزدوجة، وهذا التدبير يعكس الوعي الاستراتيجي بأهمية تعزيز الحماية، خاصة وأنها المناطق المكشوفة في سفوح منبسطة والتي قد تكون أكثر عرضة للهجمات، واستخدام الأسوار الحجرية لدى ساكنة المدينة يعكس أيضا الاهتمام الكبير بمتانة وديمومة هذه الدفاعات.⁽⁶⁾

د - المداخل الأبواب:

قد يحتوي القصر على باب واحد أو عدة أبواب كقصر بسكرة، ويخضع فتح الباب وغلقة إلى عدة ضوابط خاصة أيام النكبات خوفا من دخول الغرباء، وقد يضطر سكان القصر إلى تغيير حجم أو مكان الباب خاصة بعد ذكر الفائدة من ذلك، ويصعب هذا بالقصور العامة لصعوبة إقناع الكل.

كانت أسوار المدينة في منطقة الزاب تمتلك بنية دفاعية قوية، حيث كانت تضم مداخل وأبوابا رئيسية تعكس هذا الطابع العسكري، و تستخدم الأبواب للسيطرة على حركة الدخول والخروج من المدينة، وكذلك لتوجيه الحياة الاجتماعية والاقتصادية داخلها، ومما

(1) مجهول: الاستبصار، المصدر السابق، ص 172.

(2) أبو الفداء: المصدر السابق، ص 139. ينظر أيضا: الإدريسي: نزهة المشتاق، المصدر السابق، ص 263.

(3) البكري: المغرب، المصدر السابق، ص 72. ينظر أيضا: الحموي: المصدر السابق، مج 04، ص 21.

(4) الحموي: المصدر نفسه، ج 01، ص 422.

(5) مجهول: الاستبصار، المصدر نفسه، ص 174.

(6) الهادي روجي إدريس: المرجع السابق، ج 01، ص 67-77.

لا شك فيه أن هذه الأبواب والمداخل قد وضعت في الأماكن الاستراتيجية، مما يسهل على السلطات المحلية مراقبة الحركة وتنظيمها، وسميت الأبواب بأسماء الشوارع التي تنطلق إليها، وقد تسمى بأسماء مؤسسات ومباني عتيقة، أو على شخصية معروفة كاسم ولي صالح أو والي أو سلطان، فمدينة بسكرة احتوت على ثلاث أبواب التي أشار إليها البكري كباب المقبرة وباب الحمام نسبة إلى الإتجاهات المؤدية إلى تلك المناطق، أما الباب الثالث فلم يذكر إسمه وسماه بالآخر⁽¹⁾، سكنه المولودون⁽²⁾.

أما قصر طولقة فيحتوي على بابين كبيرين رئيسيين يفتح أحدهما في الجهة الشمالية والآخر في الجهة الجنوبية، وبالإضافة إلى هذين البابين، يوجد باب ثالث يعتبر أقل أهمية ويفتح في الجهة الشرقية من المنشآت القصرية، ويربط بالواحة، كما استخدم الخشب في بناء الأبواب، واختيار اسم البلد لهذه الأبواب يعكس ارتباط سكان القصر بالعمق التاريخي والثقافي للمكان الذي يقطنون به، كما ترمز هذه الأبواب إلى القوة والحماية التي يوفرها القصر خاصة وأنها تقفل عند غروب الشمس وتفتح عند طلوع الفجر، ويعكس هذا الاهتمام الكبير بالأمان والحفاظ على القصر وسكانه في أوقات الليل، ويعزز الشعور بالأمان والاستقرار داخل المجتمع.⁽³⁾

بينما طبنة فلها أبواب كثيرة، نذكر منها باب خاقام الذي بني بالحجر عليه باب حديد، وهو سري أي ربما كان يستخدم للأغراض السرية أو الخاصة، وباب الفتح غربي

(1) البكري: المغرب، المصدر السابق، ص52.

(2) الحميري: المصدر السابق، ص114.

(3) الطيب كريم: تطور العمران، المرجع السابق، ص159. يبدو أن الباحث مبارك قبالة قد جانب الصواب عند حديثه عن المعالم العمرانية في منطقة الزاب، حيث أخطأ بين قصر طولقة وقصر ليشانة الواقع إداريا ضمن دائرة طولقة، فقد نسب أبواب القصر التي ذكرها إلى قصر ليشانة، في حين أن هذه الأبواب تعود في الأصل إلى قصر طولقة كما ذكر الطيب كريم، ويرجح أن هذا الالتباس ناتج عن التقارب الجغرافي بين الموقعين. ينظر: مبارك قبالة: تطور مواد وأساليب مواد البناء في العمارة الصحراوية، مذكرة مكملة لنيل شهادة الماجستير في علم الآثار، تخصص الآثار الصحراوية، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة محمد خيضر، بسكرة، 2009/2010م، ص 58.

عليه باب حديد أيضا، وهو سري أيضا، والباب الجديد عليه باب حديد أيضا، وباب كتامة جوفي، وخارج المدينة باب الفتح على سور مضروب على فحص فسيح يكون مقدار ثلثي مدينة طبنة، من دون شك أن هذه الأبواب تمثل جزءًا من التحصينات التي كانت تحيط بالمدينة، وتوفر حماية لها مع نقاط دخول وخروج استراتيجية. (1)

هـ - الأبراج:

الأبراج مفردها برج القصر المحصن، كما يطلق مصطلح البرج على ركن الحصن، والبرج هو الذي يبنى على سور المدينة أو القلعة، والذي يكون مربعا أو مستدير يعتصم به المقاتلون لرصد الأخطار ورسم معالم الطرق. (2)

تعتبر الأبراج جزءا من التحصينات المعدة للدفاع بحيث لا تخلو الأسوار في غالب الأحيان منها، باعتبارها جزء أساسي منها بحيث تستعمل للمراقبة وتنفيذ الرميات أيام القرع، وقد أولى المسلمون أهمية بالغة لهذا العنصر الدفاعي منذ العصور الأولى حفاظا على أرواح المسلمين وممتلكاتهم (3)، وقد تنوعت الأبراج وتعددت فمنها من يكون ملحقا بأسوار المدينة أو القسبة أو القلعة ومنها من يكون منفصلا ليشكل حاجزا بعيدا عن التجمع السكاني. (4)

أغفلت المصادر الجغرافية ذكر هذا النوع من العمارة إذا ما استثنينا ما جاء به النميري في وصف القصور الرياحية، حين أشار إلى توزع الأبراج حول قصر عثمان بن علي بن أحمد الرياحي، بحيث احتوى القصر على خمسة أبراج، أربعة في أركانه والخامس

(1) البكري: المغرب، المصدر السابق، ص 50.

(2) محمدو ولد همر: المرجع السابق، ص 267.

(3) عاصم محمد رزق: المرجع السابق، ص 34.

(4) حسين أحمد الخرهوري: الأبراج ثرات وتاريخ، مطبعة النخيل، الإمارات العربية المتحدة، 1998م، ص 12.

فوق باب القصر أبيض منير كعمود الصبح⁽¹⁾، ومن دون شك أن هذه الأبراج شيدت لغرض أمني قصد حماية عرب الذواودة، وباعتمادنا على مبدأ عمومية التاريخ على خصوصية الحدث فلا يمكن غياب الأبراج عن الأسوار الكثيرة ببلاد الزاب رغم تعرضها للتخريب والهدم، بحيث كان مصيرها الزوال وهو الأمر الذي جعل منا غير قادرين على إعطاء دراسة شاملة لهذا العصر المعماري الهام في العمارة العسكرية.

3- أثر المجتمع الهلالي في العمارة:

يعتبر العامل البشري من العوامل الجوهرية المؤثرة في تطور العمران أو تدهوره، إذ تختلف تجلياته وأسبابه بين البناء والهدم، فعندما يتعلق الأمر بالتطور والازدهار يكون مرتبطا أساسا بنمط الحياة الخاصة بالسكان، كما أنها تعكس ذلك التطور للحياة الريفية التي تنتقل من التنقل والرعي عبر النمط المعيشي البدوي إلى حياة الاستقرار والتحضر ببناء المدن والقصور حتى تصبح جزءا منها، وبطبيعة الحال وجب على المستقرين في الحضر التخلي عن العصبية القبلية والاندماج في حياة الحضر.

لم يكن بناء المسكن في واحات المغرب الأوسط وليد الصدفة، بل نتيجة لتفكير عميق يهدف إلى توفير مأوى يقيهم من الأخطار الطارئة طبيعية كانت أو بشرية، حيث كان سكان المدن في المناطق الصحراوية التي تتميز بالمفاجآت الخطيرة، يخططون لمنازلهم بعناية، دون أن يغفلوا عن بناء أسوار دفاعية، وبلاد الزاب مثلها مثل العديد من المدن الصحراوية، كانت عرضة للهجمات والغارات التي تسببت في تدمير المنازل وقلع الأشجار وتغویر الآبار، وهذا الوضع دفع سكانها إلى التفكير بجدية في حماية أنفسهم وأموالهم، فكان من أولوياتهم عند تخطيط مدينتهم هو مراعاة إمكانية التوسع دون تجاوز الأسوار، لذا

(1) ابن الحاج النميري: المصدر السابق، ص ص 413 - 114.

تجنبوا بناء المنازل خارج الأسوار وتركوا فراغات كبيرة بين سور وآخر، وبهذه الطريقة تحولت المدن الصحراوية، ومنها مدينة بسكرة، إلى قلاع وحصون محصنة.⁽¹⁾

مما لا شك فيه أن تأثير العمارة الإسلامية في بناء المساكن في المناطق الصحراوية، مثل مدن المجال الواحي للزاب، وكانت العمارة الإسلامية من أبرز العوامل التي ساهمت في تطوير نمط معماري مميز ترك بصمته الواضحة من خلال المعالم العمرانية التي لا يزال البعض منها قائماً حتى اليوم، بالرغم من التحديات المختلفة، ومدن الزاب كغيرها من المدن الصحراوية، تزخر بإرث عمراني غني يعكس قوة المنطقة ومدى تمسك سكانها بالنمط المعماري الذي يعبر عن أفكارهم المرتبطة بالدين والمجتمع.

كان موضوع تأثير هجرة بني هلال وبني سليم وغيرهم من القبائل العربية على بلاد المغرب، وخاصة في مناطق الزاب والمغرب الأوسط. محل خلاف بين المؤرخين، فبينما يرى بعضهم أن هذه الهجرات كانت سببا رئيسيا في تراجع العمران والزراعة بسبب ما رافقها من اضطرابات ونهب، ومنهم من رأى القدوم الهلالي كان له آثار إيجابية خاصة من حيث الاندماج الثقافي بين العرب والبربر وما نتج عنه من حركة التعريب التي من خلالها تفقه البربر في الدين، ففي الآثار السلبية وصف ابن خلدون هذه الهجرات على بلاد الزاب، مصورا خراب المدن والقرى نتيجة لتحركات هذه القبائل بقوله: "وعاجوا على ما هنالك من الأمصار مثل طبنة والمسيلة فخرجوا، وأزعجوا ساكنيها وعطفوا على المنازل والقرى والضياح والمدن وتركوها قاعا صفصفا أقفر من بلاد الجن وأجوف من جوف العير وغوروا المياه، واحتطبوا الشجر، وأظهروا في الأرض الفساد، وهجروا ملوك إفريقية"⁽²⁾، بينما ابن

⁽¹⁾ مصطفى سالم: المرجع السابق، ص 74.

⁽²⁾ عبد الرحمان ابن خلدون: المصدر السابق، ج 06، ص 27. ابن عذاري: المصدر السابق، ج 01، ص 318.

عذاري ربط قدومهم بتراجع الحياة الزراعية، واضمحلال العمران بالمغرب الأوسط وبلاد الزاب.⁽¹⁾

رغم وصف ابن خلدون لهذا التخريب وما له من أهمية تاريخية إلا أننا نرى أن هذا الوصف لا يخلو من المبالغة لأن طبيعة الغزو الهلالي لم تكن دائماً تدميرية بحتة، بل ارتبطت بعمليات استيطان واندماج تدريجي مع السكان المحليين.

أما عن نظرة الدراسات الاستشراقية خاصة الفرنسية منها فكتبت بأكثر عدوانية على هذا الوافد الجديد، ويسير على نهجها المستشرق الفرنسي ألفريد بال (Alfred Bell) الذي عرف بدراساته حول تاريخ المغرب والإسلام في شمال إفريقيا عندما يجعل العرب الهلالية السبب الرئيسي لما آلت إليه أوضاع المغرب وخصوصاً فيما يخص تعريب القبائل البربرية.⁽²⁾

حمل المستشرق الآخر ليسيان غولفا (Lucien Golvin) القبائل الهلالية مسؤولية ما سماه انحطاط ونهاية حضارة المغرب الوسيط بتأثيرهم السلبي على مختلف الأنشطة الاقتصادية⁽³⁾، وحمل روجي لوتورنو (Roger Le Tourneau) العرب طرد البربر من أراضيهم بعد تحويلها من أرض زراعية إلى رعوية⁽⁴⁾، وعلى نفس النهج سار المؤرخ

⁽¹⁾ ابن عذاري: المصدر السابق، ج 01، ص ص 317-318.

⁽²⁾ Alfred Bel ,la religion musulmane en Berbérie esquisse d'histoire et de socialoge religieuse, paris, librairie orientaliste paul Geuthner,1938,vol,I,p 209.

⁽³⁾ Lucien Golvin, la maghreb certral à l'époque des ziriades , recherches d' archéologie et d'histoire paris ars métiers graphiques,1957,p307-314.

⁽⁴⁾ Roger Le Tourneau, north a frica in historical perspective, dams Gurrent problems in north africa, princeton Univarsity conference, 1959, p 04.

غاستون وايت (Gaston Wait) الذي شتم العرق العربي واتهمهم بقطاع الطرق وحملهم مسؤولية تدمير البنية الاقتصادية والسياسية للمغرب وتخريب المحاصيل الزراعية.⁽¹⁾

يرى آخرون أن الوضع السياسي والاقتصادي كان متدهورا بالفعل قبل قدوم هذه القبائل، وأنها لم تكن سوى عاملا مسرعا لهذه التغيرات، إذ يذكر النويري عن هذه الأوضاع تفاصيل تؤكد أن تدهور العمران في بلاد المغرب لم يكن حصرا بسبب دخول قبائل بني هلال، بل كان نتيجة لعوامل متعددة تراكت عبر الزمن، فقد أشار إلى أن الصراعات المستمرة بين الزيريين والحماديين من جهة، وبينهم وبين قبائل زناتة من جهة أخرى، أضعفت الدولة ومهدت لانحيار النظام السياسي القائم، كما أن التنافس المذهبي بين السنة والشيعية أضاف بعدا آخر من التوتر الذي زاد من هشاشة السلطة المركزية، إضافة إلى ذلك، فإن استقدام المعز بن باديس لقبائل رياح العربية لم يكن فعلاً عبثياً، بل كان محاولة منه لتعزيز نفوذه وسط بيئة سياسية مضطربة، لكن في المقابل أدى ضعف الدولة إلى خروج بعض المقاطعات عن السيطرة واستقلالها، مثل منطقة الحضنة وبلاد الجريد، وهو ما يعكس أن تفكك العمران كان نتيجة لعوامل داخلية قبل أن يكون بسبب القبائل العربية الوافدة.⁽²⁾

لم تكن القبائل الهلالية لبني رياح مجرد قبائل بدوية تميل إلى التخريب، كما نسب إليهم في الروايات السابقة، بل كانوا فاعلين في البناء والتعمير، وتركوا بصمتهم في العمارة والمجتمع في بلاد الزاب، وعليه فإن النظرة المتوازنة للأحداث التاريخية تستوجب التعامل

⁽¹⁾Roger Le Tourneau, Grandeur d'islam de mahomet à Francoise, Paris, la table ronde 1961, p 198-203.

⁽²⁾أشار النويري إلى الخراب الذي أحدثته القبائل الهلالية ببلاد المغرب، إلا أن دخولهم أرض المغرب وجدوها أرضاً خالية طيبة عمارتها أهل زناتة أبادها المعتز. النويري: المصدر السابق، ج 09، ص ص117.

مع هذه الروايات بحذر مع الأخذ بعين الاعتبار العوامل الأخرى التي أسهمت في تدهور العمران في بلاد الزاب.

تناولت الدراسة التاريخية لابن الحاج النميري التراث العمراني لقبائل بني رياح الهلالية في منطقة الزاب وأطرافها، وأشار إلى الأدلة الأثرية والتاريخية لتوضيح دور هذه القبائل في بناء القصور والمعالم المعمارية، مما ينافي الفكرة السائدة عنهم بأنهم كانوا مجرد بدو مخربين.

تعتمد الدراسة على طوبونيمية العمارة العربية، وتوظف المنهج الوصفي لتسليط الضوء على الهندسة المعمارية التي قام بنو مزني بتطويرها، وتخلص الدراسة إلى نتيجة هامة وهي أن ليس كل العرب الذين جاؤوا من المشرق كانوا بدواً مخربين، بل ساهموا في تطوير الحضارة وبناء منشآت معمارية مدهشة، كما في حالة بني رياح الذين بنوا قصوراً أثارت إعجاب المؤرخين أمثال ابن الحاج.

استخدم النميري تعابير مجازية قوية تعبر عن النعيم والجمال في تلك الأماكن والقصور العربية وما يحيط بها من الجنات، والتي تعرف فيها السعادة والرفاهية على وجوه ساكنيها، كما أن هناك الطيور التي ترفرف حولها في جو من السحر والهواء النقي بقوله: "حفت بهذا القصر جنات تعرف في وجوها نظرة النعيم وحدائق تسهل ألفات غصونها ألسنة النسيم".⁽¹⁾

كانت أسرة بني مزني جزءاً من القبائل الهلالية التي دخلت شمال أفريقيا خلال فترة الهجرة العربية الكبرى، وبسكرة أصبحت فيما بعد مقراً لهم وأصبغوها بلون تحضرهم، حيث

⁽¹⁾ ابن الحاج النميري: المصدر السابق، ص 414.

اندمجوا مع المجتمع المحلي وتحضروا بعد فترة من الاستقرار، اهتم ابن خلدون بتوثيق التاريخ الاجتماعي والسياسي لهذه الأسرة، خاصة خلال فترة تواجده في المنطقة.

في السياق التاريخي والاجتماعي للعنصر الهلالي، يتجلى لنا دور العنصر الهلالي في البناء والتعمير بدلا من التخريب أو الفساد، وذلك من خلال بناء القصور وممارسة سلطة اجتماعية تقليدية قائمة على الولاء الضريبي، كما يتضح لنا دور القبائل الهلالية في ربط المنطقة بالثقافة السائدة التي تتجسد في الهوية الثقافية المبنية على المذهب المالكي وتعزيز اللغة العربية.⁽¹⁾

(1) عمارة علاوة: "التحولات المحاللة"، المرجع السابق، ص21.

4- الصراع السياسي وأثره في خراب العمران ببلاد الزاب:

4-1 الصراعات القبلية وأثرها في خراب العمران:

لا مرأ أن عمران بلاد الزاب أصيب بنكسات عميقة تمثلت في خراب العديد من مدنه، رغم ما بلغته من ازدهار عمراني واقتصادي في فترات سابقة، جراء الحروب التي حلت بها فقد تعرضت هذه المدن لسلسلة من الحملات العنيفة التي انتهت بخرابها واندثار عمرانها، ومن أجل الوقوف على الدوافع الحقيقية التي أدت إلى هذا الخراب، كان من الضروري الرجوع إلى أبرز المصادر الإخبارية التي تناولت هذه الأحداث وتحليل رواياتها. من بين أهم العوامل التي تؤدي إلى هلاك المدن وتعطيل عمرانها الصراعات السياسية والعسكرية، سواء كانت داخلية أو خارجية، وتشمل هذه الصراعات الحروب التي اندلعت بين إمارة وأخرى، أو بين قبيلة وأخرى، بل وحتى بين الأفراد، فالحرب في جوهها تمثل مظهرا من مظاهر الويل والخراب مما ينعكس سلبا على استقرار المجتمعات وعمرانها. (1)

أكد العلماء أن الصراعات السياسية والقبلية المؤدية إلى الحرب تعتبر أمرا طبيعيا حيث ارتبطت هذه الأحداث بظاهرة التمدن الذي حقر كل أعمال البدو. (2)

فابن خلدون يعتبر أن الظلم ظاهرة غريزية في البشر وهو أمر طبيعي منذ أن خلق الله الأرض ومن عليها، ومصدرها غريزة انتقام البشر من بعضهم البعض، وأما في المدن

(1) أبي نصر إسماعيل بن حماد الجوهري (ت398هـ/1007م): الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية مرتب ترتيبا ألفبائيا وفق أوائل الحروف، دار الحديث، القاهرة، 2009م، ص235.

(2) رضوان زيرار ونصر الدين بن دادو: "الحرب القبلية في بلاد المغرب الأوسط خلال القرنين (07-09هـ/13-15م)

15م) من خلال المصادر الوسيطية"، المجلة الجزائرية للمخطوطات، مج 18، عدد خاص، ديسمبر 2022م، ص 208.

والأمصار فعدوان بعضهم على بعض تدفعه الحكام والدولة⁽¹⁾، وأما العدوان الذي يأتي من خارج المدينة فيدفعه سياج الأسوار عند الغفلة⁽²⁾، وهذه الظاهرة تعتبر أمراً طبيعياً للبشر، بحيث أن نعمة القرابة وأهل الأرحام بين مختلف أفراد القبيلة الواحدة بات أمراً طبيعياً بحيث تعد من الأمور الفطرية للمجتمعات القبلية، فعندما يتعرض أحد أفراد القبيلة إلى ظلم أو عدوان أو تلحقه غضاضة، تتحرك في نفوس الأقارب والأرحام مشاعر العصبية القبلية، فيود كل فرد منهم لو يحول بين قريبه وبين الهلاك، بل يعمل جاهداً لحمايته ودفع الضرر عنه. (3)

لم تقدم لنا المصادر التي تناولت الظاهرة القبلية لبني هلال، سواء في مرحلة القبيلة التي اتخذت البداوة والترحال نمط عيشها، أو في سياق اندماجها ضمن بنية اجتماعية حضرية مستقرة، في مجملها سوى إشارات متناثرة وإيضاحات جزئية لا ترقى إلى التحليل العميق أو التوثيق الشامل، وغالبا ما جاءت هذه الإشارات في سياق سردي يركز على تحركات السلاطين أو القوى المركزية نحو المجالات التي تتمركز فيها هذه القبائل، لا بهدف دراسة أو فهم هذه المجموعات، وإنما في إطار التوسع السلطوي أو حملات التأديب كرحلة أبي عنان.

أما المصادر التي تطرقت إلى هذه القبائل في كثير من الأحيان تصفها كقوى مدمرة ومصدر للتمرد والعنف، تعيش على السلب والنهب، ولا تستقيم لها طاعة ولا يستقر لها حال، وقد وصفت بالعيث والفساد، وسفك الدماء⁽⁴⁾، والتجروء على السلطان، بل إن بعض

(1) عبد الرحمن ابن خلدون: المقدمة، المصدر السابق، ص 127.

(2) المصدر نفسه، ص 127.

(3) المصدر نفسه، ص 128.

(4) عبد الرحمن ابن خلدون: العبر، المصدر السابق، ج 06، ص 21.

المصادر ربطت بينها وبين الفتن الداخلية والأزمات السياسية التي عصفت بمدن المغرب الإسلامي، ما جعلها تبدو في أعين المؤرخين كتجسيد للفوضى وخراب العمران.⁽¹⁾

يرى بعض الباحثين أن النمط القبلي لقبائل بني هلال يرتبط ارتباطا وثيقا بنمطي الترحال والرعي، اللذان لا يشجعان بطبيعتهما على الاستقرار وإقامة بنى اقتصادية منتجة ودائمة، فالحياة الرعوية القائمة على التنقل المستمر بحثا عن الكأ والماء، لا تتيح للقبيلة فرصة التوطن أو الانخراط في أنشطة اقتصادية مستقرة كالزراعة أو الحرف.⁽²⁾

وفي هذا الإطار، فإن اقتصاد القبيلة كان في كثير من الحالات قائما على الاكتفاء بما تحصده من غاراتها على المجتمعات المجاورة، سواء من حيث الغنائم أو الموارد المنهوبة، وهو ما يعرف باقتصاد المغازي⁽³⁾، وقد شكل هذا الاقتصاد وسيلة أساسية لتأمين احتياجات الجماعة، بل وكان في أحيان كثيرة مدخلا لتوسعها الجغرافي على حساب القبائل

(1) عبد الرحمان ابن خلدون: المصدر السابق، ج06، ص 21. ينظر أيضا: ابن عذار: المصدر السابق، ج01، ص 319.

(2) البشير بوقاعدة: "الهجرة الهلالية وإشكالية التراجع الحضاري للمغرب الأوسط الحمادي - قراءة نقدية في مخلفاتها

التدميرية"، مجلة العبر للدراسات التاريخية والأثرية في شمال إفريقيا، مج 08، ع 01، جانفي 2025م، ص 23.

(3) اقتصاد المغازي: يعرف اقتصاد الغزو بمصطلحات متعددة لدى الباحثين والمؤرخين، إذ يشار إليه عند بعض

المؤرخين المستشرقين بمصطلح اقتصاد الحرب، بينما يعرف عند الباحث عبد الله العروي باقتصاد الغزو، ويطلق عليه هشام جعيط اقتصاد الغنيم، ورغم اختلاف هذه التسميات، فإنها جميعا تحيل إلى مضمون واحد: الاعتماد على الموارد التي يتم الحصول عليها بالقوة العسكرية من خارج المجال الاقتصادي المنتج، أي عن طريق النهب والغارات. ينظر:

إبراهيم القادري بوتشيش: حلقات مفقودة من تاريخ الحضارة في الغرب الإسلامي، دار الطليعة للطباعة والنشر،

بيروت، لبنان، 2006م، ص 11. عبد الكريم حساين: "حضور الانثروبولوجيا الدينية في كتابات إبراهيم القادري

بوتشيش: حلقات مفقودة من تاريخ الحضارة في الغرب الإسلامي - بمونجا"، مجلة انثروبولوجيا الأديان، جامعة

تلمسان، الجزائر، 2020م، ص 566. رابح رمضان: "اقتصاد الحرب والمغازي وأثاره بالاندلس خلال فترة الفتح

والولاة"، مجلة المعارف للبحوث والدراسات التاريخية، جامعة الوادي، الجزائر، 1435هـ/2016م، ص 216.

الأخرى، مما أفضى في بعض الحالات إلى تمكينها من بلوغ مراكز القرار السياسي، وانتقالها من موقع الهامش إلى مركز السلطة.⁽¹⁾

إن ظاهرة الصراع القبلي أصبحت ظاهرة أكثر انتشارا في مجتمع المغرب الإسلامي عموما وبلاد الزاب لا يخرج عن هذا المجال، بحيث يرجع ابن خلدون سبب هذا الصراع إلى اتساع المجال الجغرافي لقبيلة زناتة وكثرة بطونها، باعتبار أن مواطنها القبلية عبارة عن مجموعات رعوية متنقلة.⁽²⁾

تظهر بعض المصادر التاريخية بشكل صريح مظاهر التخريب التي لحقت بالمدن والقلاع في إقليم الزاب جراء غزو القبائل الهلالية وصراعها مع قبيلة زناتة على المجال الواسع الرعوي لبلاد الزاب، لاسيما على يد قبائل رياح وزغبة، بحيث يصف لنا ابن خلدون ما فعله بنو هلال في بلاد الزاب فيقول: "...واستباح العرب وزناتة خزائن الناصر ومضاربه... ثم لحقوا بالقلعة فنازلوها وخربوا جنباتها وأحبطوا عروشها، وعاجوا على ما هنالك من الأمصار، ثم طبنة والمسيلة فحربوها وأزعجوا ساكنيها، وعطفوا على المنازل والقرى والضيع والمدن فتركوها قاعا صفصفا أقفر من بلاد الجن وأوحش من جوف العير، وغوروا المياه واحتطبوا الشجر وأظهروا في الأرض الفساد، وهدروا ملوك أفريقية والمغرب من صنهاجة وولادة أعمالها في الأمصار، وملكوا عليهم الضواحي يتحيفون جوانبهم ويقعدون لهم بالمرصاد، ويأخذون لهم الإتاوة على التصرف في أوطانهم."⁽³⁾

⁽¹⁾ رضوان زيرار ونصر الدين بن دادو: المرجع السابق، ص 198. ينظر أيضا: كمال خلفات: "أثر هجرة العرب الهلالية إلى المغرب الأوسط على الحائنين الاقتصادي والاجتماعي"، مجلة العلوم الاجتماعية والانسانية، مج 10، ع 01، 2020م، ص 132.

⁽²⁾ عبد الرحمان ابن خلدون: المصدر السابق، ج 06، ص 134.

⁽³⁾ المصدر نفسه، ص 27. عبد الحليم عويس: دولة بني حماد صفحة رائعة من التاريخ الجزائري، دار صحوت، دار الوفاء، القاهرة، ط 1990، 02م، ص 131. ينظر أيضا: حسين مؤنس: تاريخ المغرب وحضارته، المرجع السابق، مج 01، ص 622.

كما يشير النويري إلى أن قدوم القبائل الهلالية إلى بلاد المغرب كان له الأثر البالغ في تدهور الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية، فقد عمدوا إلى شن الغارات المتكررة، وقطعوا السبل التي ربطت الحواضر بالبوادي، كما خربوا المرافق، وأتلفوا الزرع، واجتثوا الشجر، ولم يكتفوا بذلك بل حاصروا المدن، وخربوا الضواحي حتى ضاق بالناس الحال، واشتدت عليهم المحن، وتعدرت الأسفار، فانقطعت من خلالها حركة التجارة. (1)

ومن دون شك أن الصراع القبلي بين القبائل العربية الوافدة والقبائل البربرية كان له تأثير كبير على المدن والمناطق الزراعية، مما أدى إلى تحولات عميقة في النسيج الاجتماعي والاقتصادي، كما تسبب في انتشار البداوة على حساب الاستقرار الحضري، بحيث لم يسلم من هذه الحروب القبلية شجر ولا حجر، ولا إنسان ولا حيوان، بحيث خلف الهالليون من ورائهم أرضا قفرا وعمرانا. (2)

فمن أبرز نتائج الهجرة الهلالية صراعها القبلي خلال القرن السادس الهجري (12م) تدمير العمران وركود النشاط الاقتصادي، حيث تراجعت التجارة واندثرت مراكز حضرية كبرى مثل قلعة بني حماد، التي كانت عاصمة الحماديين وأحد أهم المراكز الاقتصادية والثقافية في ذلك الوقت، كما فقدت القيروان مكانتها كمركز تجاري رئيسي وأصبحت مجرد محطة عبور بعد أن كانت مدينة مزدهرة، مما أدى إلى انتقال الحركة التجارية تدريجيا نحو المناطق الساحلية الأكثر أمانا، مثل بجاية وتلمسان، التي أصبحت مراكز اقتصادية بديلة (3)، فرغم بقاء العديد من المدن في المغرب الأوسط وبلاد الزاب على حالها، إلا أنها تأثرت

(1) النويري: المصدر السابق، ص 119.

(2) حكيم قدور طاهري ومسعود بلاغازي: "عوامل وأسباب خراب العمران بالمغرب الأوسط"، المجلة التاريخية الجزائرية، مج 07، ع 01، 2023، ص 122.

(3) عز الدين أحمد موسى: دراسات في تاريخ المغرب الإسلامي، دار الشروق، بيروت، ط1983، 01م، ص ص 16-17. ينظر أيضا: ابن الأثير: الكامل في التاريخ، المصدر السابق، ج08، ص297.

بشدة بالحروب والفتن التي شهدتها المنطقة، مما انعكس سلباً على مختلف جوانب الحياة الاجتماعية والاقتصادية والزراعية. (1)

إلا أننا نرى أن مظاهر التخريب لم تقتصر على صراعات القبائل الهلالية وتأثيراتها على العمران ببلاد الزاب فحسب، بل كان للقبائل البربرية الأثر البارز في هذا الصراع مما أفضى عليه من خراب، حيث جعلت بعض الروايات تتحدث عن الغزو والغرات والفتن التي أصبحت متأصلة في المجتمع البربري، حيث يشير القزويني في هذا الصدد إلى النمط المعيشي التي اختصت به قبائل زناتة بقوله: "هم أحفى خلق الله وأكثرهم بطشا وأسرعهم إلى الفتنة وأطوعهم لداعية الضلالة ولهم أحوال عجيبة واصطلاحات غريبة، سول لهم الشيطان الغوايات، وزين لهم أنواع الضلالات". (2)

ومن هنا نفتح المجال لطرح بعض الإشكالات حول المصادر التي حملت المجتمع الهلالي مسؤولية التخريب، ولهذا كانت هذه الحملات الشرسة على المجتمع الهلالي رغم وجود بعض الإشارات التي تتحدث على الصراع القبلي بين القبائل البربرية وما لها من أثر في خراب العمران؟، وحتى يكون الإنسان أكثر موضوعية فلا بد له أن يشير إلى أن أغلب المصادر التي كتبت على الهجرة الهلالية هي مصادر البلاط التي تخدم مصالح السلطة الحاكمة، وبطبيعة الحال فإن الدول الحاكمة في المغرب ذات أصول بربرية، كما أن الهلاليين لم تكن لهم سياسة الدعاية أو كما يسمى بالمصلح المعاصر الدعاية المغرضة تنشر لهم. (3)

(1) النويري : المصدر السابق، ج24، ص 122-123. وأيضا: محمد بن عميرة ولطيفة بشاري بن عميرة: تاريخ بجاية في ظل الأنظمة السياسية من عهد القرطاجيين إلى عهد الأتراك العثمانيين، دار الفاروق، الجزائر، ط01، 2015، ص 34.

(2) القزويني: المصدر السابق، ص 163. رضوان زيرار ونصر الدين بن دادو: المرجع السابق، ص 208.

(3) مبارك الملي: المرجع السابق، ج02، ص 186.

كما أعطانا الطاهر بونابي سببا آخر لهذه الهجمات، وهو استتكاف مؤرخي المناقب السلطانية عن جرائم ومعائب مولاه التي ساهمت في خراب العمران، محملين بدورهم الخراب لطرف آخر يخرج عن السلطة الحاكمة.⁽¹⁾

4-2 أثر الزحف المريني في خراب العمران بلاد الزاب:

لا بد من التنويه بالدور الذي لعبه الزاب خلال العصر الوسيط، والذي يبرز محورتيه في سير الأحداث في بلاد المغرب الإسلامي بحكم الموقع الطبوغرافي، إذ مثل دور الوسيط السياسي مرات عدة، ومقرا لحركات التمرد والثورة مرات أخرى، كما احتضن الحركات المناوئة للسلطة المركزية، كما أنه أيضا حضي بقاعدة اقتصادية وتباين تضاريسي.⁽²⁾

يعد كتاب "فيض العباب وإفاضة قداح الآداب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة" لابن الحاج النميري إضافة قيمة في مجال الدراسات التاريخية، حيث يقدم معطيات جديدة ودقيقة حول المغرب الأوسط، وخصوصا بلاد الزاب في منتصف القرن الثامن الهجري (14م)، بحث يشمل الكتاب على تفاصيل غنية حول تلك المنطقة، مما يعزز فهمنا للأحداث والشخصيات البارزة وللأوضاع الاجتماعية والاقتصادية آنذاك، على الرغم من وجود انحياز ملحوظ في النص لصالح حركة السلطان.

وفي هذا السياق قام السلطان المريني أبو عنان بشن حملة عسكرية على منطقتي الزاب وقسنطينة سنة (758هـ / 1357م)، إذ استقبله يوسف بن منصور بن مزني بقسنطينة، فضمه السلطان إلى طبقة وزرائه، أما شيخ الذواودة يعقوب بن علي فقد رفض ذلك بعد ما

⁽¹⁾ الطاهر بونابي: مظاهر المجال والدين والمجتمع بالمغرب الأوسط خلال العصر الوسيط، سلسلة الكتب الأكاديمية لكلية العلوم الانسانية والاجتماعية، جامعة المسيلة، الجزائر، 2017م، ج8، ص 173. ينظر أيضا: أحمد بوقاعدة والبشير بن بلخير: "القبائل العربية بالمغرب الإسلامي (ق 5هـ-11م) التواجد الهلالي بين القطيعة السياسية والأزمة الاقتصادية"، مجلة الإحياء، مج22، ع30، جانفي 2022م، ص 951.

⁽²⁾ على الهطاي: "الحغرافيا التاريخية لبلاد الزاب"، المرجع السابق، ص 09.

تبين له مناصر السلطان المريني، مما دفع السلطان إلى تجهيز حملة باتجاه بلاد الزاب بسبب تمرد عرب رياح على سلطة الدولة، بقيادة زعيمهم يعقوب بن علي⁽¹⁾، وذلك بعدما رفض يعقوب دفع الأتاوات التي يطلقون عليها الخفارة، وهو ما اعتبر تحدياً صريحاً لهيبة الدولة، وقد قابل السلطان هذا التمرد بحزم⁽²⁾، وسارع إلى قمعه واستعادة السيطرة على هذا المجال الواسع، وبعد أن تبين ليعقوب بن علي مناصر السلطان المريني، عمد إلى الزاب ولحقوا به جميعاً بالزاب، وسار يوسف بن مزني عامل الزاب ببعض الطريق أمامه حتى نزل بسكرة⁽³⁾.

وبعد وصول المرينيين إلى منطقة الزاب في منتصف القرن الثامن الهجري (14م) خلال غزوهم لتلك المناطق بعد إخضاع قسنطينة، وكان هدفهم الوصول إلى مواطن عرب بني هلال، وبالتحديد فرع بني رياح، الذين انتقلوا من الحياة البدوية والريفية إلى حياة الاستقرار والإقامة في القصور والقصبات، بحيث أضحت القصور من أهم المعالم العمرانية في منطقة الزاب، ممتدة من قصر لميس وباتنة، وطولقة، وحصون فرفر، وبسكرة وسفيان، وصولاً إلى نقاوس التي اتخذها السلطان مقراً له⁽⁴⁾.

فمن مظاهر خراب العمران ببلاد الزاب وأثر السلطة السياسية فيه ما قام به السلطان المريني أبي عنان حين عمد إلى تخريب بلاد يعقوب، حين قبضوا على مقدمها عبد الرحمان بن أحمد بإشارة من ابن مزني⁽⁵⁾، كما قطع أشجارها وهدم مبانيها غير أن يعقوب توغل في الصحراء، فعجز أبو عنان عن اللحاق به، فرجع وأقام بظاهر بسكرة ثلاثة أيام، على نفقة يوسف بن مزني، الذي تكفل بعلف جياد الجيش، وإخراج الطعام من المخازن، ثم رفع إلى

(1) عبد الرحمان ابن خلدون: المصدر السابق، ج 06، ص 593.

(2) أبي عبد الله محمد إبراهيم الزركشي (ت 794هـ / 1392م): تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، تح: محمد ماضون، المكتبة العتيقة، جامع الزيتونة، تونس، 1966م، ص 97.

(3) المصدر نفسه، 97.

(4) ابن الحاج النميري: المصدر السابق، ص 454-457.

(5) الزركشي: المصدر نفسه، ص 97.

السلطان قناطير من الذهب، كجباية سنة من الزاب، فاستحسن أبو عنان هذا العمل، فأمر بأن يخلع عليه وعلى ولده خلع مملوكية، وكساهم بالملابس الفاخرة، وأعطاهم من أجود الجياد. (1)

ومع تتبع الأحداث في كتاب ابن الحاج نفهم السياق التاريخي لبلاد الزاب ومدى تأثير التركيبة القبلية في المنطقة، بحيث يمكننا أن نكتشف مدى تأثير الوجود العربي الهلالي في المغرب بعد ثلاثة قرون من استقراره، وما إذا كان هذا الوجود قد أسهم في بناء حضارة متكاملة أو أدى إلى اضطرابات وفوضى، كما يمكننا من تقديم المقاربة الخلدونية ودور ابن خلدون كمؤرخ عاش فترة من الزمن ضمن هذا الإقليم، بحيث تعتبر رؤيته حول القبائل العربية ومكانتها في التاريخ المغربي ذات أهمية خاصة، ستساعدنا هذه المناقشة في توضيح الدور الذي لعبته القبائل في تشكيل المجتمع المغربي، والكيفية التي أثرت بها على التفاعلات السياسية والاجتماعية في الزاب.

يعد الصراع الذي خاضه السلطان المريني أبو عنان من أبرز الصراعات التي كان لها أثر بالغ على العمران والمجتمع في المغرب الأوسط ومنطقة الزاب على وجه الخصوص، فقد خلفت رحلته السعدية آثارا مدمرة على العمارة في بلاد الزاب، حيث اتسمت هذه الحملة بالتخريب المتعمد، إذ عمد السلطان وبمعية أسرة مزني إلى تدمير القصور والحصون والقلاع في بلاد الزاب والأوراس، ولعل هذا الدمار كله لم يكن سوى وسيلة لتأديب كل من شق عصا الطاعة على السلطان المريني، ولضمان الجباية لبيت مال السلطان المريني. (2)

رافق النميري رحلة الدمار والخراب التي قادها السلطان المريني، والتي انطلقت من القنطرة مرورا ببسكرة وطولقة، في محاولة لإخضاع من وصفهم بالعرب المنافقين، الذين

(1) ابن الحاج النميري: المصدر السابق، ص 434. ابن خلدون: المصدر السابق، ج 06، ص 574. الزركشي: المصدر نفسه، 97.

(2) عمارة علاوة: "التحولات المحالية والطوبونيمية لبلاد الزاب"، المرجع السابق، ص 20.

كانوا يسيطرون على الصحاري والمفاوز ⁽¹⁾، وكان أبرز هؤلاء عثمان بن علي بن أحمد الرياحي، صاحب القصر البديع الذي سمي باسمه ⁽²⁾، والذي سعى بدوره إلى إقصاء قبائل مكناسة وزناتة ولواته من المشهد السياسي، ليحكم قبضة بني رياح على السلطة السياسية والعسكرية في المنطقة. ⁽³⁾

يرى السلطان أبو عنان في غزوه لقسنطينة والزاب وسيلة لتقوية مركز الدولة واستعادة الصلاحيات التي كانت للخليفة، والطمع في استرجاع الإرث الموحي بالمفقود الذي لم يستطع والده أبو الحسن تحقيقه، بحيث تعدد شيطنة خصومه لإضفاء شرعية حملاته التخريبية ضدهم، فألصقت بالعرب الهلاليين المسيطرين على الزاب ألقاب واهية كالمنافيين، والمفسدين ⁽⁴⁾، خاصة وأن كاتب هذه الرحلة من مؤرخي البلاط المريني الذي أعطى الحق للسلطان المريني في تخريب معالم عمرانية كانت شامخة، معبرا عن ذاتيته المفرطة اتجاه السلطة السياسية التي ينتمي إليها.

رغم أن الدولة المرينية قد تكون اسما لحاضرة، فإن نفوذها في مناطق الزاب التي تسيطر عليها الزعامات الهلالية كان في الغالب شكليا، إذ أن هذه القبائل كانت تمارس سيادتها الفعلية بمعزل عن مركز الدولة، وفي ظل غياب مؤسسات تنظيمية وقانونية مركزية، يصبح السيف والغلبة المرجع الأساسي في تنظيم العلاقات الداخلية والخارجية للقبيلة، استمد الهلاليون شرعيتهم بالعصبية الموروثة من النسب والانتماء القبلي، وليس من التراتبية الإدارية أو الدينية التي تحاول الدولة فرضها، باعتبار أن هذه القبيلة تمر بصراع محتدم مع العصبية القبلية الأخرى للوصول إلى إنشاء دولة أو إمارة لكل عصبية على

⁽¹⁾ ابن الحاج النميري: المصدر السابق، ص 410.

⁽²⁾ المصدر نفسه، ص 413.

⁽³⁾ عمارة علاوة: "التحولات المحالية والطوبونيمية لبلاد الزاب"، المرجع السابق، ص 18.

⁽⁴⁾ ابن الحاج النميري: المصدر نفسه، ص 410.

حساب أخرى⁽¹⁾، وهو ما حدث بين العصبية القبلية للقبائل الهلالية وعصبية القبائل البربرية كزناتة وصنهاجة، أو داخل القبيلة الواحدة كالعصبية القبلية لبني رياح وبني مزني التي بدورها ساهمت في تخريب العمران ببلاد الزاب، لذلك فمصطلحاتهم (أولاد، أحياء، وطن) تعكس فضاء رمزيا مغلقا على الجماعة، لا يعترف بالحدود السياسية للدولة.⁽²⁾

توجه الركب السلطاني في شهر رمضان سنة 1357/هـ 1357م نحو مدينة طولقة، في إطار الحملة العسكرية التي قادها السلطان لاستعادة السيطرة على مجال الزاب، حيث دخل الحصن المعروف بحصن فرفر في 23 رمضان من السنة نفسها الموافق لـ 8 سبتمبر 1357م، حيث ألحق به أضرارا جسيمة شملت تخريبه بالكامل وردم مياهه لحرمان سكانه من موردتهم الحيوي، إضافة إلى حرق نخيله الذي كان يمثل ركيزة أساسية لاقتصاد المنطقة⁽³⁾، ولعل هذا الفعل الذي قام به أبو عنان يرجع لعدم السماح لسكان الحصن بالعودة بعد مغادرته البلاد.

وفي 28 رمضان الموافق لـ 13 سبتمبر 1357م، واصل الركب السلطاني تقدمه ليدخل حاضرة نقاوس، التي اتخذها مقرا مؤقتا لمحلته نظرا لموقعها الاستراتيجي ووفرة مواردها، قبل أن يواصل سيره في 30 رمضان باتجاه مدوكال، ثم عاد السلطان إلى مدينة نقاوس أيما حيث أدى بها صلاة عيد الفطر، ليواصل بذلك حملته العسكرية التي تركت آثارا عميقة على مدن وواحات الزاب.⁽⁴⁾

واصل السلطان المريني سياسته القائمة على تدمير المنشآت العمرانية لبلاد الزاب لا سيما تلك المنسوبة إلى قبيلة سفيان، إذ عمد إلى تغوير مياهها، وحرق بساتينها، نكاية

⁽¹⁾ رياض عزيز هادي: "مفهوم الدولة ونشوءها عند ابن خلدون"، مجلة العلوم السياسية، ع 37، د ت ن، ص 96.

⁽²⁾ عمارة علاوة: "التحولات المحالية والطوبونيمية لبلاد الزاب"، المرجع السابق، ص 18.

⁽³⁾ ابن الحاج النميري: المصدر السابق، ص ص 442-450.

⁽⁴⁾ المصدر نفسه، ص 457.

بعرب بني رياح الذين شكلوا إمارة معارضة لسلطانه، كما دخل بلدة مقرّة، إلا أنها نجت من الحرق والتخريب بفضل شفاعاة ابن مزني الذي استجيب لطلبه، كما حميت أيضا بلدة راية من المصير نفسه، أما حصون ريغة الواقعة في جبال شمال نقاوس فقد نالت نصيبا وافرا من التدمير والإذلال، ما أدى إلى إضعاف قوتها الدفاعية وتهجير جزء كبير من سكانها، وبعد أن أتم المرينيون هذه الحملة المدمرة، غادروا بلاد الزاب متوجهين نحو قسنطينة في 9 شوال 758هـ/1357م، ثم واصلوا مسيرهم عائدين إلى فاس، حيث دخلوها في غرة ذي الحجة من سنة (758هـ/1357م)، منهيين بذلك حملة تركت آثارا سلبية عميقة على المعالم العمرانية التي بذورها أثرت على النشاط الاقتصادي والاجتماعي لمدن ووحدات الزاب.⁽¹⁾

وما نخلص إليه في ختام هذا الفصل أن العمران في بلاد الزاب كان وثيق الصلة بالمجتمع البشري، في علاقة طردية تتحدد ملامحها تبعا لمدى الاستقرار السياسي والاقتصادي في المنطقة، فقد أثبتت المعطيات التاريخية أن العوامل السياسية كانت ذات تأثير مباشر في ازدهار المدن أو تدهورها، وهو ما تجلّى بوضوح في المجال الواحي لبلاد الزاب، حيث لعب الصراع بين السلطة السياسية المحلية لإمارة بني رياح والسلطة المركزية لدولة بني مرين مستعنيين بقبيلة بي مزني دورا حاسما في تحديد ما آل إليه العمران، ما بين فترات استقرار ازدهرت فيها المدن إبان الحكم الرياحي، وأخرى تميزت بالاضطرابات والتخريب بعد الحملة المرينية، وهو ما أثر في اهتمام المجتمع المحلي والسلطة الحاكمة بالعمارة الحربية التي اختصت بها مدن الزاب، كما وجب التنويه إلى أن المجتمع الهلالي، الذي وصف في الكثير من المصادر بأبشع الصفات، لم يكن في حقيقته سوى حلقة من حلقات التفاعل العمراني في المنطقة؛ إذ ساهم من جهة في خراب بعض المدن عقب دخوله

(1) ابن الحاج النميري: المصدر السابق، ص ص 461-471.

كعنصر بدوي متنقل، لكنه من جهة أخرى لعب دوراً في إعادة بناء المدن واستقرارها بعد تحوله التدريجي نحو حياة التحضر والاستقرار.

وفي السياق نفسه، لا يمكن إغفال أثر القبائل البربرية التي كان لها دور في الانعكاسات السلبية التي أسهمت في خراب بعض مدن الزاب نتيجة صراعاتها المتكررة، كما لا ينبغي تجاهل أثر العصبية القبلية التي شكلت عاملاً حاسماً في قيام بعض المدن أو خرابها، تبعاً لاستخدامها إما كأداة للتلاحم والبناء أو كسلاح للصراع والتخريب، وبناء على ذلك لا يجوز إصدار حكم عام يقضي بوصف القبائل الهلالية بمجرد النهب والتخريب، خاصة في ظل ما أظهرته من اندماج تدريجي في البنية الاجتماعية للزاب وما اتسمت به من نزعة تحضر تغنت بها العديد من المصادر الجغرافية والتاريخية.

خاتمة

بعد الرجوع إلى أهم المصادر والمراجع التي تكلمت عن موضوع الدراسة، وانطلاقاً مما تم دراسته في فصول الدراسة، خلصت من خلالها إلى معالجة أهم جوانب البحث محاولاً الإجابة على إشكالية البحث المطروحة في بداية البحث، ساعياً من خلالها إبراز ما خفي من تاريخ المغرب الأوسط متجدر الأصول، محاولاً تصحيح بعض المفاهيم والأفكار التي عملت المدرسة الاستشراقية عليها خاصة فيما يتعلق بنفي وجود عمارة إسلامية خاصة واعتبار أن كل هذه العمائر تعود إلى أمم قبلهم.

ومما لا شك فيه أن إقليم الزاب يعتبر ضمن الحلقات التاريخية في سلسلة التحولات التي شهدتها المغرب الأوسط خلال العصر الوسيط، إذ يمثل مجالا عمرانيا واسعا، وبنية اجتماعية مركبة من قبائل وفروع مختلفة بربرية كانت أو عربية وافدة، جعل من هذا المجال يتميز بخصائصه الجغرافية ومكوناته البشرية، جمعت بين الطابع الواحي الداعي إلى الاستقرار، والصحراوي الداعي إلى الرعي والترحال، وقد توصلنا من خلال معالجة جوانب البحث إلى جملة من الاستنتاجات وهي على النحو التالي:

1- استنتجنا أن هذا المجال الواحي كان فضاء للتفاعل الاجتماعي بين القبائل البربرية والتأثير العربي الهلالي الذي جاء بموجة التعريب، بحيث أن هذا التفاعل ساهم في تكوين نمط اجتماعي جديد ترك بصمته من خلال الاندماج القبلي رغم طغيان النزعة العصبية للقبيلة، إلا أن هذا الصراع تحول إلى اندماج بين القبائل المحلية والوافدة.

2- توصلت دراستنا إلى فرضية مفادها أن التحولات العمرانية التي شهدتها إقليم الزاب خلال الفترة الممتدة من القرن السادس إلى التاسع الهجري (12م-15م)، كانت انعكاسا مباشرا لمجموعة من المتغيرات السياسية والاجتماعية والاقتصادية، خاصة بعد دخول العنصر الهلالي واستقراره التدريجي بالمنطقة، وقد أظهرت نتائج البحث أن هذا الاستقرار لم يكن مجرد استيطان مكاني، بل مسار تحول اجتماعي عميق أثر على بنية المجتمع المحلي ونمطه المعيشي، وعلى علاقته بالسلطة المركزية والدول التي

تعاقبت على حكم المغرب الإسلامي، من الموحدين إلى الزييريين والحفصيين وبنو عبد الواد.

3- استنتجنا كذلك أن الاستقرار النسبي في فترات معينة من فترة الدراسة ساهم في ازدهار النشاط الاقتصادي وتجاري، مصحوبا بتشديد عمران متميز متمثلا في المدن والقصور والأسواق والمساجد، وهو ما يعكس قدرة الإنسان الصحراوي ببلاد الزاب على التكيف مع بيئته مستغلا الثروة المائية التي كانت متوفرة بالمنطقة، وكذا الحصون الرومانية القديمة التي اختصت بها المنطقة ضمن خط الليمس، بحيث رممها واستغلها لخدمة احتياجاته، غير أن هذا العمران لم يكن بمعزل عن الأزمات المتعاقبة إذ تعرضت حواضر ومدن الزاب مرات عدة للهدم والخراب بسبب الصراعات القبلية والغزوات السلطانية، كما هو الحال في حملة السلطان المريني أبي عنان، التي خلفت آثارا سلبية على النسيج العمراني والاجتماعي للمنطقة.

4- وفي المقابل أثبتت الدراسة أن المجتمع الهلالي لعب دورا محوريا في إعادة إعمار الزاب والحفاظ على هويته، من خلال تفاعله مع القبائل الأخرى، سواء العربية التي سبقته أو مع القبائل البربرية، تحت مظلة من التعايش المرحلي أو الهيمنة السياسية عكس ما روجت له الروايات الاستشراقية الهادفة إلى تشويه صورة القبائل العربية وخاصة منها الهلالية الموصوفة بالتخريب والسلوكيات الهمجية.

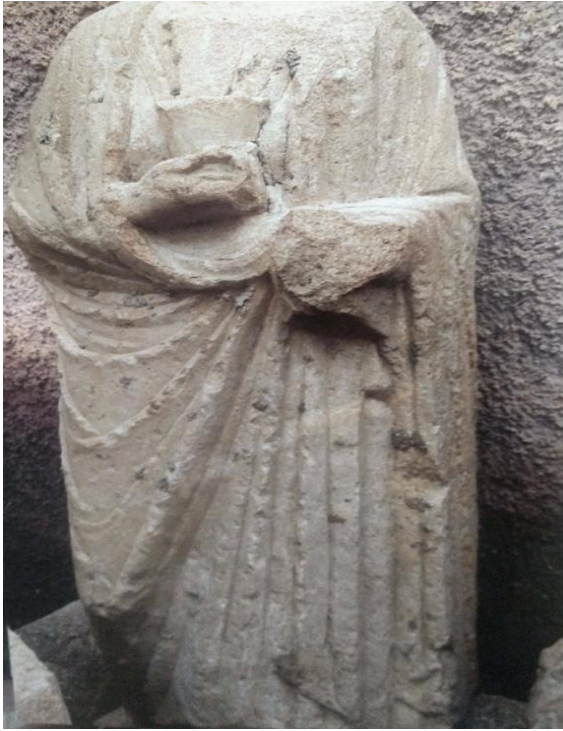
5- كما أثبتنا من خلال الوثائق التاريخية أن المجتمع ببلاد الزاب لم يكن مجرد متلق للسياسات الخارجية، بل كان فاعلا ومؤثرا في مسار الأحداث، بحيث كان قادرا على إنتاج آليات للحكم كما فعلت قبيلة بني مزني وبنو رياح، كما استطاع المجتمع الحفاظ على البقاء والتكيف مع المعطيات الطبيعية والبشرية التي كانت تختص بها المنطقة.

6- من خلال توظيف المصادر الجغرافية، وكتب الرحلة، والمعطيات الأثرية، والاستفادة من الدراسات الحديثة، استطعنا الوقوف على مدى الغنى الحضاري والأثري الذي تختص به واحات بلاد الزاب من عمائر في مختلف مجالات الحياة كانت دينية منها أو خدماتية بغض النظر عن المنشأة السكنية المتمثلة في القصور الرياحية.

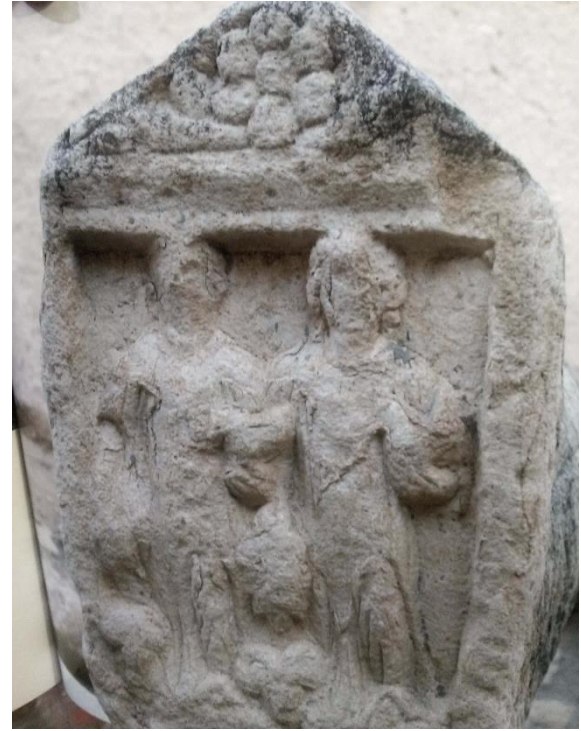
7- مع ندرة المعلومات الوصفية الدقيقة حول بعض المعالم الأثرية لبلاد الزاب من قبل الجغرافيين خاصة فيما يتعلق بالوصف الأثري لهذه المرافق والمنشآت الحضرية مع اغفالهم عن ذكر سنة قيام هذه العمائر، وهو ما يدعونا إلى تقديم المزيد من الدراسات الميدانية التي يمكن أن تكمل الصورة الناقصة لبحث، وتعيد رسم تاريخ هذا المجال الحيوي بمزيد من الدقة، وعليه يمكن القول إن إقليم الزاب بموقعه الجغرافي كصلة وصل بين شمال إفريقيا وعمقها الصحراوي، وبتركيبته الاجتماعية المتنوعة، وإنتاجه العمراني الذي تداخلت فيه الحاجة الأمنية و النشاط الاقتصادي والعامل الديني، مشكلا نموذجا فريدا لفهم التفاعل بين الإنسان ومجاله الواسع، وبين السلطة السياسية والقبيلة، وبين الاستقرار والترحال.

والحمد لله الذي وفقني لإنجاز هذه الرسالة، رغم ما قد يشوبها من ثغرات فرضتها طبيعة الموضوع ومحدودية بعض المصادر، إلا أنها تظل محاولة أكاديمية جادة لإعادة قراءة تاريخ الزاب، وإبراز دوره كمجال حيوي ضمن شبكة العمران والمجتمع في المغرب الإسلامي الوسيط، آملي أن يشكل تمهيدا لأعمال علمية أخرى تغوص في أعماق دراسة البنيات الاجتماعية والعمرانية لمجتمعات الصحراء.

الملاحق



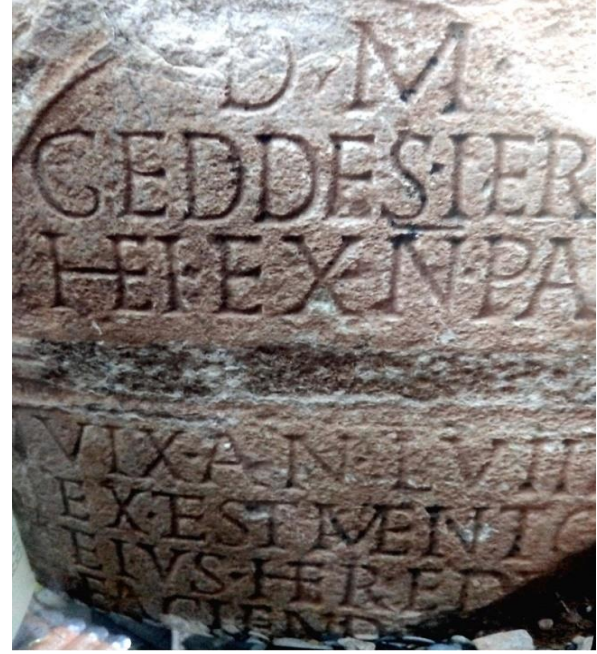
الملحق رقم 02: شواهد أثرية هامة
تعود إلى العهد الروماني. المرجع: بسكو
أسوار وحضرة، المرجع نفسه.



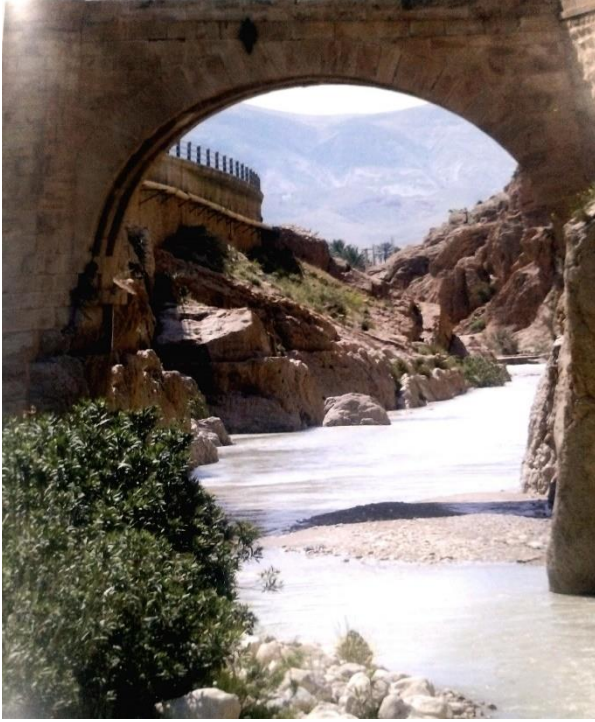
الملحق رقم 01: شواهد أثرية هامة
تعود إلى العهد الروماني. المرجع: بسكو
أسوار وحضرة.



الملحق رقم 04: رموز ونقوش تعود
على فترة ما قبل التاريخ. المرجع: بسكو
أسوار وحضرة، المرجع نفسه.



الملحق رقم 03: شواهد أثرية هامة
تعود إلى العهد الروماني. المرجع: بسكو
أسوار وحضرة، المرجع نفسه.



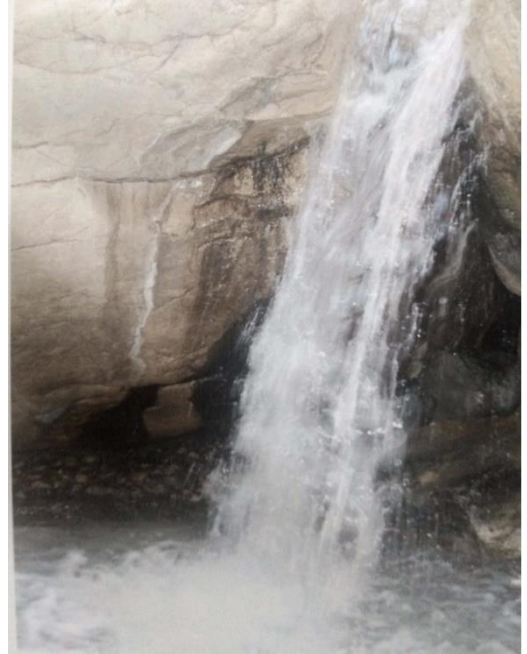
الملحق رقم 06: جسر أڤي بمدينة
القنطرة ببلاد الواب. الموجع: بسكوة أسوار
وحضلة، الموجع نفسه.



الملحق رقم 05: واحات النخيل ببلاد
الموجع: بسكوة أسوار وحضلة، الموجع
السابق.



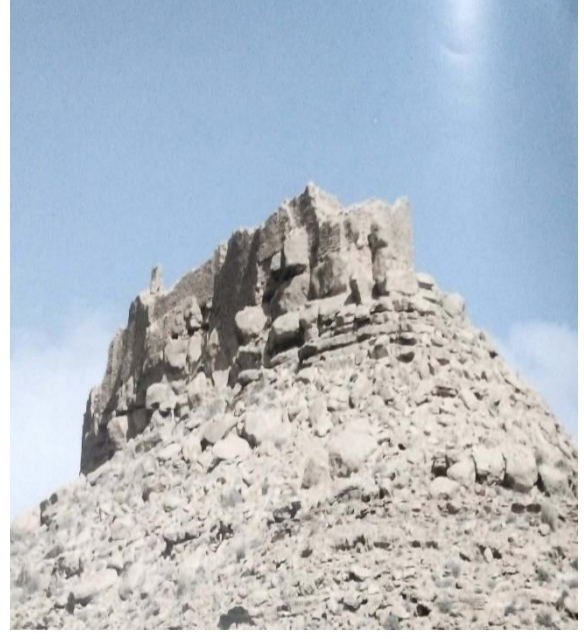
الملحق رقم 08: نهر يشق واحات
بسكوة. الموجع: بسكوة أسوار وحضلة،
الموجع نفسه.



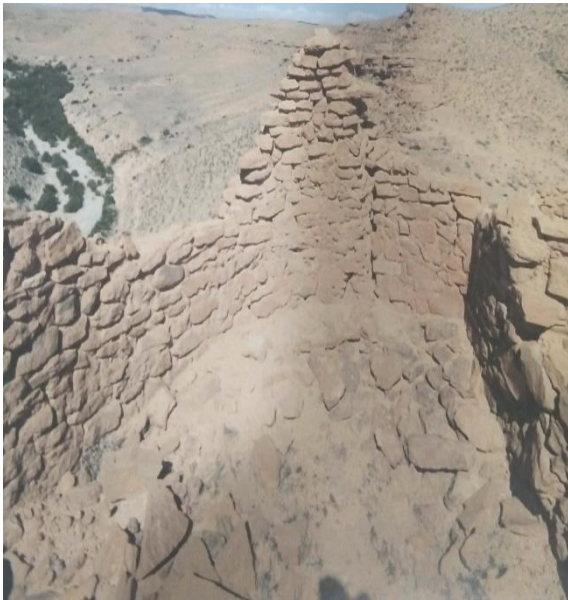
الملحق رقم 07: المنابع والمجري
المائية في بلاد الواب. الموجع: بسكوة
أسوار وحضلة، الموجع نفسه.



الملحق رقم 10: بقايا لأسوار مبنية من الطوب على مرتفعات جبلية. المرجع: بسكوّة أسوار وحضرة، المرجع نفسه.



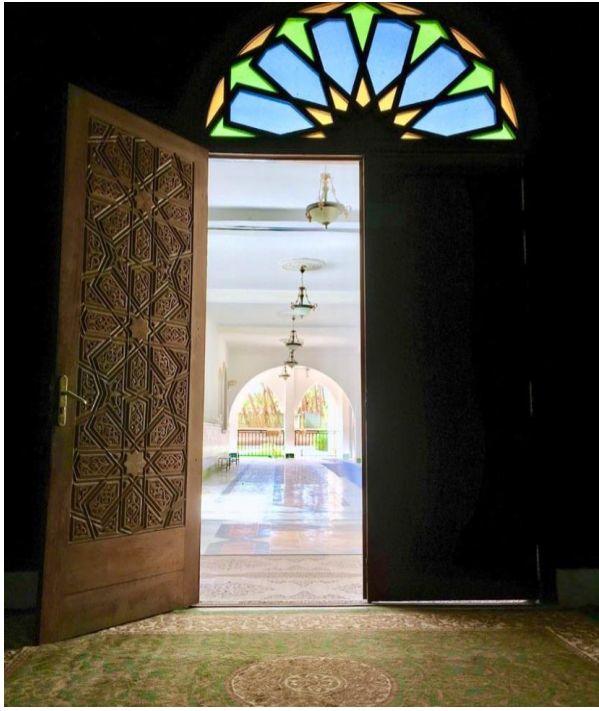
الملحق رقم 09: بقايا لقصر مبني على هضبة جبلية قصد الحماية. المرجع: بسكوّة أسوار وحضرة، المرجع السابق.



الملحق رقم 12: بقايا لأسوار مبنية من الطوب على مرتفعات جبلية من الداخل. المرجع: بسكوّة أسوار وحضرة، المرجع نفسه، ص 45.



الملحق رقم 11: بقايا قلعة حراسة تعود إلى القرنين 02-03م بمدينة القنطرة. المرجع: بسكوّة أسوار وحضرة، المرجع نفسه، ص 45.



الملحق رقم 14: أحد أبواب ومداخل
مسجد سيدي عقبة.



الملحق رقم 13: الصورة الخارجية
لصحن ومنزلة مسجد سيدي عقبة.



الملحق رقم 15: بيت الصلاة القديمة
لمسجد سيدي عقبة.



الملحق رقم 17: ضريح وقبر
الصحابي الجليل عقبة بن نافع



الملحق رقم 16: ضريح وقبر الصحابي
الجليل عقبة بن نافع الفهوي.



الملحق رقم 18: كتابة تذلل على وجود
ضريح سعة بن نافع.



الملحق رقم 20: الحالة الكارثية لمسجد سيدي سعادة الرياحي.



الملحق رقم 19: مدخل مسجد سيدي سعادة الرياحي.



الملحق رقم 21: الحالة المهتزة لمسجد سيدي سعادة الرياحي.

قائمة المصادر والمراجع

قائمة المصادر والمراجع:

1. القرآن الكريم برواية ورش عن نافع

قائمة المصادر:

2. ابن الآبار محمد بن عبد الله (ت 658هـ / 1260م): الحلة السيرة: دار المعارف، القاهرة، ط2، 1985م.

3. ابن أبي زرع على (ت 726هـ / 1325م): الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، الرباط، 1973م.

4. الأتابكي جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي (ت 874هـ / 1470م): النجوم الزهراء في ملوك مصر والقاهرة، تق وتع: محمد حسن، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1413، 1992م، ج01.

5. ابن الأثير عز الدين أبي الحسن ابن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الجزري (ت 630هـ / 1233م): الكامل في التاريخ، ج08، مراج: محمد يوسف الدقاق، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط01، 1987م.

6. الكامل في التاريخ، راج: محمد يوسف الدقاق، دار الكتب العربي، بيروت، لبنان، 2012م.

7. الكامل في التاريخ، تح: أبي الفداء عبد الله القاضي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1407هـ / 1987م.

8. أسد الغابة في معرفة الصحابة، مكتبة لسان العرب، 1377م.

9. كتاب تعريف بالأماكن الواردة في البداية والنهاية لابن كثير، ج01، د د ط، د

س ن.

10. الإدريسي أبي عبد الله بن محمد بن عبد الله الحمودي الحسني المعروف بالشريف الإدريسي (ت 548هـ / 1153م): **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**، مج01، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 1422 - 2002م، مج01.
11. وصف إفريقيا الشمالية والصحراء مأخوذ من كتاب **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**، صح ونش: هنري بيريس، جامعة الجزائر، الجزائر، 1376هـ / 1957م.
12. الأزهري أبو منصور محمد بن أحمد (ت 370هـ / 981م): **تذهيب اللغة**، تح: أحمد عبد المنعم البردودي وعلي محمد البجاوي، الدار المصرية، القاهرة، د س ن، ج13.
13. الأصبهاني أبو الطاهر السلفي أحمد (ت 576هـ / 1180م): **معجم السفر**، تح: عبد الله عمر البارودي، المكتبة التجارية مكة المكرمة، ج01.
14. الأصبهاني الراغب أبو القاسم (ت 502هـ / 1108م): **المفردات في غريب القرآن**، تح: نزار مصطفى الباز، مكتبة نزار مصطفى، د ط، د سن، ج01.
15. البخاري أبي عبد الله محمد إسماعيل (ت 256هـ / 869م): **صحيح لبخاري**، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، ط01، 1423هـ / 2002م.
16. بطرس البستاني (ت 1300هـ / 1883م): **دائرة المعارف**، بمطبعة الأدبية، بيروت، 1887م، مج 09.
17. البكري أبي عبيد (ت 487هـ / 1166م): **المغرب في ذكر بلاد إفريقيا والمغرب وهو جزء من كتاب المسالك والممالك**، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، د ت ط.
18. البلاذري أبي العباس (ت 279هـ / 892م): **فتوح البلدان**، تح: عبد الله أنيس الطباع، مؤسسة المعارف للطباعة والنشر، 1407هـ / 1987م.

19. التجاني أبو محمد بن عبد الله بن محمد بن أحمد (ت 721هـ / 1320م): رحلة التجاني، تق: حسن حسني عبد الوهاب، الدار العربية للكتاب، ليبيا - تونس، 1981م.
20. تروملي.س: الفرنسيون في الصحراء "يوميات حملة في حدود الصحراء الجزائرية، تر: محمد المعراجي، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954م غرناطة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2013م.
21. الجرجاني علي بن محمد الشريف (ت 816هـ / 1413م): التعريفات، تح، محمد صديق المنشاوي، دار الفضيلة للنشر، القاهرة، ط01، 2004م.
22. الجزنائي علي أبي الحسن: زهرة الأس في بناء مدينة فاس، مطبعة باسنيد جردان/كاربونيل، الجزائر، 1340هـ / 1922م.
23. الجوهري أبي نصر إسماعيل بن حماد (ت 398هـ / 1007م): الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية مرتب ترتيباً ألفبائياً وفق أوائل الحروف، دار الحديث، القاهرة، 2009م.
24. ابن الحاج النميري (ت 768هـ / 1367م): فيض العباب وافاضة قداح الآداب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة والزاب، دراسة وإعداد محمد بن شقرون، دار الغرب الاسلامي، بيروت، لبنان، ط01، 1990م.
25. ابن حزم أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد الأندلسي (ت 456هـ / 1064م): جمهرة أنساب العرب، تح: عبد السلام أحمد هارون، دار المعارف، القاهرة، ط05، 1982م.
26. جمهرة انساب العرب، تح: ليفي بروفنسال، دار المعارف، مصر، 1328هـ.

27. الوزان الحسن بن محمد الفاسي (ت بعد 957هـ/1550م): وصف إفريقيا، تر: محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الاسلامي، بيروت، ط02، 1983م، ج 01.
28. ابن الخطيب الحسن علي بن محمد القرشي التلمساني: كتاب نسب زغبة ومنتهى أصلهم (جوانب من تاريخ القبائل الهلالية)، تح: نعيمة طيب بوجمعة، النشر الجامعي الجديد، تلمسان، الجزائر، 2019م، ص 117.
29. الحسين أحمد بن فارس بن زكريا (ت 395هـ / 1004م): معجم مقياس اللغة، تح: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، دط، دت ط.
30. الحموي الياقوت شهاب الدين أبي عبد الله (ت 626هـ/1229م): معجم البلدان، دار صادر، بيروت د س ن.
31. معجم البلدان، مطبعة السعادة، ط01، 1323هـ / 1906م.
32. الحميري ابن عبد المنعم (ت 726هـ / 1326م): الروض المعطار في خبر الأقطار، تح: احسان عباس، مكتبة لبنان، ط02، 1984م.
33. الروض المعطار في خبر الأقطار، معجم جغرافي، تح: إحسان عباس، مطابع هيد لبرغ، مكتبة لبنان، بيروت، ط01، 1975م.
34. ابن حوقل أبي القاسم النصيبي (ت 367هـ/977م): صورة الارض، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، 1992م.
35. ابن خرداذبة أبي القاسم عبيد الله ابن عبد الله (ت 272هـ / 885م): المسالك والممالك، نبذة من كتاب الخراج وصناعة الكتابة بأبي الفرج قدامه بن جعفر الكاتب البغدادى، مطبعة بريل، مدينة لندن المحروسة، 1889م.
36. ابن الخطيب لسان الدين (ت 776هـ / 1374م): الإحاطة في أخبار غرناطة، دار الكتب العلمية، بيروت، 2002م، مج1.

37. ابن خلدون ابي زكرياء يحي (ت 780هـ / 1378م): بغية الروادي ذكر الملوك من بني عبد الواد، ببيرونطانا الشرقية في الجزائر، 1903م، مج01.
38. ابن خلدون عبد الرحمان (ت 808هـ / 1406م): تاريخ ابن خلدون المسمى بالعبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، ضبط المتن ووضع الحواشي: أ خليل شحادة، مرا: د سهيل زكار، دار الفكر للطباعة والتوزيع، 1431هـ/2000م، بيروت، لبنان، 04، ج06، 07.
39. مقدمة ابن خلدون وهي الجزء الأول من تاريخ ابن خلدون المسمى ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، ضبط المتن ووضع الحواشي والفهارس: خليل شحادة، مراجعة سهيل زكار، دار الفكر للطباعة والتوزيع، بيروت، لبنان، 1401هـ / 1981م، ج01.
40. مقدمة ابن خلدون، دار القلم، بيروت، لبنان، ط04، 1981م.
41. خوجة حمدان بن عثمان (ت 1259هـ / 1842م): المرأة، تر وتح: العريب الزبيري، منشورات ANEP، الجزائر، 2005م.
42. ابن خياط أبو عمرو خليفة ابن أبي هبيرة الليثي العصفري الملقب بشباب (ت 240هـ / 854م): تاريخ خليفة بن خياط، تح: مصطفى نجيب فواز، حكمة كشلي فواز، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط01، 1415هـ/1995م.
43. تاريخ خليفة ابن خياط، تح: سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، 1993م.
44. الدباغ أبو زيد عبد الرحمان بن محمد الأنصاري (ت 699هـ / 1299م): معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، تع: أبو الفضل بن قاسم بن عيسى بن ناجي التتوخي، تص وتح: ابراهيم شيوخ، مكتبة الخانجي، مصر، ط02، 1968م، ج01.

45. الدرجيني أبو العباس أحمد بن سعيد بن سليمان بن علي بن يخلف التمجاري (ت 626هـ / 1229م): **طبقات المشائخ بالمغرب**، تح: ابراهيم طلاي، د د ط، الجزائر، 1394هـ / 1974م، ج 01.
46. دريد أبي بكر محمد بن الحسن (ت 321هـ / 933م): **الاشتياق**، تح: عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، بيروت، دط، دسن.
47. الزبيدي محمد مرتضى (ت 1205هـ / 1790م): **تاريخ العروس من جواهر القموس**، تح: حسين ناصر وراجعه عبد العليم الطحاوي وعبد الستار أحمد فراج، مطبعة الحكومة، الكويت، 1343هـ / 1974م، ج 13.
48. الزركشي أبي عبد الله محمد إبراهيم (ت 794هـ / 1392م): **تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية**، تح: محمد ماضون، المكتبة العتيقة، جامع الزيتونة، تونس، 1966م، ص 97.
49. **إعلام الساجد بأحكام المساجد**، تحقيق أبو الوفاء مصطفى المراغي، دار الكتاب المصري، القاهرة، ط 02، 1989م.

50. الزمخشري محمود بن عمر (ت 538هـ / 1143م): أساس البلاغة، تح: محمد باسل عيون السود، منشورات محمد ببيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، د ت ط، ج01.
51. ابن سباهيزادة (ت 997هـ / 1589م): أوضح المسالك في معرفة البلدان والممالك، تح: المهدي عبد الرواضية، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2006م.
52. سحنون بن سعيد التنوخي (ت 240هـ / 854م): المدونة الكبرى للإمام مالك بن أنس الأصبحي رواية الإمام سحنون بن سعيد التنوخي عن الإمام عبد الرحمن بن قاسم، دار الفكر، بيروت، 1986م، ج03.
53. السعدي عبد الرحمان بن ناصر بن عبد الله (ت 1376هـ / 1957م): تيسير الكريم الرحمان في تفسير كلام المنان، تح: عبد الرحمان بن معلى اللويحق، ط01، 1422هـ-2001م.
54. سعيد المغربي (ت 685هـ / 1286م): بسط الأرض في الطول والعرض، تح: خوان غرنيط خينيس، خزانة محمد نزار الدباغ، معهد مولاي الحسن، مطبعة كريماديس، تيطوان، المغرب، 1958م.
55. السمعاني أبو سعد عبد الكريم بن محمد بن منصور التميمي (ت 562هـ / 1166م): الأنساب، تح: عبد الله عمر البارودي، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، ط01، 1998م، ج05.
56. ابن سهل أبو الإصبع عيسى ابن سهل (ت 486هـ / 1092م): ديوان الأحكام الكبرى، تح: يحي مراد، دار الحديث، القاهرة، 2007م.
57. الطبراني أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني (ت 360هـ / 970م): المعجم الوسيط، تح: أبو معاذ طارق بن عوض الله بن محمد وأبو الفضل عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، دار الحرمين، القاهرة، مصر، 1995م، ج03.

58. الطبري ابو جعفر محمد بن جرير (ت 310هـ / 923م): تاريخ الطبري، بيت الأفكار الدولية، الأردن، دت ط.
59. أبو العباسي الحسين بن عبد الله (ت 710هـ / 1310م)، آثار الأول في ترتيب الدول، تح: عبد الرحمن عميرة، بيروت، دار الجيل، ط1989، 01م.
60. ابن عبد البر النمري القرطبي (ت 463هـ / 1071م): القصد والأمم من الأمم، مكتبة القدسي، القاهرة، عام 1350هـ.
61. ابن عبد الحكم (ت 268هـ / 882م): فتوح إفريقيا والأندلس، تح: عبد الله أنس الطباع، دار الكتاب اللبناني، بيروت 1987م.
62. فتوح مصر والمغرب، شارلز توري، الهيئة العامة لقصور الثقافة، دت ط.
63. ابن عذاري محمد بن عبد الله المراكشي (ت 647هـ / 1249م): البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تح ومر: ج. س. كولان، إ. ليفي بروفنسال، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ط03، 1983م.
64. أبو العرب محمد بن أحمد التميمي التميمي (ت 333هـ / 945م): كتاب المحن، تح: يحيى وهيب الجبوري، دار الغرب الإسلامي، ط03، 1427هـ / 2006م.
65. أبو العرب محمد بن أحمد بن تميم التميمي (ت 333هـ / 945م): طبقات علماء إفريقيا، دار الكتاب اللبناني، بيروت، دس ن.
66. العسقلاني بن حجر (ت 852هـ / 1449م): رفع الأصر عن قضاة مصر، تح: محمد علي عمر، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، ط01، 1998م.
67. العياشي عبد الله بن محمد (ت 1135هـ / 1722م): الرحلة العياشية، تح: سعد الفاضلي وسليمان القرشي، دار السويدي للطباعة والنشر، أبو ظبي، ط01، 2006م.

68. أبو الفداء عماد الدين إسماعيل ابن علي الأيوبي (ت 732هـ / 1331م):
المختصر في أخبار البشر، تح: محمد زينهم ومحمد عزب، تقديم: حسين مؤنس،
دار المعارف- القاهرة، ط01، 1998م.
69. أبو الفداء عماد الدين إسماعيل ابن علي الأيوبي (ت 732هـ / 1331م): تقويم
البلدان، تح: رينود وماك كوكين ديسلان، دار صادر، بيروت، د ت ط.
70. الفراهدي خليل بن أحمد (ت 170هـ / 786م): كتب العين، تح وترتيب: هنداوي
عبد الحميد، دار الكتاب العلمية، بيروت، لبنان، ط01، 1424هـ/2003م، ج01،
ج03.
71. الفرستائي أبو العباس أحمد (ت 504هـ / 1110م): القسمة وأصول الأرضين،
تح: بكير بن محمد الشيخ بلحاج، محمد صالح ناصر، نشر جمعية التراث، غرداية،
ط02، ط 03، 1997م.
72. الفيروز أبادي مجد الدين محمد بن يعقوب (ت 817هـ / 1414م): قاموس
المحيط، راج: أنس محمد الشامي وزكريا جابر أحمد، دار الحديث، القاهرة،
1429هـ/2008م.
73. القاموس المحيط، تح: مكتب تحقيق في مؤسسة الرسالة بإشراف محمد نعيم
العرقسوسي، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان.
74. ابن القاضي أحمد (ت 1025هـ/1616 م): جذوة الاقباس فيمن حل من
الأعلام في مدينة فاس، الرباط، 1973م، ج01.
75. القرافي شهاب الدين أحمد بن إدريس (ت 684هـ / 1285م): الذخيرة، تح: محمد
حجي وآخرون، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط01، 1994م، ج06.

76. القزويني زكرياء بن محمد بن محمود (ت 682هـ / 1283م): آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، بيروت.
77. القلقشندي أبي العباس أحمد بن علي بن أحمد الفزاري (ت 821هـ / 1418م): نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، تح: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب، بيروت، لبنان، ط02، 1400هـ / 1980م.
78. صبح الأعشى في كتابة الإنشاء، دار الكتب الخديوية بالمطبعة الأميرية، القاهرة، 1333هـ / 1915م، ج05.
79. قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان، تح: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب المصري، القاهرة، ط02، 1982م.
80. ابن قنفذ بو العباس أحمد بن الخطيب القسنطيني (ت 810هـ / 1407م): الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية، تق وتح: محمد الشاذلي النيفر وعبد المجيد التركي، الدار التونسية للنشر، 1968م.
81. القيرواني ابن أبي دينار محمد أبي القاسم الرعيني القيرواني (أواخر القرن 11هـ / 17م): المونس في أخبار افريقيا وتونس، دار الميسرة، بيروت، لبنان، ط03، 1993م.
82. ابن كثير عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر القرشي الدمشقي (ت 774هـ / 1372م): البداية والنهاية، تح: عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع، ط01، 1998م.
83. ابن الكلبي هشام أبو المنذر بن محمد (ت 204هـ / 819م): جمهرة النسب، تح: محمود فردوس العظيم، تص: محمود فاخوري، دار اليقظة العربية، دمشق، سوريا، د س ن، ج02.

84. المابرمكفوري أبو علي محمد عبد الرحمان ابن عبد الرحيم (ت 1353هـ / 1932م): **تحفة الأحودي في شرح جامع الترمذي**، راج: عبد الوهاب عبد اللطيف، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، د ت ن، ج06.
85. المازوني أبو زكرياء يحيى بن موسى المغيلي التلمساني (ت 883هـ / 1478م): **الدرر المكنونة في نوازل مازونة**، تح: حساني مختار، مخبر المخطوطات علم المكتبات، بوزريعة، الجزائر، د.ت ط، ج03.
86. المالكي عبد الله بن محمد (ت بعد 453هـ / 1061م): **رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقيا وزهادهم ونساکهم وسيير من أخبارهم وأوصافهم**، تح: البشير البكوش، راجعه: محمد العروسي المطوي، دار الغرب الإسلامي بيروت لبنان، ط02، 1994م، ج01.
87. الماوردي أبو الحسن علي بن محمد (ت 450هـ / 1058م): **تسهيل النظر وتعجيل النظر في أخلاق الملك وسياسة الملك**، تح: محي الدين هلال سرحان وحسن الساعاتي، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ط1981، 01م.
88. مجمع اللغة العربية: **المعجم الوسيط**، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، مصر، ط04، 2004م.
89. المسعودي أبي الحسن علي بن الحسين بن علي (ت 346هـ / 957م): **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط05، 1393هـ / 1973م.
90. **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، اعتنى به: كمال حسن مرعي، المكتبة العصرية، بيروت، ط01، 1425هـ / 2005م.

91. مسلم أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (ت 261هـ / 875م):
صحيح مسلم، تح: أبو قتيبة نظر محمد، باب النهي عن الجلوس في الطرقات
 وإعطاء الطريق حقه، دار طيبة، الرياض، السعودية، ط01، 2006م، مج01.
92. **صحيح مسلم**، بيت الأفكار الدولية للنشر والتوزيع، باب تحريم النظر في بيت
 غيره، 1419هـ / 1998م.
93. المقدسي أبو عبد الله محمد بن أحمد (ت 380هـ / 990م): **أحسن التقاسيم في
 معرفة الأقاليم**، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط 03، 1991م.
94. المراكشي أبو محمد عبد الواحد بن علي (ت 647هـ / 1249م): **المعجب في
 تلخيص أخبار المغرب**، من لدن فتح الأندلس إلى آخر أيام الموحدين - مع ما
 يتتل بتاريخ هذه الفترة من أخبار القراء وأعيان الكتاب، تح: محمد السعيد العريان،
 المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، الجمهورية العربية المتحدة، ط1، 1963م.
95. المقرئ أبو العباس أحمد بن علي بن عبد القادر (ت 845هـ / 1442م): **البيان
 والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب**، تح: فردناند وأسطون فيلد، مطبعة جوتنجن،
 ألمانيا، 1897م.
96. المقرئ تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي بن عبد القادر (ت 845هـ /
 1442م): **البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب**، تح: عبد المجيد عابدين،
 عالم الكتب، القاهرة، ط01، 1961م.
97. المقرئ تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي (ت 845هـ / 1442م): **اتعاظ
 الحنفا في أخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء**، تح: جمال الدين الشيال، لجنة إحياء
 التراث الثقافي، القاهرة، ط02، 1996م.
98. لويس معلوف: **المنجد في اللغة والأعلام**، دار المشرق، بيروت، ط 26، 1986م.

99. ابن منظور أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم (ت 711هـ / 1311م): **لسان العرب**، صح: أمين محمد عبد الوهاب ومحمد الصادق العبيدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط03، 1419هـ-1999م.
100. مؤلف مجهول (ت بعد 06هـ / 12م): **تاريخ البربر**، تح: محمد زينهم، دار جهاد للنشر والتوزيع، دط، 1998م.
101. مؤلف مجهول (ت بعد 587هـ / 1191م): **الاستبصار في عجائب الأمصار**، نش وت: سعد زغلول عبد الحميد، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، المغرب، 1985م.
102. مؤلف مجهول (ت 712هـ / 1312م): **مفاخر البربر**، تح: عبد القادر بوباية، دار أبي رقرق للطباعة والنشر، ط01، 2005م.
103. بن ناصر الدين محمد بن عبد الله (ت 842هـ / 1438م): **توضيح المشتبه في ضبط أسماء الرواة وأنسابهم وألقابهم وكناهم**، تح وت: محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط 01، 1993م، ج04.
104. النويري شهاب الدين بن أحمد بن عبد الوهاب (ت 732هـ / 1332م): **نهاية الأرب في فنون الأدب**، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، 1423هـ، ج24.
105. النويري شهاب الدين بن أحمد بن عبد الوهاب (ت 732هـ / 1332م): **نهاية الأرب في فنون الأدب**، تح: عبد المجيد ترحيني، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، دت ط، ج24.
106. الواقي أبو عبد الله محمد بن عمر بن الوقاد (ت 207هـ / 823م): **فتوح الشام**، ضب وت: عبد اللطيف عبد الرحمان، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط01، 1417هـ/1997م، ج02.

107. الورتلاني حسن بن محمد (ت 589هـ / 1193م): الرحلة الورتلانية الموسومة بنزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والخبار، مكتبة الثقافة الدينية، ط01، 1429هـ / 2008م، ج01.
108. الوزان الحسن بن محمد الفاسي ليون الإفريقي (ت 956هـ / 1549م): وصف إفريقيا، تر: محمد الأخضر ومحمد حجي، دار الغرب الإسلامية، بيروت، لبنان، 1983م، ج02.
109. الونشريسي أبو العباس أحمد بن يحيى (ت 915هـ / 1508م): المعيار المغرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس والمغرب، تح: محمد حجي، ج09، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1401هـ / 1981م، ج08-09.
110. اليعقوبي أحمد أبي يعقوب إسحاق (ت 284هـ / 898م): البلدان، وضع حواشيه: محمد أمين ضناوي، دار الكتاب العلمية، بيروت، لبنان، ط01، 1422هـ / 2002م.
111. اليعقوبي أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح (ت 292هـ / 904م): تاريخ اليعقوبي، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط1415، 06هـ / 1995م.

قائمة المراجع:

1. إبراهيم إسحاق إبراهيم: هجرات الهلاليين من جزيرة العرب إلى شمال إفريقيا وبلاد السودان، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض، ط01، 1416هـ / 1996م.
2. أحمد عادل كمال: الفتح الإسلامي لمصر، الشركة الدولية للطباعة، ط01، 1423هـ / 2003م.
3. أحمد علي آزاد وآخرون: الفكر الاجتماعي الخلدوني (المنهج والمفاهيم والأزمات المعرفية)، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط01، 2004م.

4. أحمد رضا: **معجم متن اللغة**، دار مكتبة الحياة، بيروت، 1378هـ/1959م، ج02.
5. أحمد مختار عمر: **معجم اللغة العربية المعاصرة**، عالم الكتب، القاهرة، مصر، ط01، 1429هـ - 2008م.
6. أحمد موسى عز الدين: **دراسات في تاريخ المغرب الإسلامي**، دار الشروق، بيروت، ط01، 1983م.
7. ألفريد بيل: **الفرق الإسلامية في الشمال الأفريقي**، من الفتح العربي حتى اليوم، تر: عبد الرحمن بدوي، دار الغرب الإسلامي، ط03، 1987م.
8. الأيوبي مقدم هيثم، **مقال الأسوار**، الموسوعة العسكرية، دار الفارس للنشر والتوزيع، المؤسسة العربية، بيروت، ط02، 1990م، ج 04.
9. بالحاج بن بنوح معروف: **العمارة الإسلامية مساجد ميزاب ومصلياته الجنائزية**، دار قرطبة، 2007م.
10. برنشفيك روبر: **تاريخ افريقيا في العهد الحفصي**، تر: حماد الساحلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط01، 1988، ج01.
11. بروكلمان كارل: **تاريخ الشعوب الإسلامية**، تر: نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط05، 1977م.
12. بسكرة أسوار وحضارة، من منشورات وزارة الثقافة، 2013م.
13. بلعربي خالد: **إمضاءات حول تاريخ المغرب الأوسط في العصر الوسيط**، دار النشر الجامعي الجديد، تلمسان، 2018م.
14. بوتشيش ابراهيم الفادري: **مباحث في التاريخ الاجتماعي في المغرب والأندلس خلال عصر المرابطين**، دار الطباعة والنشر، بيروت، ط01، 1998م.

15. بوتشيش إبراهيم القادري: حلقات مفقودة من تاريخ الحضارة في الغرب الاسلامي، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 2006م.
16. بورويبة رشيد: الدولة الحمادية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1397هـ/1977م.
17. بوزياني الدراجي: القبائل الأمازيغية أدوارها - مواطنها - أعيانها، دار الكتاب العربي للنشر والتوزيع والترجمة، الجزائر، 2007م، ج 01.
18. بوطالب محمد نجيب: سوسيولوجيا القبيلة في المغرب العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، سلسلة أطروحات الدكتوراه، بيروت، لبنان، ط 01، 2002م.
19. بوعزيز يحي: الموجز في تاريخ الجزائر (القديمة والوسيط)، ديوان المطبوعات الجامعية، ط 02، 2007م، ج 01.
20. بومعزة عبد القادر: بسكرة في عيون الرحالة الغربيين، دار علي بن زيد للطباعة والنشر، بسكرة، الجزائر، ط 01، 2016م، ج 01.
21. بونابي الطاهر: مظاهر المجال والدين والمجتمع بالمغرب الأوسط خلال العصر الوسيط، سلسلة الكتب الأكاديمية لكلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة المسيلة، الجزائر، 2017م، ج 08.
22. بونار رابح: المغرب العربي تاريخه وثقافته، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط 02، 1981م.
23. بويحيوي عز الدين: نشأت المدن الإسلامية من خلال مدن المغرب الأوسط، معهد الآثار، جامعة الجزائر، جويلية 2015م.
24. التليسي بشير رمضان: الاتجاهات الثقافية في بلاد الغرب الإسلامي خلال القرن الرابع الهجري الرابع ميلادي، دار المدار الإسلامي، ليبيا، ط 01، 2003م.

25. تيوراس رحمة: تعريب الدولة والمجتمع بالمغرب الأقصى خلال العصر الموحد، مؤسسة الإدريسي، الدار البيضاء، 2015م.
26. ثويني علي: معجم عمارة الشعوب الإسلامية، بيت الحكمة، بغداد، 2005م.
27. جعيط هشام: تأسيس الغرب الإسلامي (القرن الأول والثاني هجري/ السابع والثامن ميلادي، دار الطليعة، بيروت، ط02، 2008.
28. جعيط هشام: تأسيس المغرب الإسلامي (القرن الأول والثاني هـ/ السابع والثامن م)، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط01، 2004م.
29. جودت عبد الكريم يوسف: الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في المغرب الأوسط خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين، (09-10م)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، د س ن.
30. جودي محمد حسين: العمارة العربية الإسلامية، دار المسيرة للنشر والتوزيع، عمان، ط01، 2007م.
31. جوزيف نسين يوسف: تاريخ الدولة البيزنطية (1453/284م)، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1999م.
32. جوليان شارل أندري: تاريخ إفريقيا الشمالية (تونس - الجزائر - المغرب) من البدء إلى الفتح الإسلامي 647م، تر: محمد مزالي والبشير بن سلامة، الدار التونسية، تونس، الجزائر، ط03، 1978م، ج01.
33. جوليان شارل أندري: تاريخ أفريقية من الفتح الإسلامي حتى 1830م، تح: محمد مزالي والبشير بن سلامة، الدار التونسية، تونس، 1978م، ج02.
34. الجيلالي عبد الرحمان: تاريخ الجزائر العام، دار مكتبة الحياة، بيروت، ط02، 1384هـ / 1965، ج01، ج02.

35. حاجي ياسين رابح، السعيد تريعة: الحاضرة في إقليم الزاب الشرقي بادنس تهوده سيدي عقبة نموذجاً، تحولات المدينة الصحراوية الجزائرية، مدن وأقاليم صحراوية جزائرية، إصدارات مركز البحث في العلوم الإسلامية والحضارة، الأغواط، الجزائر، ط01، 1439هـ/2018م، ج02.
36. حارش محمد الهادي: التاريخ المغربي القديم السياسي والحضاري منذ فجر التاريخ إلى الفتح الإسلامي، دار هومة، الجزائر، 2014م.
37. حجي محمد: الزوايا الدلائية ودورها العلمي والديني والسياسي، مطبعة النجاح الجديدة، ط 02، 1409هـ/1988م.
38. حساني مختار: تاريخ الجزائر الوسيط، دار الهدى، الجزائر، 2013م، ج02.
39. حساني مختار: تاريخ الدول الإسلامية بالمغرب، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، عين مليلة، الجزائر، 2015م.
40. حساني مختار: موسوعة تاريخ وثقافة المدن الجزائرية (مدن الجنوب)، دار الحكمة، الجزائر، 2007م، ج02.
41. حسن محمد: البادية والمدينة في العهد الحفصي، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة تونس الأولى، تونس، 1999م، ج01.

42. حملاوي علي: القصر بالجنوب الجزائري "مفهومه ومكوناته"، مطبعة سومر، الجزائر، 2001م.
43. حملاوي علي: نماذج من قصور منطقة الأغواط دراسة تاريخية أثرية، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 2006م.
44. حميدة عبد الرحمان: أعلام الجغرافيين العرب، دار الفكر، دمشق، ط01، 1984م.
45. خالد محمد مصطفى عزب: تخطيط وعمارة المدن الإسلامية، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر، ط01، 1418هـ/1997م.
46. خالدي عبد الحميد: الوجود الهلالي السلمي في الجزائر، دار هومة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2007م.
47. خالدي عبد الحميد: الوجود الهلالي السلمي في الجزائر، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، 2003م.
48. الخزوري حسين أحمد: الأبراج ثرات وتاريخ، مطبعة النخيل، الإمارات العربية المتحدة، 1998م.
49. خمار أحمد: تحفة الخليل في نبد من تاريخ بسكرة النخيل، دار الهد للطباعة والنشر والتوزيع، عين مليلة، الجزائر، 2012م.
50. الدرويش أحمد يوسف: أحكام السوق في الإسلام وأثرها في الاقتصاد الإسلامي، عالم الكتب، الرياض، ط01، 1989م.
51. دنون عبد الواحد طه: الفتح والاستقرار الإسلامي في شمال إفريقيا والأندلس، دار المدار الإسلامي، بيروت، ط01، 2004م.
52. دنون عبد الواحد طه: دراسات في تاريخ وحضارة الإسلامي، دار المدار الإسلامي، بيروت، ط01، 2004م.

53. دهبنة عطاء الله: الحياة الاجتماعية والاقتصادية لدولة بني زيان ضمن كتاب تاريخ الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984م.
54. دوماس المشير دو كدي: الصحراء الجزائرية، تر: قندوس عباد فوزية، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحوث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954، غرناطة للنشر والتوزيع، الجزائر، دط، د ت ن.
55. بن رحو عبد اللطيف: الزوايا ودورها الاجتماعي بالمغرب الأقصى في عصر بني مرين، شبكة الألوكة - قسم التاريخ، مج 01، مارس 2022.
56. روبر برشيفياك: تاريخ افريقيا في العهد الحفصي من القرن 13 إلى القرن 15م، تر: حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط01، 1988م، ج02.
57. رثيف مهنووس بحر: نظريات العمارة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط01، 1992م.
58. زامبور: معجم الأنساب والأسر الحاكمة في التاريخ الاسلامي، تر: سيدة اسماعيل كاشف وآخرون، إخراج: زكي محمد حسن بك وحسن أحمد محمود، دار الرائد العربي، بيروت، 1400هـ / 1980م، ج01.
59. زاوية سليم: تعريف العمارة، جامعة الامير عبد القادر، قسنطينة، الجزائر، دط، د س ط.
60. زردوم عبد الحميد: بسكرة عروس الزيبان، مطبعة المنار، بسكرة.
61. بطاقة تعريف بسكرة، تر: هدار أمال، مطبعة المنار، بسكرة، الجزائر، 2005م.
62. تاريخ بسكرة القديمة، تر: أمال هيدال، مطبعة المنار، بسكرة، الجزائر، 2003م.
63. الزركلي خير الدين: الأعلام، قاموس تراجم لأكثر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، دار الفكر، القاهرة، دت ط، ج08.

64. الزواوي طاهر أحمد: تاريخ الفتح العربي في ليبيا، دار المنار الإسلامي، بيروت، لبنان، ط04، 2004م.
65. سالم السيد عبد العزيز: بحوث إسلامية في لتاريخ والحضارة والآثار، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط01، 1979م، ج02.
66. سالم السيد عبد العزيز: تاريخ المغرب في العصر الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر والتوزيع، الإسكندرية، 1999م، ج02.
67. سالوست: حرب يوغرطة، تر: ياسمينه بريهوم، فيصل الأحمر، دار الألمعية للنشر والتوزيع، الجزائر، 2010م.
68. سامية مصطفى مسعد: الحياة الاقتصادية والاجتماعية في إقليم غرناطة في عصر المرابطين والموحدين، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط01، 2003م.
69. السبتى عبد الأحد، فرحات حليلة: المدينة في العصر الأوسط قضايا ووثائق من تاريخ الغرب الإسلامي، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، 1994م.
70. السبتى عبد الاحد وفرحات حليلة، المدينة الإسلامية قضايا ووثائق من تاريخ الغرب الاسلامي، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، ط01، 1994م.
71. سعد زغلول عبد الحميد: تاريخ المغرب العربي من الفتح إلى بداية عصر الاستقلال (ليبيا، تونس، الجزائر، المغرب)، المعارف، لإسكندرية، 1993م، ج01.
72. سلامة عمار: من روما إلى الإسلام، تاريخ إفريقيا العام، اللجنة العلمية الدولية لتحرير تاريخ إفريقيا العام (يونيسكو)، دار النشر جون أفريك، 1985م، مج02.
73. شاكر مصطفى: المدن في الإسلام حتى العصر العثماني، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق، ط02، 1997م، ج01.

74. شاكِر مصطفى: المدن في الإسلام حتى العصر العثماني، مكتبة لسان العرب، ط01، 1408هـ/1988م، ج02. الشريف محمد الهادي: ما يجب أن تعرفه عن تاريخ تونس من عصر ما قبل التاريخ إلى الاستقلال، تع: محمد الشاوش ومحمد عجينة، دار سراس للنشر، ط03، 1993م.
75. شنيّتي محمد البشير: أضواء على تاريخ الجزائر القديم، بحوث ودراسات، دار الحكمة، الجزائر، 2003م.
76. شنيّتي محمد البشير: الجزائر في ظل الاحتلال الروماني، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1999م، ج01.
77. شهبي عبد العزيز: الزوايا والصوفية والعزابة والاحتلال الفرنسي في الجزائر، دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران، 2007م.
78. صفر أحمد: مدينة المغرب العربي في التاريخ (عشرون قرنا من تاريخ إفريقيا من عصور ما قبل التاريخ إلى آخر العهد البيزنطي)، دار النشر بوسلامة، تونس، 1959م، ج01.
79. صيد عبد الحليم: أبحاث في تاريخ زيبان بسكرة، مطبعة سوف، الوادي، ط01، 2000م.
80. صيد عبد الحليم: معجم أعلام بسكرة، دار النعمان للطباعة والنشر، الجزائر، 2014م، ص 18.
81. أبو صف مصطفى أحمد عمر: القبائل العربية ببلاد المغرب في عصر الموحدين وبني مرين (524-876هـ/1130-1472م)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط01، 1982م.
82. طقوش محمد سهيل: تاريخ الفاطميين في شمال إفريقيا ومصر وبلاد الشام (297-567هـ/910-1171م)، دار النفائس، بيروت، ط02، 2007م.

83. طمار محمد: المغرب الأوسط في ظل صنهاجة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2010م.
84. طویل الطاهر: المدينة الإسلامية وتطورها في المغرب الأوسط، المتصدر للترقية الثقافية والعلمية والإعلامية، الجزائر، 2011م.
85. طویل الطاهر: المدينة الإسلامية ودورها الحضاري ببلاد المغرب الأوسط حتى القرن الثالث هجري مدينة تيهرت نموذجا، جامعة فرحات عباس، سطيف، دط، د س ن.
86. ظریف رمضان مراد: دراسة في التراث الجغرافي العربي ابن حوقل ومنهجه الجغرافي وتحقيق ودراسة لجغرافية مصر من كتاب (صورة الأرض)، تق: محمد محمود ابراهيم الديب، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 2004م.
87. بن عاشور محمد الطاهر: تفسير التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، تونس، 1984م، ج 21.
88. عاصم محمد رزق: معجم مصطلحات العمارة والفنون الإسلامية، مكتبة مدبولي، مصر، ط 01، 2000م، ج 01.
89. العبادي أحمد مختار: في التاريخ العباسي والفاطمي، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، د س ن.
90. عبد الباقي إبراهيم: تأصيل القيم الحضارية في بناء المدينة الإسلامية المعاصرة، مركز الدراسات التخطيطية والمعمارية، مصر، 1982م.
91. عبد الجبار ناجي، دراسات في تاريخ المدن العربية الإسلامية، شركه المطبوعات للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 2001 م.
92. عبد الجبار نبيل: عبد الجبار نبيل: تاريخ الفكر الاجتماعي، دار الشرق، عمان، ط 01، 2009م.

93. عثمان أحمد: الأدب اللاتيني ودوره الحضاري حتى نهاية العصر الذهبي، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، 1989م.
94. عثمان محمد عبد الستار: المدينة الإسلامية، عالم المعرفة سلسلة كتاب الثقافة، الكويت، 1988م.
95. العربي إسماعيل: الصحراء الكبرى وشواطئها، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983م.
96. عطوي عبد الله: جغرافية المدن، دار النهضة العربية، لبنان، ط1، 2002م، ج2.
97. عقون العربي: الأمازيغ عبر التاريخ، نظرة موجزة عن الأصول والهوية، التنوفي للطباعة والنشر، المغرب، ط1، 2001م.
98. عقون محمد العربي: الاقتصاد والمجتمع في الشمال الإفريقي القديم، سلسلة الكتب الأساسية في العلوم الانسانية والاجتماعية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2008م.
99. عكاشة علياء: العمارة الإسلامية في مصر، منشورات بردي، مصر، 2008م.
100. الكعك عثمان: موجز التاريخ العام للجزائر من العصر الحجري إلى الاحتلال الفرنسي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2003م.
101. بن عميرة محمد وبشاري بن عميرة لطيفة: تاريخ بجاية في ظل الأنظمة السياسية من عهد القرطاجيين إلى عهد الأتراك العثمانيين، ط1، دار الفاروق، الجزائر، 2015م.
102. بن عميرة محمد: الفتح الإسلامي لبلاد المغرب، ديوان المطبوعات الجامعية، ط2، 2017م.

103. بن عميرة محمد: دور زناتة في الحركة المذهبية بالمغرب الإسلامي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984م.
104. عوض السيد حنفي وصديق المهدي: قرية بني هلال بين بين المسار التاريخي والواقع الاجتماعي، دار المعارف، مصر، ط1، د س ن.
105. عويس عبد الحليم: دولة بني حماد صفحة رائعة من التاريخ الجزائري، ط02، دار صحوت، دار الوفاء، القاهرة، 1990م.
106. عويس عبد الحليم: دولة بني حماد صفحة رائعة من تاريخ الجزائر، دار الصحوة للنشر والتوزيع، القاهرة، ط02، 1991.
107. غانم عبد الغني: مدينة بسكرة نموها وتهيئة مجالها الحضري، حوليات وحدة البحث بإفريقيا العالم العربي، مجلة محكمة، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، 1999م، مج03.
108. غانم محمد الصغير: مقالات وآراء في تاريخ الجزائر القديم، دار الهدى، الجزائر، 2005م.
109. فكري أحمد: مساجد القاهرة ومدارسها، العصر الفاطمي، دار المعارف، مصر، 1965م، ج01.
110. فيلالي عبد العزيز: بحوث في تاريخ المغرب الأوسط في العصر الوسيط، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، عين مليلة الجزائر، 2014م.
111. فيلالي عبد العزيز: دراسات في تاريخ الجزائر والمغرب الإسلامي، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، 2012م.
112. فيلالي عبد العزيز: مدينة قسنطينة: تاريخ - معالم - حضارة، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، 2007م.

113. فيوجو بيررا دل: الموسوعة العربية العالمية، مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع، فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء نشر الموسوعة العربية العالمية، الرياض، ط02، 1419هـ/1999م.
114. أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي (1500 - 1830م)، دار الغرب الإسلامي، الجزائر، ط01، 1998م، ج 01.
115. القاضي محمد محمود: عقبة بن نافع الفهري فاتح إفريقيا، دار التوزيع والنشر الإسلامية، 1419هـ/1999م.
116. بن قرية صالح يوسف: أبحاث ودارسات في تاريخ وآثار المغرب الإسلامي وحضارته، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، 2011م.
117. قصي الحسين: موسوعة الحضارة العربية، العصر الفاطمي والأيوبي، دار ومكتبة الهلال للكتاب، بيروت، 2005م.
118. قطب محمد علي: أبطال الفتح الإسلامي، دار الدعوة للنشر والتوزيع، الإسكندرية، ط01، 2006م.
119. كاربخال مارمول: إفريقيا، تر: محمد حجي وآخرون، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، 1984م، ج01.
120. الكاني خليف حليم: الفتح الإسلامي للمغرب والأندلس، سلسلة تاريخ الأندلس، ط01، 2017م.
121. كحاله عمر رضا: معجم قبائل العرب القديمة والحديثة، المطبعة الهاشمية، دمشق، 1368هـ/1949م، ج02.
122. كرو أبو القاسم محمد: عصر القيروان، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق، ط02، 1989م.

123. كريشي أرنولدبيجز: تراث الإسلام في الفنون الفرعية والتصوير، تر: زكي محمود حسن، دار الكتاب العربي، دمشق، 1984م.
124. الكعك عثمان: موجز التاريخ العام للجزائر من العرص الحجري الى الاحتلال الفرنسي، دار الغرب الاسلامي، دار الغرب الاسلامي 2003م، ج02.
125. كمال عناني إسماعيل: مقدمة في الآثار الإسلامية، دار المعرفة، الإسكندرية، 2008م.
126. كونستابل أوليفيا ريمي: إسكان الغريب في العالم المتوسطي، تع وتق: محمد الطاهر المنصوري، دار المدار الإسلامي، بيروت، ط01، 2013م.
127. الكيالي عبد الوهاب: الموسوعة السياسية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، 1979م.
128. لقبال موسى: المغرب الاسلامي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط02، 1981م.
129. لقبال موسى: عقبة بن نافع الفهري، منشورات وزارة الثقافة والسياحة، مديرية الدراسات التاريخية وإحياء التراث، الجزائر، دط، د ت ن.
130. مارساي جورج: بلاد المغرب وعلاقتها بالشرق الإسلامي في العصور الوسطى، تر: هيكل محمود عبد الصمد، راج: أبو ضيف مصطفى أحمد، منشأة المعارف بالإسكندرية، 1991م.
131. مارمول كربخال: إفريقيا، تر: محمد حجي وآخرون، دار المعرفة، الرباط، المغرب، 1989م، ج03.
132. محمد أرسنت كونل: الفن الإسلامي، تر: الدكتور أحمد موسى، دار صادر، بيروت، 1966 م.

133. محمد حسن: البادية والمدينة لأفريقية في العهد الحفصي، المؤسسة الجامعية للطباعة والنشر، تونس، د س ن، ج 01.
134. محمد حسن: الجغرافيا التاريخية لإفريقيا من القرن الأول إلى القرن التاسع هـ فصول في تاريخ المواقع والمسالك والمجالات، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط01، 2004م.
135. محمد حمزة إسماعيل الحداد: موسوعة العمارة الإسلامية في مصر من الفتح العثماني حتى عهد محمد علي، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، 1998م، ج 01.
136. محمد رزق عاصم: معجم مصطلحات العمارة والفنون الإسلامية، مطبعة مدبولي، ط01، القاهرة، 2000م.
137. محمد سعيدي: ظاهرة زيارة الأولياء والأضرحة في منطقة تلمسان وأبعادها الاجتماعية والنفسية، مطبوعات الكراسك، وهران، 1995م.
138. محمود اسماعيل عبد الرزاق: الخواارج في بلاد المغرب حتى منتصف القرن الرابع هجري، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، 1985م.
139. المدني أحمد توفيق: كتاب الجزائر، المطبعة العمرية، د د ن، د س ن .
140. مشوش صالح بن الطاهر: علم العمران الخلدوني وأثر الرؤية الكونية التوحيدية في صياغته، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، 2012م.
141. مصطفى عباس الموسوي: العوامل التاريخية لنشأة وتطور المدن العربية الإسلامية، دار الرشيد لنشر، العراق، 1982م.
142. المصمودي صالح بن عبد الحليم: المقتبس من تاريخ البربر في المغرب والأندلس، تح: عبد القادر بوباية، مكتبة الرشاد للطباعة والنشر، 1430هـ / 2013م.

143. المصعبي إبراهيم بن بجمان: رحلة المصعبي، تح: يحي ابن يعقوب حاج محمد، دار العطف للنشر والتوزيع، غرداية، 2007م.
- 144.
145. معزوز عبد الحق: الكتابات الكوفية في الجزائر القرنين الثاني والثامن الهجريين (8- 14 م)، الجزائر، 2002 م.
146. مغربي عبد الغني: الفكر الاجتماعي عند ابن خلدون، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1978م.
147. مغربي عبد الغني: تاريخ الفكر الاجتماعي، دار الشرق، عمان، ط 01، 2007م.
148. مفتاح خلفات: قبيلة زوارة بالمغرب الأوسط (6-9هـ / 12-15م)، المؤلفات للنشر والتوزيع، المسيلة، 2016م.
149. ملكاوي فتحي: رؤية العالم حضور وممارسات في الفكر والعلم، المعهد العالمي للفكر الاسلامي، هرندين، فرجينيا، الولايات المتحدة الأمريكية، ط01، 1442هـ/ 2021م.
150. ممدوح حسين وشاكر مصطفى: الحروب الصليبية في شمال أفريقية وأثرها الحضاري، دار عمار، عمان، ط01، 1419هـ/ 1998م.
151. ابن منصور عبد الوهاب: قبائل المغرب، المطبعة الملكية، الرباط، 1388هـ/ 1968م، ج01.
152. ابن منكلي الناصري محمد: الحيل في الحروب وفتح المدائن وحفظ الدروب، تح: نبيل محمد عبد العزيز أحمد، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، 2000م.
153. مؤنس حسين: المساجد، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1981م.

154. مؤنس حسين: تاريخ المغرب وحضارته (من قبل الفتح العربي إلى بداية الاحتلال الفرنسي للجزائر من القرن 06 إلى القرن 19م)، مطبعة العصر الحديث، بيروت، لبنان، ط1، 01، 1992، ج01.
155. مؤنس حسين: تاريخ المغرب وحضارته، العصر الحديث للنشر والتوزيع، لبنان، ط1، 01، 1416هـ / 1992م، مج01.
156. مؤنس حسين: فتح شمال إفريقيا ومقاومة البربر، تاريخ إفريقيا العام، اللجنة العلمية الدولية لتحرير تاريخ إفريقيا العام (يونيسكو)، دار النشر جون أفريك، 1997م، مج03.
157. المليي مبارك بن محمد: تاريخ الجزائر في القديم والحديث، المؤسسة الوطنية للكتاب، دسن، ج01، ج02.
158. المليي محمد مبار: تاريخ الجزائر في القديم والحديث، دار الغرب الإسلامي، بيروت، د س ن، ج01.
159. الناصري أبو العباس أحمد بن خالد: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تح: جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، المغرب، 1418هـ/1997م، ج01.
160. ناصف سعيد: علم الاجتماع الحضري (المفاهيم - القضايا - المشكلات)، تقديم: محمود عودة، قسم الاجتماع، كلية الأدب، جامعة عين شمس، ط1، 01، 2006م.
161. أبو النصر عمر: تغريبه بني هلال ورحيلهم إلى بلاد المغرب وحربهم مع البنزاتي خليفة، دار أبو النصر وشركاه للطباعة والنشر والتوزيع والصحافة، بيروت، لبنان، ط1، 01، 1971م.

162. بن النية رضا: **صنهاجة المغرب الأوسط من الفتح الإسلامي حتى عودة الفاطميين إلى مصر - دراسة اجتماعية**، دار توكل للنشر والتوزيع، الجزائر، د س ن.

163. الهادي روجي إدريس: **الدولة الصنهاجية تاريخ إفريقيا في عهد بني زيري من القرن 10 إلى القرن 12م**، تر: حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، ط01، 1992م، ج01، ج02.

164. هيرودوت: **تاريخ هيرودوت**، تر: عبد الله الملاح، إصدارات المجمل الثقافي، أبو ظبي، 1422هـ/2001م.

165. ولد سالم حمّاه الله: **تاريخ الأمازيغ والهجرة الهلالية مقتطف من كتاب العبر لابن خلدون - مع دراسة قبائل البافور الغامضة**، تل: حمّاه الله ولد السالم، دار الكتب العلمية، بيروت، 2012م.

قائمة الرسائل الجامعية:

1. بشي مشري: **الاتجاهات الشعرية عند أحمد سحنون**، رسالة مقدمة لنيل دكتوراه

دولة في الادب الجزائري الحديث، جامعة الجزائر، 2006/2007م.

2. بن بركات زينب وبوحفص مسعودة: **مدينة طنبنة من الفتح الإسلامي إلى اجتياح**

القبائل الهلالية - دراسة تاريخية أثرية، مذكرة ماستر، قسم التاريخ، كلية العلوم

الإنسانية والاجتماعية، جامعة محمد خيضر بسكرة، 2020/2021م.

3. بن قربة صالح: **المسكوكات المغربية من الفتح الإسلامي إلى سقوط دولة بني حماد**، بحث

لنيل درجة دكتوراه الدور الثالث في الآثار الإسلامية، دأة الدراسات التاريخية والآثار، جامعة

الجزائر، 1983م.

4. بوخالفة عزي: **تغريبة بني هلال بين التاريخ والروايات الشفهية الهلالية الجزائرية**، مذكرة معدة لنيل شهادة دكتوراه دولة، كلية الآداب واللغات، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة الجزائر، الجزائر، 2002-2003م.
5. بوراس حكيم بوسدره فاطيمة: **الحياة الاقتصادية في مقاطعة نوميديا خلال العهد الروماني (من القرن الأول قبل الميلاد إلى القرن الثالث بعد الميلاد)**، مذكرة تتدرج ضمن متطلبات نيل شهادة الماستر تخصص تاريخ الحضارات القديمة، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية قسم التاريخ، جامعة ابن خلدون، تيارت، 1443-1444هـ / 2022-2023م.
6. بوعزة مباركة: **البادية والأرياف في المغرب الأوسط خلال القرنين 5 و6هـ** 11 و12م، مذكرة مقدمة لنيل شهادة ماستر، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، قسم التاريخ، جامعة الجيلالي الياصب، سيدي بلعباس، 1439-1440هـ / 2018-2019م.
7. بوقاعدة البشير: **خراب المدن بالمغرب الأوسط والادنى 296هـ-909م/547هـ-1152م**، رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في تاريخ المشرق والمغرب الإسلامي، المدرسة العليا للأساتذة بوزريعة، الجزائر، 2012-2013م.
8. بونابي الطاهر: **الحركة الصوفية في المغرب الأوسط خلال القرنين الثامن والتاسع الهجريين 14-15 الميلاديين**، أطروحة الدكتوراه علوم في التاريخ الإسلامي الوسيط، قسم التاريخ، جامعة الجزائر، 1429-1430هـ / 2008-2009م.
9. حافظي علوي لحسن: **واحات بلاد المغرب من القرن 4هـ-8هـ/10-14م**، رسالة دكتوراه بجامعة محمد الخامس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، أكادال، الرباط، السنة الجامعية 2004-2005م.

10. خرامة عبد المليك: التسبيب الإداري بالمرافق العمومية دراسة حالة بلدية أوماش، مذكرة مقدمة ضمن متطلبات نيل شهادة الماستر (في التسيير) ، كلية العلوم الاقتصادية والتجارية وعلوم التسيير، جامعة محمد خيضر، بسكرة، د ن.
11. دعاء جاسم جاهل: إقليم الزاب في المغرب الإسلامي دراسة في الأحوال العامة نهاية القرن السابع الهجري، هي جزء من متطلبات نيل شهادة الماجستير في التاريخ الاسلامي ، كلية التربية للعلوم الانسانية، جامعة كربلاء، العراق، 2023م.
12. رحالي محمد علي: بطون بني هلال في بلاد المغرب الإسلامي مناطق استقرارها وآثارها من ق5هـ إلى ق7هـ/من ق11م إلى ق13م، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الوسيط، قسم التاريخ، المدرسة العليا للأساتذة، بوزريعة، الجزائر، 2018م.
13. رحمة خليل صفاء خيشة: مسجد عقبة بن نافع ببسكرة (دراسة أثرية)، مذكرة مكملّة لمتطلبات الحصول على شهادة الماستر في تاريخ الوسيط والحديث، كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، جامعة الشهيد حمه لخضر، الوادي، 1437 - 1438هـ / 2016 - 2017م.
14. رعد جمال مناف العزاوي: العمارة الأندلسية "من القرن الثاني الهجري إلى الخامس الهجري"، رسالة دكتوراه غير منشورة لنيل شهادة دكتوراه في التاريخ الإسلامي. جامعة بغداد. العراق 2013م.
15. زياني الصادق: الجغرافيا التاريخية لبلاد الزاب من نهاية الفتح الإسلامي إلى نهاية القرن 09هـ، أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه ل م د في التاريخ،

- قسم التاريخ، كلية الادب والحضارة الإسلامية، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، 1439-1440هـ / 2018-2019م.
16. سالم مصطفى: الأطلس الأثري لإقليم الزاب في العهد الإسلامي (بسكرة نموذجاً)، رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في الآثار الإسلامية، معهد الآثار، جامعة الجزائر، 2008/2009م.
17. شلوق فتحة: العمارة الدينية بمنطقة الزاب دراسة أثرية ومعمارية، مذكرة مكملة لنيل شهادة الماجستير في آثار الصحراوية، قسم آثار الصحراوية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة محمد خيضر بسكرة، 2007/2008م.
18. عبد العزيز شهيبي: مساجد أثرية في منطقتي الزاب ووادي ريغ، أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه، تخصص الآثار الإسلامية، جامعة الجزائر، 1985م.
19. عيبش يوسف: الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية لبلاد المغرب، أثناء الاحتلال البيزنطي، أطروحة دكتوراه دولة في آثار وتاريخ المغرب القديم، منشورة تحت إشراف: شنييتي محمد البشير، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة منتوري، قسنطينة، الجزائر، 2006/2007م.
20. غرايسة عمار: التحولات الاجتماعية والثقافية في واحات المغرب الأوسط (الزاب، أريغ، أسوف، ورجلان) من الفتح الإسلامي إلى القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي، أطروحة مقدمة لنيل أطروحة دكتوراه العلوم في التاريخ الوسيط، تخصص حضارة المغرب الأوسط في العصر الإسلامي، جامعة الأمير عبد القادر، الجزائر، 1439-1440هـ / 2018-2019م.

21. غرايسة عمار: المدينة الدولة في المغرب الأوسط ورجلان نموذجا (ق4/هـ5)، رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في حضارة المغرب الأوسط في العصر الاسلامي، جامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة، الجزائر، 2007/2008م.
22. غضبان فاطمة الزهراء: مدن إقليم الزاب من خلال الكتب الجغرافية المنشأة والتطور والاندثار، ق 08 هـ / 14م (678 - 804 هـ / 1279 - 1402م)، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماستر، تخصص تاريخ الغرب الإسلامي، كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، قسم التاريخ، جامعة محمد بوضياف، المسيلة، الجزائر، 2019/2020 م.
23. فاروق محمد علي: الاستحكامات الدفاعية في تخطيط المدن، أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه، جامعة بغداد، العراق، 2006م.
24. قبالة مبارك: تطور مواد وأساليب مواد البناء في العمارة الصحراوية، مذكرة مكملة لنيل شهادة الماجستير في علم الآثار، تخصص الآثار الصحراوية، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة محمد خيضر، بسكرة، 2009/2010م.
25. كداد السعيد: المدينة والبادية في المغرب الأوسط خلال العصر الوسيط، مذكرة ماستر تاريخ القرون الوسطى، قسم التاريخ، كلية العلوم الإنسانية والاجتماع، جامعة المسيلة، 1434-1435هـ/2013-2014م.
26. كرتالي أمين: سلطة شيوخ القبائل العربية في المغرب الأوسط خلال العهد الزياني، أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه علوم في التاريخ الوسيط، قسم التاريخ، جامعة الجزائر 02 أبو القاسم سعد الله، 2017/2018م.
27. كرميش خضرة: العمران العسكري في المغرب الإسلامي (بين الوظيفة العسكرية والدينية) لربط أنموذجا، مذكرة مكملة لنيل شهادة ماستر أكاديمي

- تخصص تاريخ الغرب الإسلامي في العصر الوسيط، جامعة حمد بوضياف، المسيلة، 2021/2020م.
28. كريم الطيب: **المعالم الأثرية في منطقة الزاب الشرقي**، رسالة ماجستير في علم الآثار الصحراوية، جامعة محمد خيضر بسكرة، 2009م.
29. كريم الطيب: **تطور العمران الإسلامي بولاية بسكرة خنقة سيدي ناجي نموذجاً دراسة تاريخية أثرية عمرانية**، أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه علوم في الآثار الإسلامية، جامعة الجزائر 02 أبو القاسم سعد الله، 2018/2017م.
30. محروق إسماعيل: **العمارة الإسلامية في كتب رحالة المغرب الإسلامي من القرن 07 إلى القرن 10هـ / 13 إلى 16م**، أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه، تاريخ، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان، الجزائر، 2017-2018م.
31. محمد فاضل بن الشيخ الحسين: **البيئة الحضرية في مدن الواحات وتأثير الزحف العمراني على توازنها الإيكولوجي**، أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه دولة في العمران، جامعة قسنطينة، 2001م.
32. مديازة صورية: **بلاد الزاب من الفتح الإسلامي إلى انتقال الفاطميين إلى مصر (21- 362هـ / 642م - 972م)**، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ، تخصص التاريخ الإسلامي، كلية الأدب والعلوم الإنسانية، جامعة الحاج لخضر، باتنة، الجزائر، 2009/2010م.
33. مصطفى سالم: **الأطلس الأثري لإقليم الزاب في العهد الإسلامي (بسكرة نموذجاً)**، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في الآثار الإسلامية، معهد الآثار، جامعة الجزائر، 2008/2009م.
34. هدى حملاوي: **العرب الهلالية في بلاد المغرب الأوسط وعلاقتهم بالمجال والسلطة والمجتمع (عهد الدولة الحمادية أنموذجاً)**، مذكرة مكملة لمتطلبات نيل

- شهادة الماستر تخصص: تاريخ الغرب الإسلامي، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، قسم التاريخ، جامعة المسيلة، 2021م.
35. الهطاي علي: بلاد الزاب من الفتح الإسلامي إلى منتصف القرن الخامس الهجري/الحادي عشر ميلادي، رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في تاريخ العالم المتوسطي وحضارته: قديم ووسيط، كلية الآداب والفنون والانسانيات بمنوبة، جامعة بنوبة، تونس، 2015-2016م.
36. ولد همر محمّدو: العمران الوقفي في الغرب الإسلامي بين القرنين (5-9هـ / 11-15م) دراسة من خلال النوازل والشواهد الأثرية، أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الوسيط، جامعة الوادي، 2022-2023م.
37. يحي أبو المعاطي: الملكيات الزراعية وأثارها في المغرب والاندلس (237- 488هـ/852- 1095م) دراسة تاريخية مقارنة، رسالة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه، قسم التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، كلية دار العلوم، جامعة القاهرة، 1421هـ/2000م.

قائمة المجلات والندوات:

1. بامون آمنة: "مجتمع القصور شاهد حي لهوية الأمة"، مجلة الباحث في العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة قالمة، الجزائر، مارس 2015م.
2. بعيطيش عبد الحميد وبونقاب عماد: "مدن مقاطعة موريطانيا القيصرية من خلال المصادر الأدبية والمادية"، وراق المجلة الدولية للدراسات الأدبية والإنسانية، مخبر الموسوعة الجزائرية الميسرة، جامعة باتنة، الجزائر، مج02، ع 01، مارس 2020م.
3. بكوش فافة: "الهجرة الهلالية ببلاد المغرب خلال القرن (5هـ/11م) وقائعها وآثارها"، مجلة القرطاس، ع 07، جانفي 2018.

4. بلعربي خالد: "الأسواق في المغرب الأوسط خلال العهد الزياني"، دورية كان التاريخية، ع 06، ديسمبر 2009م.
5. بن بلخير أحمد وبوقاعدة البشير: "القبائل العربية بالمغرب الإسلامي (ق 5هـ-11م) التواجد الهلالي بين القطيعة السياسية والأزمة الاقتصادية"، مجلة الإحياء، مج 22، ع 30، جانفي 2022.
6. بن حيدة يوسف: "مؤسسة الزوايا ودورها في التواصل الصوفي ببلاد المغرب خلال الفترة العثمانية"، مجلة آفاق فكرية، ع 01، ديسمبر-جانفي 2014م.
7. بن عبد الله زهية: "الحسد والرعاية الصحية به في رحاب حضارات الماء قراءة أنثروبولوجية لعادات الاغتسال في التراث المتوسطي"، مجلة العلوم الإنسانية والإجتماعية، ع 18، مارس 2015م.
8. بن عريب مصطفى: "التوطن الهلالي بالمغرب الأوسط خلال العهد الحمادي من منتصف القرن 5هـ/11م إلى منتصف القرن 6هـ/12م (قراءة في طرق وأساليب التوطن وآثاره بتلول وصحراء المغرب الأوسط)"، مجلة البحوث التاريخية، مج 05، ع 02، 2021م.
9. بن قويدر نور الدين: "طبنة العتيقة من الإزدهار إلى الذبول والاندثار"، المنتقى للبحوث والدراسات، مج 03، ع 05، جوان 2022م.
10. بو خليفي قويدر جهينة: "منطقة الزيبان دراسة طبيعية جغرافية"، مجلة قبس للدراسات الاجتماعية والإنسانية، مج 06، ع 02، أكتوبر 2022م.
11. بوسالم أحلام: "الفنادق بالمغرب الأوسط ودورها في تعزيز الصلات الاقتصادية مع دول الحوض الغربي للبحر المتوسط (فنادق المملكة الزيانية أنموذجاً)"، الحوار المتوسطي، مج 14، ع 01، ديسمبر 2023م.

12. بورملة خديجة: "التغيرات السياسية والعسكرية والاقتصادية بالمغرب الأوسط في ظل الهجرة الهلالية منتصف القرن 05 هـ/11م - منتصف القرن 06 هـ/12م"، مجلة المواقف للبحوث والدراسات في المجتمع والتاريخ، مج 20، ع02، ماي 2025م.
13. بوزياني الدراجي: "ينو هلال وأحلافهم (المنشأ والهجرة والاستقرار)"، مقال في دولة بني مزني بيسكرة 1279-1402م، المجلة الخلدونية، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، عين مليلة، ع 09، جانفي 2011م.
14. بوقاعدة البشير: "الهجرة الهلالية وإشكالية التراجع الحضاري للمغرب الأوسط الحمادي - قراءة نقدية في مخلفاتها التدميرية"، مجلة العبر للدراسات التاريخية والأثرية في شمال إفريقيا، مج 08، ع01، جانفي 2025م.
- بوقاكة حليلة: "معالم المشهد العمراني في إقليم الزاب في ظل التواجد الهلالي الرياحي، من الخيمة إلى القصر خلال القرن 08 هـ/14م"، الملتقى الدولي حول: "المدينة والتطور العمراني في ضوء فقه العمران والاجتماع البشري"، المنظم من طرف كلية الشريعة والاقتصاد بالتنسيق مع قسم الفقه وأصوله، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، 24 و25 شعبان 1442 هـ الموافق 07 و08 أفريل 2021م.
15. التجاني العمودي: "العلاقة بين العمران والإنسان في القصور الصحراوية وفق المنظور الإسلامي"، مجلة الإعلام والمجتمع، مج 03، ع 02، ديسمبر 2019.
16. تمليكشت هجير: "مميزات العمارة السكنية بالقصور الصحراوية بالجزائر (مسكن قصر تمنظيط نموذج)"، مجلة الاتحاد العام للآثاريين العرب، ع 15، د ت ن.

17. جعيل أسامة الطيب، نبيلة عبد الشكور: "الزراعة في إقليم الزاب في العصر الوسيط من خلال كتب الرحلة والجغرافيا"، مجلة الحوار المتوسطي، مج 11، ع02، سبتمبر 2020م.
18. جعيل أسامة الطيب: "حواضر إقليم الزاب الكبرى في العصر الوسيط من خلال كتب الجغرافيا البلدانية دراسة تاريخية"، مدارات تاريخية، دورية دولية محكمة ربع سنوية، جامعة الجزائر 02 أبو القاسم سعد الله، مج 01، ع01، مارس 2019م.
19. حاجي ياسين رايح: "التحصينات الدفاعية البيزنطية في شمال إفريقيا"، رسالة ماجستير آثار قديمة، جامعة بغداد، 2002م.
20. حاجي ياسين رايح: "المسح الأثري بموقع تهوده وضواحيه"، مجلة الآثار، ع 11، 2014م.
21. حروز عبد الغني: "الخوارج نشأتهم وانتقالهم إلى بلاد المغرب الإسلامي"، المجلة التاريخية الجزائرية، ع 06-07، جانفي - ماي 2018م.
22. حرث علي عبد الله: "الفنادق ودورها في النشاط التجاري لبلاد المغرب خلال العصر الإسلامي"، مجلة لارك للفلسفة واللسانيات والعلوم الاجتماعية، مج 02، ع 41، 2021م.
23. حكيم قدور طاهري ومسعود بلاغازي: "عوامل وأسباب خراب العمران بالمغرب الأوسط"، المجلة التاريخية الجزائرية، مج 07، ع01، 2023م.
24. حملاوي علي: "القصر بالجنوب الجزائري مفهومه ومكوناته"، مطبعة سومر، الجزائر، 2001م.
25. خروبي فتحة: "تطور عمارة الحمام عبر العصور"، عصور، ع 26-27، جويلية - ديسمبر 2015م.

26. خلفات كمال: "أثر هجرة العرب الهلالية إلى المغرب الأوسط على الحانين الاقتصادي والاجتماعي"، مجلة العلوم الاجتماعية والانسانية، مج 10، ع 01، 2020م.
27. الخلفيات محمد عطا الله: "أسواق الأندلس في عصر الدولة الأموية"، مجلة المشكلات للعلوم الإنسانية والاجتماعية، مج 01، ع 01، ربيع الأول 1435هـ/ كانون الثاني 2014م.
28. خلوط أسماء وشرف عبد الحق: "المدن الصحراوية في كتابات الجغرافيين بسكرة نموذجا"، مجلة العبر للدراسات التاريخية والأثرية، مج 03، ع 01، جانفي 2020م.
29. الدقس محمد عبد المولى: "سوسولوجيا الصنائع عند ابن خلدون"، جامعة الملك سعود، 2001م.
30. رابح رمضان: "اقتصاد الحرب والمغازي وأثاره بالأندلس خلال فترة الفتح والولادة"، مجلة المعارف للبحوث والدراسات التاريخية، جامعة الوادي، الجزائر، 1435هـ/ 2016م.
31. رسيوي عبد الله وغانية البشير: "العمران في واحات المغرب الأوسط (قصر متلبلي الشعانبة نموذجا)"، مجلة المعارف للبحوث والدراسات التاريخية، مج 07، ع 04، ديسمبر 2024م.
32. رعد سعيد محمد: "الموسوعة العسكرية"، مقال الخندق، دمشق، 1985م، ج 02.
33. رقية بعد الصمد: "حماية المعالم الأثرية الطينية بالجزائر – مبانى لبشانة بسكرة"، مجلة التراث والتصميم، مج 05، ع 16، أفريل 2025م.

34. رياض عزيز هادي: "مفهوم الدولة ونشوؤها عند ابن خلدون"، مجلة العلوم السياسية، ع 37، د س ن.
35. ريغي حدة: "انطباعات حول المدينة الإسلامية بإقليم الأوراس في ضوء النصوص الجغرافية"، مجلة الحكمة للدراسات التاريخية، مج 03، ع 05، جانفي 2015م.
36. زاوية سليم: "أرباض المدن العربية الإسلامية القديمة (دلالات عمرانية وسوسيوثقافية بعض مدن المغرب الأوسط نموذجاً)"، مجلة العلوم الإنسانية، مج 30، ع 04، ديسمبر 2019م، ص 70.
37. زياني الصادق: "جغرافيا العمران ببلاد الزاب من خلال رحلة فيض العباب للنميري (قصر عثمان الرياحي نموذجاً)"، مجلة ميلاف للبحوث والدراسات، مج 04، ع 01، 2018م.
38. زيرار رضوان وبن دادو نصر الدين: "الحرب القبلية في بلاد المغرب الأوسط خلال القرنين (07-09هـ/13-15م) من خلال المصادر الوسيطة"، المجلة الجزائرية للمخطوطات، مج 18، عدد خاص، ديسمبر 2022.
39. سالم مصطفى: "الدنانير المضروبة في عهد إمارة بني مزني -دراسة تاريخية أثرية"، مجلة الإحياء، مج 25، ع 36، جانفي 2025م.
40. السامي عبد العال عبد المنعم: "جغرافية المدن عند العرب"، مجلة عالم الفكر، مج 09، ع 01، أبريل - مايو - يونيو، 1978م.
41. السقا سميرة: "دولة بني مزني ببسكرة من خلال كتاب العبر لابن خلدون، مقال في دولة بني مزني ببسكرة 1279-1402م"، المجلة الخلدونية، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، عين مليلة، ع 09، جانفي 2011م.

42. شعبان إيمان: "الفتح الإسلامي لبلاد المغرب"، مجلة مفاهيم للدراسات الفلسفية والإنسانية المعمقة، ع 09، أبريل 2021م.
43. شقرون إكرام: "مصطلح الرباط المفهوم والدلالة"، مجلة كان التاريخية، دار شرى للنشر الإلكتروني، ع 18، ديسمبر 2012م.
44. شلوق فتيحة: "دراسة معمارية وأثرية لمسجد سيدي موسى الخذري بسكرة"، كلية الأدب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد خيضر، بسكرة، ع 04، 2009م.
45. شهيبي عبد العزيز: "بسكرة عاصمة الزيبان"، نشأة المدينة وتطورها، مديرية التراث الثقافي، الملتقى 04 للبحث الاثري والدراسات التاريخية، تندوف، 1996م.
46. الشخيلي صباح: "انتشار الثقافة العربية الإسلامية في افريقية جنوب الصحراء"، مجلة آفاق الثقافة التراث، الإمارات العربية المتحدة، ع 38، 2002م.
47. شيماء محمد طارق السيد أبو المعاطي وأمال محمد حسن وصفي علي محمد: "بني زيري في إفريقيا بعد خروج الفاطميين بين الخضوع والتمرد (443-543هـ/1052-1148م)"، مجلة بحوث العلوم الإنسانية والاجتماعية، مج 02، ع 05، ماي 2022م.
48. الطاهر بونابي: "حركة المرابطين السنة بالزاب بين التصوف والرباط"، المجلة الخلدونية، ع 09، 2011م.
49. طيب بوجمعة نعيمة: "الهجرة الهلالية من خلال مخطوط كتاب نسب زغبة ومنتهى أصولهم لأبي الحسن بن علي بن محمد بن الخطيب القرشي"، المجلة المغربية للمخطوطات، ع 06، جانفي 2018م.
50. طيب بوجمعة نعيمة: "تجربتي في دراسة مخطوط كتاب نسب زغبة ومنتهى أصولهم لأبي الحسن بن علي بن محمد بن الخطيب القرشي التلمساني (عاش خلال القرن 11هـ/17م)"، مجلة آفاق الفكرية، مج 09، ع 01، جوان 2021م.

51. عبد العزيز صلاح سالم وآخرون: "أنواع التحصينات والاستحكامات الدفاعية للمنشآت الحربية الإسلامية في شمال المغرب في عصر الموحدين والمرينيين"، مجلة البحوث والدراسات الأثرية، ع 10، مارس 2022م.
52. عبد الكريم حساين: "حضور الانثروبولوجيا الدينية في كتابات إبراهيم القادري بوتشيش: حلقات مفقودة من تاريخ الحضارة في الغرب الإسلامي - نموذجاً"، مجلة انثروبولوجيا الأديان، جامعة تلمسان، الجزائر، 2020م.
53. عطابي سناء: "صورة الأزقة والأحياء السكنية في مدينة المغرب الأوسط من خلال النصوص الفقهية"، عصور جديدة، ع 16-17، أفريل 2014م.
54. عطية حنان: "مدينة طينة من خلال المصادر والدراسات الأثرية"، مجلة المواقف للبحوث والدراسات في المجتمع والتاريخ، مج: 18، ع 01، أوت 2022م.
55. علاوة عمارة: "الهجرة الهلالية وإشكالية انحطاط حضارة المغرب الإسلامي الوسيط"، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة، أكتوبر 2004م.
56. علاوة عمارة: "بين جبل الأوراس والوحدات ظهور وانتشار واختفاء الجماعات الاباضية بالزاب (ق 08 - 09م / ق 02 - 03هـ)"، مجلة المعارف للبحوث والدراسات التاريخية، ع 09، جانفي 2017م.
57. علاوة عمارة: "التحولات المحلية والطونيمية لبلاد الزب من الفتح الإسلامي إلى نهاية القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي"، مجلة تراث الزيبان، مج 01، ع 01، 2016م.
58. عمراني عبد الحميد: "توميدبا أثناء الاحتلال الروماني"، عصور الجديدة، ع 10، جويلية 1434هـ/2013م.

59. العمودي التجاني: "العلاقة بين العمران والإنسان في القصور الصحراوية وفق المنظور الإسلامي"، مجلة الإعلام والمجتمع، مج 03، ع 03، 25-08-2019م.
60. عناق جمال: "النظام المائي ومنشأته (إقليم الزاب - إفريقيا - نموذجاً) دراسة تاريخية أثرية"، مجلة وميض الفكر للبحوث، جانفي 2022م.
61. عناق جمال: "قراءات نقدية للكتابة التاريخية حول حواضر وقصور إقليم صحراء المغرب الإسلامي"، مجلة جامعة الأزهر، غزة، سلسلة العلوم الإنسانية، 2019، مج 21، ع 01.
62. غانم عبد الغني: "مدينة بسكرة نموها وتهيئة مجالها الحضري"، حوليات وحدة البحث بإفريقيا العالم العربي، مجلة محكمة، دار الهدى، عيد مليلة، الجزائر، مج 03، 1999م.
63. غانم محمد الصغير: "منطقة بسكرة بين الموقع الاستراتيجي والنصوص التاريخية"، المجلة الخلدونية للأبحاث والدراسات التاريخية، ع 03.
64. فرحات مليكة: "القبيلة كتنظيم اجتماعي وحتمية تاريخية"، أفكار وآفاق، مج 10، ع 03، 2022م.
65. قاسمي بختاوي: "الهجرة الهلالية إلى الصحراء الإفريقية (الأسباب والانعكاسات)"، الساور للدراسات الإنسانية والاجتماعية، ع 01، ديسمبر 2015.
66. كرطالي أمين: "مدينة باغية خلال العصر الوسيط المحطات السياسية - التغيرات العمرانية والتحويلات الاجتماعية"، مجلة المواقف للبحوث للدراسات في المجتمع والتاريخ، مج 13، ع 01، جوان 2018م.
67. كريب عبد الرحمان: "فقه العمران في الغرب الإسلامي في المذهبين المالكي والإباضي دراسة مقارنة في المصادر والأحكام"، مجلة العبر للدراسات التاريخية

- والأثرية في شمال إفريقيا، جامعة ابن خلدون، تيارت، مج 04، ع 02، سبتمبر 2021م.
68. كريم الطيب: "المعالم الأثرية الإسلامية في منطقة الزاب الشرقي"، مجلة العلوم الإنسانية، جامعة محمد خيضر، بسكر، ع 47، 2017م.
69. كمونة حيدر عبد الرزاق: "محلة الخطط والتنمية"، مجلة علمية متخصصة محكمة يصدرها معهد التخطيط الحضري والإقليمي للدراسات العليا، جامعة بغداد، ع 22، 1431هـ/2010م.
70. لقبال موسى: "طينة مدينة الزاب والأوراس في العصور الوسطى"، مجلة الأصالة، مطبعة البعث، قسنطينة، ع 60-61، 1978م.
71. لويس ماسنيون: "الهيئات الحرفية والمدينة الإسلامية"، تر: أكرم فاضل، مجلة المورد دار الحرية للطباعة، بغداد، مج 02، ع 03، 1963م.
72. مبارك بشير: "العصر العربي بالمسيلة وقلعة بني حماد خلال العصر الوسيط قراءة في الأدوار والتأثيرات"، مجلة البحوث والدراسات الإنسانية، ع 13، 2016م.
73. محمود نعيمة: "حماية القصور الصحراوية في إطار التنمية المستدامة بالجزائر"، علوم وتكنولوجيا، جامعة قسنطينة، ع 39، جوان 2014م.
74. معروف حفصة: "مؤسسة الفنادق في الغرب الإسلامي خلال العصر الوسيط - قراءة في الدور والفعالية على ضوء معطيات مصدريّة"، دراسات تراثية، ع 16، 2022م.
75. مرغيت محمد: "البعثة العمرية وأثرها في توطين الإسلام والعربية ببلاد الغرب الإسلامي"، قسم العلوم الإنسانية، جامعة أدرار، الحوار الفكري، جوان 2016م.

76. مزردى فاتح، بوسعد الطيب: "دور العلماء في ازدهار الحياة الفكرية في المراكز الحضارية لبلاد الزاب خلال العصر الوسيط"، مجلة العلوم الإنسانية، مج22، ع 01، 2022م.
77. مزوري مومن: "النظام القبلي في الجنوب الجزائري قبيلة ذو منيع أنموذجاً"، مجلة آفاق علمية، مج09، ع 02، 2019م.
78. مسعد محمد عبد الله: "أسواق المغرب الأقصى في عصر الدولة الموحدية (541-609هـ/1145-1212م)"، مجلة كلية الأدب، جامعة بنها، ع 29، يوليو 2012م.
79. ملكاوي فتحي: "رؤية العالم والعلوم الاجتماعية"، مجلة إسلامية المعرفة، عمان، مج11، ع 42، 2013م.
80. مياسي إبراهيم: "احتلال بوابة الصحراء "سكرة عروس الزيبان"، حوليات الجزائر، ع 03، 1995م.
81. نجاح حسين أحمد هبارنة: "ملاحح العمران البشري عند ابن خلدون (دراسة مقارنة)"، حوليات عين شمس، جامعة عين شمس، مج45، أبريل 2017م.
82. الهادي الشتوي المقطوف: "الحمامات في الحضارة الإسلامية"، مجلة كلية التربية، ع 21، أبريل 2021م.
83. هدوش صلاح الدين: "المدينة ببلاد الزاب من خلال المصادر العربية من القرن 05هـ/11م إلى القرن 08هـ/14م"، مجلة علوم الإنسان والمجتمع، ع14، مارس 2015، جامعة باتنة، الجزائر.

84. هدوش صلاح الدين: "ركائز عمران القصر في المغرب الأوسط: بحث في مصادر المياه من القرن 05 إلى القرن 09هـ (11-15م)"، مجلة قبس للدراسات الإنسانية والاجتماعية، مج 06، ع 02، أكتوبر 2022م.
85. هدوش صلاح الدين: "قصور الزاب الغربي بين أخطار الاندثار وإمكانية الاستمرار"، مجلة المقدمة للدراسات الإنسانية والاجتماعية، مج 05، ع 02، 2020م.
86. الهطاي علي: "الجغرافيا التاريخية لبلاد الزاب من الفتح إلى منتصف القرن الخامس هجري/ الحادي عشر ميلادي دراسة في تطور المحالات والمواقع"، مجلة المواقع والبحوث والدراسات في المجتمع والتاريخ، ع 12، ديسمبر 2017م.
87. الهطاي علي: "حركة سعادة الرياحي صاحب طائفة "السنية" بنواحي يسكر"، مجلة مدار التاريخية، مج 03، ع 02، جوان 2021م.
88. ياسيني رابح حاجي والسعيد تريعة: "الحاضرة في إقليم الزاب الشرقي بادنس وتهودة وسيدي عقبة أنموذجاً، تحولات المدينة الصحراوية الجزائرية"، معهد الآثار، جامعة الجزائر، جامعة حسيبة بن بوعلي بالشلف، الجزائر، إصدارات مركز البحث في العلوم الإسلامية والحضارة، الأغواط، الجزائر، ط01، 1439هـ - 2018م، ج 02.

قائمة المراجع الأجنبية:

1. Alfred Bel, la religion musulmane en Berbérie esquisse d'histoire et de socialogé religieuse, paris, librairie orientaliste paul Geuthner, 1938, vol. I.
2. Amara Alloua: Entre le massif de L'Aures et les oasis : apparition, évolution et disparition des communautés ibadites

du Zab (VIII–XIV siècle), *Revue des mondes et de la Méditerranée*, 2012.

3. Augustin, S. (n.d.). *Debatismo contra Donatistas*.
4. Bel Alfred: la djazya Seq oct 1902. Mars.Avril1903.
5. BLANCHET, P., *La porte de Sidi Okba*, Paris, 1900.
6. Bouruiba Rachid : apport de l'Algérie a l'architecture religieuse arabo- islamique, O.P.U, Alger, 1986.
7. Cote (M.), « ZàB »: *Encyclopédie de l'islam*. Nouvelle édition établie avec les concours de principaux orientalistes. Leiden.Brill2005.T .VI.
8. *DESANGES, J : « Un témoignage peu connu de Procope sur la Numidie vandale et byzantine », In BYZANTION, 33, 1963.*
9. Despose; J ; *Le Hodna*. Alger. Paeis.1953

10. Diehl, d’afrique byzantine, histoire de la domination byzantine en Afrique, paris 1966.
 - a. Encyclopedie de l’Islam, Tome IV, Paris, 1934.
11. Garrot Hemi : Histoire Générale de L’Algérie. 1er Ed, Imprimerie P.Crescenzo VoutsBastin–Nord, France ,1916.
12. Gascou(j): La politique municipale de l’empire romain en Afrique proconsulaire de Trajan à septime sévère,Ecole francais de Rome 1972.
13. Gustave le bon : la civilisation des arabes, S.N.E.D, Algérie.
14. Henry Duveyrier, voyage dans le pays des Beni Mezab, Paris, 1861.
15. Lecture de l’espace oasienne, la Bibliothèque arabe de Sind Bad, 1980.
16. Lucien Golvin: la maghreb ceritral àl èpaque des ziriades , recherches d’archèalogie et d’histoire paris ars mètiers graphinques,1957.
17. M.G. de Vulpillieres, Monographie de BISKRA de du SAHARA. Constantinois.
18. Marçais George: l architecture musulmane d’occédent.
19. MARCAIS GEORGE : LA BERBRIE Musulmane et L’Orient du Xle au XlVe siècle. 1er Ed, Afrique Orient, Editeur, Maroc, 1991, P194.Mars. Avril1903.
20. Marçais, (G), « L’urbanisme musulman », Cinquième Congrès de laFédération des Sociétés Savantes de l’Afrique du Nord, Tunis,1939, édité àAlger1940.

21. MARÇAIS, G: « Le tombeau de Sidi Okba », in Annales de l'institut d'études orientales, 5, 1939– 1941.
22. Mesange(j): Romanisation de l'Afrique ,Gabriel Beauchesme éditeur, Paris 1913.
23. Mohamed Meouak: les ziban entre Aurès et Sahara une géographie historique de Biskra et de ses oasis du moyen âge à la fin de l'époque moderne, academia Scientiarum Fenica, 2017.
24. Nadir Marouf : Lecture de l'espace oasienne, la Bibliothèque arabe de Sind Bad, 1980.
25. Pierre Morizot : « Regard sur les inscriptions de *Thouda du XVIIIe siècle à nos jours* », *Comptesrendus des séances de l'Académie des Inscriptions et Belles-Lettres*, 154-2 (2010).
26. Ragot M : Recueil des notices et l'histoire de la société archéologique de la province de Constantine. ALGER: ARNOLET, Libraire-Éditeur 1874.
27. Raymond A: islamic city arab city Orientalists myths and recent views british journal of middle eastern studies vol 21 / 1, 1994.
28. RICHTER (M) : les Oasis du Maghreb : typologie et problèmes agro-écologiques, in actes du séminaire : les oasis au Maghreb mise en valeur et développement , c.e.r.e.s, Tunis, 1995.
29. Roger Le Tourneau, Grandeur d'islam de mahomet à François, Paris, la table ronde 1961.

30. Roger Le Tourneau, north a frica in histoirical perspective, dams Gurrent problems in north africa, princeton Univarsity conference, 1959.
31. Said Belguidoum : Urbanisation et urbanité au Sahara, in Méditerranée n 3.4, année 2002.
32. Solognac M: Recherches sur les installations Hydrauliques de – 2 Kairaouan et des steppes tunisiennes du VII em au XI em siecles (J–C) Alger 1953.
33. Trouset(P), « Badias », E.b.,T. IX, 1991.
34. Urbanisation et urbanité au Sahara, in Méditerranée n 3.4, année 2002.

فهارس عامة:

فهرس الآيات:

رقم الصفحة	السورة	الآية
41	سورة الروم: الآية 09.	﴿أَوْ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ ٩
42	سورة الطور: الآية 04.	﴿وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ﴾ ٤
52	سورة الأعراف: الآية 199.	﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾
176	سورة الرحمان: الآية 72	﴿حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ﴾ ٧٢
234	سورة الأنبياء: الآية 30	﴿أَوْ لَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ ٣٠

فهرس الأحاديث:

الحديث أو جزئ منه	رقم الصفحة في البحث
فإذا أبيتم إلا المجالس فأعطوا الطريق حقها، قالوا: "ما حق الطريق." قال: "غض البصر وكف الأذى ورد السلام وأمر بالمعروف ونهي عن المنكر"(1)،	49-48
لو أعلم أنك تنتظرني لطعنت به في عينك	52
إنما جعل الأذن من أجل البصر	52
كل بناء وأشار بيده هكذا على رأسه أكثر من هذا فهو وبال	53

(1) مسلم أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (261هـ): صحيح مسلم، باب النهي عن الجلوس في الطرقات وإعطاء الطريق حقه، تح: أبو قتيبة نظر محمد، دار طيبة، الرياض، السعودية، ط01، 2006م، مج01، ص1018.

فهرسة أهم الأعلام:

- أبا عنان أبي عنان أبو عنان: 50, 51, 101, 110, 113, 148, 177, 196, 203, 204, 211, 271 101, 113, 202, 203, 204, 206
- ابن الحاج النميري: 50, 51, 55, 58, 59, 79, 101, 111, 112, 113, 114, 115, 116, 176, 177, 178, 179, 181, 189, 194, 203, 204, 205, 206, 207, 214
- أبو إسحاق: 46, 149.....
- أبو الحسن: 50, 99, 204, 213.....
- أبي زكريا يحيى: 47, 48.....
- الجرجاني: 27, 118, 218.....
- الحسان بن النعمان: 20, 99.....
- الفضل بن علي: 46, 47.....
- المستنصر: 21, 27, 46.....
- المعز بن باديس: 25, 26, 29, 134, 145, 192.....
- المنصور بن الفضل: 47, 48.....
- المنصور بن مزني: 48, 49.....
- عبد المؤمن بن علي: 45.....
- الناصر بن علناس: 42.....
- اليازوري: 27.....
- بنطيوس: 28, 34, 176, 184.....
- حسن أبي سرحان: 28.....
- سعيد بن أحمد الرياحي: 114.....
- عبد الرحمن الطولقي: 116, 181.....
- عبد الواحد: 36, 37, 47, 49, 99, 101, 231.....
- عثمان بن أحمد الرياحي: 112.....

- عثمان بن عفان: 15, 17.....
- عقبة بن نافع: 25, 42, 44, 45, 17, 19, 21, 94, 95, 99, 128, 129, 130 , 131, 132, 134, 141, 142, 143, 145, 146, 237, 238, 243
- علي بن الحكيم: 115.....
- عمرو بن العاص: 41, 5.....
- عهد عبد الله بن سعد: 42.....
- معاوية بن حدي: 42, 17.....
- مهاجر بن دينار: 45.....
- موسى بن نصير: 20, 89, 90.....
- هلال بن عامر بن صعصعة: 23, 41.....
- يعقوب الرياحي: 51.....
- يعقوب بن علي: 50, 115, 178, 202
- يوسف بن المنصور: 49, 50
- يوسف بن منصور: 50, 51, 113, 202

فهرس أهم القبائل والدول:

- ابن غانية..... 115 .
- أزداجة..... 84 .
- الأثبج..... 108, 109, 110, 111, 112, 113, 117, 120, 126, 169 .
- البربر , 20, 38, 57, 75, 80, 79, 80, 81, 82, 83, 84, 85, 86, 87, 88, 89, 91, 92, 93, 96, 108, 125, 129, 130, 131, 134, 141, 151, 156, 166, 169, 174, 215, 262, 263, 312, 331, 332
- الحضنة..... 28, 57, 67, 73, 121, 154, 160, 264 .
- الدوسن..... 24, 64, 65, 68, 143, 154 .
- الدولة الحفصية..... 112, 120, 124, 126, 131, 293, 367 .
- الدولة الزييرية..... 88, 102, 104, 106, 160 .
- الدولة الفاطمية..... 101, 102, 172 .
- الدولة المرينية..... 13, 119, 276 .
- الدولة الموحدية..... , 12, 114, 115, 118, 119, 188, 350, 367 .
- الذواودة..... , 114 .
- الصحيرة..... , 68 .
- الضحاك..... , 99, 110 .
- العرب , 8, 32, 33, 34, 36, 37, 39, 78, 79, 82, 83, 85, 86, 89, 91, 92, 93, 94, 95, 96, 98, 108, 109, 115, 116, 125, 129, 132, 134, 141, 156, 157, 164, 165, 170, 177, 186, 194, 195, 200, 206, 213, 224, 226, 231, 249, 251, 252, 256, 262, 263, 264, 269, 294, 296, 298, 301, 306, 308, 315, 321, 323, 328, 338, 342, 344, 346

بن هلال.....	109, 113, 114
بنو رياح.....	131, 184
بنو زقراح.....	88
بنو مرداس.....	114
بني خرز.....	89, 90
بني رمان.....	116, 118, 119, 120
بني مزني.....	65, 97, 116, 117, 119, 120, 121, 122, 124, 128, 130
	131, 139, 183, 221, 222, 251, 265, 282, 340, 346, 367
بني هلال.....	98, 102, 103, 108, 109, 113, 114, 117, 123, 129, 171
	210, 262, 263, 268, 273, 316, 326, 333, 334
دريد.....	43, 105, 111, 112, 302
ربيعه.....	109, 113, 114
رياح.....	97, 113, 114, 115, 117, 118, 123, 124, 125, 126, 128, 130
	131, 134, 135, 146, 171, 181, 183, 210, 220, 249, 264, 265,
	269, 273, 275, 276, 277, 278, 282
ريغ.....	18, 63, 126, 203, 335
زغبة.....	104, 105, 106, 114, 115, 125, 298, 347
زناتة.....	85, 86, 87, 90, 117, 129, 131, 133, 141, 154, 172, 263
	264, 269, 271, 318
زنداج.....	88, 89, 90
زواوة.....	86, 91
سدراة.....	89, 90
بني يفرن.....	87, 129
جراوة.....	78, 90, 169, 171
جزولة.....	84
جشم.....	99

جھينة.....	, 92, 251, 340
عجيسة.....	, 84, 174
عدي.....	, 95
عطية.....	, 87, 110, 112, 138, 157, 159, 213, 222, 347
عياض.....	, 110, 121
غمارة.....	, 84
شتمة.....	, 68, 151
صنهاجة.....	, 84, 88, 103, 109, 269, 317, 324
كتامة.....	, 83, 84, 91, 121, 259
كرفة.....	, 111, 112, 126
كومية.....	, 88
لطيف.....	, 111, 117, 120
لمطة.....	, 84
لواتة.....	, 82, 86, 87, 121, 129, 130, 131
فزارة.....	, 117
مديونة.....	, 87
مزاتة.....	, 90
مصمودة.....	, 84
مطاراة.....	, 88
مطاسة.....	, 84
مطماطة.....	, 87, 88
معقل.....	, 125
مغراوة.....	, 87, 89, 90, 133, 172
مغيلة.....	, 87
مقدم.....	, 253, 317
مهاية.....	, 110

مهرة.....	92 ,
نفزاوة.....	63, 87, 88 ,
نفزة.....	86 ,
نقطه.....	63, 64, 256 ,
نفوسة.....	85, 87 ,
أوريغة.....	84 ,

فهرسة أهم المدن والأماكن:

- القلعة..... 55, 183, 259, 260 ,
- القنطرة..... 69, 71, 72, 185, 275 ,
- المسييلة , 55, 56, 57, 58, 59, 60, 61, 64, 88, 89, 109, 115, 127, 137, 158, 160, 161, 166, 172, 173, 174, 234, 240, 253, 257, 331, 336, 337, 338
- أوربة..... 84, 90 ,
- باتنة..... 35, 59, 71, 72, 158, 186, 338, 339, 351 ,
- بادس , 24, 25, 27, 59, 60, 61, 63, 65, 68, 74, 116, 126, 129, 154, 162, 166, 202, 226, 255, 256, 320, 351
- باغاي..... 56, 74, 161, 167, 168, 234, 257 ,
- باغية..... 56, 75, 79, 167, 168, 169, 171, 226, 234, 349 ,
- بجاية , 56, 60, 64, 68, 84, 118, 121, 122, 124, 133, 169, 222, 271, 318
- بسكرة , 17, 18, 24, 26, 34, 48, 55, 56, 60, 61, 63, 64, 65, 67, 68, 69, 70, 71, 73, 83, 89, 90, 108, 109, 116, 117, 119, 120, 121, 122, 124, 125, 128, 130, 134, 150, 151, 152, 153, 154, 155, 156, 160, 162, 165, 171, 191, 197, 198, 200, 209, 210, 211, 215, 216, 218, 221, 222, 226, 232, 233, 239, 242, 248, 250, 251, 252, 256, 257, 258, 259, 261, 273, 274, 317, 318, 321, 322, 324, 325, 327, 333, 334, 335, 336, 337, 338, 344, 346, 348, 350
- بلاد الجريد..... 18, 26, 61, 63, 64, 153 ,
- بوسعادة..... 159 ,
- بوشقرون , 67, 68

- تهودة , 60, 61, 68, 78, 80, 93, 162, 163, 164, 165, 166, 200, 202,
206, 214, 215, 226, 234, 240, 248, 255, 256, 257, 320, 342
خنقة سيدي ناجي..... , 48, 68, 69, 215, 216, 218, 337.....
سيدي عقبة , 21, 47, 68, 78, 162, 165, 202, 204, 206, 207, 209,
210, 213, 215, 216, 217
طبنة , 25, 55, 56, 58, 59, 60, 61, 67, 73, 74, 80, 83, 87, 133, 153,
157, 158, 159, 160, 161, 166, 171, 172, 173, 181, 182, 191,
199, 210, 215, 226, 233, 239, 248, 257, 259, 262, 269, 333,
340, 347, 349
طولقة , 24, 60, 63, 67, 68, 149, 154, 186, 215, 221, 248, 250,
252, 257, 258, 259, 276
غنث..... , 92.....
فرفار..... , 68, 127.....
قسنطينة , 15, 42, 57, 67, 74, 84, 85, 109, 111, 121, 123, 130, 133,
134, 149, 150, 158, 183, 184, 189, 207, 224, 272, 273, 277,
294, 322, 327, 335, 336, 342, 347, 349, 350
ليشانة..... , 67, 68, 250, 259, 345.....
مقرة..... , 57, 60, 67, 127, 128, 166, 167, 191, 277.....
نقاوس..... , 26, 27, 28, 61, 121, 128, 132, 155, 234, 277.....
هواره..... , 83, 84, 86, 90.....
ورفجومة..... , 87, 88.....

قائمة المحتويات:

إهداء.....	
شكر وتقدير.....	
قائمة المختصرات.....	
المقدمة.....	07

الفصل الأول: المجال والمصطلح

1-تعريف الزاب لغة واصطلاحاً:.....	32
1-1 تعريف الزاب لغة:.....	32
1-2 - تعريف الزاب اصطلاحاً:.....	35
2-مفهوم العمران لغة واصطلاحاً:.....	36
2-1 تعريف العمران لغة:.....	39
2-2 تعريف العمران إصطلاحاً:.....	40
3 - العمارة الإسلامية في واحات المغرب الأوسط.....	46
3-1. الملكية العامة.....	48
أ-الشوارع والأزقة:.....	49
ب-السوق والساحة:.....	50
ج-الأسوار والأبواب:.....	51

51	د-المسجد الجامع:
51	2-3. الملكية الخاصة:
54	العمارة الصحراوية لواحاحات المغرب الأوسط:
54	القصر:
55	4-المجال الجغرافي لإقليم الزاب:
69	1-4 الخصائص الطبيعية بالمنطقة:
71	2-4 التطور التاريخي لإقليم الزاب:
71	4-2-1. إقليم الزاب قبل الفتح الإسلامي:
76	-2-42. إقليم الزاب بعد الفتح الإسلامي:

الفصل الثاني: التركيبة الإثنية والاجتماعية لبلاد الزاب

82	1- مجتمع متنوع:
82	1.1. البربر:
87	البرانس:
88	البتري:
94	2-1 العرب:
94	1-2-1. الهجرات العربية لبلاد المغرب وإقليم الزاب:
100	الهجرات الهلالية لبلاد المغرب:
101	نسبهم:

103.....	أسباب الهجرة الهلالية إلى المغرب:
107.....	أعداد المهاجرين الهلاليين إلى بلاد المغرب:
111.....	3-1. القبائل الهلالية ببلاد الزاب:
111.....	قبيلة الأثيج:
113.....	فرع ضحاك:
114.....	قرع لطيف:
115.....	فرع كرفة الأثيج:
116.....	قبيلة رياح:
117.....	قبيلة زغبة:
119.....	قبيلة بني مزني:
127.....	4-1 المولودون:
128.....	2- أثر العصبية القبلية في تشكل المجتمع ببلاد الزاب:
131.....	3- التوازن القبلي وتغير البنية الاجتماعية لبلاد الزاب بعد الهجرات الهلالية:
135.....	4- استقرار وتوسع الجماعات الهلالية ببلاد الزاب خلال القرن السادس هجري:
136.....	5- المجتمع الهلالي من الغزو إلى الاندماج الاقتصادي ببلاد الزاب:
138.....	6- الحياة الاجتماعية ببلاد الزاب:
139.....	1-6 مجتمع غير مستقر (رعوي):
142.....	2-6 العمران البدوي:

144..... 6-3 مجتمع بدوي مستقر (زراعي):

147..... 6-4 مجتمع مستقر (سكان الحضر):

الفصل الثالث: المنشآت والمرافق المدنية والدينية

151..... 1- نشأة وتطور المدن الصحراوية بلاد الزاب:

153 2- مدن والحواضر بلاد الزاب وعمارتها:

153..... 2-1 مدينة بسكرة:

160..... 2-2 مدينة طبنة:

165..... 2-3 مدينة تهودة:

169..... 2-4 مدينة مقرة:

170..... 2-3 مدينة باغية - باغية - باغية:

175..... 2-4 مدينة المسيلة:

177..... 3- المنشآت المدنية ببلاد الزاب:

178..... 3-1 القصور ببلاد الزاب:

179..... أ- مفهوم القصر:

179..... - القصر لغة:

179..... - القصر اصطلاحاً:

184..... ب- قصر عثمان بن علي بن أحمد بن رياح:

187..... ج- قصر باينة:

188.....	د- قصر القنطرة:
189.....	هـ- قصبة طولقة:
190.....	4- المرافق الخدماتية والدينية ببلاد الزاب:
190.....	1-4 الأسواق:
195.....	2-4 الفنادق:
197.....	3-4 الحمامات:
201.....	5- المشآت الدينية:
201.....	1-5 المساجد:
203.....	أ- مسجد سيدي عقبة:
203.....	- موقعه:
203.....	- نسبه:
210.....	- الدراسة الأثرية لجامع سيدي عقبة:
210.....	1بيت الصلاة:
212.....	مسجد سيدي موسى الخذري:
215.....	2-5 الأضرحة:
217.....	ضريح سيدي عقبة:
220.....	غرفة الضريح:
222.....	3-5 الزوايا:

- أ- الزاوية لغة: 222.....
- ب- الزاوية اصطلاحاً: 222.....
- 6- الأرباض: 226.....

الفصل الرابع: المجتمع والسلطة وأثرها في قيام وخراب عمران الزاب

- 1- أثر المجتمع في قيام العمارة ببلاد الزاب: 231.....
- أ- شروط نشأة مدن الزاب: 231.....
- سعة الماء وطيب الهواء: 231.....
- الأحكام الإسلامية في حقوق التصرف وطرق استغلال الماء: 238.....
- الأرض الصالحة للزراعة: 240.....
- المحطب القريب: 243.....
- الأمن: 244.....
- 2 - أثر الصراعات السياسية في بناء العمارة الحربية: 246.....
- 1-2 المنشآت الحربية: 249.....

250.....	الحصون والأربطة:
252.....	حصن الوطاية:
252.....	حصن فلق:
253.....	حصن فرفر:
253.....	حصن ليشانة:
254.....	حصن أوماش:
255.....	حصن بشر:
255.....	قصبه طولقة:
255.....	ب- الأسوار:
257.....	ج- الخندق:
261.....	د- المداخل الأبواب:
262.....	هـ- الأبراج:
263.....	3- أثر المجتمع الهلالي في العمارة:
269.....	4- الصراع السياسي وأثره في خراب العمران ببلاد الزاب:
269.....	4-1 الصراعات القبلية وأثرها في خراب العمران:
275.....	4-2 أثر الزحف المريني في خراب العمران بلاد الزاب:
283.....	خاتمة:

287.....	الملاحق:
295.....	قائمة المصادر والراجع.
359.....	فهرسة الآيات والأحاديث:
361.....	فهرسة أهم الأعلام:
363.....	فهرسة أهم القبائل والدول:
367.....	فهرسة أهم المدن الأماكن:

ملخص الأطروحة:

أطروحة دكتوراه

العمران والمجتمع في واحات المغرب الأوسط (الزاب نموذجاً) من القرن 6هـ/12م إلى القرن 9هـ/15م

الطالب: رسيوي عبد الله

تخصص: تاريخ بلاد المغرب الوسيط

ملخص الدراسة:

تندرج هذه الدراسة ضمن البحوث التاريخية التي تهدف إلى استكشاف العلاقة التفاعلية بين العمران والمجتمع في واحات المغرب الأوسط، متخذة من إقليم الزاب نموذجاً خلال الفترة الممتدة من القرن السادس إلى القرن التاسع الهجري (12م-15م). تنطلق الدراسة من أن العمران يعد انعكاساً مادياً لحركية المجتمع وتحولاته، بينما يشكل المجتمع المعمر الفعلي لهذا الفضاء، خاصة في ظل التغيرات العميقة التي أحدثها التعريب بفعل استقرار القبائل الهلالية الوافدة واستقرارها بهذا المجال بعد التجاذب مع الجماعات المحلية البربرية.

وتبرز الدراسة أثر هذا التداخل في نشوء كيانات سياسية جديدة، متمثلة في إمارات بني مزني ورياح، التي أعادت تشكيل المشهد السياسي والاجتماعي للزاب، مبنية على علاقات الولاء الظرفي مع القوى الكبرى لخدمة مصالحها، بدءاً من الدولة الموحدية إلى الدول الثلاث المشكلة لبلاد المغرب والمتمثلة في الدولة الحفصية، الزيانية، والمرينية، مستفيدة من مراحل الرخاء لبناء عمراني متميز بعد انتقالهم من البداوة إلى الحضر.

غير أن هذا الاستقرار لم يكن دائماً، إذ شهدت بلاد الزاب موجات من التدهور العمراني نتيجة الصراعات بين القبائل الهلالية والسلطات الحاكمة، ويعد خراب الزاب إثر حملة السلطان المريني أبي عنان من أبرز الأمثلة على الأثر المدمر للصراع السياسي على العمارة المحلية. وتخلص الدراسة إلى أن التفاعلات بين البنية القبلية والتحولت السياسية ساهمت في تشكيل ملامح عمران خاص بالزاب، مما أدى في النهاية إلى تدمير وتخريب معالم أثرية كانت تؤرخ لنمط معيشي لقبائل وصفت بالمخرية.

A Doctoral Thesis**Urbanism and Society in the Oases of Central Maghreb (theZab as a Model) From the 6th Century AH (12th AD) to the 9th Century AH (15th AD)****Student:** RECIOUI Abdellah**Specialization:** The History of Central Maghreb**Abstract**

This study falls into historical researches which aim at discovering the interactive relationship between urbanism and society in the oases of Central Maghreb, using the Zab region as a model during the period from the sixth to the ninth century AH (12 AD- 15 AD). The study departs from that urbanism is regarded as a physical reflection of the movement of the society and its transformations; while the society is the actual occupant of this space, especially amid the deep changes brought about by Arabization due to the settlement of the theBanuHilal expatriate tribes after tensions with the local Berber groups.

The study highlights the effect of this overlap in the emergence of new political entities, represented by the Emirates of BanuMuzni and Riyah, which reshaped the Zab's political and social scenes, based on relations of circumstantial allegiance to major powers in order to serve their interests, starting from Almohad state to the three states constituting the Maghreb , namely the Hafsid, Zayyanid and Marinid states; benefiting from the stages of prosperity for a distinguished urban construction after their transition from nomadism to civilization.

However, this settlement was not permanent because the land of Al-Zabwitnessed waves of urban deterioration as a result of conflicts between the BanuHilal tribes and the ruling authorities. The ruin of the Zab after the attack of the Marinid Sultan Abu Inan is regarded among the most prominent examples of the destructive effect of the political conflict on the local architecture. The study finds that the interactions between the tribal structure and political transitions contributed to shaping features of an urbanism specific to the Zab, which eventually led to destroying and ruining monuments that chronicled a lifestyle of tribes described as subversive